



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

**المؤثرات الحضارية المتبادلة بين حضارات الشرق الأدنى القديم
والحضارة الإغريقية في الألف الأولى قبل الميلاد
(الرافدية، المصرية، الكنعانية-الفينيقية)**

رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير الأكاديمي في التاريخ القديم

إعداد

جمانة محمود صالح

إشراف

د. عبدالله السليمان

العام الدراسي

2025 / 2024

إلى رفيق دربي الذي شاركني السهر والانتظار

إلى الكتف الذي أستند عليه عند الصعاب

زوجي الحبيب

إلى من علمني الصبر والاجتهاد في كافة مناحي الحياة

إلى من كانت دعوتها سلاحي في وجه المصاعب

أمي الحبيبة رحمها الله تعالى

إلى من أرسى قواعد الخلق الكريم وكيفية كبح زمام النفس

إلى نور دربي الذي من علمني الإصرار والصبر

أبي الموقر رحمه الله تعالى

لا يفوتني أن أرفع أسمى آيات الشكر والامتنان إلى أستاذي القدير ومشرفي العزيز

الدكتور خليل سارة

الذي لم يبخل يوماً بدعمه وتشجيعه وإيمانه بقدراتي طوال فترة إعداد البحث سائلاً الله له الصحة والعافية والبركة.

والشكر للدكتور

عبد الله سليمان

على ملاحظاته الدقيقة التي أثرت البحث والشكر على قبوله متابعة الإشراف على بحثي إيماناً منه بقدراتي العلمية.

الشكر والعرفان إلى لجنة الحكم الموقرين والأساتذة القديرين على ملاحظاتهم القيمة التي ساهمت في إغناء البحث علمياً.

قائمة المحتويات

رقم الصفحة	المحتويات
و	ملخص الرسالة باللغة العربية
1	مقدمة
الفصل الأول: المؤثرات الحضارية المتبادلة بين حضارة بلاد الرافدين والحضارة الإغريقية	
7	تمهيد
10	أولاً. المجال السياسي
22	ثانياً. المجال العلمي
39	ثالثاً. المجال الأدبي
الفصل الثاني: المؤثرات الحضارية المتبادلة بين الحضارة الكنعانية (الفينيقية) والحضارة الإغريقية	
60	تمهيد
63	أولاً. المجال السياسي
77	ثانياً. المجال العلمي
93	ثالثاً. المجال الاقتصادي
112	رابعاً. مجال العمارة والفنون
الفصل الثالث: المؤثرات الحضارية المتبادلة بين الحضارة المصرية والحضارة الإغريقية	
117	تمهيد
120	أولاً. المجال السياسي
131	ثانياً. المجال العلمي
160	ثالثاً. المجال الاقتصادي
170	رابعاً. المجال الديني
180	خامساً. مجال العمارة والفنون
الفصل الرابع: أثر المستعمرات الإغريقية في آسيا الصغرى في الألف الأولى قبل الميلاد	
192	تمهيد
195	أولاً. الموقع الجغرافي
195	1. حوض البحر الأبيض المتوسط
201	2. سلسلة جبال اليونان
203	3. أثر الموقع الجغرافي على المواطن الإغريقي
208	ثانياً. المجال السياسي
216	ثالثاً. المجال الاقتصادي
222	رابعاً. المجال الاجتماعي
232	النتائج العامة
233	■ خاتمة
234	■ قائمة بأسماء المصادر والمراجع
247	■ قائمة الملاحق

قائمة الخرائط

248	الخريطة رقم 1 موقع بلاد ما بين النهرين
249	الخريطة رقم 2 حدود فينيقيا في حقبة تل العمارنة
250	الخريطة رقم 3 حدود فينيقيا الجغرافية
251	الخريطة رقم 4 الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية
252	الخريطة رقم 5 نهر النيل في مصر القديمة
253	الخريطة رقم 6 موقع اليونان والجزر التابعة لها في آسيا الصغرى

ملخص البحث باللغة العربية:

المؤثرات الحضارية المتبادلة بين حضارات الشرق الأدنى القديم والحضارة الإغريقية خلال

الألفية الأولى قبل الميلاد (بلاد الرافدين، الكنعانية-الفينيقية، المصرية)

الفصل الأول المعنون بالمؤثرات الحضارية المتبادلة بين حضارة بلاد الرافدين والحضارة الإغريقية خلال الألف الأولى قبل الميلاد تحدثت الباحثة عن أولى المراكز الحضارية في العالم وهي حضارة بلاد ما بين النهرين التي ظهرت في 3500 ق.م وموقعها حالياً في العراق وجزء من سورية؛ بين نهري دجلة والفرات، وحددت موقعها الجغرافي وحدودها وأصول السكان فيها وتناولت القضايا التي اختلف حولها الباحثين كأصل حضارة المنطقة وأصول السكان، ثم تطرقت إلى النظام السياسي الذي ابتكر فيها وهو نظام دويلات المدن الديمقراطي وذكرت أسباب انتشاره ومميزاته، وكيفية انتقاله إلى بلاد الإغريق رغم أقول حضارة ما بين النهرين عند ازدهار الحضارة الإغريقية، وذكرت الباحثة القانون الذي كان سائداً في بلاد ما بين النهرين والذي عدّ أول تشريع عالمي والمادة الأولى لإنتاج القوانين في كل العالم. ثم انتقلت الباحثة للحديث عن المجال العلمي الذي برع به علماء المنطقة في مجال الفلك والتنبؤ والسحر الذي كان علماً عظيماً آنذاك وكيفية ربطه بالدين وبقية العلوم لا سيما الطب والفلك، وذكرت أهم الاكتشافات العلمية كالتقاويم التي أضحت أنموذجاً لتقاويم الحضارات واستخدام النظام العشري والستيني الذي ما زال مستخدماً حتى يومنا هذا وابتكارهم الكتابة المسمارية، وأهم القوانين والنظريات الفلكية والرياضية والهندسية التي نهل منها علماء الإغريق وكانت جوهر أبحاثهم، وسلطت الضوء على الابتكارات التي اكتشفت في بلاد ما بين النهرين وكيفية انتقالها إلى بلاد الإغريق وإلى بقية الحضارات المجاورة. وفي النهاية أسهبت الباحثة في الحديث عن الإنتاج الأدبي لحضارة ما بين النهرين الحضارة الباكرا التي أنتجت شعراء وأدباء نابغين استطاعوا تأليف ملاحم أدبية وأساطير كانت نواة التراث الأدبي لحضارات العالم.

بينما تحدثت الباحثة في الفصل الثاني المعنون المؤثرات الحضارية المتبادلة بين الحضارة الكنعانية-الفينيقية والحضارة الإغريقية خلال الألف الأولى قبل الميلاد حيث تحدثت عن موقع الحضارة الكنعانية وحدودها الجغرافية وسبب تسميتها بالفينيقية وذكرت أصول السكان في المنطقة، ثم تطرقت إلى الإنجازات على المستوى السياسي من خلال انتشار نظام دويلات المدن الذي أخذوه من حضارة ما بين النهرين ونقلوه إلى الإغريق وتحدثت عن أسباب انعزال المدن الكنعانية عن بعضها، ثم انتقلت للحديث عن الإنجازات العلمية للفينيقيين في مجالات الطب والفلك والحساب والهندسة وابتداع الأساطير الدينية التي كانت نواة الأساطير الإغريقية لا سيما شجرة الآلهة الكنعانية وابتكار أول أبجدية في العالم وهي أبجدية أوغاريت التي انتقلت إلى بلاد الإغريق عن طريق الأمير الفينيقي قدموس. وسلطت الباحثة الضوء على المجال الاقتصادي الذي برع به الفينيقيون كونهم كانوا تجاراً في البحر يسعون للاستيطان على سواحل البحر الأبيض المتوسط للحصول على المواد الخام ومن أجل بيع منتجاتهم الصناعية التي برعوا بها كالصباغ الأرجواني والخزف والفخار والأقمشة النسيجية. واختتمت الفصل بالحديث عن الفن والعمارة الفينيقية والتي انتشرت على سواحل البحر الأبيض المتوسط وعلى جزره لا سيما في كريت وقبرص وسواحل سيبيريا الصغرى.

وبينما ركزت في الفصل الثالث المعنون بالمؤثرات الحضارية المتبادلة بين الحضارة المصرية والحضارة الإغريقية خلال الألف الأولى قبل الميلاد على موقع حضارة وادي النيل وحدودها الجغرافية وأصول السكان، ثم انتقلت للحديث عن إنجازات حضارة وادي النيل على المستوى السياسي من حيث نوع نظام الحكم الملكي وأسباب وحدة واستقرار مصر والاحتكاك السياسي بين المصريين القدماء والإغريق على كافة العصور من العصر الفرعوني إلى الصاوي وصولاً إلى عصر الإسكندر المقدوني وخلفائه البطالمة. ثم سلطت الضوء على المجال العلمي الذي برع به علماء مصر القديمة في علوم الفلك والرياضيات والهندسة والطب وابتداع التقاويم الفلكية والنظام العشري والفلسفة التي كانت نواة العلم اليوناني والفلسفة اليونانية. ثم تحدثت عن الوضع الاقتصادي في مجال الزراعة والصناعة التي أتقنها المصريون والتجارة وسلطت الضوء على وجود مستوطنات تجارية إغريقية في مصر منذ العصر الصاوي والتي كان لها أثراً إيجابياً في الاحتكاك الحضاري المصري-اليوناني. وركزت الباحثة على المجال الديني والمعتقدات

الدينية المصرية التي أثرت على الحضارة الإغريقية بصورة كبيرة سواء في الآلهة وأسماءهم وأساطيرهم حتى في صورة الأبطال المصريين الذين انتقل صداهم إلى بلاد الإغريق سيما وأن الإغريق قد عصفت بها أزمات سياسية واقتصادية فوجدوا فراغاً كبيراً في آلهتهم فالتجأوا إلى الآلهة الشرقية لا سيما المصرية. وتحدثت الباحثة عن براعة المصريين في البناء والعمارة التي ما تزال آثارها شاهدة على خبرتهم الحرفية وبراعتهم العلمية في البناء والتصميم.

وفي الفصل الأخير المعنون بأثر المستعمرات الإغريقية في آسيا الصغرى خلال الألف الأولى قبل الميلاد التي تحدثت فيها الباحثة عن الموقع الجغرافي للبحر الأبيض المتوسط بحوضيه الشرقي والغربي، والموقع الجغرافي لسلسلة جبال اليونان وأثر هذا الموقع على المواطن الإغريقي بدنياً وعقلياً واقتصادياً واجتماعياً، ثم تحدثت عن المجال السياسي من خلال التطرق إلى نظام الحكم السياسي الاستبدادي والذي أثار الثورات الشعبية بسبب الأزمات الاجتماعية التي افتعلها حيث أودى بالناس إلى الفقر والمجاعات فبدأ الإغريق بالهجرة من بلادهم والاستيطان على سواحل آسيا الصغرى ودلتا النيل فاحتكوا بشعوب الشرق الأدنى وتعلموا منهم منجزات حضارية كثيرة منها نظام الحكم الديمقراطي القائم على دويلات المدن، ونهلوا من علومهم ومعارفهم وبالتالي كيفية تأثير الإغريق بالشرق من خلال مستوطناتهم التي كانت في البداية مستوطنات تجارية ثم أضحت مستوطنات سياسية انطلقت منها شرارة الوحدة بين الشرق والغرب والتي كانت نتيجتها تأسيس إمبراطورية ضمت جميع هذه الحضارات بقيادة الإسكندر المقدوني أو ما يسمى بالحضارة الهيلينية.

مقدمة

إنَّ ظهور أي حضارة إنسانية لا تقتصر على ابتكاراتها الفكرية والمادية وإنما هي عملية تأثر وتأثير بين الحضارات السابقة والحضارات اللاحقة، فلا بد لأي حضارة إنسانية من اقتباس منجزات الحضارات السابقة والاعتماد على علومها ومعارفها، ومن ثم صقلها بما يتناسب وأفكارها وتقاليدها الاجتماعية والإضافة عليها. وفي الواقع إن أثر الحضارات الإنسانية لا يتوقف عند حدودها الجغرافية وإنما يتعداها إلى مناطق أوسع، ويرتبط ذلك بمقومات أساسية كالقوة السياسية والاقتصادية فكلما كانت الحضارة أكثر قوةً واستقراراً وتمتعت بأخلاق سامية كلما سارعت منجزاتها الحضارية بالانتشار والتوسع.

لقد حظيت حضارات الشرق الأدنى القديم لا سيما (الحضارة الرافدية والحضارة الكنعانية وحضارة وادي النيل) باهتمام واسع لدى العلماء والمؤرخين بسبب سبق ظهورها في فترة باكراً أولاً، ولما تميزت به من عطاءات وإنجازات ثقافية وفكرية ثانياً حيث كانت هذه الإنجازات لا حدود لها عجز الإنسان المعاصر عن تقليدها ومحاكاتها ومعرفة أسرارها حتى يومنا هذا حتى أضحت مثلاً للراقي والتحضر، وأنموذجاً يستند إليه الباحثين في كتابة أبحاثهم ومؤلفاتهم. وإن هذه الحضارات التي سعت عبر نشر عطاءاتها إلى تقدم وتحضر الكثير من الحضارات اللاحقة كالحضارة الإغريقية والرومانية اللتين كانتا أساس تطور الحضارات الأيوبية، وعندما أصبحت الكفة الراجحة في يد اليونان وأصبح الإغريق سادة البحار لم يتوانوا عن تقديم إنجازاتهم الحضارية للعالم الشرقي فالحضارة التي نشأت في بابل وأوغاريت وصور ومصر والتي قدمت عطاءً غير محدود للإغريق عاد فضلها ليسكب من جديد في قعر دارها بعد ازدهار الحضارة الإغريقية في عصر الإسكندر المقدوني وخلفائه السلوقيين والبطالمة.

ولا بد من الإشارة إلى أهمية الموقع الجغرافي لحضارات الشرق القديم هذه المنطقة المباركة التي خصها الله بعطاياه فهي بلد الأنبياء والرسول ومهد الديانات السماوية من آدم إلى محمد عليهما السلام، وهي أرض الإيمان والنور والعلم فقد تميز شعبها بالفطرة السلمية والذكاء وتمتعوا بقدرات ذهنية مذهشة استطاعوا ابتكار إنجازات عظيمة تدل على تطورهم وتحضرهم، وقد ساهم المناخ في قدح عقولهم وزيادة نشاطهم وحُبهم للمغامرة والاستكشاف في وقت كانت بقية الشعوب تسيطر عليها الخرافات والأساطير وترتعد فرائصها من ركوب البحر ومن تفسير الأمراض بصورة

علمية صحيحة تستند إلى المنطق والعقل. ولقد سعى سكان هذه الحضارات إلى تفسير خلق الكون بأسلوب أسطوري جميل تتقبله كل نفس مهما اختلف الزمان، واستطاعوا تأليف الملاحم الأدبية التي اعتلت عرش الإنتاج الأدبي إلى وقتنا الحالي، ومنها نهل سكان حضارات العالم إنتاجهم الأدبي والفكري.

ولأن معظم الدراسات والأبحاث تهتم بالجانب السياسي والاقتصادي؛ لذا رغبت الباحثة في الحديث عن الدور الحضاري لشعوب الشرق الأدنى لا سيما المنطقة الممتدة من نهر الفرات إلى نهر النيل ومحاولة تسليط الضوء على منجزاتها، وكشف الغطاء عن أصول الحضارة الإغريقية التي حظيت بثلة تنادي بالمعجزة الإغريقية وتقردها وزعمهم اعتمادها على ذاتها دون الأخذ بمنجزات حضارات الشرق الأدنى القديم فكان لا بد من التصدي لمزاعمهم.

أما المجال الزمني للبحث: خلال الألف الأولى قبل الميلاد حيث شهدت هذه الألفية ازدياد احتكاك حضارات الشرق الأدنى القديم بالحضارة الإغريقية التي ازدهرت وبدأ نشاطها البحري والتجاري ليكونوا خلفاء في ذلك من بعد الفينيقيين على سواحل البحر الأبيض المتوسط ودول آسيا الصغرى وبحر إيجة، وشهدت هذه الحقبة أيضاً تطوراً واضحاً في العلاقات الشرقية-الإغريقية، وفي العلاقات المصرية-الإغريقية منذ الفترة الباكورة وحتى العصر الهيلينستي.

والمنهج المتبع في البحث: المنهج التاريخي العلمي في تحليل المعلومات وتفسيرها بشكلٍ علمي وموضوعي بعيداً عن الميول والعواطف وبالاستناد إلى النصوص التاريخية الموضوعية والكشوف الأثرية، ووصف الأحداث السياسية وطرق التأثير بالحضارات الأخرى ومقارنتها بالوقائع والأدلة والبراهين. وقد وجدت الباحثة صعوبة بسبب اعتناق غالبية الباحثين والمؤرخين قضية المعجزة الإغريقية والنزعة العنصرية التي غلبت على كتاباتهم وإنكار دور حضارات الشرق الأدنى القديم رغم سبقها الزمني وفضلها في ابتكار الكثير من الإنجازات الحضارية التي مازالت تستخدم حتى يومنا هذا

مشكلة البحث

كانت من خلال محاولة الباحثة تسليط الضوء على حضارات الشرق الأدنى القديم وإنجازاتها الحضارية في جميع المجالات، وتأثيرها وتأثرها بالحضارة الإغريقية المجاورة، والبحث في عوامل ظهور الحضارة الإغريقية وتطورها والأسباب التي ساهمت في نموها وانتشارها، إضافةً إلى مناقشة وجهات النظر لبعض الباحثين والمفكرين حول أصول الحضارة الإغريقية فمنهم من ينسب أصولها إلى الحضارات الشرقية القديمة، ومنهم من ينادي بالتفوق العنصري للإغريق وقدرتهم على تطوير أنفسهم دون الأخذ من الحضارات المجاورة والتأثر بها.

أما أهداف البحث: يهدف البحث إلى التعريف بحضارات الشرق الأدنى القديم (حضارة بلاد ما بين النهرين، والحضارة الكنعانية-الفينيقية، والحضارة المصرية القديمة)، ودور كل منهم في ابتكار المنجزات الحضارية والفترة الزمنية التي ازدهرت بها، وذكر العوامل التي ساهمت في تقدمها وتطورها من خلال مناقشة الأسباب الجغرافية والسياسية والاجتماعية والدينية، وتوضيح المؤثرات الحضارية الشرقية التي ساهمت في تطور الحضارة الإغريقية، إضافةً إلى إبراز أهمية الحضارة الإغريقية ودور المستوطنات الإغريقية التي انتشرت على سواحل آسيا الصغرى في نقل الحضارة الإغريقية وانتشارها في سواحل البحر المتوسط من خلال ذكر أثر الموقع الجغرافي على العقلية اليونانية ومدى تطور أنظمتها السياسية، وطرح وجهات النظر المختلفة حول أصول الحضارة الإغريقية وذلك باتباع أسلوب الموضوعية والاستناد إلى الأدلة والبراهين في ذلك.

وتكمن أهمية البحث: كونه يبحث في عوامل تقدم حضارات الشرق الأدنى القديم سائلة الذكر، ودورها في نقل المظاهر الحضارية إلى اليونان وآسيا الصغرى وسواحل البحر المتوسط الغربية، وتصحيح وجهات النظر السلبية تجاه النظم السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية التي كانت سائدة في منطقة الشرق الأدنى وكيفية تطورهما عبر الزمن، ويعدّ البحث مهماً أيضاً كونه أثار بعض الباحثين بسبب اختلافهم حول أصول الحضارة الإغريقية، ولجوء البعض إلى التعتيم على الدور الكبير لحضارات الشرق الأدنى القديم وما قدمته للحضارة الإغريقية من ابتكارات ومنجزات حضارية أثرت فيها في المجالات كافة، وذكر أسباب تطور الحضارة الإغريقية، وكشف القناع

عن أصولها لا سيما بعد التأكد من صحة الأبحاث والتيارات التي تنادي بدور الحضارات الشرقية القديمة في تطورها والأبحاث المناقضة لها التي تنادي بأصولية الفكر الإغريقي وتطوره دون نهله من أي حضارة أخرى.

الدراسات السابقة:

1. أ.د. خليل سارة: في بحثه (الأصول المشرقية للحضارة الإغريقية) في مجلة الأدب العلمي الصادرة عن جامعة دمشق، والذي اتسم كونه دراسة تاريخية وعلمية ناقش فيها أصول الحضارية الإغريقية بالاستناد إلى المنجزات الحضارية الشرقية، واعتمدت على الموضوعية في طرح الأفكار ومناقشتها، واستندت إلى المصادر الأصلية لتاريخ الإغريق من خلال كتب (أرسطو، وأفلاطون، وبلوتارخ، وهيرودوت)، وركز الأستاذ الدكتور فيها على أثر الحضارة المصرية في حضارة الإغريق التي أدت إلى ازدهار الحضارة الإغريقية بالارتكاز على الأسباب الجغرافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. وتعدّ دراسة موسعة وفيها الكثير من المعلومات الغنية.

2. مارتين برنال: في كتابه (أثينا السوداء) الذي يتحدث فيه عن الجذور الآسيوية والأفريقية للحضارات الكلاسيكية لا سيما الحضارة الإغريقية، وعن تاريخ اليونان القديم، ونقد فيها وجهات نظر بعض العلماء الأوروبيين المتحيزة والجاحدة لفضل حضارات الشرق الأدنى القديم ودورها في نقل المنجزات الحضارية إلى آسيا الصغرى واليونان، وبين حقيقة العلوم وأصولها الشرقية.

3. د. محمود محمد: في كتابه (الأصول الشرقية للعلم اليوناني) الذي تحدث من خلاله عن ملامح النهضة العلمية في حضارات الشرق القديم، وذكر التاريخ السياسي في مصر القديمة وبلاد الرافدين والذي ساهم في جعل هذه المناطق قوى سياسية عالمية آنذاك مما ساهم في نقل الحضارة المصرية القديمة وحضارة بلاد الرافدين إلى العالم، وتطرق إلى العلاقات الثقافية والتجارية بين الشرق والغرب الذي كان له الدور الأكبر في نقل الحضارات وتأثيرها ببعضها البعض، وناقش موقف الغربيين من فكرة الأصول الشرقية للعلم اليوناني، وسلط الضوء على الموقع الجغرافي لليونان وأثره في تطور وتقديم حضارتها.

4. د. محمد الصغير غانم: في كتابه (التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط) والذي ركز فيه على التعريف بالحضارة الفينيقية وأصول الفينيقيين وحدود فينيقيا الجغرافية، وذكر المنجزات الحضارية للفينيقيين في كافة المجالات، إضافةً إلى دورهم في نقل الحضارة الفينيقية إلى آسيا الصغرى وسواحل البحر المتوسط واحتكاكهم بالإغريقين، والعوامل التي دفعتهم للإبحار نحو الحوض الغربي للمتوسط وإنشاء مستوطنات فينيقية كانت مراكز إشعاع حضاري في ذلك الوقت. لكنه لم يتحدث إلا عن الحضارة الفينيقية فقط.

5. عبد الحق مسعي: في بحثه المقدم لنيل شهادة الدكتوراه (المؤثرات الحضارية الإغريقية في المغرب القديم) في جامعة الجزائر والذي تحدث فيه عن الوجود الإغريقي في المغرب القديم، والمؤثرات الحضارية المتبادلة بين الإغريق والمغرب القديم ويقصد (الفينيقيين في المغرب حيث وجدوا في الجزء الغربي من البحر المتوسط بمستوطنات كثيرة كان أهمها قرطاجة)، إضافةً إلى ذكر العلاقات السياسية والتجارية والمظاهر الدينية المتشابهة بين الحضارتين من خلال الأسماء والطقوس والأعمال الفنية. لكنه لم يتطرق إلا إلى الحضارة الفينيقية في القسم الأفريقي.

6. رفاة الدباغ: في بحثها المقدم لنيل شهادة الدكتوراه في جامعة دمشق (التأثيرات الحضارية المتبادلة بين الحضارة الفينيقية والإغريقية) والتي تحدثت فيها عن الإنجازات الحضارية للفينيقيين على مستوى الدين والفكر واللغة والفن، وسعت للكشف عن أصول العلم الإغريقي ذي الجذور الفينيقية، وأسهمت في الحديث عن المستوطنات الفينيقية المنتشرة على سواحل البحر المتوسط، وركزت على الفكر الديني الفينيقي الذي أثر بصورة كبيرة على الفكر الإغريقي. لكنها لم تتحدث إلا في مجالات محددة للحضارة الفينيقية.

الفصل الأول: المؤثرات الحضارية المتبادلة بين حضارة بلاد الرافدين

والحضارة الإغريقية خلال الألف الأولى قبل الميلاد

العنوان	رقم الصفحة
تمهيد	7
أولاً. المجال السياسي	10
ثانياً. المجال العلمي	22
ثالثاً. المجال الأدبي	39

تمهيد

يتمتع موقع بلاد الرافدين بأهمية جغرافية واستراتيجية من حيث موقعه القريب من البحر المتوسط في الغرب من قارة آسيا، ويعدّ الجسر البري الذي يربط القارات القديمة (آسيا، أفريقيا، أوربا) ببعضها البعض، ويشمل السهول الخصبة الممتدة بين نهري دجلة والفرات والتي تقع غالبيتها اليوم في العراق انظر الشكل رقم (1)، وعُرف لاحقاً بأنه جزء من (الهلال الخصيب) هذا المصطلح الجغرافي الذي أطلقه عالم الآثار الأميركي جيمس هنري برستد على حوض نهر الفرات ودجلة وساحل بلاد الشام؛ لخصوبة أراضيها بفضل نهري دجلة والفرات اللذان ينبعان من هضبة أرمينيا ويخترقان العراق من حدوده الشمالية وصولاً إلى حدوده الجنوبية ليصبان في الخليج العربي، أما موقع العراق الحالي فإنه يمتد بين خطي "عرض 30-37 شمال خط الاستواء وبين خطي طول 38-48 شرق غرينتش"1 ولا بد من الإشارة هنا إلى أن مصطلح بلاد الرافدين لم يطلق على العراق بأكمله وإنما على أجزاء محددة منه حيث اختلفت حدود هذا البلد من زمن إلى آخر، وعُرف قديماً باسم (ميزوبوتاميا) وهو مصطلح جغرافي إغريقي حيث ورد هذا المصطلح في كتاب "المؤرخ بوليبيوس في القرن الثاني ق.م والمؤرخ سترابون في القرن الأول ق.م وكان يقصد به سهول دجلة والفرات الممتدة من شمال العراق إلى بغداد"2، وعُرف لدى الكتاب والمؤرخين القدماء باسم الحضارات التي نشأت فيه كبلاد سومر وبلاد آشور وبلاد بابل حيث قسمت بلاد الرافدين حضارياً إلى ثلاثة أقسام: سومر في الجنوب -وتعني كلمة سومر جهة الجنوب- وأكاد وبابل في الوسط، وآشور في الشمال. أما الروس فقد أطلقوا عليها لقب "بلاد ما بين الرافدين"3، وذكرت أيضاً بلاد الرافدين في العهد القديم باسم (أرام نهرايم)4، وكلمة أرام في اللغات السامية تعني أرض أو بلد ونهرايم تعني نهريْن فتصبح بلاد النهرين، أما بالنسبة لسكان العراق أنفسهم فلم يطلقوا مصطلح جغرافي على القطر بأكمله وإنما اتخذت كل مدينة اسم لا سيما في عصر فجر السلالات حيث ظهرت دويلات المدن مثل سومر وأكاد وبابل وآشور وتطورت لاحقاً لتتسع حدودها وتصبح إمبراطوريات مترامية الأطراف. أما حدود بلاد الرافدين فقد وصفها الجغرافي سترابون بدقة حيث

1 د.الصالح، صلاح، بلاد الرافدين، 2017، ط1، ج1، بغداد، ص20

2 د. الدباغ، تقى، موسوعة حضارة العراق، بيروت، ط1، 2011، دار النفائس، ص15

3 ماتيف، ك، سazonوف، أ، حضارة ما بين النهرين، ترجمة: د.حنا آدم، 1991، دمشق، مطبعة دار المجد، حضارة ما بين النهرين، ص7

4 العهد القديم، التوراة، التكوين، اصحاح 10:24، وأيضاً انظر: د.الدباغ، تقى، سابق، ص15

قال: يحد أرض الفالبيين (البابليين) شرقاً أرض أهل سوسة والإليمون، وجنوباً الخليج الفارسي والخالديون (الكلدانيون) حتى العرب الميسيني وغرباً العرب السكينينيون (سكان الخيام) وشمالاً يحدها الأرمينيون والميديون حتى إقليم زاغروس⁵، وحدد موقعها الجغرافي القديم أيضاً مؤكداً أن بلاد ما بين النهرين شملت سهول الفرات ودجلة فقط حيث قال: تقع بلاد ما بين النهرين بين إفراتوس (الفرات) وتيغريس (دجلة) إذ إن تيغريس يجري من الجهة الشرقية فقط بينما الفرات يغمر الجهتين الغربية والجنوبية⁶.

اتصفت بلاد الرافدين بتنوع المناخ تبعاً لتنوع المناطق الجغرافية حيث يسود "مناخ المرتفعات البارد ومناخ السهول المعتدل والمناخ الصحراوي الحار"⁷؛ الأمر الذي أدى إلى تنوع الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وفي الواقع فقد ارتبطت نشوء حضارات بلاد الرافدين بوجود نهري دجلة والفرات وروافدهما حيث كان لنهري دجلة والفرات الأثر الكبير في نشوء الحضارة وبداية الحياة الزراعية في مراحلها المبكرة قبل غيرها من البلدان المجاورة. ولا بد من القول إن لبلاد الرافدين أهمية كبيرة بفضل موقعها الجغرافي والاستراتيجي حيث لعبت دوراً مهماً في سير أحداث التاريخ وقيادة الحضارة المدنية التي نشأت في أراضيها ولعل أقدمها كما يذكر المؤرخون حضارة سومر التي نشأت قبل 3500 ق.م في جنوب العراق -المنطقة الممتدة من بغداد إلى الخليج العربي- وقد نشأت حضارة السومريين بعد "حضارة (تل العبيد) 8 الباكورة، وأصبحت "اللغة السومرية اللغة السائدة في بلاد ما بين النهرين وما يجاورها"⁹. وجدير بالذكر أن هذه الحضارات التي نشأت على أرض بلاد الرافدين لا سيما حضارة سومر قد قدمت للبشرية منجزات حضارية عظيمة في مجالات العلوم والأدب والفن، وأورثت منجزاتها لشعوب المنطقة التي جاءت من بعدها كابل وأكاد وآشور والتي بدورها استفادت منها وزادت عليها من معارفها واكتشافاتها وعلومها، ونقلتها إلى الشعوب المجاورة التي كانت ما تزال في مرحلتها البدائية من التحضر وهكذا أضحت البشرية مدينة لحضارات بلاد ما بين النهرين بالكثير من الاختراعات والعلوم التي مازلنا نستخدمها حتى يومنا هذا. وجدير

5 سترابون، وصف بلاد ما بين النهرين وفينيقيا وشبه الجزيرة العربية، تر: د. محمد الدويب، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، الكتاب السادس عشر، 2003، ص 23

6 سترابون، سبق ذكره، ص 33

7 د. الصالحي، سابق، ج 1، ص 29

8 يعتبر العبيديون (نسبة إلى تل عبيد في جنوب ما بين النهرين) أسلاف السومريين أو السومريين القدامى ماتيفيف، سبق ذكره، ص 55

9 د. محمود علي، الأصول الشرقية للعلم اليوناني، جامعة أسبوط، ط 1، 1998، عين للدراسات والبحوث، ص 18

بالذكر أن الباحثين يعتمدون في دراسة حضارة ما بين النهرين على عدة مصادر تستند بالدرجة الأولى إلى نتائج التنقيبات الأثرية التي كشفت عن ملامح الحضارات ومنجزاتها، ثم إلى الوثائق السياسية المتبادلة بين حكام المنطقة كرسائل نل العمارنة ورسائل ماري، إضافةً إلى "النصوص البابلية التي كتبت في تاريخ 2000 ق.م وأرخت فترة بداية الألف الثالث قبل الميلاد أي مرحلة التاريخ السومري وعصر أوروك وعصر جمدة نصر 10 وعصر ميزيليم ملك مدينة كيش".¹¹، وعلاوةً على ذلك كتابات المؤرخين والجغرافيين القدماء وما نقل عنهم من دراسات وأبحاث تاريخية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هدف هذا الفصل من البحث: الحديث عن المنجزات الحضارية لبلاد ما بين النهرين في المجال السياسي والعلمي والأدبي. ففي المجال السياسي تطرقت الباحثة إلى أصل سكان المنطقة ونوع نظام الحكم السياسي وخصائصه، وانتشار الديمقراطية منذ ذلك الزمن وكيفية انتقاله إلى الإغريق وشرحت الباحثة أسباب انتشار نظام دويلة المدينة ومميزاته، وتخطيط المدن وتنظيمها، وأهم التشريعات التي سنت والتي كانت من أولى القوانين في العالم التي نهلت منها بقية الحضارات. أما المجال العلمي فقد تحدثت الباحثة عن تقدم سكان حضارة ما بين النهرين في مجال الفلك والتنجيم والرياضيات والطب بسبب أثر طبيعة بلادهم الجغرافية، وطبيعة نمط حياتهم التي احتاجت اكتشاف هذه العلوم، وقدرتهم العقلية على تطويرها حتى بلغت شأناً هاماً. ونتيجة احتكاك الإغريق مع حضارات الشرق القديم فقد انتقلت هذه العلوم إلى اليونان. ثم انتقلت الباحثة للحديث عن المجال الأدبي الذي اشتهرت به حضارة ما بين النهرين وقدره الشعراء والأدباء الإبداعية على كتابة الملاحم الأدبية وتأليف القصص الشعبية الرائعة، وانتشار الأساطير الدينية بسبب تأثير معتقداتهم الدينية بحياتهم اليومية وكيفية انتقالها إلى الإغريق وتشابهاها مع ملاحم الإغريق الأدبية.

10 أطلق على الثقافة المادية التي وجدت في جنوب بلاد ما بين النهرين من عام 2900-3100 ق.م (جمدة نصر) وهو اسم أطلال مدينة قديمة ذات سبيليك مزخرف مميز تقع بين بغداد وبابل قرب أطلال مدينة كيش السومرية. غولايف، المدن الأولى، ج1، تر: طارق معصراني، دار التقدم، 1989، طبع في الاتحاد السوفيتي، ص57
11 د.إسماعيل، حلمي محروس، الشرق العربي القديم وحضاراته (بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة)، 1997، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، مصر، ص9

أولاً. المجال السياسي :

. امتازت حضارة بلاد الرافدين أنها حضارة تضمنت العديد من الحضارات التي نشأت في مناطق مختلفة على أرضها تبعاً لرجحان القوة السياسية للمدن بسبب عدم وحدة دويلاتها وتنافسهم السياسي، وعلى الرغم من ذلك فقد اتسمت بالتحضر والرقى مقارنةً بغيرها من الدول المجاورة ويؤكد ذلك النصوص التاريخية التي تحدثت عن تحضر سكان بلاد الرافدين حيث ورد في "نص شعري سومري مدح مدينة (أور) 12 أن مواطن مارهاشي (منطقة في بلاد عيلام- إيران) أصبح متمدناً عندما عاش في مدينة أور" 13، وقد دلت الدراسات الأثرية أيضاً إلى أن أقدم المراكز الحضارية قد وجدت في المنطقة الممتدة من البحر المتوسط غرباً إلى جبال زاغروس شرقاً، وتميزت هذه المراكز الحضارية بالتنظيم المتكامل والتقدم العلمي ووجود التأريخ والتوثيق، ونستدل على ذلك من خلال آلاف السجلات التي تركتها هذه الحضارات العظيمة محفورة على الرقم الطينية والتي ساهمت في تقدم الحضارات التي جاءت من بعدها كالحضارة الكنعانية والحضارة الإغريقية حيث أبى مؤرخو الحضارة الأخيرة الاعتراف بفضل حضارة ما بين النهرين ونسب فضل التحضر الإغريقي إلى الإغريق ذاتهم دون أن يكونوا مدينين لأي شعب سابق. وقوبل هذا الموقف بالرفض لدى الباحثين لا سيما وأن حضارات الشرق الأدنى القديم وخاصة الحضارة الرافدية كانت من أقدم الحضارات والمنبع الرئيس في الإنجازات الحضارية التي حققتها الحضارة الإغريقية فقد دلت الآثار إلى أن أولى "محاولات تحضر الإنسان وانتقاله من مجتمع البداوة إلى مجتمع مدني عبر استقراره في قرى ومدن وممارسته الزراعة كانت في البداية في جنوبي بلاد الرافدين" 14.

وقبل البدء بالحديث عن النظام السياسي لدى دويلات مدن بلاد الرافدين وخصائصه وميزاته يجب التطرق إلى سكان هذه المنطقة وأصولهم وانتماءاتهم العرقية، وأهم الدول التي تشكلت في هذه المنطقة حتى تكون النظرة الحضارية عن المنطقة شاملة ومتكاملة، فقد سكن في منطقة بلاد الرافدين نوعين من السكان: النوع الأول هم السومريون، والنوع الثاني هم الساميون الذين ينتسب إليهم الأكديين والبابليين والآشوريين والكلدانيين. ويعدّ

12 أورو أو أور الكلدانيين: تسمى الآن أم قير وهي على نهر الفرات ويقال إنها أورفا (الرها) وبهذه المدينة ولد الخليل إبراهيم عليه السلام. زكي، أحمد، قاموس الجغرافية القديمة، ط1، مصر، 1899، المطبعة الكبرى الأميرية، ص17

13 د. رشيد، عبد الوهاب حميد، حضارة وادي الرافدين ميزوبوتاميا، ط1، 2004، دمشق، دار الثقافة للنشر، ص107

14 د. أمهز، محمود، في تاريخ الشرق الأدنى القديم، 2010، دار النهضة العربية، ص13

السومريون القدماء من أوائل الشعوب التي قطنت منطقة ما بين النهرين منذ عام 4000 ق.م وتمركزت في جنوبها -بين نهري دجلة والفرات- التي امتازت بخصوبة سهولها الزراعية، أما الجزء الأوسط والشمال من منطقة ما بين النهرين فقد سكنه الساميون الذين هاجروا من شبه الجزيرة العربية منذ حوالي 3000 ق.م تقريباً على شكل دفعات متتالية نتيجة القحط والجفاف الذي أصاب جزيرة العرب قديماً واندمجوا مع السكان الأصليين في المنطقة الشمالية والوسطى. وقد أطلق الساميون على جيرانهم السومريين تسمية (سومريين) نسبةً إلى "إقليم سومر وعلى الرغم من أن هذا الإقليم قد عرف في الوثائق القديمة في كثير من الأحيان باسم كنجي Kengi وباللغة السومرية Kalam أي القطر"15، ومن هنا نستنتج أن القبائل التي استقرت في وسط وشمال البلاد ذي أصول سامية، أما السومريين فقد استقروا في الجنوب. وفي الواقع إن الباحثين قد اختلفوا حول موضوع أصول السومريين حيث ذهب البعض منهم إلى أنهم ينتسبون إلى منطقة قريبة من الخليج العربي أو إلى مناطق شمال بلاد الرافدين، والبعض الآخر تنبأ بأصولهم الإيرانية أو الهندية لكن لم تثبت هذه الاقتراحات بالدليل العلمي الصحيح وتبقى من باب التخمين فقط، لكن استطاع علماء الآثار وعلماء الأجناس البشرية أن يثبتوا مدى اختلاف الجنسين السومري والسامي عن بعضهم البعض وذلك من خلال البحث والتحري والمقارنة بين الهياكل العظمية التي وجدت في قبور السومريين وقبور الساميين حيث وجد العلماء "فروقاً واضحة في حجم الجماجم وشكلها على الرغم من أن بعض العلماء يرفض هذه الاستنتاجات بسبب صعوبة الفصل بين الأجناس المختلفة نتيجة الاندماج فيما بينها".16 من خلال الزواج واختلاط المورثات الجينية في الحروب والسلم .

وبغض النظر عن عدم معرفة العلماء أصول السومريين لكن يكفينا أننا عرفنا وجود جنسين مختلفين في بلاد الرافدين: السومريون، والساميون، وقد أثبت العلماء ذلك من خلال مقارنات عديدة منها اختلاف اللغة التي تحدث بها كلاهما، فقد أكدت العديد من الوثائق الرسمية والرقم الطينية التي تم الكشف عنها من خلال التنقيب وجود جماعات تتكلم السامية لا سيما نصوص أور الأولى، وجدير بالذكر أنه على الرغم من اختلاف الجنسين جينياً

15 ل.ديلابورت، بلاد ما بين النهرين الحضارتان البابلية والآشورية، ترجمة: محرم كمال، ط2، 1997، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص22

16 د. إسماعيل، حلمي محروس، الشرق العربي القديم وحضاراته (بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة)، 1997، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، مصر، ص10

واختلافهم سياسياً لكن الحق يقال إنهم أسسوا حضارة شاملة ينسب فضلها لكلا الجنسين. ولا بد من الإشارة هنا إلى قضية أخرى وهي تعدد وجهات النظر بين الباحثين بما يخص الحضارة الرافدية حيث يعتمد الطرف الأول إلى نسب فضلها إلى السومريين وإقصاء الساميين وعدم شعوب بدائية مستندلاً برأيه من خلال قدم وجود السومريين في المنطقة قبل الساميين وتقدمهم في مجالات العلوم والآداب لا سيما الأدب الملحمي الذي تميزوا به عن غيرهم والذي عدّ في مصاف الآداب العالمية، بينما حاول الطرف الآخر من الباحثين إنكار فضل السومريين من خلال إثبات تقدم الساميين على السومريين بالاعتماد على مقارنات عديدة منها: اللغة حيث حاول بعض العلماء إثبات أن اللغة السومرية تحتوي على مفردات سامية وأن هذه المفردات هي مفردات لغوية حضارية تدل على تمدن الساميين وتحضرهم مقارنةً بالسومريين مما يدل على بدائية السومريين "كالكلمات التي تعبر عن صناعة الخزف والجلد والبناء وصناعة البرونز والنحاس والبيرة والكلمات التي تدل على الأشجار والثمار كالأرز والسرور".¹⁷ ، وثانياً من خلال الأدب الملحمي الذي تميز به السومريين حيث ذهب هذا الفريق من الباحثين إلى أن الأدب الملحمي أو البطولي **Heroic Age** يظهر عادةً عند الأقوام غير المتحضرة بتأثير جوارها إلى حضارات أرقى منها مثل عصر البطولة اليوناني المتمثل بالإلياذة والأوديسة حينما اتصل اليونان بحضارة الأقوام الإيجابية ومركزها في جزيرة كريت ومثل عصر البطولة الذي نشأ عند برايرة أوربا إبان جوارهم للحضارة الرومانية.¹⁸ فباعتماد هؤلاء أن السومريين كانوا قوماً غير متحضرين واقتبسوا مظاهر حضارتهم من غيرهم بسبب ميل آدابهم إلى الأدب البطولي والملحمي على الرغم من أن هذا لا يعتبر دليلاً كافياً سيما وأن الساميين قد ظهر لديهم هذا النوع من الأدب الملحمي المشابه للأدب السومري، والباحثة ترفض نسب فضل الحضارة لجنس واحد دون الطرف الآخر؛ لأن الحضارة في منطقة ما تحتاج إلى عملية تشاركية من كل الأطراف دون نبذ الطرف الآخر وإلا لتحولت البلاد إلى منطقة كارثية يسودها الدمار والحروب وكثر القتل والدمار دون إحراز أي تقدم في المجالات الحضارية. ومن هنا ستتحدث الباحثة عن مظاهر الحضارة ككل بالنسبة لبلاد الرافدين دون نسبها إلى أي جنس أو عرق أو مدينة. وبالانتقال إلى العنصر السامي الذي أسس حضارة بلاد ما بين النهرين

17 أمهز، محمود، في تاريخ الشرق الأدنى القديم، 2010، دار النهضة العربية، ص20

18 باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط1، شركة دار الوراق، 2009، بغداد، ج1، ص81

بالمشاركة مع السومريين فمن أولى القبائل السامية التي عاشت في كنف السومريين هم الأكاديون الذين جاؤوا إلى بلاد الرافدين على شكل هجرات متتالية من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام ثم انتقلوا إلى بلاد الرافدين واسقروا في منطقة "أكاد على ضفة نهر الفرات شمال بلاد ما بين النهرين منذ عام 3000 ق.م وقد حاول الأكاديون التخلص من تسلط الحكم السومري بفضل الإمدادات البشرية الأكادية التي كانت تتدفق من بلاد الشام حتى تمكنت من تحقيق أهدافها والسيطرة على زمام الحكم بزعامة سرجون الأكادي (شيروكين) 19. الذي أنشأ مملكة متحدة جمعت سومر وأكاد عرفت بالدولة الأكادية، ووجد البلاد للمرة الأولى في تاريخ بلاد ما بين النهرين على عكس الحكم السومري الذي اعتمد على نظام دويلات المدن ولم يعرف الوحدة .

ثم تعرضت مملكة الأكاديين لغزو من عناصر عمورية جاءت من شمال بلاد الشام واستقروا في وسط بلاد ما بين النهرين وأسسوا عاصمة لهم باسم بابل ووسعوا حدود دولتهم حتى أضحت إمبراطورية عظيمة عرفت باسم الإمبراطورية البابلية "عرف من ملوكها حمورابي 1728-1686 ق.م أشهر حكامها وأعظم شخصيات التاريخ القديم وسادس ملوك هذه الإمبراطورية، وقد استمر حكمهم حتى عام 2100 ق.م تقريباً"20، وجدير بالذكر أن الدولة البابلية ضعفت في آخر أيامها فهاجمتها عناصر عمورية أخرى ودخلت إلى بابل بعد حروب نازفة مع البابليين، وأسست الدولة الآشورية "خلال الألف الأول ق.م في شمال العراق وحل اسم آشور محل بابل"21. التي بدورها وسعت حدودها حتى أصبحت دولة مترامية الأطراف في عهد قوتها وازدهارها وتطورت لتصبح أقوى إمبراطورية في الشرق الأدنى آنذاك، وقد استقر الآشوريون "شمال بلاد الرافدين وجزءاً من شمال شرق سوريا وسيطروا على أرمينيا ومعظم آسيا الصغرى وقبرص وأجزاء من الجزيرة العربية"22. وقد اتصف الآشوريون حسبما ذكرت المصادر التاريخية "بالعنف والقسوة؛ مما سبب سخط شعوبهم عليهم فاشتعلت الثورات ضدهم وضعفت الدولة عسكرياً إثر إرهابها في إخماد الثورات الشعبية فانفصلت عن الدولة الآشورية أجزاء كبيرة من ممتلكاتها وأراضيها وكونت حكم جديد عرف باسم الدولة الكلدانية التي تنتسب إلى قبيلة كلدى الآرامية التي

19 د. إسماعيل، حلمي محروس، 1997، مرجع سابق، ص14

20 د. علي، محمود، الأصول الشرقية للعلم اليوناني، جامعة أسيوط، ط1، 1998، عين للدراسات والبحوث، ص18

21 د.علي، محمود، مرجع سبق ذكره، ص18

22 موسوعة الحضارات القديمة، مجموعة باحثين، بيروت، ط1، 2011، دار النفائس، ص31

خرجت من جزيرة العرب عام 1500 ق.م واستقروا في سوريا ثم نزحوا في حوالي 700 ق.م إلى العراق واستقروا بالقرب من مدينة بابل²³ لكن لم يكتب القدر عمراً طويلاً لهذه الدولة بسبب أطماع جيرانها وازدياد قوة الفرس وبدء توسعهم تجاه بلاد ما بين النهرين حيث "احتل الفرس بقيادة قورش منطقة ما بين النهرين عام 539 ق.م، وبعد الفرس احتلها اليونانيون في عهد الإسكندر المقدوني"²⁴. وجدير بالقول إن وصول الإسكندر إلى الشرق وسيطرته على البلاد كان بمثابة التحرير لا الاحتلال كونه حرر البلاد من الاحتلال الفارسي أولاً ولأنه احترم شعوب المنطقة وعاداتها وعقائدها الدينية ثانياً حيث استلم الحكم بعد أبيه "الملك فيليب الثاني عام 336 ق.م وتتلذذ على يد أشهر علماء اليونان الفيلسوف الشهير أرسطو الذي علمه الأخلاق السامية واحترام العقائد والشعوب"²⁵. ونتيجة قيام الإسكندر المقدوني ببناء المدن الإغريقية في الشرق أدى ذلك إلى زيادة احتكاك الإغريق بالشرق مما ساهم في خلق حضارة جديدة في المنطقة عرفت بالحضارة الهيلنستية - والتي كانت مزيجاً من الحضارة اليونانية وحضارات الشرق الأدنى القديم - والتي شهدت مزيداً من التقدم في العلوم والفنون واستمرت مظاهرها إلى عهد الإمبراطورية البيزنطية. وبالانتقال إلى خصائص نظام الحكم السياسي في بلاد الرافدين فقد كان حكماً ملكياً وراثياً لدى الساميين، على عكس السومريين الذي عرفوا بابتكار نظام حكم سياسي متفرد من نوعه وهو نظام دويلات المدن أول نظام حكم ديمقراطي حر متقدم على غيره من الأنظمة السياسية، وتعد حضارة سومر أول حضارة تبنت هذا النظام السياسي الذي انتشر في المنطقة وانتقل إلى المناطق المجاورة حيث اقتبس اليونان هذا النوع من نظام الحكم من الحضارة الرافدية والذي عرف لديهم بنظام حكم المدينة Polis أو ما يسمى باللغة الإنكليزية دولة المدينة الحرة (Free-City- State) ولقد ذهب العابد إلى تعريف الكلمة اليونانية Polis التي استخدمت في بلاد الإغريق "بان معناها القلعة وقد استخدمت للدلالة على المدينة الدولة ذات الحكم الديمقراطي التي تتكون نتيجة لعملية الإسكان المشترك للسكان"²⁶ وعلى عكس أكاد التي لم يعرف موقعها حتى الآن - وهذا ما نتج عنه صعوبة في الكشف عن المصادر التاريخية عن تلك الحقبة - فقد تم الكشف عن حضارة

23 د.إسماعيل، حلمي محروس، مرجع سابق، ص 95-96

24 د.علي، محمود، مرجع سابق، ص 19

25 د. الصالحي، ج 2، ص 292

26 د. العابد، مفيد، دراسات في تاريخ الإغريق، سورية، جامعة دمشق، المطبعة الجديدة، 1980/1979، ص 42

السومريين عام 1854م بالتعرف على ثلاث مدن سومرية هي أور، أريدو، وأوروك. 27 في البداية ثم تم الكشف لاحقاً عن مجموعة من المدن السومرية التي ظهرت على ضفاف نهري الفرات ودجلة وروافدهما في الألف الرابعة والثالثة ق.م والتي كانت تشكل دويلات مدن مستقلة بذاتها تتفصل عن غيرها من المدن بفواصل طبيعية خلقتها الطبيعة أو عن طريق بناء الأسوار المحيطة بالمدينة أو حفر الخنادق حولها لحمايتها من أطماع الأعداء أو وجود فواصل طبيعية فيما بينها، ومن "أقدم المدن السومرية مدينة (أريدو) في الجنوب ومن أهم المدن السومرية (كيش، أوروك، أور، لاجاش، نيبور، شوروباك)" 28 ، وقد أثبتت التنقيبات الأثرية والنصوص المسمارية وجود هذه المدن في جنوب بلاد ما بين النهرين حيث كانت تشكل كل منها دويلة مدينة لها "نظام حكم ذاتي وكانت لكل مدينة سلالتها الحاكمة، وقد ذكرت النصوص المسمارية أن هناك 13 دويلة-مدينة ظهرت في فترة السلالة المبكرة منذ 2750 ق.م مثبتة في خرائط الجغرافيا المعاصرة اليوم وهي: سيبار وكيش وأكشاك ولاراك ونيبور وأدب وأما ولكش وباد-يتيرا وأرك ولارسا وأور وأريدو" 29، وقد أخذ الإغريق نظام دويلات المدن من حضارة بلاد ما بين النهرين إما بشكل مباشر عن طريق هجرة علماء الإغريق إلى بابل في عهد الدولة البابلية، أو بشكل غير مباشر عن طريق الفينيقيين سكان الساحل السوري الذين اقتبسوا نظام دويلات المدن من بلاد ما بين النهرين ونقلوه إلى بلادهم ومستوطناتهم التي أسسوها على سواحل البحر الأبيض المتوسط، والدليل على أن نظام دويلات المدن هو ابتكار رافدي أنه "وجد لدى السومريين منذ 3000 ق.م أي قبل الوجود الإغريقي بحوالي ألفي عام وانتشر هذا النظام في بلاد كنعان وفينيقيا على الساحل السوري" 30 ، حيث نجد انتشار هذا النظام السياسي في فينيقيا كمدن صور وصيدا وجبيل وفي اليونان أيضاً كأثينا وإسبرطة وغيرها من المدن الإغريقية. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن السومريين منذ هجرتهم إلى بلاد الرافدين لم يحملوا معهم نظام دويلات المدن من بلادهم وإنما ابتكروه في المنطقة بسبب طبيعة جغرافيتها، وبسبب ما تراكم لديهم من خبرات سياسية بعد استلامهم زمام الحكم في المنطقة، ثم نقلوه إلى الشعوب المجاورة فكانت الحضارة الرافدية من الحضارات الناضجة المبكرة

27 د.إسماعيل، حلمي محروس، مرجع سابق، ص9

28 د.إسماعيل، سبق ذكره، ص10

29 غولايف، المدن الأولى، ج1، تر: طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، 1989، طبع في الاتحاد السوفيتي ، ص64-65

30 الناصري، سيد أحمد علي، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، ط2، جامعة القاهرة، دار النهضة العربية، 1976، ص98

التي تفردت بأول نظام حكم سياسي مختلف عن غيره من دول الجوار، وقد أكد ذلك عالم الآثار الإنكليزي ليوناردو وولي "بأن الحضارة السومرية كانت أول حضارة في المنطقة"³¹. وهي أول حضارة تبتكر نظام حكم سياسي يعد أول شكل من أشكال الحكم السياسي في التاريخ البشري القديم. وجدير بالذكر أن دويلات المدن كانت منفصلة عن بعضها البعض بشكل تام حيث عدت كل مدينة "بما يحيطها من قرى وأراضٍ زراعية مركزاً سياسياً واقتصادياً ودينياً اصطلاحاً عليه لقب دولة المدينة" City State 32 ، ولم يكن هذا الانفصال في المدن فقط في الشكل وإنما تعداه إلى العادات والتقاليد الاجتماعية والقوانين السياسية وهيئاتها التنفيذية وأنظمتها ومعابدها وبعض المعتقدات الدينية حيث اعتنقت كل مدينة إله خاص بها اعتبروه الحاكم الحقيقي للمدينة وحاميها أما الحاكم البشري فهو نائب الإله على الأرض .

وتعود أسباب انفصال دويلات المدن عن بعضها إلى أسباب مشابهة لانفصال دويلات المدن الإغريقية ومنها: الأسباب الجغرافية فطبيعة الجغرافية في المنطقة ساهمت في عزل المدن عن بعضها البعض وشكلت حواجز طبيعية وعوائق جغرافية كالمستنقعات والمناطق الصحراوية مما ساهم بزيادة استقلالها الذاتي وحال دون وحدتها السياسية على الرغم من أن بعض الباحثين اعتبر وجود الأنهار كنهري دجلة والفرات اللذان يشغلان مساحة كبيرة في بلاد الرافدين من شماله إلى جنوبه وسيلة وصل بين مناطقه لا عائق جغرافي، إضافةً إلى شهرة السومريين في تجفيف المستنقعات لذلك لم يكن السبب الجغرافي وحده أحد المبررات للانفصال وفقاً لرأي الباحثة وإنما وجدت الباحثة أسباباً أخرى في المراجع ساهمت في الانعزال وظهور الصراع بين دويلات المدن كالأَسباب السياسية والاجتماعية من خلال سيطرة كبار القادة السياسيين وكبار كهنة المعابد على المدينة ومفاصل الحياة فيها "فسيطرت على اقتصادها وهيئاتها ومناصبها حفاظاً على مصالحهم السياسية والاقتصادية؛ مما نتج عنه ضعف المدن وعدم قدرتها على بسط نفوذها على المدن المجاورة"³³، فكان سبباً واضحاً للانعزال حيث لم يكن باستطاعة هذه المدن الاتحاد أو تمكن المدن القوية من السيطرة على المدن الضعيفة إضافةً إلى الأسباب

31 Hallo, William, W, The Ancient Near East History, Yale University, U.S.A., p173

32 د.رشيد، عبد الوهاب حميد، حضارة وادي الرافدين ميزوبوتاميا، ط1، 2004، دمشق، دار الثقافة للنشر ، ص103

33 أمهز، محمود، مرجع سابق، ص104

الدينية حيث كان الفكر الديني مسيطرًا على كل شعوب العالم القديم آنذاك ومتحكما بأسلوب حياتهم ونمطها سواء في منطقة الشرق الأدنى القديم أو في بلاد الإغريق حيث كان لكل مدينة إلهها الخاص بها الذي يعتبر حاكمها الحقيقي وحامي المدينة وكان سكان المدن يتصارعون فيما بينهم "دفاعاً عن أرض الإله من الهجمات المعادية من المدن الأخرى وربما من أجل توسيع أملاك إله المدينة من خلال الفتوحات العسكرية والسيطرة على الأراضي الزراعية ومصادر المياه"³⁴.

وعلاوةً على ذلك هناك السبب الرئيسي كما تعتقد الباحثة وهو السبب المحرك لكل زمان ومكان ألا وهو السبب الاقتصادي فغالبية الصراعات القديمة والمعاصرة أسبابها اقتصادية لكنها تتخفى بأسباب أخرى، ففي بلاد ما بين النهرين لا نستطيع أن ننفي وجود الدوافع الاقتصادية بسبب انتشار السهول الزراعية الخصبة والمياه الوفيرة العذبة من الأنهار الجارية كنهري دجلة والفرات، ورغبة كبار قادة المدن في السيطرة على طرق القوافل التجارية التي تعبر المنطقة والتي تصل المناطق التي تقع شرق بلاد ما بين النهرين ببلاد الشام والبحر المتوسط وتصل آسيا الصغرى وأرمينيا بالخليج العربي حيث تجلت غالبية الصراعات في بلاد الرافدين بدوافع اقتصادية رغم انفصال المدن عن بعضها البعض لكن استطاعت بعض المدن السيطرة على جاراتها بدافع اقتصادي بحت. بيد أن انفصال دويلات المدن لا يعني اختلافها عن بعضها فقد تشابهت مظاهر الحضارة في كل مدن بلاد الرافدين في مجالات العلوم والفنون والعمارة وحتى في أنظمة الحكم السياسي لكننا نقصد هنا أنها انعزلت عن بعضها جغرافياً لذلك لم تشكل وحدة سياسية ودولة قوية مترامية الأطراف منذ بداية نشوئها في عهد السومريين لكن عند وصول الأكاديون إلى سدة الحكم كانوا قد ورثوا نظام دويلات المدن من العصر السومري لكنهم أسسوا نظام حكم ملكي وراثي ووسعوا مساحة الدولة على مستوى القطر والبلدان المجاورة أيضاً فمنذ عهد الملك سرجون حرص الأكاديون على تأسيس دولة مركزية موحدة فانهتى الاستقلال السياسي للمدن واستمرت كوحدات إدارية وتحول نظام دويلات المدن من كيانات مستقلة إلى مدن خاضعة لإمبراطورية مركزية. وعلى الرغم من ذلك فقد حاول الحكام السومريون لاحقاً توحيد دويلات المدن بدولة واحدة مركزية عن طريق الفتوحات العسكرية التي اتخذت

مبررات دينية إلا أن أغلب المحاولات باءت بالفشل وذلك لعدة أسباب "اقتصادية واجتماعية وسياسية وإيدلوجية، ولأن التوحيد سيحد من تسلط بعض القادة والكهنة على الشعب ويخلصهم المناصب والأراضي التي سيطروا عليها" 35 ، وحتى في عهد الأكاديين والبابليين والآشوريين الذين عرفوا نظام حكم سياسي مركزي موحد عانوا من ظاهرة دويلات المدن التي أورثها الحكم السومري لسكان المنطقة واعتادوا عليها ونستدل على ذلك من خلال " الثورات والتناحرات التي كانت تشتعل في أنحاء البلاد عند تولي كل ملك لا سيما في عهد الدولة الأكادية بقصد العودة إلى الاستقلال الذاتي المحلي الذي كان سائداً من قبل" 36 ولا بد من الإشارة هنا إلى أن آشور لم تكن قائمة على دويلات المدن المستقلة كما في العصر السومري وإنما اعتمدت على نظام الولايات بدل دويلات المدن حيث قسم الملك الدولة إلى ولايات تخضع لقوانين مركزية صارمة وعين على كل ولاية والي من قبل الملك مباشرة على أن بعض المدن احتفظت بحكامها المحليين لكنها خضعت لرقابة آشورية صارمة ولقد دمرت بعض المدن المتمردة على نظام الحكم الآشوري مثل بابل في بعض الفترات.

أما مميزات نظام الحكم السياسي الذي تميزت به دويلات المدن من الألفية الثالثة وحتى الأولى قبل الميلاد فقد اتسم "بظهور حكم سياسي منظم وفق المفهوم الحديث للتحضر وبعده عن النظام القبلي الذي كان سائداً آنذاك حيث نشأت مجالس سياسية في كل مدينة ضمت مواطنين لإدارة المدينة" 37، وهذا ما نراه في المدن الحرة الإغريقية التي اتسمت بالتحضر والبعد عن القبلية والعشائرية التي كانت سائدة منذ القدم حيث تبنت الكثير من مدن بلاد الإغريق نظام الحكم السياسي القائم على نظام دويلات المدن. وكانت هذه المجالس السياسية نوع من أنواع الديمقراطية يمارس المواطنون من خلالها التعبير عن آرائهم السياسية والاجتماعية وتألفت من "مجلس عام يضم سكان المدينة البالغين الذي بدوره يدير السلطة السياسية العليا ومجلس الشيوخ الذي اختص بإدارة شؤون الحياة وأمور الناس" 38، وكان المجلسان يتعاونان على إدارة شؤون الدولة سويةً دون الفصل بينهما وهذا ما تؤكدته "قصة جلجامش عندما استلم إنذاراً من حاكم مدينة كيش يطالبه بالاستسلام أو الحرب فعرض جلجامش الموضوع

35 ماتيف، أ. سازونوف، حضارة ما بين النهرين، ترجمة: د. حنا آدم، 1991، دمشق، مطبعة دار المجد حضارة ما بين النهرين، ص 69

36 د. إسماعيل، حلمي محروس، سابق، ص 18

37 د. رشيد، عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 106

38 د. حسن، محمد، التفكير التاريخي عند الشعوب العربية السامية القديمة، دار الثقافة العربية، القاهرة، 2000، ص 129

على مجلس المسنين (الشيخوخة) ثم على مجلس الشباب قبل أن يتخذ القرار".³⁹، على اعتبار أن الشباب هم القادرون على حمل السلاح ولهم الحرية في التعبير عن رأيهم إن كانوا يرغبون في القتال أم لا وهنا تظهر ديمقراطية نظام الحكم على الرغم من بدائيتها، ونرى ذلك في دويلات المدن الإغريقية أيضاً بعد قيام الثورات الشعبية ووصول الإغريق إلى نظام الحكم الديمقراطي -دويلات المدن- أنشأوا مجالس تتألف من مجلس الشيخوخة ومجلس للشعب للتشاور في أمور الحكم والسياسة والحروب. ولقد تبلورت أنظمة الحكم السياسي في مدن بلاد الرافدين في الواقع نتيجة تطور اقتصادها لا سيما بوجود نهري دجلة والفرات الذي ساعد على وفرة المياه وخصوبة التربة فساهم بظهور الزراعة المروية والخبرة الحرفية في بناء القنوات والسدود والترع واستصلاح الأراضي المالحة والأراضي القاحلة غير الصالحة للزراعة فكثرت السهول الزراعية التي تحيط بالمدن واتسعت القرى المحيطة فشكلت وحدات سياسية مستقلة يرأسها ملك يتسلم السلطة السياسية والدينية كونه نائب الإله على الأرض، وكان لهذه المدن جيش خاص بها للدفاع عن حدودها، وكان المعبد محور الحياة في تلك المدن حيث اختص الملك أو الحاكم ببناء المعابد وتعيين كهنتها ورعاية الاحتفالات الدينية، ولقد تشابه ذلك مع النظام الملكي الذي كان سائداً في بابل وآشور حيث كان "الإله آشور هو السيد الحقيقي للبلاد الذي حملت المدينة اسمه وكذلك كان ملك آشور نائبه على الأرض".⁴⁰؛ لذلك سعى سكان بلاد الرافدين إلى اختيار موقع جغرافي مميز للمدينة بالقرب من مجاري الأنهار الرئيسية أو "بمحاذاة قنوات اصطناعية وهذا ساهم في تطور المدن بشكل سريع لا سيما في الفترة الأركية والكتابة الأولى"⁴¹. وقسمت المدينة إلى عدة أقسام حيث كانت دولة المدينة تضم "في مركزها قصر الملك والمعبد وبيوت السكان داخل السور، أما الضواحي فقد ضمت مساكن وحقول المزارعين والبساتين وحظائر الماشية، إضافة للميناء والمستودعات"⁴². واتصفت بعض مدن بلاد الرافدين بمواصفات جغرافية واستراتيجية من خلال موقعها بالقرب من الأنهار أو على طرق التجارة أو بمواصفات طبوغرافية مثل مدينة "آشور التي كانت تقع على صخرة يصعد لها بوساطة سلام ضخمة، ومدينة بابل التي اتسمت ببرجها

39 د. رشيد، عبد الوهاب، مرجع سابق، ص107

40 ديلايورت، مرجع سابق، ص278

41 غولايف، مرجع سابق، ص59

42 د.رشيد، عبد الوهاب، مرجع سابق، ص106

المرتفع المتدرج وبجسرها على نهر الفرات⁴³ ، وهذا ما نلمسه لدى الإغريق في تأسيس مدنهم باختيار مواقع استراتيجية بالقرب من السواحل والأنهار، وعلى السهول الزراعية والوديات من أجل تعزيز الدفاعات الحربية. ولقد اشتهرت مدن الدويلات الرافدية بخصوبة أراضيها وإنتاج محاصيل عديدة كالحبوب والشعير والقمح لكنها افتقرت إلى الأشجار المثمرة الصالحة أخشابها للبناء وهذا ما دفعها لتوثيق علاقاتها السياسية والتجارية مع دول الجوار من أجل تأمين المواد الضرورية للصناعة لا سيما مع الفينيقيين للحصول على أخشاب السرو والصنوبر من الجبال الساحلية السورية، ومع الإغريق لا سيما في عهد الآشوريين حيث تؤكد الوثائق التاريخية تواصل الآشوريين مع الأيونيين في عهد إمبراطوريتهم الأخيرة منذ زمن سنحاريب⁴⁴ .

ولا بد من الإشارة هنا إلى شهرة بلاد الرافدين في المجال القانوني باعتبار أن القانون جزء لا يتجزأ من المجال السياسي فقد دلت المكتشفات الأثرية على بلوغ بلاد ما بين النهرين مبلغاً عظيماً في صياغة القوانين ولعل أشهرها قانون حمورابي أو تشريع حمورابي وهو عبارة عن دساتير ملكية والذي يتألف من "مئتين وخمسين مادة من القانون في ستة وأربعين عموداً تتضمن على وجه التقريب 3600 سطراً من النصوص وقد نقش على حجر من الديورانت ارتفاعها 25 و2 متر ومحيطها 90 و1 متر عند القاعدة وقد عثر عليها مكسورة على ثلاث قطع في سوسة في ديسمبر 1901م ويناير 1902م ويزينها نقش بارز يمثل إله الشمس شماس رب الحق يملئ على الأمير البابلي مراسم العدالة التي نقش نصوصها على محيط الكتلة الحجرية⁴⁵. ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار أن تشريع حمورابي لا يعد أقدم تشريع ظهر في بلاد الرافدين وإنما أكثر تشريع شامل متكامل على جوانب الحياة المختلفة ومفاصلها، فقد عثر على شرائع سابقة لعصر حمورابي تعود إلى عهد "أورنامو ملك مدينة أور، وإلى عهد بلالا ملك مدينة أشنونا"⁴⁶. بالإضافة إلى تشريعات تنسب إلى مدينة آشور حيث عثر خلال التنقيبات على مجموعة قوانين دونت في النصف الأخير من الألف الثانية وهي تتناول في حوالي 50 مادة من العقوبات إضافة إلى لوحة أخرى من نفس العهد ولكنها مكسورة وتتعلق بالقانون الريفي، وثالثة من نفس العهد في

43 غولايف، سابق، ص76

44 باقر، طه، مرجع سابق، ص585

45 ديلاپورت، سابق، ص95

46 د.إسماعيل، حلمي محروس، سابق، ص44

حالة سينة تحوي قرارات خاصة بالسرقة وتدخل بينها المعاملات التجارية غير الشريفة أما فيما يخص الأعراف
الأخيرة من عهد الملكية فإن مكتبة آشور بانيبال تقدم لنا عدداً من الوثائق التشريعية⁴⁷، والاختلاف هنا
 بين مدن بلاد الرافدين والإغريق أن القانون في بلاد ما بين النهرين وضع من قبل الحاكم السياسي أما في
 دويلات مدن الإغريق فقد وضعت من قبل مصلحين سياسيين ساهموا في إصلاح النظام السياسي والاجتماعي
 أمثال دراكون الذي وكل إليه سن قوانين تحد من الاضطرابات في أثينا اليونانية وإنهاء الفوضى الاجتماعية عن
 طريق نشر الأمن والأمان باستخدام قوانين صارمة ساعدت على الاستقرار السياسي حيث عهد إليه بمنصب
 "الأرخون عام 621 ق.م فاستطاع كبح حوادث القتل والفوضى بسن عقوبات صارمة حتى أصبحت كلمة
 (دراكوني) مضرِباً للمثل في القوة والشدة في معظم اللغات العالمية"⁴⁸، وهي تشبه إلى حدٍ ما قوانين حمورابي
 بقسوتها وصرامتها حيث أشار بعض الباحثين إلى أن الإغريق قد "اقتبسوا من البابليين الكثير من القوانين لا
 سيما قانون حمورابي 1750 ق.م." ⁴⁹، إضافةً إلى المصلح السياسي الشهير صولون⁵⁰ الذي حاول التوفيق
 بين سياسات الدولة والطبقات الدنيا المسحوقة التي كانت تفقد حريتها بسبب تراكم الديون فقام بردم الهوة بين
 الطبقات الاجتماعية والحد من الثورات الشعبية، وعمل على "تفعيل التضامن بين مصلحة الدولة ومصلحة الفرد
 من أجل الوصول إلى الثقة الكاملة بين الطرفين"⁵¹، إضافةً إلى المصلح السياسي بريكليس⁵² الذي شهدت أثينا
 في عهده تطوراً في المجال العلمي فسعى إلى بلوغها التطور السياسي والاجتماعي بسن قوانين تساهم بإصلاح
 المجتمع والنظام السياسي آنذاك وبناء دولة عظيمة في دويلة المدينة أثينا حيث شهدت أثينا في عهده تطوراً
 ملحوظاً في كافة النواحي مقارنةً ببقية المدن اليونانية مما مهد بتطور العلوم الفلسفية وظهور فلسفة أفلاطون
 وأرسطو والفلسفة السفسطائية .

47 ديلاپورت، سابق، ص268

48 د. العابد، مفيد، سابق، ص65

49 موسوعة نقد الحضارة، نبيل صالح وآخرون، ط1، ج1، العراق، النجف، المركز الإسلامي للدراسات التاريخية، ص193

50 صولون: واحد من أبرز الساسة والشعراء الذين أنجبهم أثينا، وينحدر من الأسر الأثينية النبيلة. للمزيد عن أعماله والقوانين التي شرعها في اليونان انظر: د. العابد، مفيد، سابق، ص66 وما بعد.

51 د.سارة، خليل، تاريخ الإغريق، 2022/2021، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ص419

52 بريكليس: من أسرة أثينية ثرية عملت في السياسة فترة طويلة، وكان والده ممن حاربوا في معركة سلاميس وقائداً للأسطول الأثيني في معركة ميكالي ووالدته أجاريسا حفيدة المصلح كليشنيوس. للمزيد انظر: د. سارة، خليل، تاريخ الإغريق، سابق، ص493

ثانياً. المجال العلمي :

. أدى التطور الحضاري في بلاد الرافدين إلى الحاجة إلى الأدوات والوسائل العلمية والعملية التي تتيح تطوير العلم والمعرفة من خلال اكتشاف الفلك وكواكب المجرة وعلم الكون ودراسة النجوم والطقس والتنبؤ بأحواله ودراسة الشمس والقمر وتأثيرهما على كوكب الأرض لا سيما على البحار فظهر علم التنجيم الذي ارتبط بعلم الفلك، إضافةً إلى السيطرة على مياه الأنهار ودرء الفيضانات واستصلاح الأراضي الزراعية وإيجاد الحلول لمشاكلها من القحط والجفاف والملح وتجفيف المستنقعات وضبط مشاريع الري وشق الترع والقنوات الاصطناعية، وحساب السنة والشهر واليوم بناءً على دورة الأرض حول الشمس والقمر، وتطوير الصناعات الحرفية التي احتاجها الإنسان الرافدي كصناعة التعدين وتطوير فن البناء والعمارة، والقدرة على التطبيب ومداوة المرضى بعد الكشف عن الأمراض ومسبباتها وقد نتج عن هذا معرفة أنواع النباتات والأعشاب وتصنيفها ضمن قوائم طبية نقشت على رقم طينية كابتكار طبي رافدي؛ مما ساهم في تطور علم الكيمياء. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن السحر قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالطب والكهنوت وستفصل الباحثة هذا لاحقاً. وعلاوةً على ذلك استطاع سكان بلاد الرافدين إحراز تقدماً واضحاً في مجال الحساب والجبر والهندسة من خلال ابتكار النظام الستيني الذي مازال يستخدم حتى يومنا هذا بتقسيم الدائرة إلى 360 درجة وتقسيم الساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية .

لقد انصبت جهود سكان بلاد الرافدين على كل مجالات المعرفة "فعرفوا المعادن باكراً وعالجوها عن طريق تنقيتها وصنعوا منها السبائك والأدوات بمهارة عالية"53؛ مما ساهم في تقدم علم الكيمياء لديهم لكن بالطرق البدائية وليس بالمعنى الحالي للعلم، وعن طريق علم الكيمياء استنبطوا صناعة العطور التي استخرجوا زيوتها من زهور الطبيعة وثمارها كالسعد والمر والبلسم والورد ليس فقط من أجل التجميل والتزيين وإنما للأغراض الطبية والطقوس الدينية، وعرفوا الفلسفة قبل الإغريق لكنها لم تكن علماً قائماً بحد ذاته وإنما ارتبطت بالتنجيم والسحر والخرافات فقد أشار سترابون إلى وجود "بيت للفلاسفة المحليين الذين مارسوا الفلك والتنجيم في فافيلون (بابل) لم يلقوا ترحيباً

شعبياً بين أوساط السكان، ويعرفون باسم الخالديين (الكلدانيين)⁵⁴ وعرف سكان بلاد الرافدين علم التاريخ البدائي فلم يكن لديهم نقطة بداية ينطلقون منها في التأريخ مثل التاريخ الميلادي والهجري المعروف حالياً لكنهم ابتكروا طريقة للتأريخ من خلال تسجيل السنوات وفقاً للحوادث المهمة التي تحدث في بلادهم كالكسوف والخسوف وفيضانات الأنهار والحروب والكوارث، ثم ابتكروا طريقة أخرى من خلال تأريخ السنوات بالاستناد إلى تسلسل سنوات الملوك ونجد هذا التطور التسلسلي في التأريخ موجود لدى غالبية حضارات العالم القديم التي نهلت هذه الطريقة في التأريخ من حضارة بلاد الرافدين كالحضارة المصرية والفينيقية والإغريقية، ولم يكتفِ سكان بلاد ما بين النهرين بتأريخ الحوادث والسنوات فقط وإنما أرخوا "سير ملوكهم وحولياتهم والعائلات النبيلة في كل مدينة وكبار القادة ورجال الدولة العظام، وسجلوا قوائم علمية تتضمن قوائم طبية بأسماء النباتات والحيوانات وقوائم بأسماء الآلهة وأصنافها وأسماء المعابد ومواعيد الأعياد والنذور، وجدول رياضية وفلكية حتى أضحت تعج بالقوائم لدرجة أن بعض المستشرقين أطلقوا عليها حضارة علم القوائم"⁵⁵، ومن الطبيعي أن يرتبط علم التاريخ بعلم الجغرافيا فكما أشارت الباحثة سابقاً إلى أن التأريخ ارتبط بالحوادث الطبيعية على الأرض والكون؛ لذا كانت الرغبة في معرفة الكون وأسراره السماوية وشكل الأجرام والأرض وحجمها وسبب اختفاء القمر وتغير شكله الشغل الشاغل لدى سكان بلاد الرافدين "فقد وضعوا أسس دقيقة لمساحة أراضيهم الزراعية من خلال رسم الخرائط الجغرافية للمدن والقرى وكانت الخرائط الجغرافية على عهدهم عبارة عن جداول توضح الأبعاد بين منطقتين أو الأقاليم الواجب عبورها أو أسماء المدن للوصول إلى المنطقة المرادة"⁵⁶، ووضعوا النظريات الفلكية وحسبوا الأيام والسنوات لكن كان علم الفلك لديهم يميل إلى الكهنوت والارتباط بالدين حيث تركزت جهودهم على "نظام مجمع الآلهة ومعرفة أنسابهم"⁵⁷، وقدراتهم ومدى رضاهم على الإنسان أو غضبهم عليه، وربط الأحداث التي تحدث على الأرض بقوتهم وغضبهم.

54 سترابون، وصف بلاد ما بين النهرين وفينيقيا وشبه الجزيرة العربية، تر: د. محمد الدويب، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، الكتاب

السادس عشر، 2003، ص23

55 د. رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص145-146

56 ديلاپورت، سابق، ص239

57 د. رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص148

وعلى الرغم من سيادة الدين والكهنوت على علوم الحضارات القديمة إلا أنها اهتمت بالموسيقى. حيث عدت الموسيقى حاجة ضرورية في الاحتفالات الملكية والمناسبات الاجتماعية والطقوس الدينية في المعابد لإنشاد ترانيم الآلهة وأنشأت لها المدارس أيضاً، وكان الموسيقيون تابعين للمعابد والقصور الملكية، وقد دلت المكتشفات الأثرية في مقابر أور على ابتكار سكان بلاد الرافدين أولى الأدوات الموسيقية لا سيما القيثارة السومرية الذهبية التي كانت عبارة عن آلة وترية، واستطاع علماء الآثار أيضاً اكتشاف أقدم نوتة موسيقية كتبت على لوح طيني بالخط المسماري في بلاد الرافدين، وما يميز الموسيقى الرافدية عن غيرها أن سكانها القدماء سعوا إلى مزج الموسيقى مع الشعر البطولي الملحمي أثناء إنشاده في الساحات العامة والقصور الملكية والاحتفالات، ونحتوا التماثيل التي تحمل الآلات الموسيقية وتصور المغنيين والراقصين مما يدل على أهمية الموسيقى في الحضارة الرافدية آنذاك، ولقد اعتقد العلماء سابقاً أن المدرج السباعي وضع من قبل الإغريق لكن علماء الآثار اكتشفوا أن "الموسيقيين الآشوريين-البابليين استنبطوا نوطتين في كل مرة وليس نوتة واحدة، واستخدموا المدرج الموسيقي السباعي الغربي وليس الشرقي الخماسي" 58. مما يدل على أن المدرج السباعي هو ابتكار رافدي بحت وقد انتقل إلى اليونانيين ونسب إليهم بعد اندثار حضارة بلاد الرافدين إما عن طريق نقله من قبل العلماء اليونانيين الذين نهلوا من حضارة بابل، أو عن طريق الفينيقيين تجار الساحل السوري سيما وأن هذه النوط الموسيقية قد انتقلت إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط حيث اكتشفت مجموعة مصطلحات أكادية في مدينة أوغاريت القديمة في سوريا لتعليم العازفين الذين يؤدون العبادة الحورية، ولا تزال آثار الموسيقى الرافدية تستخدم حتى اليوم في الألحان والطقوس الدينية الخاصة بكنائس الشرق.

وجدير بالذكر أن سكان بلاد الرافدين بكل أجناسهم قد توفرت لديهم المواصفات البدنية والذهنية للتمدن وتطوير العلوم والتي تمتع بها الإغريق القدماء أيضاً نتيجة اعتدال الطقس بفضل قرب الأنهار وخصوبة الأراضي الزراعية ووفرة المياه والاحتياجات الغذائية؛ فتشكلت لديهم توجهات علمية حقيقية وجهوها في علومهم التي ورثتها الشعوب المجاورة ونهلت من حضاراتهم وتعلموا منها أسس التحضر لا سيما الحضارة الإغريقية التي بدأت

باعتراف التطور العلمي والفلسفي "خلال الألفية الأولى قبل الميلاد مقارنةً بحضارات الشرق الأدنى القديم التي يعود تاريخ حضاراتها إلى الألفية الرابعة قبل الميلاد مما يعني أن ازدهار العلوم والابتكار بدأ من الحضارات الشرقية قبل اليونان بثلاثة آلاف عام" 59. وليس من بلاد الإغريق كما يزعم بعض المتشددین للحضارة

الغربية الإغريقية، فقد كانت أولى الحضارات التي ظهرت في الشرق الأدنى القديم هي حضارة ما بين النهرين التي ابتكرت الخط المسماري منذ 3200 ق.م وبوساطة هذا الخط استطاع القدماء تدوين علومهم ونقلها إلى لأجيال اللاحقة وإلى لشعوب المجاورة حيث كان "العلم متقدماً في حضارات الشرق واتصفت علومها بالتصنيف والتبويب مما يدل على بلوغهم مبلغاً عظيماً ولقد كان العلم وفقاً على فئة معينة من الكتاب المنتمين إلى الكهنة وتلاميذهم" 60. وبعد التنقيبات الأثرية وظهور الأدلة الموثقة في منطقة بلاد الرافدين تداعت مزاعم أصحاب التوراة من جهة وأصحاب المعجزة الإغريقية المتفوقة على الشرق من جهة أخرى. بالنسبة إلى التوراة التي تضمنت قصص وخرافات كتبها العبرانيون اللاحقين بأيديهم والتي شوهت تاريخ الآشوريين والبابليين في المنطقة حيث صورت التوراة "الآشوريين متوحشين يشربون الدماء البشرية، وصورت البابليين بالفاجرين المعتادين على الغنى وإشباع غرائزهم وهذا الكلام غير صحيح والدليل أن الإغريق ومن بعدهم الرومان قد تلقوا منجزات الحضارة الآشورية والبابلية في كافة المجالات كالعلوم والتاريخ والميثولوجيا والآداب والطب والرياضيات وغيرها" 61. ولنفترض أن شعوب بلاد الرافدين كانت كما وصفتها التوراة -بهذا القدر من التخلف والبربرية- لما استطاع اليونانيون أن يتلقوا علومهم منهم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لن تكون علومهم على قدر من العلمية والحرفية العالية والتي مازال تأثيرها علينا وعلى غيرنا حتى يومنا هذا لا سيما على أصحاب التوراة ذاتهم الذين اعتادوا على سرقة منجزات غيرهم وتشويه صورتهم الاجتماعية والحضارية فقد أكد ديلاپورت أن "التقويم العبراني

59 موسوعة نقد الحضارة، ج1، نبيل صالح، ص184

60 كونتنو، جورج، المدنيات القديمة، ترجمة: متري شماس، المنشورات العربية، دت، ص51

61 ماتيف، ك، سابق، ص204

الحالي قد اقتبسها العبرانيون من التقويم البابلي القديم، إضافةً إلى النظام الستيني من خلال تقسيم الدائرة إلى 360 وتقسيم الدقيقة إلى 60 ثانية واليوم إلى 24 ساعة قد أخذ عن السومريين" 62

أما بالنسبة للإغريق فقد أنكر غالبية علماء الغرب في البداية فضل الحضارة الرافدية على الحضارة الإغريقية ونكروا أصولها وزعموا أن منجزاتها الحضارة الإغريقية مستمدة من ذاتها ومن نضج شعبها لكن بعد الكشف عن مدن دويلات بلاد الرافدين اندهش الجميع بالنتائج التي أظهرت تقدم وتحضر سكان بلاد الرافدين منذ فجر التاريخ وسبقهم للإغريق بآلاف السنين لا سيما وأن "الأساتذة الكلاسيكيين انبهروا من نتائج الحفريات وأدركوا مدى اعتماد الحضارة الإغريقية على منجزات الشرق الحضارية والكم الهائل من الفكر والفن والعلوم الشرقية المتغلغلة في الحضارة الإغريقية بفضل الحضارة الرافدية" 63 ، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن تأثير الحضارة الرافدية على الحضارة الإغريقية لم يكن عن طريق البحر والتجارة فقط كما ذكر -ديلابورت- حينما أشار إلى أن الحضارة الرافدية قد أثرت على الشعوب اليونانية عن طريق "الشاطئ السوري وآسيا الصغرى في عهود مختلفة قبل عصر حمورابي وقد وصل أثر منجزاتها الحضارية إلى قبرص وربما إلى كريت" 64. وإنما أيضاً عن طريق هجرة علماء الإغريق إلى بابل الذين نهلوا من علومها ونقلوا منجزاتها الحضارية إلى بلادهم والتي أضحت في ذلك الوقت قبلة للعلم والمعرفة كطاليس وفيثاغورس وديودور الصقلي المؤرخ الإغريقي الشهير "الذي اعتمد في جمع معلوماته الدقيقة على تجواله وانتقاله إلى مصدر الحدث وكانت حصيلة ذلك تأليف (المكتبة التاريخية) الذي يضم أربعين كتاباً وضع فيها أخبار الشرق القديم وتاريخ اليونان والرومان منذ أقدم العصور حتى القرن الأول ق.م" 65

بيد أن الإغريق لم يتوقفوا عن اقتباس مظاهر الحضارة الرافدية وإنما استمرت عمليات اقتباسهم وازدادت خلال الفترة الممتدة من القرن الثالث ق.م إلى القرن الأول ق.م لا سيما فترتين زمنيتين الأولى "فترة عصر البطولة ما بين 400-600 ق.م والتي عرفت بفترة العلم الأيوني، والفترة الثانية ما بين 330-120 ق.م بعد وصول

62 ديلابورت، سابق، ص362

63 - د. رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص147

64 ديلابورت، سابق، ص361

65 ماتيف، سابق، ص155

الاسكندر الكبير إلى سدة الحكم وإخضاعه اليونان وفارس وبابل ومصر لسلطانه واختلاط الإغريق بشعوب الشرق القديم وانتشار الفلسفات الرواقية ذات الأصل الشرقي التي غيرت قناعاتهم وآرائهم تجاه الشعوب الأخرى التي كانوا يعتقدون بأنها غير متحضرة وأن اليوناني هو سيد العالم فأصبحوا من بعد الفتح المقدوني ينادوا بوحدة البشر مما انعكس على الفلسفات اليونانية في العصر الهلنستي⁶⁶ حيث ساد الاعتقاد آنذاك أن الشعوب البربرية هي من لا تتحدث اللغة اليونانية وهي نظرة عنصرية فوقية تلاشت مع مرور الزمن لدى سكان اليونان بعد احتكاكهم بالشعوب الأخرى واكتشاف منجزاتهم الحضارية التي لم يكونوا قد عرفوها بعد فاقتبسوا منها، ونادوا بوحدة اليونان مع الشرق القديم فاختلطت العلوم ببعضها وتأثر اليونانيون بمظاهر الحضارة الرافدية وأثروا بها أيضاً ونقلوا أفكارهم ومنجزاتهم الحضارية والفلسفية إلى الشرق خلال الفترة الهلنستية -من بعد فتوحات الإسكندر وحتى قيام الإمبراطورية الرومانية- فتطورت العلوم والفنون والآداب بعد تفاعل الشعوب مع بعضها البعض وتبادل خبراتهم ومنجزاتهم الحضارية، ومن شدة تأثير الإغريق بسكان بلاد الرافدين خلال فترة حكم الإسكندر والحكومات التي جاءت من بعده أن اتخذ السكان "إلى جانب الاسم البابلي الأصلي اسماً يونانياً أيضاً حيث وجدت نصوص تثبت بأن الأسر في هذه مدينة أوروك أصولهم بابلية من جهة ومرتبطين بالحكومة السلوقية من جهة أخرى مثل (أنو-أوبالط) البابلي الأصل لكنه كان يحمل لقب إغريقي (كيفالون)⁶⁷

وفي مجال الفلك الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالحساب والهندسة والدين؛ بسبب الحاجة إلى حساب الزمن وقياس المسافات والأبعاد لا سيما وأن الحضارة الرافدية كانت حضارة زراعية تركزت على ضفاف نهري دجلة والفرات؛ لذا استلزم ذلك حساب مواعيد الفيضانات وكسوف الشمس والقمر ومواعيد هطول الأمطار وأوقات انقلاب الفصول الأربعة حتى يستطيع الفلاحين زراعة أراضيهم، إضافةً إلى ممارسة سكان المنطقة التجارة فظهرت الحاجة إلى إجراء العمليات الحسابية وإلى الرصد الفلكي الدقيق للطقس ومراقبة أمواج البحار من أجل ملاحاة السفن التجارية، وعلاوةً على ذلك الحاجة إلى مراقبة الأجرام السماوية لمعرفة أحداث السماء التي كانت تنعكس آثارها على سكان الأرض حسب اعتقادهم الشعبي القديم، ومحاولة معرفة رغبات الآلهة والتقرب منها وإمكانية

66 د.علي، محمود، الأصول الشرقية للعلم اليوناني، جامعة أسبوط، ط1، 1998، عين للدراسات والبحوث ، ص152

67 د.الصالح، صلاح، ج2، سابق، ص324

التنبؤ بمستقبل الملوك والأشخاص. ومن الثابت أن علم الفلك في بدايته قد تأثر بعلم التنجيم والعرافة والسعي إلى معرفة المستقبل والتنبؤ بالطالع، حيث ربطوا الظواهر الفلكية بالحوادث التي تقع على الأرض والتي تتسبب بمرض الملوك أو موتهم أو فآل سيئ للبلاد ومازالت هذه الأفكار والخرافات منتشرة لدى البعض حتى وقتنا الحالي سيما عندما يثلون القمر باللون الوردي أو عندما تظهر ظواهر فلكية غريبة في السماء. وتذكر لوائح الفلك البابلي مثل مجموعة (إينوما أنو إنليل) والتي تتضمن نصوص التنجيم والطوالع تنبؤات غير منطقية "كوقوع هجوم عسكري شمالي إذا شوهد كوكب عطارد في الشمال، وإذا أحاطت بالقمر هالة معتمة دل على ذلك على أن الشهر ماطر، وإذا كان المريخ مرئياً في شهر يوليو (تموز) كان ذلك إنذاراً بوقوع هجوم عسكري، وإذا دنا المريخ من الجوزاء كان ذلك إنذاراً بموت الملك ووقوع الفتن والفوضى التي تعم البلاد وغير ذلك من التنبؤات الغريبة في التراث البابلي"68، وحتى يومنا هذا ما زال البعض في زمننا المعاصر يعتقد أن هناك علاقة بين الأجرام السماوية والأحداث التي تحدث خلال مسيرة حياته وهو ما يسمى (توقعات الأبراج) المستمدة من بابل بتقسيم السماء إلى اثنتي عشر كوكباً وقد انتقلت هذه الفكرة إلى الإغريق الذين بدورهم طوروها واستخدموها في علم التنجيم الغربي بعدما نقلوها إلى الرومان حيث سجل شيشرون قد سجل في كتابه (التنجيم) قسماً لا يستهان به من العرافة البابلية.69 ، وقد وجدت الباحثة في القرآن الكريم ما يؤكد وجود السحر في بابل واستخدامه بكثرة وإقبال الناس على تعلمه حيث قال الله تعالى: "وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون بين المرء وزوجه وما هم بضارين من أحد إلا بإذن الله"70. ولا جرم أن علم الفلك الرافدي غني بالتنجيم والعرافة، وتعج آلاف النصوص المسمارية بالتنبؤات والطوالع لكن هذا لا يتيح المجال لبعض علماء الغرب بالنشكك بعلماء بلاد الرافدين واتهامهم بأن ابتكاراتهم الفلكية كانت تعتمد فقط على التنجيم والعرافة والسحر ويرفضون تسميتها علماً ويقدمون علم الفلك اليوناني على أنه علم فلكي واقعي. مثل المؤرخ بيرنت الذي يصف الفلك البابلي بأنه "قائم على أغراض تتعلق بالتنجيم مثل قراءة الطالع وما

68 د. علي، محمود، سبق ذكره، ص139

69 كونتنو، المدنيات القديمة، سابق، ص54

70 القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 102

إلى ذلك⁷¹. رغم أن ابتكارات علماء بلاد الرافدين قد اقتبسها الإغريق والرومان على حد سواء ونقلوها إلى أوروبا التي مازالت حتى اليوم تستخدمها وستأتي الباحثة على ذكرها بالتوالي. ومن الطبيعي أن يبدأ أي علم بدلائل قليلة ومعلومات ضئيلة وأسس بسيطة يتخللها الخرافات والتنبؤات والتحليلات حتى يتقدم عن طريق التكرار والتجارب. وهذا ما حدث لعلم الفلك الرافدي حيث طرأ عليه تطورات كثيرة في عهد الملك البابلي "نبوخذ نصر 604-562 ق.م حيث أصبح علم الفلك أكثر علمية ومنهجية من ذي قبل ووثقت الملاحظات بدقة لا متناهية"⁷². ولا شك أن علم الفلك قد لاقى رواجاً لدى البابليين حيث كانت بابل آنذاك موطناً لعلم الفلك وقبلة للعلماء حيث وضع علماء الفلك البابليين أسس هذا العلم بالاعتماد على خبراتهم وتجاربهم و"تبنى الآشوريون هذا العلم في عام 1100 ق.م الذي ورثوه عن البابليين"⁷³ ومن المنجزات الفلكية لعلماء بلاد الرافدين أيضاً أنهم عرفوا الكسوف الشمسي والخسوف القمري وذكروا أسبابه، وعرفوا الكواكب السيارة وقسموها إلى اثنتي عشرة محطة، ورصدوا مواقع الأجرام السماوية وحددوا المسافات الفاصلة بين النجوم وبين الشمس والأرض، و"رصدوا مجموعات نجمية كثيرة وأهمها الزهرة حيث عرفوا أول وآخر ظهور الزهرة أي عند غروب الشمس وشروقها، وعرفوا أن القمر والكواكب سيارة لا تتعد في حركاتها مسافة بعيدة في خط العرض عن مدار الشمس في منطقة البروج"⁷⁴،⁷⁵ وألفوا جداول بأسماء النجوم وجداول بأشكال القمر وقد جاءت جداول الألهة والأقمار وخسوفاتها المرسومة من قبل (بنور يمانى) في بداية القرن الرابع ق.م صحيحة بشكل لا يصدق. ثم قام سيديناس وهو أعظم الفلكيين البابليين والذي زاول نشاطه الفلكي حوالي عام 375 ق.م بإعطاء الأمد المضبوط للسنة الشمسية بخطأ لا يزيد عن أربع دقائق و32,65 ثانية⁷⁶ ، ورغم بساطة الأدوات وبدائيتها فقد برع البابليون برصد البابليون الكواكب ودرسوا حركاتها " وتركوا لنا رقم فخارية تصف المسافات بين النجوم بدقة بالغة"⁷⁷. ومن أهم الأدوات الفلكية التي استخدمها البابليون: الساعة الشمسية أو المزولة الشمسية وهي أداة توقيت نهاري تعتمد على ضوء

71 - Burnet, Early Greek Philosophy, London, 1927, p21

72 د.الصالحى، ج3، ص168

73 د. رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص153

74 يتألف البرج البابلي من أربعة نجوم تظهر في بداية الانقلاب الربيعي وهو ما يشبه برج بيكاسوس Pegasus عند الإغريق كما في الأسطورة اليونانية بأن بيكاسوس هو الحصان الأبيض المجنح وأخيه. للمزيد انظر: د.الصالحى، صلاح، ج3، سابق، ص117

75 د. علي، محمود، سابق، ص138

76 د. رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص154

77 كوننتو، سابق، ص53

الشمس ويستخدم عصا مستقيمة أفقية يتحدد الوقت من طول ظلها على الدائرة إضافةً إلى الساعة المائية وهي أداة لقياس الوقت تعتمد على خروج الماء وجريانه ووضع بدل الماء لاحقاً الرمل وسميت الساعة الرملية وقد شاهد "هيرودوت في بلاد الرافدين الساعة الشمسية إضافةً إلى رقم فخاري يعود إلى تاريخ 700 ق.م نقش عليه إرشادات استخدام (الغنومونا) الساعة الشمسية، وقد عرف الإغريق هذه الساعة الشمسية أثناء توثيق علاقاتهم التجارية مع الشرق"78. وجدير بالذكر أن العلماء البابليين والآشوريين هم أول من قسم الأسبوع إلى سبعة أيام والدليل في ذلك أن هذا التقسيم يعود إلى معتقداتهم الدينية حيث كانت آلهة الفلك التي عبدوها تتألف من سبعة آلهة ونشأت هذه العقيدة من أصل ديني شرقي مقدس نسبةً إلى الكواكب السيارة السبعة التي عرفوها مع الشمس والقمر وذكرت في نصوصهم المسمارية كالتالي: شمس أو شمش (الشمس)، سين (القمر)، مردوخ (المشتري)، نيرغال (المريخ)، عشتار (الزهرة)، نابو (عطارد)، نينورتا (زحل). وقد حفظت هذه الأسماء في تسميات الأيام باللغات الألمانية والفرنسية والإنكليزية ولغات أخرى79. فيوم الأحد هو يوم الشمس ويوم الاثنين يوم القمر، والثلاثاء المريخ، والأربعاء عطارد، والخميس المشتري، والجمعة عشتار وأخيراً السبت زحل. وقد اختلفت ألفاظ بعض الأيام بعد انتقالها إلى الرومان لكن بقي يومي الأحد والاثنين محافظين على الأصل البابلي، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن انتقال المفردات البابلية لم تقتصر على أسماء الأيام فقط بل شمل مجالات كثيرة منها استخدام كلمة أسطرلاب Astrolabe والتي ترجع إلى أصل إغريقي إلا إن "الفكرة والمبدأ من صنع الفلكيون في بلاد الرافدين ويعد أولى المحاولات العلمية لمعرفة المعلومات الفلكية عن الأجرام السماوية"80، ومنها انتشرت صناعته إلى كل حضارات العالم إضافةً إلى استخدام كلمة "تالانت" وهي وحدة الوزن المستخدمة في عصرنا الحالي لكن في الواقع تعود أصولها إلى بابل حيث استخدمت كوحدة نقدية في المعاملات التجارية، وهناك أيضاً كلمة (خيروقيم) ذات الأصل البابلي والتي تستخدم في التوراة وفي تراتيل الكنيسة"81

78 ماتيفيف، سابق، ص207

79 ماتيفيف، سبق ذكره، ص208

80 د.الصالح، صلاح، سابق، ج3، ص171

81 ماتيفيف، سابق، ص206

ومن أعظم الابتكارات الرافدية في مجال الفلك (التقويم الفلكي القمري) الذي اعتمد منذ زمن السومريين ويستند إلى حركة القمر ودورانه حول الأرض، وهو أولى التقاويم الفلكية في العالم وصار "أنموذجاً للتقاويم الفلكية العبرانية واليونانية والرومانية حتى منتصف القرن الأول ق.م" 82 التي اعتمدت على حركة القمر وتعدد أشكاله خلال الشهر، وما يميز التقويم الرافدي أنه تقويم فلكي شرقي ما زال يستخدم حتى اليوم لدى العرب والبلاد الإسلامية ويعرف بالتقويم الهجري مع إجراء تعديلات بسيطة عليه حيث كان البابليون يقسمون الشهر القمري إلى "29 أو 30 يوماً وتتألف السنة القمرية من 384 يوماً ولكي يوافقوا بين السنة القمرية والشمسية التي تعد أطول من القمرية استخدم البابليون اثني عشر شهراً قمرياً مع إضافة شهر ثالث عشر عند الحاجة" 83 وكان الكهنة في المعابد (الزقورات) 84 يراقبون حركة القمر ويحسبون توقيت ظهوره واختفائه ويبلغون الملك بذلك ليقوم بدوره بإعلان بدء الشهر ونهايته، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن بداية "ظهور القمر الجديد والبدر أو غياب الهلال كان مناسبةً للاحتفالات الدينية ففي الحالتين الأوليتين يقوم الكهنة بتقديم الأضاحي في القصر الملكي بأمر من الملك، وفي اليوم الذي يغيب فيه الهلال فهو يوم الحزن" 85 وإذا انتقلنا للحديث إلى ما نقله اليونان من منجزات حضارية رافدية إلى بلادهم والاستفادة منها لا ينتهي الحديث بسبب كثرة الاقتباسات كالأدوات الفلكية المستخدمة في رصد الكواكب والقمر والشمس، ونقل التقويم القمري السومري والبابلي للإغريق واليهود على حدٍ سواء ومنها انتقل إلى أوروبا في زمن الرومان ثم أجروا عليه تعديلات كثيرة حتى ابتكروا تقويم خاص بهم، حتى أن الأفكار الفلكية البابلية والكلدانية اقتبسها الإغريق حيث ذكر سارتون "أن الأفكار التجسيمية التي ابتكرت من بابل قد أخذها اليونانيون ودمجوها بفلسفات الفيثاغورثيين والأفلاطونيين منذ القدم" 86. حيث استفاد علماء الإغريق بعد نشوء حضارتهم من حضارة ما بين النهرين وكونوا من علومها أسس الحضارة الإغريقية، وكانت النتائج التي حققوها في مجال الفلك بفضل استنادهم إلى الفلك البابلي والكلداني. ولقد استمر أثر العلوم الفلكية للحضارة

82 د. علي، محمود، سابق، ص138

83 د. علي، محمود، سابق، ص137-138

84 تعتبر الزقورات (المعبد المدرج) أو ما يشبه البرج هي المرصد الفلكي للمدينة حيث يتم الرصد يومياً لتحديد مسار الشمس الظاهري والنهاري ومواقع النجوم وأشكالها، وتتكون الزقورة من سبعة طوابق مبنية على شكل مصطبة وكل طابق يمثل كوكباً سماوياً. د. الصالحي، ج3، ص170

85 ديلايورت، سابق، ص236

86 د. علي، محمود، سابق، ص145. وانظر أيضاً سارتون، جورج، تاريخ العلم، 2010، القاهرة، ج5، ص179

الرافدية على بلاد الإغريق طيلة القرنين الخامس والرابع ق.م لكنها ازدادت بكثرة خلال القرنين الثاني والأول لا سيما خلال فتوحات الإسكندر المقدوني في المشرق العربي في الألف الأولى قبل الميلاد واختلاط الإغريق بسكان بلاد ما بين النهرين وقراءة علومهم ونقلها إلى بلادهم حيث يذكر التاريخ الإغريقي أنه "خلال فتوحات الإسكندر أرسل كاليستان إلى خاله أرسطو الكشف الفلكية الرافدية الجارية منذ 1900 سنة ومن خلال اطلاع أرسطو عليها استطاع التوصل لإثبات كروية الأرض، واستطاع أن يبرهن على أن حافة الظل أثناء خسوف القمر مستديرة دائماً، وأن الإنسان إذا سار شمالاً أو جنوباً تغير موقع النجوم فتختفي النجوم التي رآها وتظهر نجوم جديدة" 87 ولا بد من الإشارة هنا إلى أن بابل كانت قبلة العلم خلال حكم الإسكندر الكبير، وقد ترجم علماء بابل مؤلفات حضارة ما بين النهرين القديمة إلى اليونانية، وكتب علماء ما بين النهرين على عهد الإسكندر مؤلفاتهم باللغة اليونانية أيضاً بسبب اعتبارها اللغة الرسمية في الدوائر الحكومية آنذاك كالمؤرخ "بيروسوس كاهن معبد بابل الذي ترجم مؤلفات اعلم الفلك والتنجيم البابلي إلى اليونانية، ووضع كتاباً يتألف من ثلاثة أجزاء عن تاريخ بابل باللغة اليونانية أيضاً" 88، وقد برز العديد من علماء الفلك في بلاد ما بين النهرين خلال الألفية الأولى ق.م ولعل أشهرهم هو "نبو - ريماني (نبوريانوس) العالم الكلداني الأصل الذي عاش في حوالي 500 ق.م وتميزت جداول الأهلة والأقمار وخسوفاتها التي رسمها بأنها صحيحة للغاية، وهو الذي اكتشف النظام A في الحساب القمري البابلي، إضافةً إلى كدينو (كيدناس) أعظم الفلكيين البابليين في بلاد ما بين النهرين اشتهر عام 375 ق.م وحدد الأمد المضبوط للسنة الشمسية بفارق لا يزيد على أربع دقائق و32 ثانية" 89. وإذا كان اليونانيون قد اقتبسوا أسس حضارتهم من الحضارة الرافدية أو المصرية فهذا لا يعني إلغاء منجزاتهم الحضارية وإنكار فضل قدراتهم على تطوير العلوم الفلكية البابلية والكلدانية وابتكار معطيات إبداعية ساهمت في التطور العلمي الفلكي لكننا بلا أدنى شك نحاول إمطة اللثام عن حقيقة العلوم الإغريقية وأصولها الشرقية التي حاول العديد من علماء الغرب إنكار أسسها، وفي المقابل نجد أن العديد من المؤرخين والعلماء في الغرب اعترفوا بفضل حضارات الشرق الأدنى القديم على الحضارة الإغريقية وخير دليل على ذلك كتاب "المجسطي للعالم

87 د.علي، محمود، سابق، ص143 وانظر أيضاً سارتون، جورج، سابق، ج1، ص46، 47

88 د. رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص146

89 د.الصالح، صلاح، سابق، ج3، ص192

اليوناني بطليموس الذي أكد على أهمية علوم البابليين والمصريين الفلكية والتي ساهمت في تقدم العلم الفلكي اليوناني، ويوضح أن نظريات هيبارخوس عن حركات الأجرام السماوية والقمر مأخوذة من كشف الأرصاد البابلية، كما برهن الأب كلوجر كذلك على أن طول الشهر والوسطى والقمرى والنجمى والفلكى التى ابتكرها هيبارخوس ما هي إلا علوم فلكية بابلية" 90

وفي مجال الطب الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين والصحة حيث فسرت الأمراض على أنها غضب الآلهة على البشر ولا جرم أن الإنسان القديم رغب في التخلص مما يعانيه من الألم والأمراض التي عانى لمعرفة أسبابها فسعى إلى كشف العلاج وحلول للمعاناة التي توصل إليها نتيجة التكرار والخبرة، وكان الطب في بدايته بسيطاً ساذجاً يستند إلى الطقوس السحرية والدينية لاسترضاء الآلهة باعتبارها مصدر المرض والشفاء على حد سواء ويعتمد على التمايم والرقى للوقاية ومع مرور الزمن بدأ يتجه نحو منحى أكثر دقة وعلمية حتى ظهر الطب البابلي التجريبي الذي امتاز بالتوجه نحو الطب والعلاج أكثر من توجهه نحو السحر في شفاء الأمراض. ولقد اتخذ الطب في بلاد الرافدين مجالين مختلفين بيد أنه لا يمكننا أن نعزلهما عن بعضهما البعض فهما مرتبطان ببعضهما خلال مرور الإنسان بمرحلة العلاج والاستشفاء من الأمراض أولها: الطب الكهنوتي حيث يقوم الكهنة بتطهير جسد المريض روحياً حتى ترضى عنه الآلهة من خلال طرد الشياطين والأرواح الشريرة التي كانوا يعتقدون بوجودها داخل جسم المريض فيمارسون طقوسهم الدينية والرقى السحرية ويقىمون الصلوات ويدعون الآلهة ويقدمون القرابين لها، ثم ينتقل المريض بعد ذلك إلى المجال الثاني من الطب وهو الطب العلاجي حيث يدخل المريض للعلاج بعد تطهير جسده روحياً فتكون الآلهة راضية عنه لما قدمه من تضحيات وتضرعات لها وهنا يقدم الأطباء له نوعين من العلاج حسبما تقتضي حالته الصحية إما باستخدام العقاقير والأدوية والأعشاب الطبية التي اكتشفوا تأثيرها وفعاليتها من خلال الممارسة والخبرات المتكررة، أو باستخدام العمليات الجراحية التي أحرزت تقدماً هائلاً ولكن ليس بالمعنى الحالي للطب فقد اتصف الطب البابلي بأنه "طباً تجريبياً بحثاً حيث تقدم

السحر على الطب في مجال الشفاء من الأمراض"91، وكان السحر آنذاك علماً قائماً بحد ذاته وحظي بأهمية عظيمة في سائر البلاد سيما وأن الناس كانوا يرتعدون من السحرة التي كانت تسلط الشياطين على البشر التي تغضب عليهم، وهم وحدهم من يستطيع حمايتهم من هذه الشياطين والأرواح الشريرة، وبشكل عام كان السحر "يرتبط بقوانين صارمة وكان الساحر غالباً يطمح إلى امتلاك قوى الطبيعة والآلهة للدفاع عن ذويهم من الشياطين والسحرة"92، وكان المرض يصيب الإنسان كما أشارت الباحثة سابقاً نتيجة غضب الآلهة أو بسبب "خطيئة ارتكبتها الإنسان في حياته مما جعل الآلهة تغضب عليه وتوجه ضرباتها على شكل مرض أو مصائب"93

وجدير بالذكر هنا أن الطب ليس في بلاد الرافدين فقط وإنما في كل المجتمعات القديمة كان بسيطاً ويميل إلى السحر والخرافات وقد رأينا ذلك أيضاً في الطب الإغريقي والطب الروماني حتى في طب العصور الوسطى حيث كان الإنسان المجنوم يسجن في غرفة مظلمة ويضرب كل حين لتخرج من جسده الأرواح الشريرة؛ لذا عندما تتحدث الباحثة عن تقدم سكان بلاد ما بين النهرين في المجال الطبي فهي لا تقصد الطب الحالي وإنما تقصد التقدم الطبي مقارنةً بالمجتمعات القديمة المجاورة لبلاد الرافدين على الرغم من أنه لم يعثر بين المكتشفات الأثرية على أي أداة استخدمت في مهنة الطب وإنما وجد "جماجم مقبوبة في مدينة لكش يؤكد أن أطباء بلاد الرافدين كانوا على خبرة في مجال الطب لا سيما في تشريح الرأس"94، إضافةً إلى اكتشاف لوحات جدارية نحت عليها الأطباء أنواع المرض وطريقة علاجه؛ لذلك بلغت بلاد الرافدين شهرةً عظيمة في التطور الطبي آنذاك حيث قام الأطباء بإجراء عمليات جراحية لم نسمع بها في بقية البلدان والحضارات القديمة حيث شخص أطباء بلاد الرافدين الأمراض المستعصية والمزمنة فقد احتوت "بعض الرقم الفخارية التي اكتشفت في بلاد الرافدين على وصف بعض أمراض الرأس والعيون والأذن والجهاز التنفسي والأعضاء الداخلية كالكلب والقلب والأعضاء التناسلية والأطراف وطريقة العلاج ووصف الدواء وطريقة استعماله"95. وأنشئت في بابل مدارس خاصة لتعليم الطب بشكل علمي حيث اشتهرت المدرستان الطبيتان في أوروك وبارصيبا واختصتا في تدريب الأطباء في بابل

91 ديلاپورت، سابق، ص238

92 كونتنو، سابق، ص56

93 د.رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص154

94 د.الصالح، صلاح، سابق، ج3، ص194

95 د.علي، محمود، سابق، ص19

وتعليمهم أصول الطب"96 وصحيح أن الطب بدأ في بدايته باستخدام السحر والشعوذة لكنه أحرز تقدماً هائلاً فيما بعد لا سيما في عصر "حمورابي 1728-1686 ق.م عصر القوة والازدهار في كافة المجالات فقد ازدهرت في عصره المفاهيم الطبية والتي بنيت على أسس عقلية منطقية بعيدة عن السحر والكهنوت"97 ، واعتمد على العقاقير والأدوية الطبية والأعشاب الطبيعية، وتضمنت قوانين حمورابي أيضاً تشريعات تخص الطب والأطباء من باب الحفاظ على حياة المرضى وعدم التلاعب بأرواحهم حيث عوقب الطبيب على موت المريض بقطع يده ففي المادة 218 إذا سبب الطبيب وهو يفتح بسكين برونزية جسد مريض ما الموت لهذا الإنسان أو هو يزيل الماء الأزرق (كاتاركتا) من عين المريض ما بسكين برونزية تسبب في إعطال عينه فيجب قطع يده.98، وهذا يدل على إحرار الطب تقدماً كبيراً في العصر البابلي من خلال الاعتناء بالمرضى ومحاولة الحفاظ على حياتهم ومعالجتهم، ولا جرم أن معاقبة الطبيب على أخطائه دليل على تمرس الأطباء في مهنتهم بشكل جيد وكذلك الأمر في العصر الآشوري حيث قدر واضعو قانون ممارسة الطب المريض وأوجدوا الحلول لعلاجهم طبياً حيث "منع رسمياً في بلاد آشور وبابل تشريح جثث الموتى لغرض الدراسة وأوجدوا بديلاً لها بدراسة جثث القتلى في ساحات المعركة وعلاج الجرحى حتى يكتسب الأطباء خبرة عملية"99؛ فاكسبوا خبرات طبية هائلة مكنتهم من إحرار تطور علمي في مجال الطب وإجراء عمليات جراحية متقدمة. ومن أشهر الأطباء البابليين والآشوريين الذين اكتسبوا شهرةً واسعة في بلاد ما بين النهرين وفي أنحاء العالم وعرفوا عن طريق أختامهم الطبيب "(لوكال-أدين-نا) من مدينة أور وختمه ما يزال محفوظاً حالياً في متحف اللوفر، وأيضاً الطبيب الآشوري (ماكور - مردوخ)" 100 ورغم تسربل الطب بالخرافات إلا أنه اتسم بميزات علمية طبية رغم بساطة الأدوات، وكان الأطباء يستدعون من البلاط البابلي والآشوري لعلاج الملوك في الدول المجاورة، وقد اقتبس الإغريق المنجزات الطبية للحضارة الرافدية عن طريق ما نقلوه من وثائق وكتب وما سجلوه من ملاحظات من قبل علماء اليونان أثناء زيارتهم إلى بابل. ومن أشهر الممارسات الطبية التي شاهدها هيرودوت في بابل لعلاج

96 ماتيفيف، سابق، ص 135

97 د.علي، محمود، سابق، ص79

98 ماتيفيف، سابق، ص135

99 ماتيفيف، سبق ذكره، ص 136

100 د.الصالح، صلاح، سابق، ج3، ص199

المرضى من ذوي الحالات المستعصية "أن الطبيب عندما لا يستطيع إنقاذ المريض كان ينقله ليقدم له المارة الذين سبق وأن عانوا من هذا المرض النصائح الطبية للعلاج"101. وهذا يعتمد بالدرجة الأولى على التجريب. ونتيجة احتكاك اليونان بالحضارة الرافدية في بابل والتعرف على المنجزات الطبية المتقدمة بدأ علماء اليونان بالبداة بإصلاحات شاملة للمجال الطبي اليوناني والذي عرف "بالإصلاح الأبقراطي العظيم للطب"102 في القرن الخامس ق.م حيث سعى الأطباء اليونان بالاعتماد على تفسيرات عقلية ومنطقية لتفسير الأمراض والابتعاد عن الخرافات والسحر والشعوذة المنتشرة آنذاك في المجتمعات القديمة .

أما في مجال الرياضيات التي عدت من أكثر المجالات العلمية قدماً في الظهور بسبب حاجة الإنسان القديم إلى حساب توقيته وعد الأيام والشهور والسنوات ومعرفة مواعيد الفصول وتوقيت ظهور القمر وقياس المسافات والمساحات في الأراضي الزراعية وبين الأقطار والقرى والمدن القديمة، والحاجة الملحة لإجراء معاملاته في البيع والشراء والتجارة، وعرف من فروعها قديماً الحساب الذي ظهر قبل اختراع الكتابة ويتضمن العمليات الحسابية كالجمع والطرح والضرب والقسمة، والهندسة التي ظهرت لاحقاً بسبب تطور الإنسان وبنائه المدن والقصور وشق الترع والأقنية المائية، وأخيراً الجبر الذي يتضمن استخدام الأعداد ضمن المعادلات والمسائل الرياضية وهو مفهوم أوسع من الحساب ويعد الجبر مرحلة متقدمة عن الحساب. وكان معظم علماء الغرب كما اعتدنا ينسبون فضل نشأة الحساب لليونانيين القدماء على الرغم من ظهور الحضارة الرافدية قبل الحضارة الإغريقية بآلاف السنين وعلى الرغم من اكتشاف الرقم الطينية التي تحتوي على العمليات الحسابية التي استخدمها سكان بلاد الرافدين والتي كانت أعلى مستوى من المستوى اليوناني بكثير فقد نهل علماء الإغريق مبادئ علم الرياضيات الشرقية القائمة على أمور علمية بحتة والتي "لم يقتصر فيها البابليون والكلدانيون على التجارب العلمية وإنما بلغوا فيها درجة التنظير حتى أن نظريات العالم الرياضي اليوناني فيثاغورث قد توصل إليها علماء الرياضيات في بلاد الرافدين قبله بكثير"103

101 ماتيف، سابق، ص 134

102 د.رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص155

103 د. علي، محمود، سابق، ص31

وعلاوةً على ذلك فقد عرف سكان بلاد الرافدين العمليات الحسابية الأربعة سالفة الذكر ورتبوا الأعداد في منازل الآحاد والعشرات والمئات ورسوموا أعدادهم برموز مسمارية أفقية أو عمودية، واكتشفوا قوانين إيجاد مربعات الأعداد ومكعباتها، وابتكروا النظام العشري والستيني اللذان مازالا يستخدمان حتى يومنا هذا حيث مثلت الأعداد الأقل من ستين بنظام عشري بسيط والأكثر من ستين بنظام ستيني، وجدير بالذكر أن النظام الستيني ظل شائعاً حتى اكتشفت الأرقام الهندية، وكذلك فإن تقسيم الساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية والدائرة التي نستخدمها اليوم في الهندسة ما هي إلا علوم بابلية كان علماء بابل يقسمون الدائرة إلى نظام ستيني من خلال تقسيمها إلى ستة أجزاء متساوية كل جزء يمثل ستين درجة ومجموعها جميعها 360 درجة وقد أكد ذلك كونتو حيث أشار إلى أننا "ورثنا عن البابليين تقسيم الدائرة إلى ستين درجة ثم تقسيمها إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية، وقد كان وقد كان النظام العددي البابلي كان مضاعفاً عشرياً" 104 ، وطور علماء ما بين النهرين علوم الحساب حتى بلغوا مبلغاً عظيماً في مجال الجبر فحلوا المعادلات التربيعية من الدرجة الثانية. وفي مجال الهندسة عرف علماء بابل الرياضيين حساب مساحة المثلثات والدائرة والمربع والمستطيل وشبه المنحرف بطرق علمية بسيطة وعرفوا مربع الوتر في المثلث قائم الزاوية، وعرفوا القليل عن المتواليات العددية والهندسية، إضافةً إلى أنهم قسموا محيط الدائرة إلى ستة أقسام متساوية وإلى 360 قسماً متساوياً وعرفوا أن الدائرة يتشكل فيها ستة مثلثات متساوية الأضلاع ومقدار كل زاوية فيها 60 درجة، وقد تضمنت الألواح المكتشفة في "مدينة أشنونا (تل أسمر) نصاً هندسياً مشابهاً لنظرية فيثاغورث" 105، وفي هذا دليل على اقتباس الإغريق النظريات الهندسية من الحضارة الرافدية حيث نشر الإغريق نظرية فيثاغورث بعد "ألف عام من نظرية حضارة ما بين النهرين حيث لاحظ فيثاغورث من لوحات بلاد ما بين النهرين أن صفات أي من هذه الثلاثيات فيها مربع العدد الأكبر يساوي مجموع مربعي العددين الآخرين" 106. ولا بد من الإشارة هنا إلى وجود علماء غربيين اعترفوا بفضل الحضارة الرافدية على الحضارة الإغريقية في مجال الرياضيات ومنها أن فيثاغورث انتقل إلى مصر وبابل من أجل التعلم

104 كونتو، سابق، ص53

105 - د. رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص153

106 د. علي، محمود علي، سابق، ص107

واكتساب المعرفة وقد أورد قصة سفره العالم سارتون 107، إضافةً إلى العالم جورج رو الذي أقر بفضل الحضارة الرافدية على الحضارة الإغريقية والحضارة الأوربية بشكل عام فيقول: بالنسبة لنا نحن أبناء القرن العشرين يجدر بنا أن نعترف بديننا لسكان وادي الرافدين القدماء فإن من العدل أن نتذكر بأننا ندين للبابليين بالمبادئ الأساسية لرياضياتنا وفلكنا بضمنها نظامنا في الأرقام ذات القيمة الرتبوية والنظام الستيني الذي ما نزال نقسم بواسطته دائرتنا وساعتنا. 108 ، ويؤكد ذلك أيضاً العالم الرياضي بيل Bell ويشير إلى تأثير الرياضيات البابلية على الرياضيات الإغريقية وبشكل خاص على العالم اليوناني فيثاغورث حين زار بابل وأخذ عن البابليين الدعوة إلى ضرورة استخدام البرهان في الرياضيات فأشار إلى أنه "ليس من العدل أن ينسب فضل البرهان الرياضي إلى فيثاغورث واليونانيين لأن البابليين هم من سبقهم إلى ذلك وهم أول من أدخل البرهان في الرياضيات وقد نقلها عنهم فيثاغورث عندما زار بابل 109، ويشهد بفضل حضارة بلاد الرافدين علماء الإغريق ذاتهم كأفلاطون وهيرودوت حيث يؤكدان أن اليونانيين قد اقتبسوا من علم البابليين "أصول الرياضيات وتناقلوها بعدما أضافوا عليها استنتاجاتهم ونظرياتهم لا سيما علم الهندسة التي وثقوها بنظرياتهم الهندسية وأقاموا عليها الحجج والبراهين" 110 حتى أن التنقيبات الأثرية في بلاد ما بين النهرين أنصفت علماء بابل ودورهم العلمي المتقدم عن غيرهم من الشعوب المجاورة في علوم الحساب والهندسة والجبر الذي بلغوا فيه شأنًا عظيمًا لا يقل عن الشأن الذي بلغه علماء مصر الرياضيين حيث تدل الآثار التي اكتشفت في منتصف القرن التاسع عشر على تقدم البابليين في الرياضيات وذلك من خلال وثائق ولوحات تعود إلى فترات تمتد إلى حوالي 2000 ق.م وإلى فترات تاريخية من عصر الملك حمورابي وحتى عام 1600 ق.م وخلال فترة إمبراطورية بابل الجديدة في

عهد الملك نبوخذ نصر. 111

107 لقراءة قصة انتقال فيثاغورث إلى مصر وبابل انظر: سارتون، جورج، تاريخ العلم، ج1، ص417

108 د.رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص147

109 - Bell, Men of Mathematics, pelican Books, London, 1953, Bell 48, vol I. p18- 20

110 د.علي، محمود، سابق، ص112

111 - د.علي، محمود علي، سبق ذكره، ص104

ثالثاً. المجال الأدبي :

. نشأ الأدب الرافدي القديم في بلاد ما بين النهرين وبعده من أقدم الآداب المكتوبة في التاريخ البشري وأقدم إرث كتابي محفوظ، وكتب بالخط المسماري على الرقم الطينية والذي ابتكر في المنطقة ذاتها في الألفية الرابعة قبل الميلاد، واتصف بغناه بالملاحم البطولية والأساطير الدينية والشعبية التي تناولت قصص الخلق ونشأة الكون وحكايات القدماء، والعديد من النصوص الأدبية والدينية والقانونية والصلوات والنصوص السحرية والرقى والتعاويذ والوصايا وتعاليم أخلاقية والأمثال الحكيمة وأنشيد الآلهة وأنشطة السكان وأفكارهم ونمط معيشتهم وتقاليدهم الاجتماعية والحياة الروحية والعاطفية ومعتقداتهم الدينية تجاه الحياة والموت وتجاه قضية الخلود التي كانت الشغل الشاغل للحضارات القديمة أجمع. إضافة إلى رسائل سياسية عرفت بأدب المراسلة وهي عبارة عن "رسائل سياسية بين الحكام أو بين الوزراء تتضمن كيفية المعاملات وتذكر المعاهدات، ومن أهمها رسائل ماري ورسائل الملك حمورابي، ورسائل تل العمارنة¹¹² والسرغونيين، ومحفوظات أوغاريت¹¹³ وقبل الحديث عن الأدب الرافدي يجب أن نتطرق إلى أهم منجز ثقافي وأدبي إن صح التعبير ألا وهو الكتابة، ولا جرم أن الآداب استندت في البداية على النطق الشفوي في ظل غياب الكتابة التي ابتكرها السومريون في الألفية الرابعة ق.م لكن هذا لا يعني عدم وجود أدب بغياب الكتابة وإنما كان أدباً شفويّاً تتناقله الناس جيلاً عن جيل إلى أن ابتكروا الكتابة التصويرية التي استخدمت الرموز، ومن ثم الكتابة المسمارية حيث عثرت التنقيبات الأثرية على "نص مسماري يعود إلى 50 ق.م معروض في متحف بغداد فيه كتابات تصويرية، وعثر كذلك على أقدم وثيقة في أوروك (الوركاء) 114 تعود إلى نهاية الألف الرابع ق.م تتضمن كتابة صورية قبل أن تتطور إلى الكتابة المسمارية¹¹⁵. تعدّ الكتابة المسمارية أهم محصلة حضارية وأعظم إنجاز ثقافي وأدبي ابتكره سكان بلاد الرافدين لتوثيق تاريخهم ونشاطاتهم وعلومهم وتراثهم ولولاها لما استطاعوا تسجيل شيء وكان الزمن كفيلاً بأن يأكل ما تبقى من ذاكرة الأجداد مع مرور الوقت، فالكتابة المسمارية كانت أداة تدوين البشرية الأولى حيث

112 رسائل تل العمارنة: هي مراسلات شخصية متبادلة بين ملوك العالم القديم في زمن المنحوتب الثالث وأخانتون. انظر د. إسماعيل، بهيجة،

موسوعة حضارة العراق، سابق، ص 239

113 كوننتو، سابق، ص 60

114 أوروك: مدينة كلدانية بأرض الجزيرة اسمها الآن أوروكيو وبالعربية الوركاء. أحمد زكي، سابق، ص 17

115 د. رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص 149

ساهمت في نقل الثقافة والمنجزات الحضارية من الأجداد إلى الأبناء، وسعت إلى تقدم الإنسان وتطوره، وجدير بالذكر أن سبب تسميتها الكتابة المسمارية Cuneiform تعود إلى "العالم الإنكليزي البروفسور في جامعة أكسفورد ت. هايد عام 1700م" 116. حيث اشتقت من الكلمة اللاتينية Cunei والتي تعني مسمار و Form والتي تعني شكل وذلك أن العلامات المسمارية تتكون من رؤوس مدببة تشبه المسامير. 117 أما سبب تسمية الخط الذي ابتكره السومريون بالخط المسماري لأنه "يشبه الأسافين والأوتاد

وكتب فيه أيضاً اللغتين السومرية والأكدية" 118، ولم يكتب السومريون كغيرهم من الأمم على ورق البردي إلا بشكلٍ قليل؛ لعدم توفره بكثرة في بلاد الرافدين، وإنما اعتمدوا على الفخار الذي كانوا يجمعونه من ضفاف نهري دجلة والفرات ويغسلوه بالماء كي يخرجوا منه الأحجار والشوائب. وفي بادئ الأمر كتبوا بعضاً من القصب ثم كتبوا بوساطة مسامير معدنية بعد اكتشاف المعادن وكانت الرقم الطينية التي يُكتب عليها تجفف بالشمس أو في الأفران ثم تحفظ في مكتبات وفق ترتيب معين "في سلال مصنوعة من الطين والقصب، ومن أهم المكتبات المعروفة مكتبة آشور بانيبال" 119، ولولا هذه الرقم الطينية والخط المسماري لضاع الكثير من التاريخ ولما استطعنا معرفة الحقيقة والتعرف على الحضارة الرافدية وعلى مدنها لا سيما مدينة الوركاء (أوروك) "التائهة في الرمال والتي ذكرت في الكتاب المقدس باسم أرخ وكان الإغريق يسمونها أورخي" 120

وتعتبر الكتابة دليل صارخ على التحضر الثقافي والنضوج العقلي لسكان بلاد الرافدين فكان لها الفضل ليس على الإغريق فقط وإنما على البشرية جمعاء في نقلها من الظلام إلى نور الثقافة والتحضر حيث دلت التنقيبات الأثرية على "بعض النصوص السومرية التي كتبت بالحروف اليونانية مما يدل على أن اللغة السومرية كانت لغة محكية ومكتوبة في فترة الحكم اليوناني" 121، ولا بد من التأكيد على أن اليونان قد اقتبست الكتابة والحروف الهجائية من الساحل السوري وبالتحديد من الحضارة الكنعانية (الفينيقية) بعدما انتقلت إليها من بلاد الرافدين. ولا جرم أن

116 ماتيف، سابق، ص 16

117 د. رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص 149

118 سارتون، جورج، تاريخ العلم، ج1، ط1، القاهرة، 2010، العدد 1638، الجمعية المصرية لنشر المعرفة، ص 153

119 د. رشيد، عبد الوهاب حميد، سابق، ص 150

120 غولايف، سابق، ص 79

121 كونتنو، سابق، ص 18

الكتابة المسمارية انتقلت من الحضارة الرافدية إلى بقية الحضارات بفضل قرب بلاد الشرق الأدنى من بعضها البعض واحتكاكهم الحضاري المستمر، وأصبح الخط المسماري "في القرن الرابع عشر ق.م وسيلة لتدوين الرسائل المتبادلة بين الملوك والوزراء، وأصبحت اللغة الأكادية اللغة الدبلوماسية"122 على الرغم من أن الحضارة الرافدية كانت مزودة اللغة (السومرية-الأكادية) لكن اندحرت اللغة السومرية لاحقاً أمام الأكادية واقتصرت على المراسم الدينية فقط. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أولى النصوص في المنطقة كتبت بالخط المسماري وباللغة السومرية منذ فجر التاريخ حتى العصر الأكادي حين بدأت مدن دويلات سومر تسقط بيد القبائل العمورية التي جاءت من بلاد الشام -وقد أشارت إليها الباحثة في مقدمة الفصل- فتراجعت اللغة السومرية وتحولت الكتابة المسمارية "تدريجياً من اليسار إلى اليمين وكتبت بشكل أفقي" 123 لتحل محلها اللغة الأكادية التي ابتكرت في مدينة أكاد والتي كتبت بالخط المسماري لكن بحروف أبسط من السومرية، ثم تفرعت اللغة الأكادية إلى فرعين أساسيين: البابلية والآشورية. وعلى الرغم من ذلك فإن الآداب لم تدون إلا بعد مرور ألف عام على اختراع الخط المسماري الذي اقتصر على الأمور السياسية والقانونية، ولأن الأدب في بدايته كان ينشد شفهاً كما سبق وأشارت الباحثة، لذا فإن معظم الرقم الفخارية المدونة "بالآداب السومرية والبابلية والآشورية يعود تاريخ تدوينها إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد رغم أنها نضجت منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد"124. ومن المنجزات الحضارية أيضاً لمنطقة ما بين النهرين في المجال الأدبي انتشار الآداب بكل أنواعها التاريخية والشعرية والدينية والاجتماعية

وقصص الملاحم والبطولات والأساطير، بالإضافة إلى أدب الرثاء وأدب السخرية والأشعار. وجدير بالذكر أن النصوص الأدبية والتاريخية ظهرت منذ زمن عهد السومريين " فأول نص تاريخي ظهر في لاجاش حوالي سنة 2450 ق.م"125، ويجب أن نؤكد هنا أنه من غير الصحيح ما يروجه البعض أن الأدب السومري كان بسيطاً ثم تطور في زمن البابليين بل على العكس فغالبية الأساطير البابلية هي أساطير "ذات أصل سومري"126. حتى إن الأدب الملحمي وأدب الأسطورة قد نشأ على أيدي السومريين أيضاً ومنهم استقى البابليين والآشوريين أدبهم

122 إسماعيل، بهيجة، سابق، ص239

123 ماتيف، سابق، ص19

124 باقر، طه، ملحمة جلجامش، سابق، ص4

125 كونتنو، سابق، ص60

126 هوك، صموئيل هنري، الأساطير في بلاد ما بين النهرين، تر: يوسف عبد القادر، بغداد، 1968، دار الجمهورية، ص6

حيث تعود أقدم أسطورة وجدت في التاريخ إلى عهد السومريين وهي أسطورة "إنليل" إله الجو وأخته (ننخرساك) منذ حوالي 2400 ق.م¹²⁷ ، التي سنأتي لاحقاً للحديث عنها. فالسومريون ليسوا كما يصورهم البعض شعب بدائي وإنما كانوا شعباً متحضراً زحرت آدابهم بالمعتقدات الدينية التي تفسر الظواهر الكونية، وبالملاحم البطولية وهم أول من "شيد الزقورات" 128 المعابد غريبة الشكل¹²⁹ ؛ لذا لن تقارن الباحثة بين الأدب السومري والبابلي والأكادي والآشوري وإنما سنتحدث عن جميع الآداب باعتبارها أدب واحد ينتمي إلى حضارة واحدة وهي الحضارة الرافدية مع التطرق لأوصاف بسيطة كوصف الأدب ومضمونه والصور الاجتماعية والدينية التي جاء على ذكرها فعلى سبيل المثال الأدب البابلي والآشوري قد زخر بالصور المتنوعة عن الحياة الاجتماعية والمعتقدات الدينية وحوليات تاريخية كالأدب السومري وما زالت نصوصه محفوظة حتى اليوم في "متاحف أوربا وأميركا ويعود تاريخها إلى ما قبل 3000 ق.م حتى القرن الأول ق.م" 130

وعلاوة على ذلك فلقد اتسم الأدب الرافدي بسمتين لم نجدتهما في أي حضارة أخرى الأولى: أن الآداب الرافدية غنية ومتنوعة بالصور الاجتماعية والأمثال والحكمة والموعظة لدرجة كبيرة فكانت المرأة الصديقة التي عكست كثير من المعتقدات الدينية للسكان وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية ونظمهم السياسية، والسمة الثانية أن النصوص الأدبية الرافدية وصلت إلينا على هيئتها الأصلية دون تغيير على أيدي المترجمين والنساخ على عكس آداب بقية الحضارات التي اتسمت بوجود ترجمات مختلفة وترابط سيئ بين المقاطع والجمال وحذف بعض المقاطع حسب أهواء النساخ وهذا ما أكده الباحث العراقي طه باقر بأن آداب العراق القديم قد اتصف "بالقدم والأصالة كما كتب بأنامل السومريين والبابليين قبل 4000 عام ق.م مقارنةً بغيره من الآداب التي عانت من التحوير والتبديل على أيدي النساخ والجماعين"¹³¹، ومن أكثر الآداب الرافدية تأثيراً بالحضارة الإغريقية وبحضارات العالم القديم هو (الأدب الملحمي) الذي ظهر لدى السومريين واستمر تأليفه عند البابليين أيضاً، ولعل أكثر الملاحم شهرةً (ملحمة

127 د. رشيد، عبد الوهاب، سابق ، ص159

128 الزقورة: مبنية من اللبن ويغطيها من الأعلى درع سمكه 5,2 متر من الآجر المشوي المثبت بمحلول البتومين ومساحة أساسها 60×45 م وكانت تتكون في السابق من ثلاثة أنساق أو طوابق على الأقل ولكن لم يبق في الوقت الحاضر إلا الطابق الأول وجزء من الطابق الثاني.

غولايف، سابق، ص91

129 صموئيل، سابق، ص3

130 ديلاپورت، سابق، ص11

131 باقر، طه، ملحمة جلجامش، سابق، ص5

جلجامش) و(ملحمة إينوما إيليش) ولا بد من الإيضاح هنا أن هذا النوع من الأدب الذي يصف بطولات شخص ما عن طريق الشعر الطويل لا يُعرف في عصرنا الحالي لذا ستحدث الباحثة عن معنى الملاحم ومضمونها وإيضاح جوهرها ليتسنى للقارئ فهم معنى الملاحم ثم تتحدث عن تأثيرها بالحضارة الإغريقية.

فالملحمة هي نص أدبي سردي وشعر بطولي تتضمن قصة تصف مغامرات البطل والأحداث التي تجري معه متضمنة شخصيات عديدة تظهر في حياة البطل، وموضوعات إنسانية شغلت بال القدماء كالصداقة والحياة والموت والخلود مع تسليط الضوء على دور الآلهة في معاقبة البشر وقدرتها على إعادة إحياء الجنس البشري، والملحمة في اللغة العربية اشتقت من الفعل (لَحِم) أي ربط أو أحكم الشيء، وفي اللغة الإغريقية مشتقة من كلمة (Epos) والتي تعني حرفياً (عصر) وأدبياً معركة دامية خاضها بطل ما في موقعة عظيمة والملحمة (Epique) هي شعر بطولي يحكي قصصاً وبطولات¹³² ، وقد اتصفت الملاحم البطولية في بلاد ما بين النهرين بصفات متعددة وفقاً لرأي الباحث العراقي طه باقر حيث ذهب إلى أن ملاحم أدب العراق القديم تتميز "بكثرة التكرار والإعادة مما يبعث الملل لدى القارئ، واستباق الحوادث مما يحرك القارئ لمتابعة الأحداث، إضافةً إلى أن الملحمة قد تميزت بأن مقدمتها تشبه خاتمته وهي بذلك تشبه في هذا الأسلوب الأدبي في مزامير داوود في التوراة لا سيما المزمور الثامن¹³³. إلى جانب ذلك فإن الملحمة في الواقع تتألف من عدة قصص سومرية دمجها الشعراء البابليون ليكونوا منها ملحمة متكاملة عكست من خلال سردها الأدبي صوراً متنوعة عن حياة سكان بلاد ما بين النهرين، واستطاع العلماء أن يكتشفوا من خلالها الحياة الاجتماعية في المنطقة والعقائد الدينية السائدة، ونمط حياة السكان العاطفية والفكرية، ومعتقداتهم تجاه الحياة والموت فكانت منجماً زاهراً بالمعلومات والتاريخ. ومن أشهر الملاحم الأدبية القديمة (ملحمة جلجامش) السومرية التي يعود زمن تدوينها "للعصر البابلي

القديم (الألف الثاني ق.م)" 134

132 عجينة، محمد، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ط1، بيروت، 1994، دار الفارابي، ص66

133 باقر، طه، ملحمة جلجامش، سابق، ص8

134 د.رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص178

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ملحمة جلجامش مؤلفة من عدة أجزاء أدبية كتبت على اثني عشر لوحاً فخارياً تشكل هذه الألواح جميعها قصة متكاملة بحيث يضم كل لوح قصص ومغامرات، ومن أهم هذه القصص قصة "جلجامش ومغامراته البطولية مع صاحبه أنكيكو، وقسم آخر يتحدث عن رواية الطوفان في اللوح الحادي عشر، وقسم ثالث تضمنه اللوح الثاني عشر وهو عبارة عن قصة لا علاقة لها بسياق حوادث الملحمة ولا بموضوعها العام إذ أنها تدور على وصف عالم الأرواح الأسفل الذي شاهده أنكيكو" 135. وجدير بالذكر أن العالم ظل يتتبع أخبار منطقة بلاد الرافدين من خلال المصادر الإغريقية التي كتبت عن هذه الحضارة العظيمة، أو من خلال كتب علماء بابل التي ترجمت إلى اليونانية في القرن الثالث ق.م حتى أعلن "سيدني سميث عام 1872م نجاحه في الكشف عن القطع المتناثرة من ملحمة جلجامش المكتوبة على اثني عشر لوحاً وتضم قصة الطوفان في لوحها الحادي عشر" 136. ولا بد من الإشارة إلى أن الملحمة سميت بجلجامش نسبةً إلى بطل الملحمة (جلجامش) الذي يعدّ شخصية واقعية لا خيالية فهو ملك وكاهن مدينة الوركاء نصفه إله ونصفه الثاني بشر "فأمه الإلهة ننسون ووالده الكاهن الأعلى لإحدى مقاطعات مدينة (كَلاب) وهو خامس ملوك السلالة الأولى لمدينة الوركاء -حسب قائمة الملوك السومرية ويرجح أنه حكم في حدود 2500-2600 ق.م ووصفته الملحمة بالشجاعة والضخامة حيث استطاع بناء أسوار مدينته ومعبدتها المقدس (إي - أنا)" 137. وعلى الرغم من الصفات الإيجابية لجلجامش التي أتت الملحمة على ذكرها إلا أنها في نفس الوقت ذمته بصفات

سيئة كالفجور والفسق والتعالي على الرعية وظلمه لشعبه مما أدى إلى غضب شعبي عليه فشكوه لإله السماء (أنو) التي خلقت له منافساً بنفس قوته وضخامته حتى يقاتله ويضع حداً لظلمه. لكن من الملفت للنظر أن المنافس القوي كان برياً متوحشاً مرعب المنظر يكسو جسمه الشعر ولا يعرف الرقي والتحضر وإنما يتصرف كحيوانات الغابة يرعى العشب مع الوحوش واسمه (أنكيكو). وتقوم الآلهة هنا بتعليم هذا الوحش أساليب التمدن "فيقص شعره ويعطر بدنه ويتعلم الأكل كبشر وهكذا" تهيأ على مدى ستة أيام وسبع ليالٍ، ثم أرسلته الآلهة إلى

135 باقر، طه، ملحمة جلجامش، سابق، ص21

136 د.مهران، محمد بيومي، تاريخ العراق القديم، 1990، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ص69

137 د.رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص168

مدينة الوركاء أثناء تجمع الناس في مركز المدينة حيث (الزواج المقدس) فيلقتي البطلان ويتصارعان بما يشبه مغامرات هرقل الإغريقي¹³⁸. ويفوز جلامش في التحدي ويصبح البطلان صديقين وينطلقا معاً في رحلة تدوم ستة أيام إلى غابة الأرز السحرية لقتل حارسها (خومبايا) وقطع الشجرة المقدسة فتغضب الآلهة على أنكيديو لاتباع خطوات جلامش ورفضه الاستماع إليها وينتهي الجزء الأول من الملحمة بنهاية حزينة حيث تحكم الآلهة على أنكيديو بالموت، وجدير بالقول أن تحضر أنكيديو على يد الإلهة (آنو) هو دليل على احترام سكان بلاد ما بين النهرين للمرأة واعتبارها أنها سبب تحضر الرجل فهي التي اكتشفت الزراعة بالملاحظة عندما كان الرجل صياداً يجري خلف الطرائد والحيوانات¹³⁹ ، وفي الجزء الثاني من الملحمة يحزن جلامش على صديقه أنكيديو وينصدم بموته فيذهب برحلة طويلة لوحده بحثاً عن الخلود وعن سر الحياة الأبدية ليكتشف بعد مغامرات طويلة أنه لن ينال الخلود بسبب نصفه البشري لأن الآلهة جعلت الموت من نصيب البشر واستأثرت هي بالخلود ليموت جلامش في نهاية الملحمة.

ويجب الأخذ بعين الاعتبار أن ملحمة جلامش قد عدّت من أعظم الملاحم الأدبية ليس في العصور القديمة فحسب وإنما في العصور الحديثة والمعاصرة أيضاً ورغم قدمها وبعدها الزمني إلا أنها تعتبر من شوامخ الأدب العالمي، وعلى الرغم من كونها ملحمة أدبية سومرية إلا أنها دونت باللغة البابلية في مطلع الألف الثاني ق.م وهو عهد يعرف في تاريخ الرافدين باسم العهد البابلي القديم 2000 - 1500 ق.م حيث تميز بحركة كبرى في التأليف والجمع والتصنيف والترجمة في شتى صنوف العلوم والمعارف والآداب¹⁴⁰ ، ولقد تناولت الملحمة موضوع الخلود الذي شغل فكر الإنسان القديم والحديث وبرهنت الملحمة للبشرية بأسلوب سردي ممتع ومؤثر على حتمية الموت للبشر، وناقشت مواضيع تلمس حياة الإنسان كالحياة والموت والصداقة والوفاء والحب. وقد أثرت الملاحم الأدبية الرافدية بالشعوب المجاورة لا سيما الإغريقية الذين حاولوا تقليدها بنقل أحداثها وموضوعاتها حتى "البطل نفسه انتقلت أعماله إلى أبطال آداب الأمم مثل هرقل والإسكندر ذي القرنين والبطل أوديسوس في

138 د.رشيد، عيد الوهاب، سابق، ص170

139 د.الصالح، ج3، ص6

140 باقر، طه، ملحمة جلامش، ص22

الأوديسة" 141 ، إضافةً إلى أنها متغلغلة في مآثر الإغريق الذين أعجبوا بها ونقلوها إلى أديهم حيث دون هوميروس الإلياذة التي تشبهها إلى حد كبير لكن من المعلوم أن ملحمة جلجامش سبقت الإلياذة بحوالي 1500 عام، وظل تأثيرها حاضراً في منطقة الشرق الأدنى القديم حيث اتصفت حضارات الشرق بالميل إلى قصص الحياة والموت والرغبة في معرفة عالم الأموات والبحث عن الخلود حتى هكذا نوع من القصص وصل إلى الأدب العربي القديم فظهرت لنا قصصاً مشابهة لقصة جلجامش امتاز أبطالها بالقوى الخارقة كقصة ذي القرنين والسيد الخضر. ومن شدة إعجاب الأمم القديمة بملحمة جلجامش اقتبستها في آدابها سواء داخل بلاد الرافدين -أقصد حضارات المنطقة كالبابلية والآشورية التي نقلت الملحمة عن الحضارة السومرية- أو خارجها، ففي داخل المنطقة وجدت أكثر من نسخة للملحمة حيث عثرت التنقيبات الأثرية على "نسخة آشورية عن الملحمة من خزانة الملك آشور بانبيال وتعود إلى القرن السابع ق.م". 142 في مدينة نينوى 143 عاصمة الدولة الآشورية ونسخ كثيرة وجدت في مدن بلاد الرافدين في عهد ازدهار الحضارة البابلية (الألف الثاني ق.م). أما خارج بلاد الرافدين فقد وجدت نسخ في أفريقيا لا سيما قصة الطوفان في "إقليم الأناضول موطن الحثيين، ونسخة في مدينة مجدو في فلسطين يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وعثر العلماء أيضاً على ترجمات للملحمة باللغتين الحثية والهورية" 144 ، وعلاوةً على ذلك فقد وجدت نسخ عنها في التوراة لا سيما وأن غالبية الأساطير التي وردت في التوراة والتي كتبت بيد العبرانيين بعدما حرفوا مضمون التوراة قد كتبت في القرن الثالث عشر ق.م أما الملحمة فقد دوت في الألفية الثالثة ق.م وانتقلت إلى بقية الشعوب خلال الألفية الثانية والأولى قبل الميلاد، ولهذا الأمر قامت الباحثة بتسليط الضوء هنا على اقتباس التوراة لأدب بلاد ما بين النهرين من أجل الكشف عن ألعيب الصهيونية التي تحاول إثبات التفوق العنصري اليهودي على بقية الشعوب وتسعى لسرقة تراث الأمم المتحضرة وينسبوه إلى علماءهم وأدباءهم لكن في الحقيقة هو سرقة لتراث أجدادنا القدماء، فالتوراة تضم قصصاً بعضها يتحدث عن الأرض المقدسة والعبرانيين والبعض الآخر يحكي قصص الأمم الأخرى؛ لذا فقد كان

141 باقر، طه، ملحمة جلجامش، ص 16

142 باقر، طه، ملحمة جلجامش، ص 21

143 نينوى: مدينة مشهورة بالعراق اسمها عند الإفرنج Ninioe كانت عاصمة المملكة الآشورية وتعرف أنقاضها اليوم (بعلقة شرقية). زكي،

أحمد، سابق، ص 80

144 باقر، طه، ملحمة جلجامش، سابق، ص 14

للملاحم الرافدية "تأثير كبير على كاتبي التوراة التي أوهموا العالم بأنها من تأليفهم" 145 ، وقد ذكرت تفاصيل ملحمة جلجامش في الباب الأول من التوراة (الوجود).

وكما سبق وأن أشارت الباحثة إلى أن ملحمة جلجامش قد اقتبسها الإغريق وقلدوها على شكل ملحمة أدبية تسمى الأوديسة نسبت إلى هوميروس Homeros وهذا التشابه والتقليد في الملاحم والأساطير كان بفضل التواصل الحضاري والاتصال بين شعوب العالم، إضافةً إلى تفوق سكان بلاد الرافدين بالأسلوب الأدبي في كتابة الملاحم والقصص والأساطير التي نالت إعجاب غيرهم من الأمم؛ وهذا ما جعلهم يأخذوا السرد الأدبي والشخصيات مع تعديلات بسيطة بالأسماء والأماكن حيث يوجد "اعتراف عام بأن جلجامش هو نسخة طبق الأصل من هرقل وأدونيس" 146 ، وعلاوةً على ذلك فإن من أسباب التقليد والمحاكاة لا جرم أنه يتعلق بهجرة علماء الإغريق إلى بابل لا سيما زيارات أرسطو وهيرودوت وغيره ممن ساهموا بنقل المنجزات الحضارية الرافدية إلى الإغريق وقد بدا ذلك واضحاً في الأدب الهليني الذي أنتجته اليونان. أما أوجه الشبه بين الملحمين الرافدية واليونانية فكلا الملحمين تسرد المغامرات التي تحدث في حياة البطل الشجاع الصنديد (جلجامش الرافدي وأخيلوس اليوناني) وكلاهما يحزانان على موت صديقهما (أنكيو صديق جلجامش، وباتروكلوس صديق أخيلوس)، ولكل من البطلين أمماً إلهة (ننسون أم جلجامش وتيتس أم أخيلوس) وكلا الملحمين تصور البطل بأنه يتمتع بقيم "بطولية عسكرية ترفع من شأن المحارب، بالإضافة إلى أن كلا البطلين كانا يتمتعان بقوة جسدية ورثاها من أمهما الإلهة" 147. ولقد اتصف البطلين بأنهما يملكان ثلثان من جسدهما آلهة وثلث بشري. بالإضافة إلى أننا نرى صور الإله زيوس في الملحمة اليونانية تشبه كثيراً صور الإلهة عشتار من حيث محبة البشر له، إضافةً إلى التشابه الكبير بين الحوادث التي اعترضت طريق أخيلوس بطل الأوديسة اليونانية في طريق عودته إلى المدينة بعد حرب طروادة وبين مغامرات جلجامش بطل الملحمة الرافدية أثناء سفره إلى بطل الطوفان ليسأله عن الخلود. أما الملحمة الشهيرة الثانية فهي (ملحمة أينوما إيليش) أو ما يعرف بأسطورة الخليقة البابلية التي كتبت باللغة البابلية

145 ماتيف، سابق، ص 43

146 د. رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص 147

147 موسوعة نقد الحضارة الغربية، نوال طبيب، ط1، ج1، النجف، ص 291

على سبعة ألواح طينية كأبيات شعرية تألفت من 115-170 سطراً من الشعر غير موزونة ستة ألواح منها وصف فيها أعمال الإله الخالق أما اللوح السابع وصف فيه جلوس الإله مردوخ على العرش واحتفال الآلهة بنصره وخلقه للعالم، وقد اختلفت الملحمة من حضارة لأخرى في المنطقة ذاتها (اختلاف اسم الإله الخالق) وفقاً لعقائد القوم الدينية فقد كانت مسألة بداية العالم من أولى المسائل التي دقت أبواب الحضارات القديمة التي غلبت عليها الفطرة البدائية حيث فسرت مسألة بداية الكون وفقاً لعقائدهم الدينية آنذاك، وفي الواقع إن أسطورة (إينوما إيليش) هي أسطورة سومرية لكن البابليون أخذوها من التراث السومري وكتبوها باللغة البابلية وهي أول أسطورة تتحدث عن "فكرة الخلق من العدم التي لم تكن مجال اهتمام أية أسطورة قديمة" 148 ، ومن خلال قراءة أسطورة الخليقة البابلية يستطيع القارئ أن يتعرف على المعتقدات الدينية القديمة في المنطقة ويتعرف على "أشكال وقدرات الآلهة من خلال وصفها في الأسطورة، ويتعرف سبب الصراع العنيف الذي حدث بين الآلهة مما يعكس الظروف والظواهر الطبيعية القاسية التي سببت معاناة للإنسان العراقي القديم" 149. ولقد انتشرت الملحمة في الألف الرابع ق.م حيث وصفت قيام الإله إنليل بخلق الكون وفصل السماء عن الأرض وخلق الإنسان من أجل العمل وخدمة الآلهة، ثم خلق المعول بيده وفي هذا إشارة إلى انتشار الزراعة في بلاد الرافدين، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه الملحمة انتقلت إلى تراث الأمم جميعها فنجد جميع الحضارات القديمة تفسر خلق الكون بنفس الطريقة التي فسرتها الحضارة الرافدية كأسطورة الخلق التوراتية في الإصحاحات الأولى من سفر التكوين والتي تصف الإله (يهوه) بنفس طريقة وصف الإله مردوخ في السيطرة على الماء ثم البدء بخلق الأرض وخلق الكائنات الحية بجميع أجناسها وخلق الإنسان على صورته وتتوافق كثيراً مع قصة الخليقة البابلية لا سيما في خلق الكون في ستة أيام حيث ذكرت التوراة "استراح الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدهس لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل خالقاً" 150، وتتشابه أسطورة الخليقة البابلية مع الديانات السماوية ببعض العناصر كاستواء الإله على الماء، وخلق الكون والأرض والسماء ثم خلق الكائنات الحية في ستة أيام .

148 هوك، سابق، ص10

149 علي، فاضل عبد الواحد، موسوعة حضارة العراق، سابق، ص321

150 التوراة، سفر التكوين 1 و2 ، 1-3

ونجد هذا التشابه أيضاً لدى الإغريق بعد اقتباس العناصر الأساسية من الحضارة الرافدية وأكثر أوجه الشبه بينهما من خلال صراع الآلهة الجماعي، وما فعله الإله زيوس عندما خلق الكون والبشر في الأسطورة اليونانية التي ذكرت في قصيدة الثيوجينا لهيسيود، وعلاوة على ذلك نجد التشابه الكبير في المعتقدات الدينية السائدة في منطقة البحر الأبيض المتوسط منذ العهد السومري حيث تصور الأسطورة البابلية خلق الإنسان من طين وكذلك في الأسطورة الإغريقية يخلق الإنسان من ماء وتراب من قبل الإله (برومتيوس). ففي أسطورة الخلق البابلية يظهر الفكر الفلسفي الذي لم يكن معروفاً بعد في اليونان من خلال دور الآلهة في خلق الكون حيث استمدت الحضارة الإغريقية الكثير من موضوعاتها وأساطيرها من التراث الأسطوري للشرق الأدنى القديم وبخاصة من الحضارة الرافدية كونها تعد أقدم الحضارات حيث زود الشاعر هوميروس والشاعر هيسيود الأدب اليوناني بذخيرة ضخمة من الأساطير في أشعارهم لا سيما كتاب هيسيود (أنساب الآلهة) 151 الذي يعد محاولة لجمع الأساطير وتنسيقها إضافة إلى الإلياذة التي تزخر بقصص آلهة أوليمبيوس وأنسابهم وعلاقاتهم مع بعضهم ومع البشر. وفي النهاية إن اقتباس الإغريق لآداب الحضارة الرافدية هو محاولة جيدة ساهمت في نقل اليونان إلى التحضر والتقدم وبالتالي كل عطاء سيعود إلى أصحابه وهذا ما حدث عند فتوحات الإسكندر المقدوني حيث نقل اليونان أيضاً تأثيراتهم الحضارية إلى المشرق القديم بأكمله وفي النهاية لا يسع للباحثة إلا أن تقول: إن الحضارة سلسلة متصلة الحلقات تنتقل من منطقة إلى أخرى ويختلف تأثيرها وفقاً لقوتها السياسية والحضارية، والحضارة بمفهومها العام في بحثنا هذا قد بدأت من بلاد ما بين النهرين وعبرت إلى اليونان ثم عادت إلى بابل.

أما النوع الثالث من الأدب والذي أثر في الحضارة الإغريقية فهو (الأساطير) التي تختلف عن الملاحم الشعرية بقصرها ومضمونها الذي يفسر ظواهر كونية أو دينية وغالباً يكون بطل الأسطورة إله أما الملحمة فإنها تتحدث عن أعمال بطولية وحوادث تاريخية تخص البشر، وقد تحتوي الملحمة على عناصر أسطورية كملحمة جلجامش التي احتوت على أسطورة الطوفان في لوحها الحادي عشر. وكلمة أسطورة في اللغة العربية مشتقة من الجذر

151 كتاب أنساب الآلهة قصيدة تكشف عن تصور اليونانيين عن نشأة الكون وتطوره من الفوضى إلى النظام عن طريق التزاوج للمزيد انظر: الفكر الإغريقي، محمد الخطيب، دمشق، 1999، منشورات علاء الدين، ص28

(سطر) والسطر هو "الصف من الكتاب والشجر والنخل ونحوهما" 152 ، وقد ورد في القرآن الكريم: "إن هذا إلا أساطير الأولين" 153 والأساطير هنا حكايات القدماء، وعرفت الأسطورة لدى بعض الباحثين على أنها قصة والتي تعرف في اللغة الإنكليزية (Story) وفي اليونانية (Istory) وباللاتينية (Historia) ، أو الحكاية أو أخبار تؤثر عن الماضيين وتعني أيضاً قصص التاريخ" 154. أما البعض الآخر فيرجعها إلى اللفظة اليونانية (Mythos) والتي تعني حكاية أو خرافة ومنها اشتق المصطلح الإنكليزي (Mythology) أي علم دراسة القصص والأساطير. وجدير بالذكر أن الإنسان القديم سعى بفطرته السليمة لتفسير ظواهر الكون والطبيعة المحيطة به وإيجاد تفسير للحياة والموت والخصوبة والإنجاب فلجأ إلى الأساطير التي عدت وسيلة مبتكرة في محاولة فهم العالم والإجابة على تساؤلات البشر، واعتبرت إراثاً كتابياً يعج بالمعتقدات الدينية والأفكار السائدة آنذاك حتى أضحت الوعاء الفكري الذي بدأت منه العلوم كالفلسفة والأدب والفن والحكمة، وعلى الأرجح أن الأساطير الرافدية كانت المنبع الأول للأدب المسرحي عند الإغريق التي اعتمدت في سردها الأدبي على القصص الأسطورية.

ومن أهم الأساطير الرافدية (أسطورة الطوفان) التي كتبها السومريون في القرن الخامس والعشرين ق.م أي في الألفية الثالثة ق.م وانتقلت إلى الحضارة البابلية وكتبت باللغة البابلية ثم انتقلت إلى جميع حضارات الأمم، وقد كان لهذه الأسطورة أهمية في الكشف عن التاريخ القديم لبلاد الرافدين ومعرفة سلالتها الحاكمة حيث يبدأ العصر التاريخي القديم للمنطقة بحدوث طوفان كبير، وقد قسم المؤرخون السلالات الحاكمة في المنطقة استناداً إلى أسطورة الطوفان إلى سلالات حكمت قبل الطوفان وسلالات من بعده. وقد دلت التنقيبات الأثرية على ألواح ملحمة جلجامش كما سبق وأن ذكرت الباحثة في مدينة نينوى عام 1845م وعلى لوحها الحادي عشر نقشت قصة الطوفان، والاعتقاد السائد أن الطوفان قد حصل في مدينة شروياك (فارة الآن) كما جاء في ملحمة جلجامش موطن الطوفان البابلي أوتو-نبشتم كما ذكرت في إثبات الملوك السومرية من المدن الثماني التي

152 ابن منظور، لسان العرب، ط1، بيروت، 2000، دار صادر، ص182

153 القرآن الكريم، سورة الغاشية، الآية 22

154 السواح، فراس، الأسطورة والمعنى، دمشق، 2001، دار علاء الدين، ص7

حكمت فيها سلاطات قبل الطوفان. 155 حيث تبدأ الأسطورة بغضب الآلهة على البشر لأنهم لم يحققوا الغاية التي خلقوا من أجلها فتقرر الآلهة إنهاء حياة البشر لكن! أحد الآلهة يهمس لأحدهم من أجل أن يصنع قارب للنجاة ويمنحه الخلود بعد إنقاذ الجنس البشري. بيد أن "السبب المباشر لقيام الآلهة بإنقاذ البشر غير معروف والإله الذي ينقذ البشرية اسمه (انكي) حيث أوعز إلى بطل الطوفان في الرواية السومرية واسمه (زيوسودرا) ملك مدينة سيبار الورع أن يستند إلى حائط لتبوح له (انكي) ما تضره الآلهة من نوايا كارثية بحق البشرية وتخبره عن طريقة للنجاة ببناء السفينة للإبحار من الطوفان" 156. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أسطورة الطوفان وجدت على شكل ثلاث نسخ رئيسة تتشابه كثيراً في تفاصيلها وأحداثها لكنها تختلف باسم بطل الأسطورة ففي الأسطورة السومرية الأصلية يدعى البطل (زيوسودرا ZI-U-Sudra) (وفي الرواية البابلية الثانية التي تتمثل في "الرقم الحادي عشر من ملحمة جلجامش اسمه (أوتونابشتم) قام ببناء سفينة ضخمة حمل فيها ما استطاع من الناس والحيوانات والطيور، والرواية الثالثة هي الأكثر تفصيلاً تعرف بقصة أتراخاسيس" 157. حيث التقى بطل الطوفان (أوتونابشتم) مع بطل ملحمة جلجامش وسأله عن الخلود رغم أنه بشر مثله؛ لذا فإن أسطورة الطوفان البابلية تشكل مع ملحمة جلجامش قصة متكاملة، غير أن الأسطورة السومرية تختلف عن مثيلاتها البابلية "بطولها وكثرة حوادثها واختلاف اسم البطل" 158. وقد ذكر بطل الطوفان (زيوسودرا) في كتاب بروسوس الذي كتبه باليونانية وذكره باسم "كزيسوتروس Xisuthros فالطوفان حدث في عهد زيوسودرا ابن حاكم مدينة شوروباك الذي استطاع بفضل مساعدة أحد الآلهة أن ينجو من الطوفان وينال الخلود" 159

ومن وجهة نظر فلسفية ربما كانت أسطورة الطوفان تفسير للصراع بين الموت والحياة، ولا بد من الإشارة إلى أن الشعوب من شدة إعجابها بهذه الأسطورة فقد ترجمتها ونقلتها إلى جميع لغات العالم لكن أحسن ترجمة لها هي "نسخة من الترجمة الألمانية" 160 Albert Schot, Das Gilgamesh-Epos, 1934، وتعود فكرة الطوفان

155 باقر، طه، ملحمة جلجامش، ص 16

156 هوك، سابق، ص 19

157 علي، فاضل عبد الواحد، موسوعة حضارة العراق، سابق، ص 230-231

158 مهران، محمد، سابق، ص 58

159 د. أمهز، محمود، سابق، ص 107

160 باقر، طه، ملحمة جلجامش، ص 27

في الحقيقة إلى الفيضانات التي كانت تصيب الأنهار الكبرى في بلاد الرافدين (دجلة والفرات) ذات السهول المنخفضة والتي يسهل غمرها بالماء عند المصبات أو أثناء هطول المطر الغزير. أما في بعض الحضارات التي انتقلت إليها أسطورة الطوفان فمن الصعب حدوث الطوفان فيها بوجود عوائق جبلية ومظاهر هضاب أو أنهار لا تتصف بالغزارة كما في اليونان فالفيضانات يتطلب غزارة مياه كبيرة وأراضي سهلية منخفضة وهذا غير موجود بجغرافية اليونان. باستثناء الأنهار في الأجزاء الغربية من هضبة الاناضول أو في أيونيا أو في شبه جزيرة الإغريق نفسها وإذا قارنا بين أسطورتى الطوفان الرافدية والإغريقية نجد أن الرافدية أكثر تشويقاً والقرب من الواقع. 161 ؛ وتتشابه الأسطورة الإغريقية مع الرافدية بقيام البطل اليوناني ديوكاليون بنفس دور البطل الرافدي أوتنابشتم البابلي لكنها تختلف عن الرافدية باختباء بطل الطوفان في صندوق وهذا لا يمكن يصدقه عقل بشري أن يبقى إنسان في صندوق لمدة طويلة من الزمن دون أوكسجين وماء وطعام؛ لذلك إن أسطورة الطوفان البابلية قد انتقلت إلى الإغريق خلال الألفية الأولى قبل الميلاد الذين بدورهم عدلوا عليها وفقاً لمعتقداتهم الدينية وتقاليدهم الاجتماعية والفكرية، وجدير بالقول أن السومريون قد كتبوا أسطورة الطوفان في القرن الخامس والعشرين ق.م وبهذا الفارق الزمني بين كتابة الإغريق للأوديسة والرومان للإنيادة يؤكد سبق الحضارة الرافدية على غيرها من الحضارات وانتقال آدابها إلى الإغريق، إضافةً إلى أن سكان بلاد الرافدين قد عرفوا أدب الأساطير قبل الإغريق والرومان بأكثر من ألف عام، ومن المؤكد أيضاً أن الطوفان قد حدث في بلاد الرافدين وليس في بقعة جغرافية أخرى والدليل على ذلك ما أشار إليه العالم الأثري المعروف "(وولي) الذي نقب في أور وأكد احتمال وقوع الطوفان في حدود 4000 ق.م، ويجمع الباحثين على أن الطوفان الوارد في الكتب المقدسة بدءاً من التوراة هو نفسه الوارد في مآثر وادي الرافدين" 162. ولقد جاء في التوراة ذكر لأسطورة الطوفان تشابه تماماً ما ورد في أسطورة الطوفان الرافدية حيث ساد الاعتقاد لعدة قرون أن "التوراة هي المصدر الأساسي لقصة الطوفان، لكن ظهرت الحقيقة بعد الكشف عن ألواح ملحمة جلجامش" 163. بيد أن المآثر السومرية قد ذكرت الطوفان قبل

161 طيبب، نوال، نقد الحضارة الغربية، ج1، سابق، ص284

162 د. رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص175

163 عزيز، كارم محمود، أساطير التوراة الكبرى، ط1، دمشق، 1999، دار الحصاد، ص205

التوراة بما لا يقل عن "ألفي عام من خلال أسطورة الملوك العشرة الأوائل الذين حكموا قبل الطوفان ودام حكمهم 241200 سنة" 164

ومن الأساطير الرافدية التي أثرت في الحضارة الإغريقية أسطورة (الخليقة) أو (خلق الآلهة) التي وردت في ملحمة (إينوما إيليش) والتي سبق وأن أشارت إليها الباحثة كملحمة أما هنا سنتحدث عنها كأسطورة. حيث تصف الأسطورة الصراع بين الآلهة بزعامة كبيرهم الإله (مردوخ) والذي -على حد زعمهم- يخلق السماء والأرض والكون ثم يخلق الإنسان، وهنا تظهر العلاقات العاطفية والجنسية بين الآلهة (الأب وابنته وبين الأم وابنها) وكذلك بين الآلهة والبشر حيث تظهر "الآلهة في شكلها البابلي على هيئة زوجين ذكر وأنثى، و يكون الاتصال الجنسي بينهما بقيام الولد بقتل أبيه والزواج من أمه وزواج الأخت من أخيها وقتل أمها" 165 ، وهذا ما نلمسه في أسطورة خلق الآلهة الإغريقية أيضاً حيث اعتقدوا بوجود الآلهة التي خلقت البشر على صورتها فوق قمم جبال الأولمب في وسط اليونان بزعامة كبير الآلهة زيوس وزوجته هيرا ووجود آلهة متعددة على هيئة زوجين ذكر وأنثى بالإضافة إلى وجود علاقات عاطفية وجنسية بين الآلهة الإخوة أو بين الآلهة والبشر على حد سواء كما في الأساطير الرافدية-كأسطورة زيوس وأوربا الفينيقية-وجدير بالذكر الإشارة إلى أن الإله (مردوخ البابلي) هو الإله الذي حل محل الإله إنليل السومري الذي عُرف في أسطورة الخليقة السومرية والتي تختلف عن أسطورة الخليقة البابلية بقليل من التفاصيل و ببعض أسماء الآلهة كالإلهة أرورو Aruru إلهة الخصوبة والأرض والتي تمتلك عدة أسماء مثل (نخرساك) أي سيدة الجبل المقدس و(نينتو Nintu) (أي سيدة الولادة وماما Mamma أو مامي وبالبابلية بيليت آيلي أي سيدة الآلهة) 166 ، وقد عرفت أسطورة الخليقة السومرية بأسطورة المعول حيث انتشرت منذ الألف الرابع ق.م، وكان للإله إنليل إله الجو دور كبير في حياة البشر وفي حركة الأمطار فهو الذي خلق الإنسان ووضع بيده المعول حتى يعلمه الزراعة والحصاد وفي هذا دليل على انتشار

164 أمهز، محمود، سابق، ص107

165 د. رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص165

166 د. الصالحي، ج3، سابق، ص5

الزراعة في الألف الرابعة قبل الميلاد في بلاد ما بين النهرين حيث تشير أسطورة إنليل التي يعود تاريخها إلى "2400 ق.م إلى نزول السومريون من الكهوف وتحضرهم باكتشاف الزراعة" 167 وبناء القرى.

وهنا لا جرم أن نقول: إن الميثولوجيا اليونانية غنية بالأساطير وتعبّر عن تصورات اليونان الدينية وتقاليدهم الاجتماعية، إضافةً إلى أنها تزخر بأساطير الشرق وتراثه حيث نجد الكثير من الأساطير اليونانية التي تتطابق مع أساطير ما بين النهرين فكرةً وتفصيلاً كأسطورة الطوفان وقصة خلق الإنسان من طين وماء وروح إلهية، وأسطورة إنانا ودموزي (عشتار وتموز) البابلية ونظيرتها أسطورة أفروديتي وأدونيس اليونانية التي وصلت إليهم عن طريق الفينيقيين 168. ولا بد أن نتطرق أيضاً إلى أسطورة ديموزي 169 وعشتار الرافدية الشهيرة والتي تتشابه مع الأسطورة الإغريقية أدونيس وأفروديت -أفروديت: هي إحدى بنات زيوس يقارنها البعض بعشتار في حضارة ما بين النهرين وأفروديت هو تحريف لاسم عشتروت ربة الخصب- حيث تتحدث أسطورة تموز التي تعود إلى العهد السومري عن "الفوضى التي حلت في الأرض وحزن عشتار على تموز الذي هبط إلى عالم الأرواح السفلي حيث حاولت إنقاذه باللقاق به" 170 وتتشابه هذه الأسطورة الرافدية مع الأسطورة الإغريقية التي تتضمن نزول الإلهة اليونانية أفروديت إلى العالم السفلي بسبب خلاف نشب بينها وبين إلهة العالم برسيفوني على الإله أدونيس، ويعودة أدونيس اليوناني وتموز الرافدي تعود الحياة والزرع والخضرة على الأرض ويبدأ فصل الربيع وبمغادرة أدونيس وتموز إلى العالم السفلي كل عام تنتشر الفوضى ويحل الشتاء ويموت الزرع. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه الأسطورة تعتبر جزءاً من الشعائر الموسمية للحضارات القديمة خاصة وأن شعوب العالم القديم كانت شعوباً زراعية حاولت تفسير تقلبات المناخ باللجوء إلى الأساطير، واعتبرت فصل الربيع هو فصل الحياة على كوكب الأرض كونه فصل نمو المحاصيل الزراعية، وبمغادرة الربيع يعني موته وذهابه إلى العالم السفلي أو عالم الأموات الذي كان مجهولاً لدى شعوب العالم القديم. وباعتبار أن تموز وأدونيس هما إلهين فكان

167 د. رشيد، عبد الوهاب، سابق، ص161

168 د. علي، محمود علي، الأصول الشرقية، سابق، ص32

169 ديموزي هو الصيغة السومرية للاسم الشائع تموز في حين إنانا هو الاسم السومري الذي يقابله عند الساميين اسم عشتار هوك، سابق، ص7 واسم ديموزي: يظهر كاسم ملك من ملوك الوركاء ويظهر في إحدى الروايات كراع في نص حوار سومري مع غريمه الفلاح كما كانت له مدلولات دينية أخرى للزواج المقدس وشعائره خاصة في عصر سلالة أور الثالثة للمزيد انظر: فاضل عبد الواحد، عشتار ومأساة تموز، ط1، دمشق، 1999، ص5-6.

170 هوك، سابق، ص9

باستطاعتها العودة إلى الحياة طالما أنهما يتمتعان بالخلود، وإن محاولة إنقاذهما من قبل الإلهة عشتار وأفروديت ما هو إلا رغبة الفلاح الملحة بعودة الربيع بأسرع وقت طالما كان يعتمد في معيشتة على الأرض الزراعية .

ومن الأنواع الأدبية التي عرفت الحضارة الرافدية: أدب المناظرة الذي تحتوي في الغالب على "مقدمة أسطورية يليها تمهيد لدخول في تفاصيل الموضوع" 171 حيث تضم المناظرة حوار بين شخصين أو إلهين من أجل المنافسة على موضوع ما، ويعتبر هذا النوع من الأدب أدباً سومرياً برز في الاحتفالات والأعياد من أجل التفاخر بما يملك الشخص من أملاك وصفات، وقدرته البلاغية على الحوار والإقناع. وجدير بالذكر أن من شروط هذا الأدب وجود طرفين للمناظرة يتحديان بعضهما، وليس من الضروري أن تكون المناظرة بين بشريين وإنما بين شيتين كالمناظرة بين "فصلي الصيف والشتاء فيحكم الإله إنليل لصالح الشتاء، وفي المناظرة بين النخلة وشجرة الأثل فيحكم الملك لصالح النخلة ربما لأهميتها في بلاد الرافدين، والمناظرة بين الثور والحصان التي يفوز بها الثور" 172 ، وعرفت أيضاً أسطورة الراعي ووينكمند الفلاح التي تعتبر من أدب المناظرة والتفاخر حيث يتنافسان شخصان على الرية عشتار (إنانا) وتعرض الأسطورة حوار بين إله الشمس وأخته إنانا التي تحب الفلاح ويحاول أخيها إقناعها بالراعي ثم يتدخل الراعي ديموزي ويواصل إقناع عشتار التي تقبل به وتتزوج فتقول الأسطورة:

يا إنانا العذراء.....علام أنت لا ترضينه زوجاً.....إن سمنه دسم ولينه طيب فيا إنانا تزوجي الراعي ديموزي.....

لكن إنانا تجيبه: لن أتزوج الراعي ولن ألبس ثيابه الخشنة. وهنا يتدخل ديموزي بحواره: بأي شيء يكثرني الفلاح؟ إن قدم طحينه الأسود فسأقدم نعجتي السوداء.... وإذا قدم طحينه الأبيض فسأقدم نعجتي البيضاء....
وإذا سقاني جعبته الصافية سقته لبنى الدسم 173.

171 علي، فاضل عبد الواحد، موسوعة حضارة العراق، سابق، ص 373

172 رشيد، عبد الوهاب حميد، سابق، ص 194

173 د. رشيد، عبد الوهاب حميد، سبق ذكره، ص 195

ولا بد من القول إن أسطورة (ديموزي) و(وينكمد) تشبه إلى حد كبير قصة قابيل وهابيل التي وردت في التوراة حيث "يفضل الله الفلاح قابيل وفي اللغة العربية قابيل على الراعي هابيل الذي قتله أخوه الفلاح لكن الأسطورة السومرية لا تنتهي بالقتل" 174 وإنما بغلبة الراعي ديموزي وزواجه من عشتار. إضافة إلى أن هذه الأنواع من الآداب ترتبط ارتباط وثيق بالمعتقدات الدينية ومحاكاتها ومحاولة استمرار تأثيرها من جيل إلى جيل لذلك لم يتقدم النتاج الأدبي في بلاد الرافدين وإنما بقي يحاكي الدين والآلهة فقط ويفسر الظواهر التي يجهلها باستخدام الأساطير وهذا ما وجدناه ليس في بلاد الرافدين فحسب وإنما في كل حضارات العالم القديم. وقد زخر الأدب الرافدي بأنواع عديدة منها: الشعر وأدب الحوليات وأدب الرسائل وأدب السخرية وأدب الحكمة والقصص الشعبية. حيث عرفت الحضارة الرافدية أولى الأشعار على الرغم من أنها كانت أشعار غير موزونة حيث كان "الشعر في أدب الرافدين القديم سومرياً كان أم بابلياً يخضع لنمط معين من النظم والتأليف فهو يتضمن عدة أبيات موزونة لكنه غير مقفى يشبه الشعر العبراني واليوناني والروماني، وكل بيت يتألف من سطرين (الصدر والعجز)" 175 ، واتصف الشعر أيضاً بتمجيد الملوك وتوثيق الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والعاطفية، وكان ينشد مع الآلات الموسيقية كالقيثارة، وأنشد سكان المنطقة الشعر في المناسبات المختلفة لترسيخه في الذاكرة المجتمعية، ولقد ظهر مؤخراً نوع من الشعر يعرف (بالرثاء) وهو عبارة عن قصائد شعرية لرثاء الملوك والحكام أو المدن كرتاء مدينة أور ومدينة أكاد؛ لذا فإن الوقوف على أطلال المدن ورثاءها ليس بجديد في عهدنا وإنما جاء من موروثة أجدادنا أيضاً وهناك نوع من الأدب يعرف بأدب الرسائل أي الوثائق السياسية والمراسلات الخاصة بين الحكام أو الوزراء والتي حفظت في مكتبة آشور بانيبال في مدينة نينوى، وكتبت باللغة البابلية أو الآشورية والأكادية. إضافة إلى الحوليات التي تعدّ من أهم "الوثائق التاريخية التي كانت توثق الحوادث والحروب في ترتيب تاريخي إضافة إلى التقاويم التي تجمع فيها الأحداث والوقائع" 176. وقد استطاع المؤرخون من خلالها الكشف عن التاريخ القديم ومعرفة أسماء الحكام وأهم الحوادث التي حصلت في المنطقة. وهناك ضرب آخر من الأدب أيضاً تمثل بأدب السخرية الذي يشكل نوعاً من أنواع الفكاهة والتسلية، ويأتي على شكل قصة أدبية. وفي

174 د.رشيد، عبد الوهاب، سبق ذكره، ص194

175 باقر، طه، ملحمة جلجامش، ص7

176 ديلاپورت، سابق، ص346

الواقع أدب السخرية هو عبارة عن "حكايات سومرية طريفة ونوادر مضحكة يقصونها في مجالسهم" 177 ، وغالبيتها جاء على لسان الحيوانات كقصص (رسائل القرد إلى أمه) وحكاية (الكاهن والأسد)، وقصة (الفأر والنمس)، وقصة (البعوضة والفيل) التي وجدت في غالبية آداب الأمم حيث "تسأله البعوضة هل أثقلت عليك يا أخي؟ فيجيبها الفيل من أنت؟ لم أحس أنك فوق ظهري ولم أعرف عندما نزلتي" 178. وقد شبها الباحثون كثيراً بقصص كليلة ودمنة وقصص الإغريقي إيسوب التي جاءت على لسان الحيوانات.

وهناك أيضاً أدب الحكمة الذي كان له الأثر الكبير بالتأثير في آداب بقية الشعوب والأمم والحضارات اللاحقة كقصة (أحيقار الحكيم) 179 لا سيما في كتب العهد القديم وشبهه بعض الباحثين بالنبي دانيال. حيث كان أحيقار وزيراً حكيماً لملك آشور ونيوى (الملك سنحاريب) وكان ذو ثروة طائلة وصاحب رأي سديد لكنه لم يرزق بطفل فتبنى ابن أخته، وفي الحقيقة تعتبر قصة أحيقار الحكيم "إحدى القصص الآشورية القديمة التي ابتكرت في فترة حكم الملك الآشوري سنحاريب 705-681 ق.م وقد وصلت إلى روسيا واستمرت تتناقلها الأجيال على أنها حكاية روسية" 180. وقد انتشرت في آسيا وأوروبا بعد احتكاك الإغريق ببلاد الرافدين ونهلهم الآداب الرافدية ونقلها إليهم حيث يعتقد أن "الفيلسوف الإغريقي ديمقراطيس 460-370 ق.م جلب معه الأساطير الآشورية - البابلية أثناء رحلته إلى بابل كأسطورة أحيقار الحكيم" 181

وفي نهاية المطاف عرفت الحضارة الرافدية نوعاً من الأدب الذي كان بمثابة المرأة التي عكست الحياة الاجتماعية والاقتصادية للسكان آنذاك كالقصص الشعبية الهزلية وخير دليل على ذلك قصة (جميل نورتا) أو (فقير نورتا) والتي تتشابه مع قصص كثيرة وجدت في الأدب الإغريقي وفي قصص كليلة ودمنة أيضاً. وفحوى القصة باختصار أن "بلغ الإملاق بأحد فقراء نفر (جميل - نورتا) حداً أنه لم يجد ما يسد رمقه فباع ثيابه واشترى بثمانها عنزة ليذبحها لكنه عدل عن قراره لأنه أدرك أنه لو ذبح العنزة وأكلها وحده سيسخط عليه الأصدقاء

177 علي، عبد الواحد، موسوعة حضارة العراق، سابق، ص 375

178 د. رشيد، عبد الوهاب حميد، سابق، ص 195

179 أحيقار أو أخيقار: رواية حكيمة أقدم نسخة لها كتبت بالآرامية-البابلية ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد حيث اكتشفت في مدينة الحضر القديمة في العراق ولها صيغ في الآرامية الكلاسيكية واليونانية والآرامية والآشورية، وتعكس هذه الرواية الفلسفة التربوية للمنطقة خلال فترة تداولها لمدة تزيد عن 500 سنة. للمزيد انظر: سعدي، سعد، معجم الشرق الأوسط، 1998، ط1، بيروت، دار الجيل، ص 37

180 ك. ماتقيف، حضارة ما بين النهرين، ص 24

181 ماتقيف، سابق، ص 32

والأقرباء، فأخذ عنزته إلى بيت حاكم المدينة ليقدمها هدية له وينال منه جائزة لكن ما حصل غير المتوقع فقد نهره الحاكم واعتبرها رشوة وطرده من قصره، فقرر هذا الفقير الانتقام من الحاكم. فقصده ملك المدينة واستأذنه بأخذ عربة ليوم واحد وذهب بها إلى الحاكم الذي استقبله وسأله عن هويته فأجاب أن الملك أرسله ليضع الذهب في معبد الإله إنليل فرحب به الحاكم وظل يحاوره طوال الليل حتى غلبه النعاس، فقام فقير نفر ومزق ثيابه وفتح الصندوق الفارغ الذي معه وصرخ بالحاكم واتهمه بسرقة فخاف الحاكم من الملك وقرر أن يعرضه عن الذهب المزعوم ضعفين شريطة أن يسكت، وأعطاه بدلاً من ثيابه كسوة فاخرة وعندما خرج من القصر قال للبواب: قل لسيدك إنني أخذت منه حقي دفعة واحدة"182

وهكذا نجد أنه كان للحضارة الرافدية إسهامات ضخمة في المجال الأدبي والعلمي والسياسي والذي انتشر إلى جميع حضارات العالم لا سيما الحضارة الإغريقية التي اقتبست الكثير من منجزات حضارة بلاد الرافدين على اعتبار أن الأخيرة كانت من الحضارات السبّاقة في مجالات التحضر والتقدم المدني والعلمي والفكري، وكانت أيضاً من أوائل الحضارات التي ظهرت في بقاع العالم، إضافةً إلى ذلك كان للإغريق دوراً هاماً في صقل المنجزات الحضارية التي اقتبسوها من هذه الحضارة العظيمة وأضافوا عليها أفكارهم ومعتقداتهم حتى أضحت حضارة هجينة متقدمة جمعت بين ثقافة الشرق وأفكار الغرب اليوناني.

الفصل الثاني: المؤثرات الحضارية المتبادلة بين الحضارة الكنعانية (الفينيقية)

والحضارة الإغريقية خلال الألف الأولى قبل الميلاد

العنوان	رقم الصفحة
تمهيد	60
أولاً. المجال السياسي	63
ثانياً. المجال العلمي	77
ثالثاً. المجال الاقتصادي	93
رابعاً. مجال العمارة والفنون	112

تمهيد:

. تعدّ الحضارة الكنعانية (الفينيقية) من أكثر الحضارات الشرقية القديمة التي تركت آثاراً واضحة المعالم في تاريخ الإنسانية، وامتد تأثيرها ليشمل مناطق واسعة من العالم بفضل الشبكة التجارية الكبيرة التي أسسوها والتي ساهمت في تأسيس مستوطنات كنعانية-فينيقية تجارية على سواحل البحر الأبيض المتوسط نشروا فيها منجزاتها الحضارية وثقافتهم المتمدنة على كامل الأراضي التي وطئوها، ولعبوا دور الوسيط بين حضارات الشرق الأدنى القديم وحضارات البحر الأبيض المتوسط مما سهل تبادل الثقافات والعادات والتقاليد والابتكارات والبضائع والسلع ووصولها إلى مناطق بعيدة، واحتلت الحضارة الكنعانية موقعاً استراتيجياً هاماً في غرب قارة آسيا مطلة على البحر الأبيض المتوسط، وتُعرف حالياً بإقليم بلاد الشام أو سوريا الطبيعية والتي قُسمت بموجب اتفاقية سايبكس بيكو بين بريطانيا وفرنسا عام 1916م إلى أربعة دول تضم: سورية والأردن وفلسطين ولبنان، وامتدت حدودها بين جبال طوروس شمالاً إلى صحراء سيناء جنوباً ومن البحر الأبيض المتوسط غرباً إلى بلاد ما بين النهرين شرقاً¹، لكن العرب في القدم لم يطلقوا عليها اسم سوريا؛ وإنما كانوا يعرفونها باسم بلاد الشام لوقوعها إلى شمال بلاد الحجاز حيث أن: الشَّامُ بلادٌ عن مشأمة القبلة وسميت لذلك لأن قوماً من بني كنعان تشاءموا إليها أي تياسروا، أو لأن أرضها شامات بيضٌ وحمراً وسوداً²، وتلفظ الشام أو الشَّامُ بفتح أوله وسكون همزته وفيها لغة ثالثة وهي الشام بغير همز، وقد تذكر أو تؤنث³، ويمكن أن "تذكر وتؤنث"⁴، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن مصطلح بلاد الشام⁵ هو مصطلح حديث الظهور ولم يكن معروفاً في هذه الحقبة التاريخية، وإنما عرفت المنطقة بأسماء متعددة حسب كل فترة تاريخية كبلاد آشور وكنعان وأرام وفينيقيا وسوريا.

1 إسماعيل، حلمي، المشرق العربي القديم وحضاراته (بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية)، 1997، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ص133

2 الفيروزي آبادي، مجد الدين بن يعقوب، القاموس المحيط، 1980، ط3، ج4، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ص132

3 الحموي، ياقوت، معجم البلدان، 1977، المجلد الثالث، بيروت، دار صادر، ص311

4 ابن منظور، لسان العرب، دت، القاهرة، دار المعارف، باب حرف الشين، ص315

5 بلاد الشام: مصطلح حديث لكن كان لا بد من الإشارة إليه حتى يعرف القارئ المنطقة الجغرافية المستهدفة في هذا البحث؛ لذلك ارتأت الباحثة أن تستخدم مصطلح سوريا وسوري المستخدم في هذه الحقبة التاريخية بدلاً من مصطلح بلاد الشام الذي تأخر بالظهور سياسياً حتى فترات تاريخية حديثة.

أما اسم سوريا في كتابات المؤرخين والجغرافيين القدماء فقد وردت في كتابات الجغرافي الإغريقي الشهير سترابون حين ذكر حدودها بأنها تمتد من فافيلونيا (بابلونيا، بلاد بابل) حتى خليج إيسوس لكن قديماً كان يمتد من هنا (من خليج إيسوس) حتى إيفكسنينوس (بونتاس) 6 ، وورد اسم سوريا في أسفار العهد الجديد 7، وفي اللغة العربية (سورية) حلت تاء التأنيث محل الألف الأصلية باللغة الآرامية (سوريا)، ووردت أيضاً في كتابات هيرودوت الذي أسماها (سيريا)، وأن اسم سوريا (Syria) هو تسمية يونانية وجد في النصوص التاريخية القديمة على شكل "شرين (Shryn) في آداب أوغاريت و(سيريون Siryon) في العبرية حيث يطلق على لبنان الشرقي واستخدمت الكلمة فيما بعد لتشمل البلاد كلها" 8 الممتدة من البحر المتوسط إلى نهر الفرات، وورد اسم سوريا أيضاً في الآثار المكتشفة والنصوص التاريخية القديمة، وفي المخطوطات والمراسلات السياسية بين الملوك الفرعنة المصريين وحكام مدن دويلات كنعان كرسائل تل العمارنة 9 ، (انظر الشكل رقم 2) ويرى البعض أن مصطلح سوريا ظهر في الألف الأول ق.م في عهد الميديين 10 ، وفي عهد البابليين أطلق اسم سوريا على إقليم الفرات الأعلى فقط والدليل أن الاسم وجد في الكتابات الأدبية المكتشفة بمدينة أوغاريت 11 ، وورد أيضاً في عهد السومريون -سكان بلاد ما بين النهرين- الذين أطلقوا على سوريا اسم "مارتو) بالسومرية وبالأكدية (أمورو) 12 وتعني بلاد الغرب؛ لأن سوريا تقع غرب بلاد ما بين النهرين أو غرب نهر الفرات، واستخدم مصطلح (سوريا) في العصر الهلنستي الذي ساد فيه استخدام اللغة الإغريقية حيث سموا البلاد سوريا نسبةً إلى "أسور أو أسيريا

6 بونتاس: تعني البحر المضياف وهو الاسم الذي أعطاه الإغريق للبحر الأسود. انظر: سترابون، وصف بلاد ما بين النهرين وفينيقيًا، 2003، ص19

7 إنجيل متى 24، إنجيل مرقس 26، إنجيل لوقا 2،3

8 انظر: العهد القديم سفر التثنية 9:3 ، وسفر لمزامير 6:29 ، وانظر: حتي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج1، تر: د. جورج حداد، عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ص62، وانظر أيضاً: Cyrus. H. Gordos, Ugaritic Handbook. Rome, 1848, p142

9 ذكرت العديد من المصادر التاريخية أن المصريين سيطروا على بلاد كنعان في عهد فراعنة الدولة الحديثة لا سيما في عهد الفرعون أمنحوتب الثالث (أمونيفيس الثالث) وابنه الذي خلفه أمنحوتب الرابع (أمونيفيس الرابع) الذي لقب نفسه بأخناتون واكتشفت في قصره رسائل تل العمارنة في أواخر القرن التاسع عشر، وهي عبارة عن رسائل بين الفرعون المصري وحكام بلاد كنعان وكونت جزء من الأرشيف الدبلوماسي المصري القديم. للمزيد انظر: فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة الدولية، 2010، ط1، دمشق

10 عندما قضى الميديون الذين أقاموا مملكة لهم في شمالي إيران على الإمبراطورية الآشورية الحديثة في أواخر القرن 7 ق.م وجعلوا بلاد آشور أي القسم الشمالي من بلاد الرافدين مقاطعة مديية سموا المنطقة الواقعة ما بين نهري الفرات ودجلة (أسورا) Asura نسبة إلى مدينة آشور التي كانت سابقاً عاصمة هذه المنطقة، وعرفها الآراميون باسم أتور Atur وهي الأجزاء الممتدة من غرب نهر الفرات إلى البحر المتوسط. للمزيد انظر: مرعي، عيد، تاريخ سوريا القديم وآثارها وحضارتها، 2021، دمشق، ص11

11 علي، أحمد إسماعيل، تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي، 1994، ط3، سورية، دار دمشق للنشر، ص28

12 عرف سكان بلاد الرافدين السومريون سوريا باسم مارتو أو أرض أمورو (بالسومرية مارتو MARTU وبالأكدية Amurru وسموا البحر المتوسط (بحر أمورو العظيم) للمزيد انظر: عيد مرعي، 2021، سابق، ص16

أي بلاد الآشوريين"13. هكذا تطور اسم سوريا في الشرق الأدنى القديم وفي كتابات الأدباء والمؤرخين والجغرافيين في ذلك الوقت بناءً على القوة السياسية الحاكمة والمسيطرة على المنطقة.

وفي هذا الصدد لا بد أن نشير إلى أن الباحثة لن تتحدث عن الحضارات التي تأسست في سوريا، وإنما ستتحدث عن الحضارة الكنعانية 14 التي سادت في الساحل السوري. ويهدف هذا الفصل من البحث إلى تسليط الضوء على الحضارة الكنعانية التي قدمت إنجازات حضارية كبيرة في المجالات كافة لا سيما المجال السياسي وتطرقنا الباحثة إلى موقع فينيقيا وسبب تسميتها وأصل سكان المنطقة، ثم تحدثت عن النظام السياسي للحكم وانتشار نظام دويلات المدن وانتقالها إلى اليونان ووضحت أسباب التوسع الفينيقي، وأسلوب الاستيطان الفينيقي، وفي المجال العلمي سلطت الضوء على المنجزات العلمية للفينيقيين كعلوم الفلك التي ارتبطت بعقائدهم الدينية، وبرز العديد من العلماء السوريين في هذا المجال وفي مجال الفلسفة والحكمة والحساب. وفي المجال الاقتصادي أشارت إلى خبرة الفينيقيين في الزراعة، وإتقانهم الصناعة التي تميزت بإتقانها وجودتها، وبراعتهم في العمارة.

13 للمزيد اقرأ علي، أحمد إسماعيل، 1994، سابق، ص28

14 بلاد كنعان والحضارة الكنعانية والكنعانيون هي مرادفات لفينيقيًا والحضارة الفينيقية ذات معنى واحد

أولاً. المجال السياسي:

قبل الحديث عن الوضع السياسي والنظام السياسي القائم في بلاد كنعان سنتطرق إلى موقع كنعان الجغرافي وحدودها ومعنى التسمية في اللغة العربية وسبب تسميتها بفينيقيًا. حيث ذكر اسم كنعان في "مراسلات تل العمارنة (ثلاث عشرة مرة) بصيغة (مات كيناخي mat kinahhi) وتعني أرض كنعان وتمتد حدودها من خليج اسكندرون في الشمال حتى غزة في الجنوب، ومن البحر المتوسط في الغرب إلى نهر الفرات في الشرق" 15 (الشكل 3)، وجدير بالذكر أن هذه الحدود لم تكن واحدة في كل العصور، وإنما اختلفت من فترة زمنية إلى أخرى وفقاً للأوضاع الاقتصادية وللقوى السياسية المتصارعة، والتداخل الجغرافي الواضح بين سوريا وفلسطين ولبنان فكانت في عهد يوشع بن نون -وهو من نسل يوسف بن يعقوب عليهما السلام- تمتد من أنطاكية إلى غزة، وبعد خلاف يشوع مع الكنعانيين خرجوا من جبال فلسطين باتجاه السواحل البحرية فأصبح اسم فينيقيًا ينحصر من عكاء أو جبل الكرمل جنوباً إلى أرواد شمالاً 16، وكان لفظاً "كنعان وكنعانيين تطلق على شعب المنطقة السورية-الفلسطينية" 17، ومن ثم أصبحت تنحصر في المنطقة الساحلية السورية، وقد ذكرت النصوص التاريخية أدلة كثيرة على ذلك منها توثيق ملك آلالاخ قصة حياته وأعماله التي أنجزها في عمر الثلاثين من حكمه على لوح فخاري عرف بنقش أدريمي وكتب بالخط الأكادي حيث ذكر اسم بلاد كنعان وقصة هروبه إليها، إضافةً إلى أن العهد القديم والجديد قد أشار إلى سكان الساحل السوري وفلسطين باسم الكنعانيين حيث ورد قصة عن "القديس أوغسطين الذي عرف عن نفسه لمجموعة من فلاحي إقليم طرابلس الغرب بأنه كنعاني (شعائي)" 18 وتعني كلمة كنع باللغة العربية في أحد معانيها: الميل نحو الغرب، وبمعنى آخر "لان وخضع أو هرب وجبن" 19، ولقد اشتقت كلمة كنعان من أصل سامي كما يشير بعض الباحثين من الفعل (كنع) أو (خنع) Kana 20 والتسمية هنا تشير إلى مدلول جغرافي بمعنى (انخفض) كإشارة إلى انخفاض أرض

15 عيد مرعي، 2021، سابق، ص468

16 المطران الدبس، يوسف، 1994، تاريخ سوريا الديني والديني، ج1، دار نظير عبود. ص250-251

17 موسكاتي، سبتينو، الحضارات السامية القديمة، 1986، لندن، تر: يعقوب بكر، بيروت، دار الرقي، ص114

18 الهذال، حصة تركي، المؤثرات الحضارية الفينيقية في الحضارة اليونانية، 2016، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 43، ص1562

19 معلوف، لويس، المنجد في اللغة والأعلام، ط3، بيروت، دار المشرق، 2008، ص700

20 للمزيد عن أصل الاسم اقرأ: غانم، محمد الصغير، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، 1979، الجزائر، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ص20

الكنعانيين، وفي العبرية كنع يعني "خضع وركع وتواضع" 21، ويقصد بالأرض المنخفضة هنا انخفاض الساحل الكنعاني بالنسبة إلى جبال لبنان على ساحل البحر المتوسط أو بالنسبة إلى أرض بلاد ما بين النهرين، وفي هذا الصدد لا بد أن نشير إلى أن أول من استخدم هذا المصطلح هو "العالم النمساوي Schlutzer الذي أكد أن اللغات في الشرق الأدنى من أصل واحد" 22 ؛ لذلك مهما تعددت الأسماء فالمعنى واحد، وهناك من يرى أن سبب التسمية نسبةً إلى جدهم كنعان "حيث كانت من عادة العرب في تسمية قبائلهم أن ينسبونها إلى الجد الأكبر" 23. والبعض الآخر يعتقد أن كلمة كنع (Kinahhu) تعني الصبغة الحمراء الأرجوانية 24 ، وهناك فريق أيضاً ينادي بالأصول الهندو-أوربي حيث أطلق الحوريون على سكان الساحل الكنعاني في القرن السابع عشر اسم "(كناجي) Knaggi وتعني في لغتهم الصباغ الأرجوانية التي اشتهر بها التجار الفينيقيون، ومنها أخذت الكلمة الكلدانية (كناخ) التي حُرِفت إلى كنعان أي بلاد الأرجوان" 25 ، وقد وافقت التسمية هذه مع التسمية اليونانية Phoinix 26 والتي تعني أيضاً في اللغة اليونانية "اللون الأحمر الأرجواني" 27 كإشارة إلى الصباغ الأرجواني المتوفر بكثرة على الساحل الكنعاني؛ لهذا أشار اليونان إلى بلاد كنعان باسم فينيقيا كمرادف لهذه التسمية، ويقال أن أول من استخدم مصطلح فينيقي كان الشاعر الإغريقي هوميروس ومن حينها أصبح سكان الساحل الكنعاني (السوري) يعرفون بالفينيقيين وسميت المنطقة فينيقيا وهي نفسها منطقة كنعان.

وفي الحقيقة كان الإغريق يطلقون أسماء العلم على المدن، أو أسماء المنتجات التي تشتهر بها فقد سميت مدينة جبيل الفينيقية (بيبلوس Byblos) لأنها اشتهرت بصناعة ورق البردي، وسميت مدينة تدمر أيضاً بمدينة النخيل (Palm) لشهرتها بإنتاج التمر؛ لذلك أطلقوا على الساحل السوري الشهير بصناعة الصباغ الأرجواني بلد الأرجوان، ولقد كان استعمال المصطلحات التي تصف المنتجات أمراً مألوفاً عند أمم العالم القديم، ومن المؤكد

21 يحزقيل قوجمان، قاموس عربي-عبري، بيروت، 1970، ص358، 347

22 M.C. Astour, (The Origin of the terms Canaan, Phoenician and Purple), JNES, 1965, P 346

23 عن الأنساب وطبقات القبائل عند العرب انظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 1993، ج1، ط2، بغداد، جامعة بغداد، ص509 وما بعدها

24 Von Soden.W, Akkadisches Handwörterbuch, Wiesbaden, 1965, p479

25 عصفور، أبو المحاسن، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، 1987، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، ص158

26 Muhly.J. D, Homer and the Phoenicians the relations between Greece and the Near East in the Late Bronze Early Iron Ages, Berytus 19, 1970, p24

27 Piotr Bienkowski, Alan Millard Dictionary of the Ancient Near East, B.M, 2000, p229

أن الكلمة اليونانية (فينيقيا) تعتبر اشتقاق من المفردة (فونيكس) بمعنى أرجواني والمقصود بذلك القول بأن المفردة فونيكس نشأت اسماً وصفيّاً عامّاً، ربما من كلمة فونيكس التي تعني أحمر²⁸، فكلمة Phoinos والتي تعني حرفياً في اللغة اليونانية "اللون الأحمر والدم أو القاتل والسفاح مشتقة من كلمة Phonos والتي تعني الجريمة"²⁹ ومن المرجح أن الإغريق نسبوا لون الأرجوان إلى لون الدم الأحمر، أو ربما إلى لون بشرة سكان السواحل الكنعانية الضاربة إلى الحمراء بسبب تأثير الشمس كونهم كانوا تجاراً وملاحين يجوبون البحار تحت الشمس الحارقة، أو ربما نسبةً للصباغ الأرجواني الذي اشتهر بها الفينيقيون، واتفق أسطور بتفسيرها مع الترجمة الأكادية لها حيث أشار إلى أن مصطلح "فينيقيين" (phoenicians) مفردتها فينيقي (Phoenician) واسم البلاد فينيقيا (Phoenicia) بأنها تعني بلاد الغروب وهي الترجمة المطابقة لكلمة Amuru الأكادية³⁰ التي سبق وأشرنا إليها والتي أطلقها الأكديون على سوريا ومن قبلهم السومريون أيضاً على اعتبار أن سوريا تقع إلى الجهة الغربية من بلاد الرافدين.

ويرجح أن المايسينيين³¹ هم أول شعب إغريقي استخدم كلمة فينيقيا في مصادرهم التاريخية حيث لم نجد أثراً لكلمة فينيقيا في المصادر الكنعانية لهم استعملوا "لقب صيدونيين"³² للإشارة إلى كل فينيقي. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن قدماء اليونان كان لديهم طائر أسطوري يدعى طائر الفينيق واسمه مشتق من نفس اللفظ (Phoinos) والتي تعني اللون الأحمر حيث كان هذا الطائر الأسطوري يتصف بجناحيه ذات اللون الأحمر لأنه يحمل الشمس عند مطلعها من الشرق إلى الغرب بمخالبه ثم يموت لينبعث في اليوم التالي عند الشروق، وعلى الأرجح أن الإغريق لقبوا كنعاني الساحل بلقب فينيقيين ربما لأنهم جاؤوا من الشرق بسفنهم ذات الأشعة الحمراء كما جاء طائر الفينيق الأحمري من الشرق. والبعض فسر الاسم اليوناني Phoinix نسبةً إلى الموانئ التي اشتهر بها الفينيقيين فقد وردت كلمات يونانية تشير إلى الميناء مثل "الميناء الواقع على الساحل مثل ميناء

28 نسطور، ميخائيل، كنعان وفينيقيا والأرجوان، 2001، ط1، قدمس للنشر والتوزيع، سوريا، ص21

29 Astour.M.C, The Origin of the Terms Canaan, Phoenician and Purple, JENS 24, 1956, p34

30 Astour, op.cit, p348

31 المايسينيين: شعب ذو أصول إغريقية سكن في مدينة تقع شمال شرق شبه جزيرة البلوبونيز وتعد من أقدم حضارات الإغريق (1600-1200 ق.م) انتهت بالغزو الدوري والاضطرابات السياسية التي كانت تعصف داخلها ويعتبر المايسينيين أسلاف للأبطال المذكورين في الأساطير الإغريقية والملاحم الشعرية للمزيد انظر:

Sacks, Encyclopedia of the Ancient Greek World, New York, 2005, p215

32 Muhly, op.cit, 1970, p27

Phoinikous وهو ميناء جزيرة كيثيرا أو الميناء الواقع على ساحل مسينا³³ ، والبعض يعتقد أن معنى الكلمة النخلة أي الثمر لكثرة النخيل قديماً في فينيقيا لكن لا وجود له اليوم إلا بشكلٍ نادر، ولربما أطلقت التسمية بسبب قرب موطن الفينيقيين الأصلي وهو جزيرة العرب من البحر الأحمر، وقد وجدت مسكوكات للفينيقيين عليها نقوش شجرة النخيل لا سيما في قرطاجة حيث اشتهرت شجرة النخيل في حضارات الشرق الأدنى القديم.

ولقد استخدم المصريون القدماء كلمة "فنخو" منذ عهد الدولة القديمة 3100-2184 ق.م للدلالة على شعب الإقليم السوري³⁴. والتي تعني "فارمي الخشب" 35 فقد كان الفينيقيون عمال الخشب ومهندسين بناء بما يتناسب وبيئتهم الغنية بالأشجار على السواحل السورية، وقد ورد لدى المصريون القدماء أيضاً اسم (كنعانيون) في نقوشهم الفرعونية القديمة للملك "أمينوفس الثاني 1450-1425 ق.م على مسئلة المقامة في مدينة ممفيس التي تؤرخ حملته الأولى على آسيا³⁶ حيث اتبع ملوك مصر القدماء سياسة السيطرة على الساحل السوري والتبعية المصرية لمدن فينيقيا. وألحق العرب حرف النسب (الياء) على كلمة فينيقي فأصبحت "فينيقي وبوني والكتاب يستخدمون مصطلحات متعددة فيقولون الحرب الفونية أو البونيكية³⁷ ، والبونيون هي التسمية التي أطلقت على الشعوب الكنعانية (الفينيقية) التي استقرت في مستعمرات شمال أفريقيا مثل (قرطاجة في تونس)، فقد ميز الرومان بين الفينيقيين الشرقيين Phoenices والفينيقيين الغربيين الذين عرفوا باسم Poeni البونيون. أما أصول السكان في هذه المنطقة الجغرافية والذين كانوا الأساس في صنع الحضارة الفينيقية، والمكون الرئيسي للنظام السياسي ستعرج الباحثة إلى أصولهم بشكل مختصر من أجل الرد على المزاعم التي تقول بأن سكان المنطقة هم شعوب غير أصليين على الرغم من أن هذا الموضوع قد لقي خلاف بين الباحثين، فالبعض منهم نادي بأن سكان فينيقيا هم السكان الأصليين، والبعض الآخر اعتقد بوجود هجرة خارجية لكن هذه الهجرة لم تكن أجنبية وإنما كانت هجرة قبائل ذات قرابة دم مع الفينيقيين جاءت من شبه الجزيرة العربية إلى فينيقيا بسبب القحط

33 Muhly, op.cit, p 33

34 الهذال، 2016، سابق، ص1562

Kathleen. M. Kenyon, Amorites and Canaanites, London, 1966, p59 35

36 Alan Gardiner, Egypt of the Pharaohs an Introduction, (Oxford, 1961), p202

37 بوني: Poni: لفظة لاتينية عن الاسم اليوناني Punic أطلقها الرومان على القرطاجيين في العالم الغربي للمزيد انظر: هنري عيودي، معجم الحضارات السامية، 1991، ط2، طرابلس، بيروت، ص248

والجفاف الذي ألم بالجزيرة، والدليل على ذلك بأن التاريخ القديم اتصف "خلال الألف الأول ق.م بسيادة مجموعتين بشريتين كبيرتين في سوريا (الآراميون) و(الكنعانيون الفينيقيون)"³⁸. وفي هذا الصدد يؤكد مازيل 39 وجود هجرات سامية هاجرت من الجزيرة العربية إلى فينيقيا (الشكل 4) وأن أصحابها أسسوا حضارة في المنطقة، ووافق مازيل في ذلك المؤرخ الجغرافي سترابون 40 عندما أكد على وجود شعوب مختلطة في سوريا وقسمهم إلى عدة أقسام، والبعض الآخر من الباحثين يؤكد أن الحضارة الكنعانية هي حضارية أصيلة تعود لأصحاب المنطقة الأصليين مثل فيلون الجبيلي⁴¹ الذي "يعد بني قومه هم أساس الحضارة لأنهم استقروا في فينيقيا منذ أقدم العصور ولم يشير إلى أيه هجرة من الخارج"⁴². ومع ذلك فإن اختلفت آراء الباحثين في أصل سكان بلاد كنعان لكنهم يتفقون جميعهم على أن أصل الحضارة الكنعانية ذو أصل سامي، فالساميين هم سكان المنطقة الأصليين الذين عاشوا حياتهم متجاورين دون وجود حدود جغرافية واضحة المعالم، وتشابهوا ثقافياً ولغوياً واجتماعياً وكانت حياتهم تشير إلى وجود "حياة اجتماعية مشتركة بين السكان في كافة المجالات"⁴³ وبناءً على ذلك فقد انقسم الكنعانيون إلى قسمين: قسم استقر في المناطق الداخلية وعرفوا بكنعاني الداخل، وقسم استقر في المناطق الساحلية على شواطئ البحر المتوسط في سوريا ولبنان وفلسطين وعرفوا بكنعاني الساحل أو الفينيقيين "وانحصروا في منطقة ساحلية ضيقة محصورة بين الساحل والجبال المرتفعة تحدها من الشرق جبال لبنان التي لا تبعد عن البحر أكثر من 50 ميلاً، ويغطي هذا المنطقة غابات كثيفة تضم أشجار الأرز والصنوبر والسرور"⁴⁴، ثم توسعت أراضيهم بعد تأسيسهم المستعمرات في حوض البحر الأبيض المتوسط. وكان لموقع فينيقيا بين البحر

38 استقرت الأولى في المناطق الداخلية وأقامت ممالك مدن كثيرة مستقلة ذاتياً، واستوطنت الثانية في المناطق الساحلية حيث ازدهرت مدنها كجبيل وبيروت وصيدا وصور وكان لها دور بارز في التجارة والملاحة وتأسيس المستوطنات التجارية في جميع أرجاء حوض البحر المتوسط. للمزيد اقرأ مرعي، عيد، سابق، ص 465

39 يقول مازيل: إذا كانت الأسطورة تقول بأنه في الألف الثاني قبل الميلاد جاء ليستقر فوق رقعة الأرض الضيقة بين البحر الأبيض المتوسط وجبال لبنان شعب قادم من شبه الجزيرة العربية. وهذا الشعب كان يدعى بالشعب الأحمر أو الحميريين. إننا نجد بالواقع في لفظتي حمير وحميريين الجذر الثلاثي (ح م ر) الذي مازال في أيامنا هذه يعني في العربية الاحمرار. انظر: مازيل، جان، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، 1998، تر: ربا الخش، ط1، سوريا، ص 31

40 ذكر سترابون أن البعض يقسم سيريا (سوريا) إلى: القسم الأول هم أهل حوض سوريا والسوريين، والقسم الثاني هم الفينيكس (الفيينيقيين)، ويقولون إنه توجد بين هؤلاء أربعة شعوب مختلطة هي: اليهود الإيدوميون الغزيون (أهل غزة)، والأزوتيون وبعض هؤلاء فلاحون مثل السوريين، وأهل حوض سوريا، والآخرين تجار مثل الفينيقيين. للمزيد انظر: سترابون، سابق، ص 39

41 فيلون الجبيلي: المفكر الفينيقي ولد في فينيقيا عام 42م وعاش في العصر الروماني 64-141 م، وألف كتاب عن الديانة الفينيقية نقلها عن الكاتب الفينيقي سانخونيانون، للمزيد اقرأ كونتيو، الحضارة الفينيقية، 2001، تر: محمد شعيرة، مركز الشرق الأوسط، القاهرة، ص 113

42 مرعي، عيد، سابق، ص 470 وانظر أيضاً: الجبيلي، فيلون، 1993، دمشق، ص 28

43 موسكاتي، سابق، ص 225

44 إسماعيل، حلمي، سابق، ص 150

المتوسط من جهة الغرب وسلسلة جبال لبنان الغربية من جهة الشرق دوراً استراتيجياً هاماً في ربط الشرق بالغرب، والشمال بالجنوب من خليج الإسكندرية في الشمال وصحراء سيناء في الجنوب فكان حلقة وصل بين الشعوب المستقرة والمتحضرة آنذاك وساهم بموقعه الاستراتيجي على "ساحل البحر المتوسط وغناه بالموارد الطبيعية من أشجار ونباتات ومحاصيل زراعية إلى منطقة جذب للشعوب الأخرى"45 ، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الفينيقيين الذين استقروا في الساحل تأثروا بالمؤثرات الحضارية المصرية والكريتية والقبرصية، بينما تعرض كنعاني الداخل الذين استقروا عند عقدة طرق عالمية وقوافل تجارية إلى مؤثرات حضارية بابلية بسبب قربهم من بلاد ما بين النهرين46. اتسمت فينيقيا بعدم وجود دولة قوية مترامية الأطراف وإدارة مركزية فيها وإنما ظهرت دويلات المدن ذاتية الحكم والتي أدارت شؤون مدينتها بذاتها والتي عرفت باسم (Polis cities) أي دويلات المدن وتعود أسباب ظهور هذه الدويلات إلى ثلاثة أسباب استنتجتها الباحثة كالتالي: أولاً الموقع الاستراتيجي للساحل السوري بين مراكز القوى الكبرى التي قامت في وادي النيل وآسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وتعرضه بين الفينة والأخرى للتوسع من قبل هذه الدول الكبرى كان له الدور الكبير في ظهور دويلات المدن والتي لم تستطع الوحدة مع بقية المدن بسبب وجود أطماع دولية كبرى، وثانياً طبيعة الساحل الكنعاني الجغرافية ووجود السلاسل الجبلية بين المناطق الجغرافية كان سبباً واضحاً في عدم قدرة الكنعانيين (الفينيقيين) على تأسيس دولة واحدة قوية مترامية الأطراف في سوريا فأسسوا دويلات مدن صغيرة "يرأس كل مدينة حاكم يستقل بشؤون مدينته عن بقية المدن، واتصفت هذه المدن بتحصينها بأسوار وأبراج دفاع تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها، يلجأ الفلاحون إلى قلعتها المتواجدة في المدينة أثناء الحرب ليحتموا داخل أسوارها"47 ضد غزوات دول الجوار أو دويلات المدن الطامعة، واختير الحاكم من قبل الشعب وغالباً ما كان "من طبقة الأشراف الملاكين"48 ، وثالثاً بسبب ميل الفينيقيين إلى التجارة والملاحة وبعدهم عن السياسة كان سبباً في عدم رغبتهم بالتوسع السياسي وتأسيس دولة كبيرة المساحة وإنما فضلوا تأسيس مدن صغيرة مستقلة بذاتها حيث اتسمت المدن

45 غانم، محمد الصغير، سابق، ص12

46 للمزيد عن الكنعانيين وتأثرهم بالدول السياسية المجاورة اقرأ علي، أحمد، سابق، ص38

47 عصفور، سابق، ص159

48 حتي، سابق، ص88

"بالموقف السلمي أي اهتمامها بالتجارة والريح دون وجود أطماع سياسية فقد حصلت صيدا على مركز سيادي عام 1000 ق.م ومن بعدها مدينة صور" 49 حيث أدرك الفينيقيون من خلال تجوالهم في البحار وتجارته مع الشعوب أنهم لا يملكون القدرة العسكرية الكبيرة لمواجهة دول عظمى لذلك اتجهوا إلى تفادي الحروب وكسب ولاء الحكام فكانوا تجاراً مسالمين.

ومن خلال قراءة فصول البحث سيدرك القارئ أن بلاد ما بين النهرين لاحقاً ووادي النيل قاموا بتأسيس دول كبرى وتوسعوا في حدودها الجغرافية على حساب دول الجوار لا سيما فينيقيا وفرضوا على الحكام المحليين جزية مالية سنوية، على عكس فينيقيا التي سعت إلى تأسيس دويلات مدن مستقلة. لكن هل هذا النظام السياسي الذي تبنته فينيقيا إيجابي على الصعيد السياسي والعسكري؟ رأي الباحثة لا طبعاً؛ لأن وجود دويلات مدن صغيرة لا تملك قدرات عسكرية كان سبباً في ضعفها السياسي ونشوء التنافس والحروب بين بعضها البعض حيث اتسمت دويلات المدن في أغلب عهودها بسوء "الاستقرار الداخلي وطمع كبار السياسيين بالسيادة المحلية مما أدى إلى بقاء هذه الدويلات تحت رحمة الدول الكبيرة المجاورة الميالة إلى الاعتداء والتوسع" 50. لكن من إيجابيات هذا النظام المستقل في فينيقيا أن المدن كانت تتفق في الشؤون الخارجية عندما يهددها خطر خارجي "فتتحد مع بعضها لتواجه الغارات والحرب والنكبات العامة" 51 ، ولقد بات من المعلوم للجميع أن الحضارة اليونانية نهلت من الحضارة الفينيقية منجزات حضارية كثيرة من "منجزات فينيقيا المادية والفكرية من ناحية، ومما نقله التجار الفينيقيون من بضائع إلى اليونان من ناحية أخرى حيث بلغت الحضارة السورية قمة ازدهارها في الألف الثالث ق.م" 52 ، ومن هذه المنجزات الحضارية التي اقتبسها اليونانيون النظام السياسي الذي أعجبوا به ونقلوه إلى بلادهم حيث "تبنت اليونان نظام دويلات المدن الذي كان سائداً في فينيقيا" 53 ؛ ويعود السبب في ذلك إلى وجود عوائق جغرافية في بلاد اليونان ساعدت على تأسيس نظام دويلات وانفصال المدن عن بعضها البعض في الشؤون الداخلية. ومن المعلوم أن الكنعانيين كانوا تجار بحر وخبراء ملاحه وفرسان تحدوا مخاطر البحار وهذا

49 موسكاتي، سابق، ص125

50 حتي، سابق، ص88

51 المطران الدبس، سابق، ص246

52 صالح، نبيل وآخرون، نقد الحضارة الغربية، تاريخ الإغريق قبل القرن التاسع ق.م، 2021، ج1، ط1، العراق، النجف، ص191

53 يوسف حوراني، لبنان في قيم تاريخه – العصر الفينيقي، 1986، بيروت، دار الشرق، ص46

ساعدهم على تأسيس مستعمرات تجارية لهم على سواحل البحر المتوسط تابعة للفينيقيين ذلك الشعب السامي الذي "اشتهر في التاريخ القديم بشجاعته في الملاحة وتأسيس نقاط تجارية في مواقع ذات أهمية استراتيجية في حوض البحر المتوسط" 54. وبما أن اليونان تقع جنوب شرق القارة الأوربية في جنوب شبه جزيرة البلقان على الساحل الشمالي للبحر المتوسط وتطل على البحر الإيجي والأيووني هذه البحار التي انتشر فيها الفينيقيون لقربها من الساحل الفينيقي فكانت اليونان أول البلدان الأوربية على سواحل المتوسط والتي دخلها الفينيقيون وأسسوا فيها مستعمرات تجارية تابعة لفينيقياً لا سيما وأن الفينيقيون كانوا على علاقة تجارية مع اليونان قبل دخولهم إلى بلادهم والدليل على ذلك اكتشاف التنقيبات الأثرية على "أواني وتمائيل فينيقية الصنع في جزيرة كريت تعود إلى النصف الأول من الألف الثاني ق.م." 55 على اعتبار أن جزيرة كريت كانت ملتقى الاحتكاك الفينيقي-اليوناني. وقد أشار اليونانيون في كتاباتهم التاريخية ورواياتهم الشعبية والأسطورية إلى قضية دخول الفينيقيين إلى اليونان حيث أورد هيرودوت المؤرخ اليوناني الشهير في كتابه أنه نزل عدد من الإغريق لا تُعرف أسمائهم إنما يرجح أنهم من أبناء كريت في صور على الساحل الفينيقي واختطفوا ابنة ملك الفينيقيين أوربا 56 مشيراً إلى أسباب دخول الفينيقيين إلى بلاده وهو البحث عن الأميرة الفينيقية المختطفة، وفي هذا الصدد ستستعرض الباحثة أسطورتين تتناولان التوسع الفينيقي في اليونان: الأولى أسطورة اختطاف الإله الإغريقي (زيوس) لابنة ملك صور وتدعى (أوربا) ومغامرات ابنه قدموس في اليونان أثناء البحث عن أخته، والثانية أسطورة ملقارت (هيراكليس).

تتحدث الأسطورة الأولى عن اختطاف الإله زيوس (جوبيتر لدى الرومان) أوربا الجميلة ابنة أجينور ملك صور الفينيقي بعد "أن حول زيوس نفسه إلى ثور وهرب بها عبر البحر المتوسط ثم إلى اليونان، فأمر أجينور ولده قدموس بالبحث عن أخته في اليونان" 57 ، وهنا يظهر التفاعل الحضاري بين الفينيقيين واليونانيين من خلال تقمص إله اليونان جسد الثور المقدس لدى الفينيقيين والتي انتقلت إلى اليونان وأصبح للثور "لكانته المقدسة

54 موسكاتي، سابق، ص 43

55 نوال، وآخرون، نقد الحضارة الغربية، سابق، ص 286

56 هيرودوت، تاريخ هيرودوت، 2001، تر: عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي الإمارات، أبو ظبي، ص 30

57 مازيل، سابق، ص 78

وعبادته المشهورة في اليونان وجزيرة كريت ومنطقة البحر المتوسط"58 ، وأسس قدموس بن أجينور في بلاد اليونان المدن، وبنى المعابد الدينية، ونشر المعتقدات الدينية الفينيقية وعلم السكان الأبجدية الفينيقية. وبالتدقيق التاريخي للأسطورة قد يشكك البعض فيها لكن على الرغم من ذلك تبقى الأسطورة في التاريخ القديم تمثل جزء من الحقيقة التاريخية التي لم تكن الشعوب آنذاك قادرة على صياغة التاريخ إلا بطريقة الأساطير لكنها في الواقع تشير إلى إغناء الحضارة اليونانية بمنجزات فينيقيا عن طريق سرد أسطورة خيالية بطلها الإله زيوس وقدموس ابن ملك صور الفينيقي وهنا نستطيع أن نستنتج بعض الحقائق التاريخية أيضاً وهي سيطرة مدينة صور آنذاك على أرجاء البحر المتوسط وقدرتها على اختراق حدود الدول ونشر منجزاتها الحضارية والثقافية، وقد ورد في الأسطورة أيضاً أن "أوروبا أنجبت لزيوس ابنين هما (رامانتس) و(مينوس) ملك كريت"59 ؛ وهذا يدل على اعتراف الإغريق بالأصول الفينيقية للحضارة اليونانية سواء في بلاد الإغريق الداخلية أو في جزر البحر المتوسط مثل كريت وقبرص، واستناداً للأساطير الإغريقية فإن ملك صور هو ابن إله البحر اليوناني (بوسيدون) وأمه ليبيا وابنته أوربا التي أخذت القارة الأوروبية منها اسمها، فهذه الرابطة الدينية بين ملك صور والإله زيوس كانت نتيجتها تكوين صلة نسب بعد زواج زيوس بأوروبا ومعناه حدوث تمازج وزواج وتفاعل حضاري بين الفينيقين والإغريق. أما الأسطورة الثانية (أسطورة ملقارت) ويعني اسمه ملك المدينة أو ما يعرف بهرقل وباليونانية (هيراكليس) وهو بطل فينيقي انتقل صدهاء إلى اليونان ثم أصبح إلهاً حيث جعلوا منه إلهاً شاباً أو "إلهاً للشمس نشأ في طيبة وهو ابن الإله زيوس، ومن هنا جاء تشابه شخصيته مع هرقل الذي كان مرتبطاً بالشمس تخترق سهامه الظلام"60 ، وذكر بالأساطير اليونانية بأنه "قهر المضيق بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي وأسس أعمدة هرقل وفتح الطرق الساحلية باتجاه المحيط الأطلنطي"61 حيث تشير هذه الأسطورة الخيالية إلى حقيقة تاريخية فيها دلالة قوية على ازدهار حركة التوسع الفينيقية في أرجاء البحر المتوسط ووصولهم إلى المحيط الأطلنطي وسيطرتهم على الطرق البحرية والملاحة التجارية والمضائق الهامة آنذاك، وإلى بعض الجزر كجزيرة كريت وقبرص.

58 مازيل، سبق ذكره، ص79

59 نوال وآخرون، نقد الحضارة الغربية، سابق، ص286

60 للمزيد عن هرقل أو الإله ملقارت انظر: خزعل الماجدي، الآلهة الكنعانية، ط1، 1999، عمان، ص96 وما بعدها

61 مازيل، سابق، ص79

ولا بد أن نذكر الأسباب الحقيقية للتوسع الفينيقي بشكلها السياسي لا الأسطوري حيث لخصتها الباحثة كالتالي:

أولاً كان الساحل الفينيقي يتعرض بين الفينة والأخرى للصراع المستمر بين الدول الكبرى كالدولة المصرية في وادي النيل جنوباً والدولة الحثية في آسيا الصغرى شمالاً بسبب طمعهم بخيرات الساحل الفينيقي لا سيما مادة الأخشاب التي كانت المادة الأساسية لصناعة الأساطيل البحرية والأبنية المعمارية، إضافةً إلى معاناة فينيقيا المستمرة من هجمات جيرانها الآشوريين والآراميين والعبرانيين للسيطرة على الطرق التجارية، وعلاوةً على ذلك بدأت في ذلك الوقت غزوات شعوب البحر التي اجتاحت في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد آسيا الصغرى وسواحل البحر المتوسط؛ مما أدى إلى تغيير الوضع السياسي في المنطقة من خلال تراجع نفوذ الدولة الحثية والمصرية عن الساحل الفينيقي؛ وبذلك أصبح المجال مفتوحاً أمام الكنعانيين بعد نشوء فراغ سياسي في المنطقة لاسيما "بعد سقوط البحرية الإيجية على يد الدوريين حيث كانت تسيطر على تجارة الحوض الشرقي للمتوسط" 62 فازدهرت المدن الفينيقية ازدهاراً اقتصادياً كبيراً وانطلقوا في حوض المتوسط ليؤسسوا مستوطنات في وسط هذا الفراغ السياسي القائم لا سيما الجزء الغربي من حوض المتوسط الذي كان يعاني من "ضعف سكانه عسكرياً وتأخرهم حضارياً وبعدهم عن التطور" 63 مما أتاح المجال للكنعانيين في بناء مستوطنات تجارية ونقل أفكارهم ومنجزاتهم الحضارية إلى هذه الشعوب البدائية وعرض بضاعتهم التجارية التي لقت رواجاً كبيراً هناك.

أما السبب الثاني فكان سبباً اقتصادياً تجلّى بضيق الشريط الساحلي السوري حيث كانت الجبال الساحلية الممتدة من الأمانوس شمالاً حتى الكرمل جنوباً تشكل حاجزاً جبلياً موازياً لساحل البحر الأبيض المتوسط؛ مما أعاق حركة التجارة بين كنعاني الداخل والساحل، إضافةً إلى أن "السهول الساحلية للكنعانيين لم تكن تكفي السكان الذين تزايد عددهم" 64 فاضطروا أن يتاجروا عن طريق البحر وجزره الغنية بالمعادن والمواد الخام الجاهزة للاستثمار. وقد كانت طبيعة الساحل الفينيقي تلائم تجارتهم البحرية؛ لأنه كان يعج بالموانئ البحرية الطبيعية الصالحة للملاحة، وأضف إلى ذلك براعتهم في بناء السفن البحرية وخبرتهم في ركوب البحار أتاح لهم سبلاً

62 غانم، محمد، سابق، ص 66

63 غانم، سبق ذكره، ص 47

64 إسمايل، حلمي، سابق، ص 156

كثيرة للتجارة عبر البحر. وبدأ التوسع فعلياً في حوض البحر المتوسط وأسس التجار الفينيقيون لا سيما تجار مدينتي صور وصيدا "محطات تجارية على الساحل الجنوبي لجزيرة قبرص في أواخر الألف الثاني ق.م لاستثمار خامات النحاس من أجل صنع البرونز، ووصلوا إلى الحوض الغربي وبنى السوريون مستوطنة قرطاجة Carthage وأطلقوا عليها (قرت - حدثت) 65 وهو اسم فينيقي يتألف من كلمتين ويعني المدينة الحديثة أو الجديدة - وتقع على ساحل تونس حالياً - تمييزاً لها عن مستعمرة عوتيقة " (أوتيكا Utica) التي أسسها أهل صور عام 1101 ق.م 66 ويعني اسمها المدينة القديمة، وهي أقدم مستوطنة فينيقية في شمال أفريقيا في تونس، وكانت محطة تجارية في بداية الأمر ثم تحولت إلى مستوطنة بعدما ازداد عدد المستوطنين الفينيقيين فيها.

وجدير بالذكر أن نتطرق إلى أسلوب الفينيقيين في الاستيطان بعد الحديث عن أسباب توسعهم حيث لم يكن الفينيقيون غزاةً، وإنما تجاراً تجولوا في أرجاء البحر المتوسط بغية بناء المستوطنات التجارية وتفعيل التبادل التجاري بينهم وبين شعوب العالم أي أن غزوهم للسواحل كان غزواً سلمياً تجارياً لأهداف اقتصادية بحتة، نقلوا من خلاله بضاعتهم التجارية أفكارهم وعاداتهم وعباداتهم الدينية منها عبادة عشتروت 67 في قبرص، وبوساطة قبرص التي كانت إحدى المستوطنات التجارية للفينيقيين انتقلت عبادة عشتروت ربة الخصب الفينيقية إلى العالم الإغريقي. إضافةً إلى أن الفينيقيين لم يمارسوا في أسلوبهم الاستيطاني التجارة فقط؛ وإنما قاموا ببناء محطات للاستراحة بعد رحلاتهم التجارية الطويلة في عباب البحر والتي كانت تستمر أياماً وليالٍ ومن أجل إصلاح سفنهم التجارية التي تتعرض لحوادث بحرية، ومع مرور الزمن تحولت هذه المحطات إلى مستوطنات فينيقية دائمة السكن سواء في الحوض الشرقي للبحر المتوسط أو الغربي حيث أسسوا العديد من المستوطنات التجارية الدائمة منها مدينة لابنتس ماغنا (Leptis Magna) واسمها الحالي (لبدة) - الواقعة على شاطئ البحر المتوسط شرق طرابلس الغرب في ليبيا - وكانت تتبع إلى قرطاجة فيما بعد وتدفع لها الضرائب وأكد الباحثون "وجود الاستيطان

65 مازيل، سابق، ص 81

66 W.F. Albright, (Syria, The philistines, and Phoenicia), II, PAET2, Cambridge, 2008, p523

67 عشتروت: وهي الإلهة القمرية للفينيقيين، وأفروديت هي ترجمة يونانية لاسم أشتوري أو أفتوري الذي يعني أيضاً عشتروت. للمزيد اقرأ

مازيل، سابق، ص 34

الفينيقي فيها استناداً إلى المكتشفات الأثرية الفينيقية⁶⁸ ، واستمروا بالاتجاه غرباً وصولاً إلى المحيط الأطلسي حيث أسسوا "مستوطنة تجارية على ساحل إسبانيا الغربي سميت (قادس) Cadiz" 69. وعلاوة على ذلك اعتمد أسلوب الفينيقيين في الاستيطان على الوضع السياسي في المناطق التي يدخلونها، وعلى معاملة الشعوب لهم؛ فإذا كانت حكومة تلك المناطق قوية فإنهم لا يستقرون بها وإنما يقيمون مراكز ومستوطنات تجارية يتاجرون فيها بحرية كما حدث في مصر أما إذا كانت المدن ضعيفة سياسياً فإن المحطات التجارية تتحول مع مرور الزمن إلى مستوطنات فينيقية، وعلى الرغم من استقلال هذه المستوطنة عن الدولة التي تقيم فيها لكنها تبقى على تواصل مع المدينة الأم، حيث اعتمدت المدن الفينيقية كصور وصيدا وبيروت وجبيل نظاماً سياسياً اتحادياً مع مستعمراتها من خلال "إرسال المستعمرات للمدينة الأم المساعدات المالية فعلى سبيل المثال كانت قرطاجة ترسل الأموال للمدينة الأم صور" 70 ، وانتقل هذا النظام السياسي-الاقتصادي في نظام الاستيطان الفينيقي إلى الإغريق حيث ساهم التجار الإغريق في بناء مدنهم الأم وتأسيس أنظمة حكم مستقرة فيها.

وعدّ الكنعانيون (الفينيقيون) أول أمة بحرية تجيد الملاحة والتجارة وبناء السفن وتأسيس المحطات التجارية على السواحل التي ساهمت في ازدهار حضارتهم وقوة دولتهم؛ لذا سعى الفينيقيون خلال استيطانهم إلى الاستقرار على السواحل في الدرجة الأولى فلم يتوغلوا إلى الداخل في بادئ الأمر، وعندما يجدون أن المنطقة مستقرة سياسياً يبدأوا بالتوغل إلى المناطق الداخلية لكن شريطة أن تكون مرتفعة عما حولها مثل تصميم مدنهم في فينيقية؛ كي يسهل الدفاع عنها ضد الغزاة وقطاع الطرق، إضافة إلى أن هذه المحطات الداخلية كانت بنفس الوقت نقاط لحماية المستوطنات الساحلية الفينيقية من القراصنة مثل مستوطنة مونت سبيرا في جزيرة سردينيا. ولا بد من الإشارة هنا أن الاستيطان الفينيقي قد تركز في منطقتين في حوض البحر الأبيض المتوسط: الأولى هي السواحل السورية-الكنعانية وهؤلاء عرفوا بفينيقي الشرق، والثانية في تونس وما حولها وعرفوا بفينيقي الغرب، وجدير بالذكر أن فينيقي الغرب كانوا أساساً من سكان الشرق من مدن صور وصيدا وغيرها لكنهم انتقلوا إلى

68 T.H. Carter, (Western Phoenicians at Leptis Magna), 1965, p125

69 مازيل، سابق، ص119
70 حوراني، يوسف، 1986، سابق، ص127

الساحل الغربي للبحر المتوسط بغية تأسيس محطات تجارية لهم، أو بسبب سوء الأوضاع السياسية في مدنهم الشرقية، أو التنازع على عرش المدينة بين الأولاد الورثة حيث ذكرت الأساطير التاريخية في المصادر الكنعانية والإغريقية والرومانية عن قضية الخلاف السياسي في مدينة صور حيث تقول الرواية: إن أحد ملوك صور المدعو (متينوس) الذي توفي عام 821 ق.م أوصى بالملك لابنه بجماليون وابنته أليسا التي ذكرها فرجيل الشاعر الروماني في ملحمة الشعرية الإنيادة باسم ديدو 71 -بمعنى الهاربة أو اللاجئة- والتي وقعت بحب البطل الطروادي أينياس، فانقسم أهالي صور بين مؤيد ومعارض، فكان عامة الشعب مع بجماليون الأصغر بينما أيد الأشراف والنبلاء والكهنة الابنة أليسا التي هربت بعد ضغط أخيها عليها ومحاولة قتلها إلى قرطاجة التي أسستها بعد هجرتها إليها، ورغم ذلك بقيت "قرطاجة تابعة للمدينة الأم صور ولم تستقل عنها أبداً" 72 ، وظلت ترسل المساعدات المالية والمواد الخام اللازمة للصناعة، وظل القرطاجيون يعتبرون أنفسهم رعايا صور لهم نفس حقوق سكان صور وعليهم نفس الواجبات.

وكان فينيقيو الغرب مثل أشقاءهم في الشرق تجار وملاحين من الطراز الرفيع حيث بنوا محطات تجارية لهم في الحوض الغربي للبحر المتوسط، ونظموا رحلات بحرية استكشافية للمناطق الجغرافية البعيدة كان أهمها رحلة (حنون البحرية) التي أرسلتها قرطاجة لاستكشاف أفريقيا وسواحلها الغربية والجنوبية للبحث عن الذهب الأفريقي في الربع الأول من القرن الخامس ق.م حيث اعتبرت ماثرة دونت في سجلات الاستكشاف البحري تحت عنوان (رحلة حنون البحرية) 73 ، وسميت بهذا الاسم؛ نسبةً إلى الأميرال حنون قائد الرحلة البحرية الذي سافر إلى ما بعد أعمدة هرقل للبحث عن الذهب والعنبر والثروات، ومن أجل استكشاف الطريق الساحلي غرب أفريقيا فاجتاز البحار الباردة شمال المحيط الأطلسي، وجهزت لذلك "ستون سفينة محملة بثلاثين ألفاً من الرجال والنساء، ومؤناً وألبسة وتجهيزات وأدوات، ونقشت أحداثها في معبد ملقارت في قرطاجة الذي هُدم فيما بعد أثناء هدم مدينة

71 ديدو: لقب روماني أطلقه فرجيل في ملحمة الشعرية على أليسا أميرة قرطاجة، والإنيادة في مضمونها هي ملحمة شعرية لاتينية وتدون لأحداث جاءت لتكمل أحداث (الإنيادة والأوديصة) رغم أن مؤلف الملحمتين الأخيرتين هو الشاعر اليوناني (هوميروس) إلا أنها تسرد لنا ما وقع للأمير الطروادي أينياس الذي نجا بعد سقوط طروادة وأبحر باتجاه غربي إيطاليا حيث أسس سلالته وساعد في تأسيس روما، وعنت الملحمة إنجازاً شعرياً رائعاً لا سيما أن الرومان كانوا يعتبرون الشعر الملحمي ضرباً من ضروب الأدب، وقد تألفت الإنيادة من اثني عشر كتاباً كتبت على مدى ما يقارب أحد عشر عاماً، وتصنف الكتب الستة الأولى حول تجوال أينياس ومغامراته، بينما تصف الكتب الستة الأخيرة حروبه ومعاركه. للمزيد عن قصة ديدو وأنياس انظر: د. سكر، إبراهيم، 1994، الإنيادة لفرجيل، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص33. للمزيد عن إنيادة فرجيل وأحداثها انظر: فرجيل، الإنيادة، تر: عنبرة سلام الخالدي، ط2، بيروت، دار العلم للملايين، 1978، ص75 وما بعدها.

72 Albright, op.cit, 2008, p343

قرطاجة"74 ، وتعد هذه الرحلة البحرية أول رحلة في العالم إلى أفريقيا، واعتبر الفينيقيون أول أمة تحتك بالعالم الأسود في جنوب أفريقيا الذي كان يجهل أهمية الذهب الاقتصادية، وأول أمة بحرية وصلت إلى جزر الكناري في المحيط الأطلسي، وأسسوا هناك محطات تجارية لبيع منتجاتهم وللحصول على المواد الخام منها، وأطلق الفينيقيون على جزر الكناري اسم "أليزوت" وهو اسم ذو أصل سامي"75.

74 للمزيد عن الرحلة اقرأ مازيل، سابق، ص203-204
75 مازيل، سبق ذكره، ص227

ثانياً. المجال العلمي:

. احتلت الحضارة الكنعانية مكانةً هامةً جداً في التاريخ القديم وأثرت في حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط آنذاك في كافة المجالات. لكن للأسف معظم نتاج الكنعانيين الحضاري لم يصل منه إلا القليل لعدة أسباب: أولها ضياع التراث الحضاري الكنعاني بسبب تعرض الساحل السوري لهجمات شعوب البحر التي دمرت حضارة الكنعانيين في المنطقة، وتبعها الأطماع الآشورية والمصرية في الساحل الكنعاني، إضافةً إلى احتلال اليوناني للساحل الكنعاني في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، واحتلال قرطاجة وتدميرها في الحوض الغربي للبحر المتوسط على يد الرومان، والسبب الثاني ضياع الوثائق الأدبية والعلمية والتاريخية التي خطها الفينيقيون بيدهم؛ لأنهم "لم يسجلوها على ألواح فخارية، وإنما على ورق البردي القابل للتلف" 76 على عكس "السومريون والآشوريون والمصريون الذين سجلوا غالبية تراثهم على مواد مقاومة للفناء لا تؤثر فيها عوامل الطبيعة كالألواح الطينية" 77 ؛ لذلك فإن ما خلفه الفينيقيون من تراث ومدونات لا يتناسب مع منجزاتهم الحضارية ودورهم الثقافي والاقتصادي الكبير بسبب ضياع مدوناتهم وتلفها ولا نملك إلا شذرات قليلة جداً عن المنجزات الحضارية للفينيقيين المحفوظة على السجلات المكتوبة والمنقوشة على الألواح الفخارية والتماثيل والمقابر وجدران المعابد والصخور واللوحات المعدنية سواء في الساحل الشرقي للبحر المتوسط أو في قرطاجة، وثالثاً أن زمن ازدهار الحضارة الفينيقية لم يكن طويلاً مقارنةً بالحضارة السومرية والآشورية والمصرية؛ لذلك لم يهتموا بالمجالات التاريخية والأدبية أكثر من اهتمامهم بالمجال الاقتصادي كونهم تجار وملاحين.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هناك فريق من المؤرخين يسلطون الضوء على التراث الحضاري الإغريقي والروماني متجاهلين التراث الفينيقي وإسهامات الفينيقيين في تطور حضارة كل من الإغريق والرومان، وسبق الحضارة الفينيقية في ابتكار أول أبجدية في العالم والتي "ظهرت قبل 750 عاماً من حضارة الإغريق، إضافةً إلى المنجزات التعليمية في اللغات السامية" 78 والمنجزات الحضارية والعلمية والفلسفية التي نهلها الإغريق من

76 غودي، جاك، سرقة التاريخ، 2010، ط1، تر: محمد التوبة، السعودية، ص106

77 غانم، سابق، ص36

78 غودي، سابق، ص105

الحضارة الفينيقية في الساحل الشرقي للبحر المتوسط ومن قرطاجة التي احتلت مركزاً تجارياً وسياسياً هاماً في الحوض الغربي للبحر المتوسط، فمن غير المعقول أن يُستبعد الدور الحضاري للفينيقيين لأن دلائل انتشار حضارتهم مازالت موجودة حتى وإن كانت قليلة لكنها، وما زال أثرها في العالم الغربي وفي بلاد الإغريق وجزر البحر المتوسط وسواحلها الشمالية والغربية بشكل كبير، وشكل هذا الأثر جزءاً كبيراً من تراث الإغريق الحضاري الذي أورثوه للرومان ومن بعدهم إلى أوروبا قاطبة.

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن المصادر المباشرة التي ذكرت تاريخ الكنعانيين تتمثل بالآثار والنقوش على الألواح الفخارية والتماثيل وكتابات جدران المعابد والعملات النقدية التي تم التنقيب عليها في كل من سوريا وفلسطين، وأيضاً الوثائق التاريخية والسياسية للدولة الآشورية والمصرية والتي ذكرت فيها علاقة الكنعانيين مع دول الجوار سواء في السلم أو في الحروب، إضافةً إلى الرسائل المتبادلة بين حكام دويلات الكنعانيين وملوك مصر الفرعنة كرسائل تل العمارنة وحملات الفرعنة والآشوريين العسكرية في سوريا، وعلاوةً على ذلك الروايات وقصص المغامرات التي تطرقت إلى الحضارة الكنعانية كقصة سنوحي أو سنوحي وهو رجل مصري هرب من مصر مهاجراً إلى بلاد الشام وعند عودته لم تستطع زوجة الفرعون أو الأميرات من بناته وحاشيته من التعرف عليه لأنه كان بلباس أجنبي آسيوي ويقصد باللباس (الكنعاني الفينيقي) - وتحمل قصة سنوحي صوراً عن الحياة في سوريا وفلسطين في العهد الكنعاني. أما المصادر غير المباشرة التي ذكرت الكنعانيين تتمثل بكتاب تاريخ فينيقيا الذي دونه الفينيقي فيلون الجبيلي⁷⁹ باللغة اليونانية السائدة آنذاك واصفاً عقائد قومه الدينية، إضافةً إلى روايات الكاتب اليهودي فلافيوس يوسيفوس Flavius Josephus⁸⁰ لكنها حسب رأي الباحثة ورأي الكثير من المؤرخين محرفة ولا تتوافق مع التاريخ الحقيقي في جلها كونها متعاطفة مع اليهود؛ لذلك لم تأخذ الباحثة بها لأنها غير علمية وغير موضوعية، وهناك أيضاً نصوص غير تاريخية كتبت بالخط الهيراطيقي المصري القديم

79 فيلون الجبيلي: مؤرخ وكاتب فينيقي عاش حوالي 1000 ق.م. للمزيد انظر: موسكاتي، سابق، ص120
80 يوسيفوس فلاسيفوس أو (جوزيفوس) Flavius Josephus: مؤرخ يهودي عاش نحو عام 70 ميلادية في القرن الأول الميلادي، وقد عمل على الرفع من شأن قومه اليهود الذين كان يحتقرهم كتاب الإغريق لذلك أخذ المؤرخ يوسيفوس يبرهن للملأ أن اليهود والهكسوس هم عنصر واحد وأنهم أخرجوا من مصر منذ حوالي ألف سنة قبل حرب طروادة للمزيد انظر: د.سليم، حسن، موسوعة مصر القديمة، ج4، مصر، ص57

تؤرخ للحقبة 1900-1800 ق.م وهي نصوص اللعن⁸¹ التي تمدنا بمعلومات عن الكنعانيين وهي أهم دليل يوثق الهوية القومية لسكان المنطقة الكنعانيين.

ومن المعلوم أن الفينيقيين كانوا أصحاب حضارة عظيمة امتدت من الساحل الشرقي للبحر المتوسط إلى حوضها الغربي من خلال المستوطنات والمراكز التجارية التي أسسوها على شواطئ حوض البحر المتوسط ونقلوا أفكارهم ومنجزاتهم الحضارية وأبجديتهم وثقافتهم إلى هذه المحطات والمدن الجديدة، وينسب إليهم اختراع الصبغة بالأرجوان واكتشاف الأبجدية الفينيقية والزجاج وصناعة السفن، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن تقدم الفينيقيين ثقافياً وحضارياً واقتصادياً كان بسبب عدة عوامل منها: الموقع الجغرافي للساحل السوري المطل على البحر الأبيض المتوسط وهبوب النسيم النقي الذي يصفى الذهن ويقوي الجسم ويزيد من مستويات التفكير والذكاء حيث يسود على الساحل المناخ المتوسطي المعروف بوجود فصلين أساسيين الصيف والشتاء مع عدم وجود تقلبات جوية مفاجئة أو عواصف قاسية، إضافةً إلى طبيعة الساحل السوري البحرية "المسطحات المائية تمنح الرطوبة في الجو وتعديل من درجة حرارة السواحل مع انعدام الفوارق الفصلية على الساحل المتوسطي"⁸² ساهم ذلك في تفوقهم على غيرهم من الشعوب المجاورة، وبسبب تشابه طبيعة الساحل الفينيقي مع بلاد الإغريق فقد امتلك الإغريق سمات الذكاء والقدرة على التطوير والتحضر فأعجبوا بالفينيقيين، و اختلط إعجاب اليونانيين بالفينيقيين بالحق أحياناً وبالتنافس والصراع والحرب أحياناً أخرى ولكنهم أفادوا منهم إفادات عظيمة⁸³ ، ونهلوا منهم أسس حضارتهم التي يعتزون بها اليوم.

ومن أعظم الإنجازات العلمية للفينيقيين اختراع الأبجدية الفينيقية _أبجدية بيبيلوس_ أو ما يعرف بأبجدية مدينة (جبيل) التي ظهرت بشكل واضح في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، والتي تنتمي إلى اللغات السامية التي تمتد

81 نصوص اللعن: هي نصوص مصرية تعود إلى عصر الفراعنة كتبت في بداية الألف الثاني ق.م على تماثيل صغيرة نقش عليها أسماء ملوك ورؤساء عشائر معادية لمصر وتحتوي عناصر دينية ورموز وأسماء آلهة، وكسرت لأغراض سحرية. للمزيد انظر: موسكاتي، سابق، ص119.

82 غانم، محمد، سابق، ص16

83 الهذال، حصة، سابق، ص1561

أصولها إلى الجزيرة العربية، وكانت تسمى اللغات السامية "قبل القرن الثامن عشر باللغات الشرقية، لكن لاحقاً اكتشف العلماء قرب لغات بلاد الشام من بلاد ما بين النهرين"84

فصنفوها باسم اللغات السامية نسبةً إلى سكانها الساميين85 ، وتعتمد اللغات السامية في تشابهها مع بعضها على جذر الفعل الثلاثي كما أن هناك زمنين لتصريف الفعل هما الماضي والمضارع، ويرى بعض المؤرخين أن هذه التسمية لغوية لا عرقية ولا تشكل وحدة حقيقية جنسية تنتمي إلى أصل معين: أي أن سكان سوريا في الداخل والذين تكلموا باللغة الآرامية لا يختلفون عرقياً عن سكان سوريا في الساحل الذين تحدثوا بالفينيقية الكنعانية لمجرد اختلاف أسماء لغتهم لأن غالبية "منطقة سوريا كانت تطلق عليها بلاد كنعان"86 حيث أطلق على من لا يتحدث بالآرامية بأنه يتحدث بالكنعانية هذا وقد ظهر مصطلح اللغة السامية في "القرن التاسع عشر على يد المؤرخ النمساوي Scholozzer شلوتزر"87، وانتشر هذا المصطلح على اللغات الشرقية الخاصة بمنطقة الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام وعرف سكان هذه المناطق بالساميين، وقد اكتشف الشبه في اللغة في إسبانيا أيضاً عندما "فتح العرب المسلمون أوروبا عبر مضيق جبل طارق وجد اليهود في إسبانيا شبيهاً كبيراً بين لغتهم ولغة العرب الفاتحين"88 ؛ لأن العبرانية هي اللغة الأساسية لليهود في فلسطين ومنها انتشرت إلى أوروبا وباقي الدول.

ولقد بات من المعلوم أن الفينيقيين أخذوا فكرة الأبجدية عن جيرانهم السومريين حيث "اقتبس الفينيقيون من السومريين المقاطع المسمارية وحولوها إلى حروف ثم اختصرت مدينة بيبيلوس (جيبيل) الأحرف لتصبح اثنين وعشرين بدلاً من ثلاثين، ويفترض العلماء أن هذا الاقتباس اللغوي قد حدث في أوغاريت إبان القرن الرابع عشر ق.م"89 ، وبسبب سهولة نطقها وكتابتها انتشرت في أرجاء البحر المتوسط، ودخلت إلى اليونان. ولقد اعترف

84 موسكاتي، سابق، ص43

85 الساميين: أقوام سكنت في الجزيرة العربية وسميت بذلك نسبةً إلى سام بن نوح، اشتق اسم الساميين من سام بن نوح على أساس إن الساميين كانوا متسلسلين من الابن الأكبر إلى نوح. غير أن هذه التسمية من وجهة علمية هي تسمية لغوية وتطلق على الذين يتكلمون أو تكلموا لغة سامية.

للمزيد اقرأ: حتي، سابق، ص66

86 موسكاتي، سابق، ص114

87 غانم، محمد، سابق، ص19

88 موسكاتي، سابق، ص4

89 سليمان، عبدالله وآخرون، نقد الحضارة الغربية، سابق، ص171

اليونانيون بذلك من خلال رواياتهم الأدبية والتاريخية والقصصية فثمة أسطورة يونانية قديمة شاع الإيمان بها في العالم اليوناني والروماني عن انتقال الأبجدية الفينيقية إلى اليونان عن طريق الملك قدموس أو (قدمس) أو (كاديموس) الفينيقي ابن الملك (أجينور) ملك صور وصيدا الذي أرسل أولاده للبحث عن شقيقتهم الضائعة (يوروي) أو (أوريا) في قارة أوروبا بعدما اختطفها كبير آلهة الإغريق (زيوس)، وأسسوا فيها مدينة طيبة ونشروا الأبجدية السامية ومظاهر الحضارة الفينيقية- الكنعانية، حيث تقول الأسطورة: أنه لما اختطف زيوس يوروي، أرسل والدها (أجينور) ملك صور أخوها للبحث عنها وأمرهم ألا يعودوا مالم يعثروا عليها، وكان أحدهم (كاديموس) والذي ذهب تَوّاً إلى (دلفي) بدلاً من أن يذهب إلى هنا وهناك، ليسأل الإله (أبوللون) أين يجدها، فأخبره الإله ألا يتعب نفسه بالبحث عنها وأن عليه فور خروجه من دلفي أن يتتبع عجلة يراها في طريقه وأن يبني مدينة في المكان الذي تستريح فيه 90 ، وتعتبر الأساطير جزء من التاريخ الذي كان يروى بطريقة خيالية لذا؛ لا يستطيع أحد من أن ينكر رواية دخول قدموس (كاديموس) إلى اليونان سيما وأن المصادر التاريخية والآثار المادية والشواهد الأدبية تؤكد دخول الفينيقيين وانتشارهم في بلاد الإغريق، وكذلك اعترف الكثير من مؤرخي اليونان ومفكرهم بالفضل الفينيقي على حضارتهم ومنهم هيرودوت الذي اعترف بفضل الفينيقيين في نقل الأبجدية حيث أكد أن "الكتابة لم تكن منتشرة لدى الإغريق حتى ذلك الحين، وقد استخدموا في البداية أبجدية الفينيقيين، ومع مرور الزمن غيروا شكل حروفهم" 91، وأكد مؤرخي اليونان أسطورة الأمير الفينيقي قدموس الذي أدخل إلى بلاد الإغريق الحروف الفينيقية والتي تبناها اليونان "في القرن الثامن ق.م من خلال ناقلها قدموس وهي 16 حرفاً مشيراً إليهم بعبارة (Phoinikeia Grammata)" 92 لتنتشر من بعد اليونان إلى دول أوروبا القديمة بالتدريج. فقد كان لها الفضل في بدء أبجديات الغرب الأوربي ومن خلالها "بُعِثَت الأبجديتين اليونانية واللاتينية" 93 فيما بعد، ويشير غالبية المؤرخين إلى أن زمن انتشار الأبجدية الفينيقية في اليونان في حوالي "القرن التاسع وأواخر القرن العاشر قبل الميلاد، وبعض المتخصصين في الساميات أرجعوا زمن دخولها إلى

90 هاملتون، أديث، الميثولوجيا، 1990، تر: حنا عبود، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص114

91 هيرودوت، سابق، ص396

92 - Muhly, op.cit, 1970, p37- 39

93 موسكاتي، سابق، ص121

الإغريق إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد تقريباً قبل 1400 ق.م⁹⁴. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الأبجدية الفينيقية هي فرع خاص من اللغة الكنعانية وتتشابه مع اللغات السامية كالعربية والعبرانية في تصريف الأفعال الذي يتكون من ثلاثة حروف وفي الزمن، وفي تشابه بعض المفردات وعدم وجود الحركات، لكن ظهور بعض الناكرين لذلك والذين "حاولوا جعل الكنعانيين من ذرية حام لا سام" 95 لكن حبطت مزاعمهم بعد اكتشاف تشابه اللغة الكنعانية مع إختوتها اللغات السامية، وكشفت محاولتهم تزوير الحقائق والتاريخ من أجل إظهار أن الكنعانيين لا يمتون للمنطقة بصلة وأنهم غريبون عن شعوب المنطقة ومحتلين للأرض لا سيما الدعوات الصهيونية ورواياتها الباطلة التي يدحضها العلم والتاريخ والحقيقة ويكسر سهامها أصحاب القلم الشفاف من المؤرخين والعلماء؛ لذا كون اللغة الفينيقية الكنعانية سامية فهي غريبة عن اليونان نوعاً ما ولذلك سعى اليونانيون إلى تطوير وتعديل الأبجدية الفينيقية بما يناسب نطقهم حيث "أضافوا عليها الحروف الصوتية وكتبوها من اليسار إلى اليمين على عكس الفينيقيين" 96 فمن المعروف أن حروف الفينيقيين ساكنة وطريقة كتابتها ككتابة الأبجدية العربية من اليمين إلى اليسار وعدد حروفها اثنين وعشرين حرفاً، ولقد أسقط الإغريق أيضاً عدة حروف كانوا لا يستطيعون نطقها مثل حرف "الصاد والواو وأضافوا حروفاً متحركة إليها لكنهم ظلوا يسمونها الأبجدية الفينيقية" 97.

وجدير بالذكر أن الأبجدية الفينيقية كانت غالباً من ابتكار "فينيقي مدينة بيبيلوس" 98 نقشوها على الألواح الفخارية وجدران المعابد. وأرجح العلماء هنا مصدر الأبجدية الفينيقية فبعضهم نسبها لبلاد ما بين النهرين أي أنها تأثرت بالسومرية، والبعض الآخر نسبها إلى مصر للأبجدية الهيروغليفية بحكم قوة العلاقة التجارية بين مصر وفينيقيا والسيطرة المصرية آنذاك على دويلات المدن الفينيقية فكان الكاتب يضطر أن يكتب بالخطوط المصرية الهيروغليفية بعض الكلمات أو أسماء أعلام بسبب شهرتها بالخط الهيروغلوفي أكثر من الفينيقي، وقد صرح شامبليون العالم الفرنسي الذي فك شيفرة الخطوط الهيروغليفية في مصر بأن الحروف الفينيقية اشتقت

94 برنال، مارتن، أثينا السوداء، 2022، تر: د. لطفي يحيى وآخرون، ج1، القاهرة، ص190

95 المطران الدبس، سابق، ص326

96 صالح، نبيل وآخرون، نقد الحضارة الغربية، سابق، ص191

97 سليمان، عبدالله وآخرون، نقد الحضارة الغربية، سابق، ص171-172

98 حتى، سابق، ص120-121

منها، وأكد ذلك روجيه بعد أن قارن بين الحروف الفينيقية والعلامات المصرية في جدول وتبين وجود اشتقاق فينيقي من الخط المصري من خلال وجود " صورة خمسة عشرة علامة منها شبه بصورة خمسة عشر حرفاً من الحروف الفينيقية، أما الحروف السبعة الباقية تبعد صورها عن العلامات الهيروغليفية المقابلة لها، في مصر التي دامت تقريباً من القرن الحادي والعشرين إلى القرن السادس عشر ق.م⁹⁹ وكان ذلك الأمر في عهد ولاية الملوك الرعاة¹⁰⁰. لكن والحق يُقال إن الكتابة في بلاد النهرين ووادي النيل القديمة اتصفت بالخطوط المسمارية أما فينيقيا فكانت أول من كتب بحروف أبجدية وبسبب سهولة الأبجدية الفينيقية لم ينقلها "الأثروسيون واللاتينيون في أوربا فقط، وإنما أخذها الآراميون والعبرانيون أيضاً وعن الأبجدية الفينيقية تفرعت الكتابة الآرامية والنبطية، ومن هذه الأخيرة تفرعت الكتابة العربية الشمالية"¹⁰¹. فقد كانت اللغة الأكادية بكتابتها المسمارية هي اللغة المتداولة آنذاك ولغة المراسلات الدولية خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وما بعده، وبعد ظهور الأبجدية الفينيقية انتشرت في المنطقة، ونقلتها غالبية الشعوب؛ ويعود ذلك إلى تنقل الفينيقيون أثناء تجارتهم ومحاولتهم نشر أبجديتهم وإنجازات حضارتهم العظيمة في أصقاع العالم.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الأبجدية الفينيقية مرت بعدة مراحل حتى تطورت حيث بدأت المرحلة الأولى في عصر الملوك الرعاة خلال "القرن السادس ق.م وكان يكتب بها جميع الكنعانيين، أما المرحلة الثانية انقسمت فيه الأبجدية الفينيقية إلى كتابة صيدونية التي استعملت في القرن السادس ق.م والتي وجدت آثارها في كل من قبرص وصيدا ومسكوكات المدن الفينيقية، وكتابة قرطاجنة وهي أشبه بالصيداوية لكن حروفها محدبة، وقد وجدت آثارها على مسكوكات قرطاجنة وصقلية، أما المرحلة الثالثة تسمى الحروف البونية أي الفينيقية الحديثة التي استخدمت في الساحل الغربي للبحر المتوسط منذ منتى عام ق.م واستمرت إلى ما بعد استيلاء الرومانيين على المنطقة"¹⁰². وعندما نهل الإغريق الأبجدية الفينيقية حاولوا نقل الحرف بدلالة الشكل على الصوت الأول

99 المطران الدبس، سابق، ص320_322

100 الملوك الرعاة: الهكسوس (Hyksos) قبائل آسيوية كنعانية أمورية جاءت من سوريا إلى مصر عبر الحدود الشرقية أثناء فترات ضعف الأسر الحاكمة المصرية (لأسيما عهد الدولة المصرية القديمة والوسطى) لأسباب اقتصادية تتعلق بالقحط والجفاف، وانتشروا في منطقة (الدلتا) القريبة من بلاد الشام، وحكموا مصر منذ عام 1730 إلى عام 1580 ق.م وكانوا أسياداً وحكاماً في مصر مدة 150 عاماً. للمزيد اقرأ د. أحمد، محمود، تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، 2012/2011، ج1، جامعة دمشق، ص137

101 غام، محمد، سابق، ص35

102 المطران الدبس، سابق، ص325-326

من الاسم فمثلاً "علامة رأس الثور هي (أ) وكذلك بالنسبة لحرف الباء كانت دلالاته (بيت) وهكذا" 103 ، وإن شكل هذه الحروف وترجمتها تشير إلى معاني شرقية سامية فالألفا Alpha من الفينيقية Aliph وتعني قرن الثور، وبيتا Beta من الفينيقية Beth أي البيت وحرف الجاما Gamma يعني من الفينيقية Gimel 104 ، وكذلك ترتيب الحروف الإغريقية مشابه للحروف الفينيقية، ولقد أجرى الإغريق بعض التغييرات على الحروف الفينيقية مما أكسبها الدقة والوضوح فحولوا الألف الفينيقية إلى A والهاء إلى E والباء إلى I والعين إلى O والواو إلى U وهكذا صارت الأبجدية الإغريقية تضم السواكن والصوائت (أي الأحرف الساكنة والصوتية) 105 هذه الحروف السابقة التي سميت بالمتحركة أو Vowels فأصبحت ثلاثم كل اللغات الغنية بالصوتيات كالإغريقية واللغات الهند-وأوربية، وحذفوا بعض الحروف الصامتة التي لم يكونوا بحاجة في لغتهم مثل

حروف " (ص، ط، ق) وأضافوا حروفاً لم تكن موجودة في الفينيقية مثل (ph, phi, ch, chi, ps, psi, x, xi) 106. وانتقل الخط اليوناني القديم بعد اقتباس الحروف الفينيقية إلى إيطاليا بواسطة الشعب الأتروسكي عن طريق المستوطنين الإغريق، ومن أثرويا -شمال غرب إيطاليا- انتقل إلى روما عن طريق اللاتينوم -المنطقة المحيطة بروما- والذي عُرف بالخط اللاتيني، وبعد الخط اللاتيني فرعاً من الخط الأتروسكي، ثم من اللغة اللاتينية تفرعت الأبجديات الأوربية. وفي الواقع إن رواية كاديموس بن أجينور الفينيقي وأسطورة خطف أوروبا من قبل الإله زيوس الإغريقي ما هي إلا حجة لدى الفينيقيين من أجل التوسع في بلاد الإغريق وسواحله المطلة على البحر المتوسط، وتأسيس مستعمرات جديدة حيث شكلت الأسطورة أفضل تفاعل أسطوري للقاء الشرقي-الإغريقي في جزيرة كريت التي كانت مسرحاً لأحداث الأسطورة، ومسرحاً حقيقياً للاحتكاك الفينيقي-الإغريقي، وما زال اسم (كاديموس الفينيقي) إلى اليوم رمزاً للعلم والثقافة حيث يطلق على التعليم الجامعي العالي لقب التعليم الأكاديمي نسبةً للأمير الفينيقي وللغة الأكديّة السامية. وتميزت الحضارة الفينيقية في المجال الأدبي إلى جانب الكتابة بالأدب الأسطوري الذي كان في ذلك الوقت ضرباً من ضروب الثقافة وقد تشابه الأدب

103- W.F. Albright, (The Early Alphabetic in Scripyion from Sinai and their Decipherment), 1948, p14

104 د.سارة، نقد الحضارة الغربية، ج1، سابق، ص79

105 د.الزين، محمد وآخرون، نقد الحضارة الغربية، سابق، ص44

106(- Haywood, R.M, Ancient Greece and the Near East, New York, 1964, p195

الأسطوري الفينيقي مع الإغريقي؛ نتيجة تلاقح الحضارات. وقد أجمع المؤرخون والباحثون في مجال الدراسات التاريخية على أن الأساطير الإغريقية القديمة هي "خلاصة تلاقي الثقافة الأسطورية الشرقية (المصرية والبابلية والفينيقية)"¹⁰⁷ ، ووجد الباحثون تطابقاً كبيراً بين الأساطير اليونانية القديمة والأساطير الشرقية في مضمونها وطريقة سردها حتى قيل إن الإغريق أخذوا بعض الأساطير الشرقية وعدلوا عليها وغيروا أسماء أبطالها وآلهتها، أو على الأرجح أن الأساطير اليونانية القديمة والشرقية تتشابه بسبب التقارب في الثقافة والبيئة وسيطرة القوة الفينيقية آنذاك، "فشخصية الإله زيوس اليوناني تكاد تتطابق مع شخصية الإله مردوخ البابلي"¹⁰⁸

حتى إن هذا التشابه لم يقتصر على الأدب الأسطوري وإنما امتد إلى الشعر وامتزج بالعقائد الدينية التي تشابهت أيضاً حيث تصور أشعار هوميروس الملحمية مجمع الآلهة اليوناني وصراعاتهم بين بعضهم ومع البشر والذي يشبه إلى حد كبير مجمع الآلهة الكنعاني والسومري والبابلي؛ نتيجة التأثير الشرقي ولا سيما في جزر البحر المتوسط التي كانت مركزاً تجارياً وثقافياً للقاء الشرقي-اليوناني خلال القرنين السادس عشر والخامس عشر ق.م، ويعتقد أيضاً أن "شجرة الآلهة الإغريقية قد أخذت من شجرة الأنساب الكنعانية والسومرية"¹⁰⁹ ، وقد أكد ذلك فيلون الجبيلي نقلاً عن المؤرخ الكنعاني سنخيناثون. وفي هذا الصدد أيضاً هناك تشابه بوجود الآلهة الكنعانية كما ذكرت في أساطيرهم بين السماء والأرض (شميم وأديم) مع الآلهة الإغريقية (أورانوس وجيا)، وتشابه آلهة المطر والخصوبة الكنعانية المتمثلة (بعل وعناة) مع الآلهة الإغريقية (زيوس وهيرا). وفي النصوص الأوغاريتية نجد مجمع الآلهة الكنعاني يرأسه "الإله إيل الذي هو ملك الآلهة وأبوهم وأبو البشرية ويحتفلون على جبل لولي"¹¹⁰ كذلك مجمع الآلهة الإغريقي يقع على جبل أولمبيوس وهو أعلى قمة في جبال اليونان حيث تعيش الآلهة وكبيرهم زيوس صاحب القرارات المصيرية. وذكر في الأساطير الكنعانية الإله بعل إله العواصف ابن الإله إيل المسؤول عن نمو الزرع والنباتات وبطل الصراع الذي بدأ بينه وبين الإله العجوز إيل وانتهى بانتصار الإله الشاب بعل حيث عبرت هذه الأسطورة عن صراع الأجيال.

107 طيبب، نوال وآخرون، نقد الحضارة الغربية، سابق، ص279

108 طيبب، سبق ذكره، ص280

109 الماجدي، خزعل، الآلهة الكنعانية، 1999، عمان، دار أزمنة، ص19

110 West .M.L. Ancient Near Eastern Myths in Classical Greek Religious Thought, New York, 1995, p36

واستقى الكنعانيون جذورها من الأساطير الرافدية من أسطورة الخليقة البابلية¹¹¹ من خلال انتصار الإله مردوخ (مردوك) على الآلهة الأخرى. ولقد انتقل تأثير هذا الصراع الديني الأسطوري الشرقي إلى الإغريق حيث "انتصر زيوس على أبيه كرونوس بعد صراعهم مع بعضهم"¹¹² وهو إله الزمن الذي يقابله الإله إيل الكنعاني، إضافةً إلى أسطورة الصراع بين الإله (بعل) وخصمه إله العالم السفلي (موت) المتعلقة بفصل الربيع وعودة الخصب والزرع فقد نقل الكنعانيون هذه الأسطورة من الأسطورة الرافدية الشهيرة المعروفة بأسطورة ديموزي أو تموز¹¹³ والإلهة عشتار، وتأثر الإغريق بها بعدما نقلها إليهم الفينيقيين مع تغيير بسيط بأسماء الآلهة وبعض الأحداث، فالإله بعل الفينيقي الذي كانت عبادته بدايةً تتمركز في أوغاريت في الساحل الفينيقي حمل لقب (دون) في الفينيقية بمعنى السيد كدلالة على تقديسه، وعندما انتقلت عبادته إلى بلاد الإغريق انتقلت مع لقبه "فحولوا اللقب إلى اسم علم وأضافوا إليه اللاحقة (سين) فأصبح أدونيس"¹¹⁴، وشاع الشعر بين المزارعين الذي تميز بتنوع مواضيعه واهتمامه بجمال الطبيعة والأرض وخصب الخيال، ومن أكثر الشعراء السوريين طرافةً في عهد حضارة خلفاء الإسكندر الكبير المقدونيين (ميلغر) من جدره (أم قيس)¹¹⁵ وكان "سوري الأصل وقد تكلم الآرامية وأتقن اللغة الفينيقية واليونانية، وقد هاجر من بلاده بحثاً عن رزقه خارج مدينته الأصلية بإتقانه الشعر"¹¹⁶، ومن قبله اقتبست شعوب المنطقة المجاورة ومن جاء بعدها التراث الفينيقي من شعر في كتاباتهم وأدبهم فقد اقتبس العبرانيون تراث الكنعانيين الديني والأدبي ودخل في كتاباتهم المقدسة لا سيما الأشعار والأناشيد الدينية ونجد ذلك في "القطع الغنائية في سفر الأمثال والمزامير ونشيد الإنشاد والأخبار الموجودة في سفر التكوين وقصص الأنبياء"¹¹⁷. إضافةً إلى ذلك فقد ظهر أيضاً عدة شخصيات سورية اشتهرت بالشعر والأدب السوري الفينيقي تستدعي الإعجاب في العصر "الأنطونيّتي وهي شخصية لوكيانس من مدينة سميساط عاصمة كوماجين، وتعود

111 للمزيد عن أسطورة الخليقة البابلية انظر: باقر، طه، مقدمة في أدب العراق القديم، 2010، بغداد، بيت الورق، ص86

112 للمزيد عن قصة صراع زيوس مع كرونوس انظر: عبد المعطي شعراوي، أساطير إغريقية الآلهة الكبرى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ج3، ص31 وما بعد

113 للمزيد عن أسطورة تموز راجع: صموئيل نوح كريم، إينانا وديموزي طقوس الجنس المقدس عند السومريين، تر: نهاد خياطة، ط3، دمشق، 2000

114 فريزر، جيمس، أدونيس أو تموز دراسة في الأساطير والأديان الشرقية القديمة، 1979، تر: جبرا إبراهيم جبرا، بيروت، ط2، المؤسسة العربية للنشر، ص18.

115 جدره: مستعمرة مقدونية أسست بين سكان شرقي الأردن شبه الرجل على مرتفع شاهق يشرف على مضيق الهيروماكس (البرموك) والطرف الجنوبي لبحر الجليل (طبريا). حتي، سابق، ص285

116 حتي، سابق، ص286

117 سبق ذكره، ص123

شهرته إلى كونه استخدم أسلوب جديد في الشعر كوسيلة للهزل والهزاء وهي الحوار بين الأموات ولقد درس الحقوق ومارس كتابة الخطب للخطباء حتى تحول إلى محاضر متجول فانتقل إلى آسيا الصغرى ومقدونيا واليونان وإيطاليا وبلاد الغال¹¹⁸. وخلال العصر الهلنستي - السلوقي برز الكثير من الأدباء الفينيقيين الذين تركوا لنا آثاراً أدبية كتبت بالإغريقية اللغة السائدة آنذاك وكانت أسماءهم إغريقية أيضاً لكن أصولهم تعود إلى المنطقة السورية الكنعانية كالشاعر الفينيقي (أنتباتوس الصيداي) الذي اتصف بالشعر الارتجالي الساخر، و(تيرنتيوس) الذي ولد في قرطاجة وعُرف بالمسرحيات الهزلية باللغة اللاتينية، و(ماركوس فلاريوس بروبس) الذي ولد في بيروت خلال القرن الأول الميلادي وانتقل إلى روما ليكرس حياته لدراسة الأدب الروماني الكلاسيكي مثل شعر فرجيل وهوراس. وفي المجال العلمي فقد نهل الإغريقون العلوم والمعارف من فينيقيا عن طريق هجرتهم من بلادهم إلى فينيقيا فالعديد من الروايات اليونانية تؤكد أن "طاليس من ميلتوس اليونانية قد تعلم في فينيقيا ما يمكن تعلمه من بلاد بابل ومصر"¹¹⁹ ، أو عن طريق المستوطنات الفينيقية التي أسسها الكنعانيون على سواحل اليونان وشواطئ البحر الأبيض المتوسط وجزره. وبرز في فينيقيا العديد من العلماء ومنهم الكاهن سانخونيأتون البيروتي (سنكونياتون) Sanchoniaton الذي عاش في حوالي القرن الحادي عشر ق.م وترجم فيلون الجبيلي كتابه إلى اليونانية في حوالي نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول الميلادي وقد تضمن كتابه الفكر الديني عند الفينيقيين وكيفية الكون وأصل العالم وموالد الآلهة الفينيقية، ونهل "المؤرخ اليوناني أوزيب والملقب بأبي التاريخ الكنسي آراء سانخونيأتون عن فيلون لينتقدها"¹²⁰. ومن آثار الفينيقيين العلمية بعض الأسفار والوثائق التي كتبوا عليها شرائعهم الدينية وقوانينهم السياسية والتي ساعدتهم على تنظيم مدنهم وتجارتهم، وكانت هذه الأسفار على شكل وصايا سماوية مقدسة ينسبونها إلى إله يدعى (تاون)، وهناك خزائن تحفظ فيها السجلات لتوثيق الأحداث المهمة، وفي عهد الإسكندر الكبير الذي غزا آسيا واحتل المشرق العربي برمته بدأ خلفائه من اليونانيين والسلوقيين والبطالمة بجمع التراث الأدبي والعلمي للحضارات الشرقية وشرعوا بكتابة تاريخ شعوب المنطقة فقد "ترجم (باروز) تاريخ بابل، وكتب (مانيتون) تواريخ مصر، وكُتب تاريخ فينيقيا

118 سبق ذكره، ص355-356

119 حتي، سبق ذكره، ص123

120 غانم، محمد، سابق، ص38

نقلًا عن سجلاتها وآثارها ومن هؤلاء ثيودت وهيبسيكرات وموخ (موكوس) لكن لم يبق من كتاباتهم أثر وكل ما بقي هو ما تركه ميندر وديوس عن تواريخ صور¹²¹ ، وجل ما نملكه عن الأدب الفينيقي لا يكاد يتجاوز شذرات منقولة عن بعض المترجمين وبعض الأساطير القليلة عن نشوء الكون وفكرة الخلق والمناظرات الأدبية التي تتمثل في النزاع السنوي بين الآلهة، ولقد عنى الفينيقيون بالرحلات الاستكشافية التي وثقت نتائجها وأخبارها في سجلات محفوظة واعتبرت جزء لا يتجزأ من تراث الفينيقيين العلمي ومنها رحلتي حنون وخملكن (هاملكون) الاستكشافيتين واللتين تضمنتا وصفاً شاملاً للمناطق الجغرافية التي وصل إليها القائدين البحريين القرطاجيين، ونقلت نتائج رحلتيهما إلى اليونانية ومن بعدها إلى لغات العالم، إضافةً إلى مؤلفات القائد الفينيقي ماغون الزراعية Magon والذي "أمر مجلس الشيوخ الروماني بترجمتها للاستفادة منها في ميدان الزراعة وقد تأثر بها كل من كاتون Caton وفرجيل Virgile الشاعر الروماني الشهير وغيرهما¹²²" ، ولا بد من الإشارة هنا إلى أهمية النقوش على الألواح الفخارية والتي كان لها دوراً هاماً في حفظ التراث الفينيقي كنقش "هنييعل القائد الفينيقي في قرطاجة والمحفوظ في معبد جونو حيث يصف النقش حملات هنييعل على إيطاليا، واتسم النقش بأنه مزدوج اللغة فينيقية-يونانية ولذلك أخذه المؤرخ الروماني تيت-ليف Titus-Livius في كتاباته¹²³ ، إضافةً إلى الأدب والشعر فقد برع الفينيقيون في علم الفلك ورصد الكواكب مثل البابليين، فراقبوا حركة الكواكب ووضعوا تقاويم شمسية خاصة بهم ولشهرتهم الكبيرة بعلم الفلك فقد بقيت نجمة القطب زمناً طويلاً تدعى بالنجمة الفينيقية¹²⁴. ونسبوا كل ما يحدث في الكون إلى الكواكب والشمس التي أدهشتهم ففقدوها لقدرتها العظيمة أولاً، ولاعتقادهم أنها آلهة حيث وكان "الإله بعل إله الفينيقيين يكنى عن الشمس ويسمونه بعل شمائم أي رب السموات¹²⁵ ، وانكبوا على دراسة الكواكب لاعتقادهم بدورها الكبير في الكون وفي الظواهر الجغرافية كالفيضانات وهبوب الرياح فعرفوا الكواكب السبعة التي ألهمها وأسموها "بعولاً وأطلقوا عليها اسم كيبيريم (جمع كبير ومعناه التقدير).

121 المطران الدبس، سابق، ص330

122 غانم، سابق، ص39

123 غانم، سبق ذكره، ص39

124 مازيل، سابق، ص69

125 مطران الدبس، سابق، ص334

وكان عددها ثمانية وتضم الكواكب السيارة السبعة إضافةً إلى الكوكب الثامن وهو كوكب القطب الشمالي (الذي تسميه العامة مسمار) وسموه أشمون أي الثامن¹²⁶ ، فاستفاد الفينيقيون من نجم القطب الشمالي في أسفارهم بالبحار والملاحة الذي كان ومازال يدل الملاحين على جهة الشمال. ولا بد من الإشارة هنا إلى أشهر علماء فينيقيا البارزين لا سيما في مجال علم الفلك حيث برز (إيبارخوس) الذي ولد في فينيقيا في منتصف القرن الثاني ق.م، وضبط ساعات الليل والنهار وحدد الكسوف والخسوف "واتبع لائحته الفلكية الجغرافي الشهير بطليموس الذي درس في الإسكندرية"¹²⁷. ولقد ارتبطت ديانة الفينيقيين ومعبوداتهم بعلم الكواكب والكون والطبيعة لارتباطهم بها وحبهم للأرض فمن أشهر معبوداتهم الإله تموز الذي ارتبط اسمه بفصل من فصول السنة ويرمز تموز إلى الحياة في فصل الربيع عندهم حيث تقول الأسطورة أن تموز يموت في الخريف فتجف نضارة النبات ويميل لونها إلى الاصفرار تذبل أوراقها ورودها، ثم يعود ليحيا في الربيع حين يعود الخصب للأراضي الزراعية بشروق الشمس وتفتح الورود وتكتسي الأرض بالزرع الأخضر وقد انتقلت عبادة تموز أيضاً من جبيل إلى اليونان وسمي "أدونيس ومعنى أدون أو أدونيس كما سماه اليونان السيد أو الرب، وأصبح تموز في عهد فترة حكم اليونان في سوريا صياداً مغرمًا بأمه عشتروت"¹²⁸ ، والإلهة عشتروت ربة الخصب عند الفينيقيين وتعني الربة أو السيدة ولقد انتقلت أيضاً من التراث الفينيقي إلى اليوناني وقد "وحدها اليونان مع إلهتهم أفروديت ووحدها الرومان مع إلهتهم فينوس"¹²⁹. ومن الطبيعي أن يرتبط علم الفلك بالحساب والرياضيات والجغرافيا، فالشعب الفينيقي كان شعباً زراعياً تجارياً وهذا أدى إلى حاجته للحساب في المعاملات التجارية وفي حساب مواعيد زرع الأراضي وحصدها ومواسم الأمطار، وحساب أيام السنة وتوثيقها ضمن سجلات التاريخ، ومن المعتقد أن **جدول الضرب قد ابتكر في صيدون وكذلك نظرية وتر المثلث ويقال إن فيثاغورث كان قد أسس فيها مدرسته الشهيرة التي تقوم على الرياضيات بقدر ما تقوم على السحر الخفي للأعداد**¹³⁰. ومن أشهر العلماء السوريين من فينيقيا الرياضي (يامبليخوس الخالكيسي) الذي ألف العديد من الكتب عن الأسرار المصرية وعن الفلسفة، وعلاوةً

126 المطران الدبس، سابق، ص334-335

127 أسعد، عيسى، تاريخ حمص من أقدم أدوارها إلى الآن أو تاريخ أربعة آلاف سنة ونصف من سنة 2300 ق.م – 1940 م، 1983، القسم1،

طرابلس، مكتبة السائح، ص254

128 الدبس، سابق، ص334

129 عصفور، سابق، ص165

130 مازيل، سابق، ص58

على ذلك فقد أثنى الفينيقيون رسم المصورات والخرائط على أسس جغرافية ورياضية صحيحة بدلاً من الخرائط القديمة التي كانت مرسومة على أساس رحلات المغامرين والملاحين من خلال تحديد المواقع والأماكن بمواقعها النسبية، وحددوا مواقع البحار ورسموها على الخرائط بالاستعانة بالرحلات الجغرافية التي استكشفوا من خلالها شواطئ البحر الأبيض المتوسط وجزره والمحيط الأطلسي والبحار الباردة شماله. ومن أشهر الجغرافيين الفينيقي "مارينوس مؤسس الجغرافية العلمية وهو أول من وضع المصورات المرسومة على أسس رياضية حسب خطوط الطول والعرض، ويستشهد بطليموس بأقواله وبنى كل مؤلفاته على كتاباته" 131. وعرف الفينيقيون علم الحكمة أو ما يسمى الفلسفة، واشتهروا بفلسفتهم التي عرفت بالفلسفة الرواقية واشتهر مؤسسها (زينون الفينيقي)؛ وسميت بذلك لأنه كان يحاضر بعلمه في رواق المدرسة، حيث ولد زينون في كيتوم في قبرص المستعمرة الفينيقية آنذاك (333-261 ق.م) ثم انتقل إلى أثينا، ونادى بمبادئ فلسفته التي عرفت بأنبل فلسفة عرفها التاريخ القديم لأنه فضل الأخلاق على الواجب، وبذلك كانت فلسفته معارضة أفكارها للفلسفة الأبيقورية التي نادى بالحرية، وأثرت الفلسفة الرواقية بالإغريق والرومان على حدٍ سواء فعندما توفي زينون دفنه سكان أثينا في مدافن العظماء (نيكروبول) في أثينا.

ورثوه رثاءً رسمياً ومنحوه تاجاً من الذهب، ونحتوا على شاهدة قبره أبيات من الشعر فيها ما يلي: إذا كانت بلادك الأصلية هي فينيقيا فهل يجب أن يضيرك في شيء؟ ألم يأت قدموس من هناك؟ الذي أعطى لليونان كتبها وفن كتابتها. ولقد ترك زينون عدة مؤلفات لم يصل منها إلا القليل (كرسالة الأخلاق) و (رسالة الواجب). ومن علماء الفلسفة أيضاً (فروريوس الصوري) وبال يونانية تعني فورفيرا الأرجوان؛ لأن الفينيقيين عرفوا في اليونان بالاسم المرتبط بالصباغ الأرجواني كما سبق وأشارت الباحثة، وكان خطيباً ومؤرخاً وفيلسوفاً من أتباع مذهب الأفلاطونية المحدثة.

وزادت شهرة الفينيقيين في الفلسفة في عهد الإسكندر الكبير خاصةً الفلسفة الأفلاطونية الحديثة التي تتوافق والتقاليد السورية السلوقية، وقد أنجبت سوريا الهلنستية عدداً من الجغرافيين والفلكيين في عهد خلفاء الإسكندر

المقدوني خلال القرن الثاني والأول ق.م وخاصة المدرسة الرواقية التي من خلالها انتقلت أفكار الفينيقيين الفلسفية إلى اليونان وبالعكس حيث دخلت أفكار اليونان إلى فينيقيا في عهد الإسكندر الكبير وما بعده حيث كانت المدرسة الرواقية على علاقات وثيقة مع المفهوم السامي للحياة وبقيت خلال وجودها ملائمة لليونان الذين تأثروا بالحضارة السامية والساميين الذين تأثروا بالهيلينية، ولم تكن مساهمة الفينيقيين في الفلسفة ضئيلة أيضاً فقد اشتهر عدداً كبيراً من السوريين في الفلسفة ونذكر منهم "مكسيموس من مدينة صور، كان سفسطائياً وبلغياً ومفكراً أصيلاً وكبقية الأفلاطونيين ميز بين الله والمادة وجعل الشياطين تلعب دور الوسيط بين الله والإنسان"132، واشتهر عدداً من السوريين أيضاً بفلسفاتهم الرواقية التي كان لها أثراً على اليونان والرومان ومهدت للعصر الأوغسطي في الرومان من أمثال بوسيدونيوس الآفامي أحد أبرز الفلاسفة الرواقيين والكتاب السوريين وهو فيلسوف، ومؤرخ وعالم طبيعي ومن كبار المؤرخين والجغرافيين وعلماء الفلك، وعدّ أعظم فيلسوف في عصره لدرجة أنه أطلق عليه في المصادر الكلاسيكية اسم (الرياضي). واشتهر أيضاً ديودورس الصوري الذي تزعم المدرسة المشائية في أثينا -سميت بذلك لأن أرسطو كان يعلم طلابه فيها وهو يمشي- حيث استطاع التوفيق بين الفلسفة الرواقية والأبيقورية، ولم تقتصر شهرة أفاميا على الفلسفة وإنما اكتسبت شهرة في الطب أيضاً وقد اشتهر من الأطباء الطبيب الآفامي "أرخيجينيس الذي مارس عمله كطبيب للأمراض العقلية في روما في عهد تراجان في أوائل القرن الثاني، وكان طبيباً محبوباً بين الطبقة الراقية في العاصمة"133. واشتهرت بيروت بالقانون، واشتهرت أيضاً مدينة صيدا (صيدون) عن باقي المدن بالفينيقية باهتمامها بالمعرفة والتجارة والملاحة حتى قيل إن "عالم صيدوني يدعى موشيوس اكتشف النظرية الذرية قبل 3000 عام"134، وعرفت مدينة جبيل باهتمامها بالكتابة والكتاب وإنتاج ورق البردي ونشرها الثقافة والأبجدية الفينيقية التي نهلها الإغريق من الفينيقيين حتى أنهم غيروا اسمها الكنعاني (جبيل) إلى (بيبلوس Byblos) وتعني هذه الكلمة اليونانية "الورق، ويقصد بها الكتاب، وقد اعتبرت بذلك المدينة الأم للكتابة ومنها بقيت تسمية Bible الكتاب المقدس في اللغات العالمية حتى

132 حتى، سابق، ص357

133 حتى، سابق، ص354

134 مازيل، سابق، ص58

اليوم"135. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن التفاعل الحضاري بين الإغريق والفينيقيين قد وصل إلى أعلى مراحله حيث اقتبس الإغريق الأسماء الفينيقية التي أطلقوها على مناطقهم حيث سميت بعض المناطق الإغريقية بأسماء كنعانية: كميناء فينيقيس في مدينة كريت الذي كان قديماً مستوطنة فينيقية قديمة تتلقى البضائع التجارية القادمة من فينيقيا، وكذلك مدينة طيبة الشهيرة في أساطير الإغريق الواقعة وسط اليونان التي أسسها قدموس البطل الأسطوري الفينيقي، وأصبحت المنطقة تعرف باسم قادميا نسبةً إلى قدموس، وفي مدينتها أيضاً قصراً باسمه عثر في إحدى غرف القصر على عدد كبير من الأختام الأسطوانية الفينيقية والبابلية التي تعود إلى القرن الرابع عشر ق.م تؤكد صدق أسطورة قدموس الفينيقية حيث كانت مدينة طيبة محطة تجارية للفينيقيين.

ثالثاً. المجال الاقتصادي:

. غلب على جغرافية فينيقيا الطابع الجبلي وضيق المساحات السهلية المزروعة في بعض المناطق .
فقد كان "الشريط الساحلي للبحر المتوسط ضيقاً ويفصله عن بعضه البعض نتوءات جبلية تمتد من جبال لبنان وتقترب كثيراً من البحر بانحدارات عمودية" 136 ؛ أدى هذا إلى عدم كفاية المحصول الزراعي للفينيقيين، إضافةً إلى أن الدول القوية المجاورة كانت تسيطر على المناطق الداخلية في سوريا كالدولة الآشورية والحثية، ناهيك عن الامتداد المصري بين الفينة والأخرى إلى سوريا؛ لذا لم يكن هناك من وسيلة تسمح بالتوسع الداخلي فاتجه الفينيقيون بأنظارهم نحو البحر من أجل استيراد المواد والخام والتبادل التجاري مع دول البحر المتوسط، وأسسوا مستوطنات تجارية ترتبط كل مستوطنة بمدينتها الأم من خلال العلاقات التجارية فقط، إضافةً إلى أن موقع فينيقيا الاستراتيجي على ساحل البحر الأبيض المتوسط "بين الشرق والغرب جعله مركزاً تجارياً بين قارتي آسيا وأوروبا وبين الدول العظمى آنذاك في كل من آسيا الصغرى ومصر وما بين النهرين" 137 ، فاحتكروا الطرق الساحلية ومارسوا الملاحة البحرية بعدما نشطت الصناعة والتجارة بالاعتماد على معارفهم في علوم الفلك والنجوم نجم القطب الشمالي الذي عرف باسمهم فكانوا يبحرون إلى "الآفاق البعيدة لطلب المواد الخام المتوفرة في الحوض الغربي للبحر المتوسط لا سيما إسبانيا الغنية بمناجم الفضة والنحاس، إضافةً إلى جلب والعاج وجلود الحيوانات ثم العبيد والذهب من إفريقيا" 138.

وبما أن الاستقرار السياسي مرتبط بالاستقرار الاقتصادي؛ لذلك سعى الفينيقيون إلى الاهتمام بالأمور الاقتصادية وتطوير الاقتصاد بكافة مجالاته خاصةً الذي يتناسب مع الموارد الطبيعية في أرضهم الزراعية فاهتموا بالزراعة والصيد التي كان لها أثراً على أنفسهم وعلى معتقداتهم الدينية التي ارتبطت بمواسم الخصب والزراعة والحصاد، ولم يتركوا بقعة صالحة للزراعة دون زراعة حتى أنهم زرعوا السفوح الجبلية الساحلية، ووصلوا إلى مرحلة متقدمة في مجال الزراعة حيث استخدموا المحراث التقليدي بوساطة الحيوانات كالفيل والثور، وقد وجد في "ضواحي

136 إسماعيل، حلمي، سابق، ص150

137 الدبس، سابق، ص308

138 غانم، محمد، سابق، ص49

صور آلات للحراثة أكمل وأمتن من آلات الحراثة المتطورة في أيامنا"139. ولا بد من التذكير أن الفينيقيين أخذوا المحراث من "الحضارة الآشورية والبابلية في بلاد ما بين النهرين السبابة في الحضارة حيث ساهم ذلك في زيادة الإنتاج الزراعي آنذاك، وقد اقتبس الفينيقيون ونقلوه إلى اليونان ومنها إلى سكان غربي أوربا"140 ومع أن الفينيقيين قد اقتبسوا بعض المظاهر الحضارية من حضارات شعوب الشرق الأدنى إلا أنهم طوروها وعدلوا عليها حتى جعلوا منها فناً فينيقياً متميزاً.

واكتسب الفينيقيون شهرة واسعة في الزراعة اشتهرت بها مدن فينيقيا كصور وصيدا في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وقرطاجة في الحوض الغربي حيث وبلغت ذروة شهرتها في الزراعة بعد استخدامهم "أسلوب الاستثمار المكثف للأرض الزراعية وعنايتهم بالزيتون والكروم والأشجار المثمرة، ويرجع إليهم الفضل في ازدهار زراعة الشمال الإفريقي التي أثارت أطماع الرومان حيث عدوها مخزوناً حقيقياً للغلال"141 ؛ وكان هذا السبب الحقيقي لأطماع الدولة الرومانية بقرطاجة، ولا بد من التذكير أن الباحثة قد أشارت سابقاً إلى القائد الفينيقي القرطاجي ماغون Magon الذي وضع أول موسوعة في مجال الزراعة ومنها نهلت أوربا لا سيما الرومان كتبه في الزراعة والتدجين وتربية الماشية. وعرف الفينيقيون أيضاً تربية الأسماك وصيدها من البحار واشتهروا "بتقديد الأسماك من خلال تقطيعها وتمليحها وتجفيفها والاستفادة منها كمؤونة"142 لهم في أوقات القحط أو الثلج والبرد الشديد.

وطور الفينيقيون صناعاتهم التي لاقت رواجاً كبيراً في الشرق والغرب، وارتبطت أغلب صناعاتهم بمواد زراعتهم كصناعة الأخشاب التي كانت مادتها الخام من أشجار الصنوبر والسرو والأرز الكثيفة المتواجدة بكثرة على الساحل السوري وحققوا أرباحاً هائلة من هذه الصناعة؛ لأن الدول المجاورة لهم كوادي النيل وبلاد ما بين النهرين كادت تخلو من الخشب الصالح للبناء فاضطروا إلى استيراد الخشب من الساحل السوري براً وبحراً، "ومازال متحف اللوفر يحتفظ بلوحات فنية كبيرة كانت في معبد سرجون بمدينة خورساباد نقش عليها عمليات النقل البري

139 الدبس، سابق، ص319

140 حتي، سابق، ص156

141 مازيل، سابق، ص165

142 الدبس، سابق، ص319

والبحري"143 لا سيما الملك سرجون الثاني الذي بنى قصوره من خشب الساحل الفينيقي حتى أن "هياكل القصور القديمة المصرية والآشورية في ذلك العصر، ومعبد أورشليم في القدس قد بنيت من خشب أشجار الأرز الفينيقية"144. واستخدم الخشب أيضاً في تصنيع عربات الخيول التي كانوا يشتروها من كيليكيا، وفي تصنيع أحواض السفن على الموانئ الطبيعية في صيدا وصور، وصناعة هياكل السفن التي اشتهر بها الفينيقيين، وقد ذكر هيرودوت سفنهم التي بنوها بأيديهم حيث ارتدوا أثناء ملاحظتهم البحرية "خوذات شبيهة بخوذات أمثالهم من الإغريق فضلاً عن الدروع من نسيج الكتان والتروس والرماح"145، فكانوا يصنعون السفن ويبيعونها لحساب الدول المجاورة وكانت ملوك آشور تشتري السفن الحربية اللازمة لحروبها كالمملك الآشوري سنحريب الذي استورد سفن من فينيقيا من أجل محاربة دويلات جنوب العراق، وانتقلت صناعة السفن الفينيقية إلى اليونان عن طريق المراكز التجارية التي أسسها الفينيقيون على سواحل اليونان البحرية "فنهل الإغريق صناعة السفن الكبيرة من الفينيقيين وتعلموا أسس بناءها وأخذوا منهم طريقة الاسترشاد أثناء الملاحة بالنجم القطبي"146، ونستدل من العهد القديم على مهارة الفينيقيين في صناعة الخشب وقطعه من خلال الإشارة إلى مراسلات الملك حيرام ملك صور إلى ملك أورشليم سليمان حيث ورد: "أنت تعلم لا أحد من شعبي خبير بقطع الخشب مثل الصيغونيين"147 حيث اعتبر الخشب ثروة عظيمة انفرد بها الساحل السوري كانوا يقايضون عليها في بعض الأحيان بالمواد الخام.

وقد عدّ الفينيقيون أول أمة بحرية في التاريخ اشتهرت بالصناعات الخشبية وساعدهم على ذلك كثرة الموانئ الطبيعية على الساحل السوري ووجود المادة الخام من الخشب في غابات الساحل السوري فازدهرت صناعة السفن بأنواعها التجارية أو الحربية التي اختلفت عن بعضها البعض في شكلها حيث اعتمدت السفن الحربية على المجاذيف من أجل سرعة الانتقال والتقدم السريع في البحر والقدرة على مناورة الأعداء، وتألفت من "صفين

143 مازيل، سابق، ص40

144 مازيل، سابق، ص39

145 هيرودوت، سابق، ص522

146 غانم، محمد، سابق، ص67

147 العهد القديم، سفر الملوك1، 20/5

من المجاذيف مع سطح كانت تعلق عليه تروس المحاربين وكانت مقدمة السفينة حادة مدببة معدة للصدام"148 بالسفن الأخرى. ويعتقد أن هذه المقدمة المدببة مصنوعة من المعدن حيث تعمل على صنع فوهة في سفن الأعداء وإغراقها. أما السفن التجارية فقد استخدمت الأشعرة واعتمدت في سيرها على اتجاه الرياح. أما من حيث الشكل فقد اختلفت السفن التجارية عن الحربية حيث أن الأخيرة صنعت مستطيلة الشكل ولها مؤخرة مرتفعة ومقدمة غالباً ما تكون في مستوى الماء مجهزة بكتلة حديدية في شكل سكة المحراث يطلق عليها اسم رأس الكبش تستعمل لتحطيم سفن الأعداء أو قلبها في الماء أثناء الاصطدام بها149 ، فشكلها يشبه شكل الهلال، وكانت عريضة لنقل الحمولات الثقيلة، وقد تألفت من "طابقين والبعض منها كان صفيين من المجاذيف، وهذا النوع من السفن اقتبس الإغريق وصنعوا مثله كما يتضح ذلك من الرسوم على الأواني الخزفية الإغريقية"150. وقد خلدت الآثار الفينيقية واليونانية والمصرية صور السفن الفينيقية التي نقشت على الجدران وقد ظهرت "حوالي 1400 ق.م منقوشة على المباني الأثرية المصرية وشكلها هلال لها مؤخرة ومقدمة مرتفعتان ومجذافان يستعملان كدفة للسفينة وفي أعالي الصاري شراع واحد"151 ، وجدير بالذكر أن السفن الفينيقية كانت بسيطة الصنع في بدايتها فكانت تشبه الزوارق المكشوفة وقليلة الارتفاع ولا تستطيع أن تتوغل وسط البحر بسبب الأمواج الهادرة فطوروا صناعتها فكبّر حجمها وسمكها واتخذوا الشراع والمجداف في تسيير سفنهم التي كانت تصنع من خشب الأرز وبنوا السفن الضخمة التي تقوى على التوغل في المحيطات152، ولم يستخدموا الخشب في صناعة القصور والهياكل والمعابد والسفن فقط، وإنما استخدم لغايات طبية أيضاً فمن المرجح أنهم استخدموا "زيت الصنوبر ونشارته في التحنيط"153 ، ولحماية سفنهم الراسية في الميناء من تقلبات المناخ المتوسطي ومن ارتفاع موج البحر وهيجانه فقد اتبعوا نظام بناء ميناءين في المدن الساحلية سواء أكان ذلك في فينيقيا الأم أو في معظم مستوطناتهم الأخرى في غربي المتوسط كقرطاجة.

148 حتاملة، محمد عبده، إيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، 1996، عمان، دار المطبوعات للنشر، ص140

149 غانم، محمد، سابق، ص62

150 Haywood, op. cit, p207

151 حتي، سابق، ص106

152 إسماعيل، حلمي، سابق، ص157

153 عصفور، سابق، ص161

ومن الصناعات التي أتقنها الفينيقيون أيضاً صناعة الفخار والأواني الفخارية وصناعة الخزف الذي كان يُصنع باستخدام الرمل المتوفر على الساحل السوري، ومن أهم المصنوعات الفخارية لدى الفينيقيين "الريتونات" التي كانت تستخدم قديماً لتقديم النذور في المعابد -حيث عرف معبد في أوغاريت بمعبد الريتونات نسبةً لها- ووجدت أيضاً ريتونات مشابهة لها في قبرص التي شهدت علاقاتها تجارية مع أوغاريت¹⁵⁴، وانتقلت صناعة الفخار الكنعانية إلى اليونان ومنها إلى روما، ومن أشهر الفخاريات التي عرفت في الحضارة الإغريقية والرومانية (الأمفوريا) وهي عبارة عن جرة ذات عروتين وبنهاية مدببة وفتحة فم صغيرة كانت تصدر بها الخمور والعسل والزيت وأصل الأمفوريا كنعاني حيث اشتهرت بها مدن فلسطين الكنعانية وانتقلت منها إلى أوغاريت ثم إلى الإغريق. وقد عدت صناعة الخزف من أقدم الصناعات الفينيقية بعد الفخار وبلغت أوج ازدهارها قبل 1500 ق.م لكن كان تأثير بلاد ما بين النهرين واضحاً عليها، فطورها الفينيقيون وزادوا عليها تعديلاتهم ولمساتهم الفينيقية التي اختلفت عن صناعات غيرهم في الشكل واللون والحجم حيث تميزت بضخامة حجمها ومتانة صنعها، ولم تكن ذي مظهر لائق كالأواني الخزفية اليونانية القديمة التي امتازت بالحرفية والنقوش الهندسية والنباتية؛ ذلك لأن الفينيقيين كان غرضهم من التجارة إضافةً إلى الربح صناعة آنية خزفية متينة غير قابلة للكسر لذلك لم يهتموا بالشكل والغرض الفني وإنما بالمضمون والمتانة، وعلى الأرجح أن الفينيقيين أبدوا مهارة في صناعة الخزف بسبب استخدامهم الدولاب الذي دخل إليهم عن طريق بلاد الرافدين حيث استخدمه الفينيقيون في بداية الألف الثاني ق.م، وتميز الخزف بالفينيقي بألوان محددة "كالأحمر والأسود"¹⁵⁵. وانتقلت صناعة الخزف من فينيقيا إلى اليونان حيث نهل اليونانيون صناعة الخزف من الفينيقيين أثناء تواجدهم في المستوطنات التجارية التي بناها الفينيقيون في اليونان وجزرها حيث وجد في "بعض جزر الأرخبيل خاصةً في ثارة ومانوس أواني خزفية تظهر أنها من صنع الفينيقيين أنفسهم منذ احتلالهم هذه الجزر"¹⁵⁶ لكن الإغريق طوروها وعدلوا عليها بما يتناسب وثقافتهم وذوقهم الفني. وكانت مصنوعات الخزف التي وجدت خارج فينيقيا ملونة بالأسود وبعضها بالأسود والأحمر وتنوعت حسب غرضها فبعضها استخدم لأغراض دينية والبعض الآخر لأغراض تجارية،

154 حمود، محمود، الديانة السورية القديمة خلال عصر البرونز الحديث والحديد 1600-333 ق.م، 2014، سوريا، ص70
155 Harden, Donald, The Phoenicians, London, 1963, p149

156 الدبس، سابق، ص318

وصنعوا تماثيل ألهمتهم المخصصة للمعابد من الخزف أيضاً حيث وجد الكثير من هذه التماثيل لا سيما "تماثيل خزفية لآلهة الخصوبة عشتار" 157 وعرف الفينيقيون أيضاً صناعة مشابهة للخزف وهي صناعة الزجاج التي تعد من الصناعات التطبيقية الفينيقية حيث مُزج من رماد القلويات والرمل في مواقع الخزافين الفينيقيين، وتشير بعض الروايات التاريخية إلى أن الفينيقيين هم من اخترعوا الزجاج ومنهم بلينوس الأكبر (بليني) حيث يروي "أن بعض التجار من الساحل الفينيقي كانوا على الشاطئ يطهون طعامهم وعندما لم يجدوا أحجاراً ليصنعوا منها موقداً فاستخدموا بضع كتل من كربونات الصوديوم كانت في حمولة سفنهم وعند اختلاطها مع رمال الشاطئ وتعرضها لحرارة النار تحولت إلى مادة مائعة وبعدما بردت نتج منها الزجاج" 158 ، لكن في الواقع إن المصريين قد سبقوا الفينيقيين في صناعة الزجاج وعرفوه قبلهم وأكد ذلك سترابون حين قال سمعت من بعض صناع الزجاج من الإسكندرية أن هناك تراباً (رملًا) مناسباً لصناعة الزجاج (تربة زجاجية) في مصر ويدونه لا يمكنهم أن يصنعوا زجاجاً ملوناً ممتازاً، بينما في مناطق أخرى يستخدمون عناصر أخرى مختلطة 159، ويقصد بالمناطق الأخرى فينيقيا التي ابتكرت صناعة الزجاج عديم الشفافية والزجاج الشفاف المطور المصنوع من رمل الساحل الفينيقي لكن ربما أراد بعض الباحثين القول إن الفينيقيين قد اخترعوا الزجاج غير الملون الذي يختلف عن الزجاج المصري الملون وقد أخطأ حين قال إن الفينيقيين قد اخترعوا الزجاج دون تحديد نوعه، ولربما أراد بعض الباحثين من نسب صناعة الزجاج إلى الفينيقيين كونهم هم من نشر المنتجات الزجاجية في العالم بحكم عملهم في التجارة. وإن سبب اختلاف الزجاج المصري الملون عن الفينيقي هو أن المصريون كانوا يصيفون إلى عجينة الزجاج بعض الأملاح المعدنية التي تكسب الزجاج ألواناً مختلفة، أو كانوا "يطلونه"، وإن الزجاج الشفاف هو من ابتكار الفينيقيين على الأرجح" 160. حيث كان الزجاج الفينيقي في البداية عديم الشفافية وصنعوا منه الحلبي والآنية والقوارير والعقود وبعض الأدوات المنزلية ثم طوره وأضافوا عليه الذوق الفني الفينيقي الذي تفخر

157 كونتينو، جورج، سابق، ص248

158 مازيل، سابق، ص71

159 سترابون، سابق، ص56

160 الدبس، سابق، ص316

به حضارات الشرق الأدنى القديم قاطبةً وصنعوا "الزجاج الصافي" 161 الشفاف. وقد عدت صناعة الزجاج ثورة في الصناعة خلال القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد تقريباً والدليل على ذلك أن "ورشات الزجاج الفينيقيّة أو السورية كانت في العصر الروماني من أفضل الورشات الأخرى في العالم كافة" 162 لذلك اكتسب الزجاج الفينيقي شهرة عالمية نتيجة ابتكار الفينيقيين صنوفاً عديدة من الزجاج منها الحلي والقلائد التي تميزت بألوانها وأشكالها. وكان الحلي الفينيقي يحاكي الأحجار الكريمة، والكؤوس الزجاجية العاتمة قبل معرفتهم تقنية النفخ، وصنعوا الزجاج الشفاف بعد معرفتهم طريقة النفخ، وقاموا بنشر منتجاتهم في جميع انحاء العالم آنذاك فصار الزجاج من أهم صناعات الفينيقيين، وأحد مصادر ثروتهم؛ نتيجة الإقبال على هذه السلعة متقنة الصنع، وصنع في المواقع بعد وضع الرمل مع القلويات الكاربونات على النار وعجنها مع بعضها ثم النفخ فيها عن طريق أنبوب أو بوساطة "قصبه فصنعوا بهذه الطريقة أسطوانات زجاجية مفرغة زخرفت أحياناً خلال تعريضها للحرارة بحبال زجاجية صغيرة تسمح بترتيب الألوان والرسوم التزيينية" 163 ، وقد انتقلت صناعة الخزف والزجاج الفينيقي إلى اليونان عن طريق جزر البحر الأبيض المتوسط مع انتقال الأسلوب الفني الفينيقي نفسه دون تعديل حيث عثر على منتجات زجاجية وفخارية في قبرص لكنها كانت أكثر ضخامة وذات أعناق واسعة مصممة بأسلوب فينيقي. إضافةً إلى ذلك عرف الفينيقيون العاج الذي عدّ من أثمن البضائع التي استوردها الفينيقيون من آسيا وأفريقيا وكان مصدرها الفيل، حيث تميز بلونه الأبيض العاجي الذي لا يفقد خاصيته الفيزيائية مع مرور الزمن لذلك لم يكن من ممتلكات عامة الشعب لارتفاع أثمانه. وقد وجدت آثار مصنوعات عاجية المقاومة لظروف الطبيعة كأدوات الزينة والدبابيس العاجية والأمشاط والتماثيل والصناديق على الساحل الفينيقي لا سيما في قرطاج التي استوردت الفيلة من أفريقيا واستخدمتها ليس في صناعة منتجاتها من العاج فقط، وإنما في حروبها البونيقية أيضاً ومن هذه الحروب عرف الأوروبيون حيوان الفيل الذي كان يشكل رعباً لديهم حيث استخدمه الملك هانيبال 164

161 علي، أحمد، سابق، ص40

162 مازيل، سابق، ص73

163 مازيل، سابق، ص73

164 الملك القرطاجي هانيبال: ولد عام 247 ق.م وكان الابن الأكبر لميلكارباركا القائد القرطاجي ابن ماجو الذي أقسم على كراهية وعداء روما. للمزيد عن شخصية هانيبال انظر: د. البكري، حسن صبحي، الإغريق والرومان، ط1، الرياض، دار عالم الكتب، 1985، ص292 وما بعد

في حروبه مع روما في إيطاليا، واستفاد السلوقيين الذين حكموا منطقة كنعان (سوريا) من الفيل بعدما انتقل إليهم من إرث فينيقيا في حروبهم وكان الأوربيين القدماء يكرهون الفيلة المحاربة التي كانت بمثابة دبابات العصر القديم حيث ذكرت الفيلة في شروط معاهدة أفاميا التي عقدت بين روما والسلوقيين للتخلص من الفيلة المحاربة وهي السلاح الهجومي للسلوقيين الذي دب الرعب في قلوب الرومان فقد كانت الفيلة المحاربة هي أروع ما في الجيش السلوقي وهي السلاح الهجومي الفعال ولها مكانة محترمة عند كل الملوك السلوقيين 165 ، وعثر على أقدم المصنوعات العاجية الكنعانية في "أوغاريت التي تؤرخ إلى القرن الرابع عشر ق.م" 166. واشتهر الفينيقيون بالصناعات النسيجية، واعتبر الصوف من المنتجات الحيوانية الأقل تكلفة مقارنةً بالقطن والكتان المستورد، فقد كانت فينيقيا غنية بالمراعي بسبب توفر الأمطار مما ساهم بإنتاج الصوف الحيواني الوفير، أما القطن فهو من المنتجات النباتية الخام حيث دخل إلى فينيقيا من بلاد الرافدين ومصر وصنعوا منه الملابس مثله كمثل الكتان المصنوع من المواد الخام النباتية المستخدم في حياكة النسيج الكنعاني ذات الأسعار المرتفعة لقيمتها المادية والمستورد من مصر حيث وصفت بعض المصادر المدونة في نصوص العهد القديم الكتان الكنعاني بأنه "كتان مطرز من مصر هو شراعك لك راية" 167، وزرعوه في المناطق الجنوبية من فينيقيا واستخدموه في حياكة الملابس وأشرعة السفن، وكان لباساً للكهنة وسادة القوم خاصةً المصبوغ بالأرجوان، وانتقل الكتان إلى اليونان عن طريق التجارة ومن أشهر أثواب الكتان "الجيتون (Chiton) وهو الاسم الفينيقي للثوب المستورد من فينيقيا والذي انتقل إليهم مع اسمه ويعود بأصله إلى الكلمة الأكديّة (Kitinnu)، والأوغاريتية (Ktn) والعبرية (Ketonet)" 168 ، وارتداه الإغريق من رجال ونساء على حد سواء ويتكون من قطعتين الأولى ثوب عادي للمنزل والثانية يلتوي فوقه حيث كان الفقراء يرتدون النوع القصير أما النبلاء كانوا يلبسون الجيتون الطويل المصنوع من الكتان. وقد ذكر في الروايات التاريخية مواسم حصادها وشهور اقتلاع نبات الكتان والصوف من الأراضي الزراعية، ودخلت الصناعات النسيجية بكل أنواعها إلى فينيقيا "منذ منتصف الألف الثاني ق.م تقريباً

165 د.الحو، عبدالله، صراع الممالك في التاريخ السوري القديم، 1999، ط1، بيروت، بيسان للنشر، ص248

166 علام، نعمت إسماعيل، فنون الشرق الأوسط والعالم القديم، 1975، ط2، القاهرة، دار المعارف، ص158

167 العهد القديم، حزقيال، 7/27

وصنعوا الملابس القطنية بعدما نقلوا زراعة القطن من آشور إلى فينيقيا، وعرفوا صناعة نسيج الكتان والحرير منذ القرن السادس ق.م تقريباً¹⁶⁹. وقد ذكرت الوثائق التاريخية انتقال صناعة القطن والكتان والحرير من آشور إلى فينيقيا كوثيقة نوزي التي يعود تاريخها إلى 1500 ق.م حيث روت أن "الصوف الكنعاني والقطن الذي كان بالأصل من نبات الهند وقد أدخله سنحاريب إلى بلاد آشور وقد أشار في إحدى الكتابات الأثرية إلى (الأشجار التي تحمل صوفاً) والتي كان رجاله يقطفونها ويسرحونها لعمل الملابس"¹⁷⁰. وصحيح أن الفينيقيين قد نقلوا صناعة القطن والحرير من حضارات الشعوب المجاورة لكنهم طوروها وأضافوا عليها ذوقهم الفني والعملي حتى أصبحت تضاهي كل الصناعات النسيجية في العالم وصار لها شهرة حتى أن "رجال ونساء طبقة الأشراف الرومان كانوا يتهافون على منسوجات مدينة صور الرائعة"¹⁷¹ ذات الجودة والمتانة التي امتازت بها الصناعات النسيجية بكل مدن فينيقيا، واكتسبت شهرة واسعة بفضل تجارة الفينيقيين وتسويق منتجاتهم. وانتقلت صناعة القطن والكتان إلى اليونان في "أوائل العصر الهلنستي، وظل القطن يحمل الاسم السامي الفينيقي"¹⁷²، واحتل أصحاب الحرف والتجار مكانة متوسطة في المجتمع الكنعاني بين الطبقة العليا المؤلفة من الملوك والمحاربين والطبقة الدنيا المؤلفة من الأرقاء والعبيد وعامة الشعب.

ولا بد من الإشارة إلى أن صناعة النسيج ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالصباغة التي ابتكرها الفينيقيون بأنفسهم، ونسبت الروايات التاريخية والأساطير صناعة الصباغ إلى الفينيقيين وقد نسب اليونانيون أيضاً ابتكار الصباغ إلى الفينيقيين حينما ربطوا قصة ابتكار الصباغ بأسطورة الإله ملقارت الفينيقي الذي "اكتشفه صدفةً حين كان يتتزه وكلبه على شاطئ إحدى المدن الفينيقية والتقط كلبه بعض الأصداف البحرية على الشاطئ ليتلون أنفه لوناً أرجوانياً، وقد عرف هذا الصباغ بالأرجوان أو بصدف (المريق)"¹⁷³ أو الموريق Murex، وأسطورة الإله ملقارت هي جزء من الخيال الأسطوري الذي عرفت به شعوب الحضارات القديمة حيث كانت تنسب الأشياء الغالية على الآلهة تعظيماً لشأنها ولإضفاء نوع من القداسة، ونجد هذه الأسطورة التاريخية أيضاً قد نسبت إلى الملكة هيلين

169 عصفور، سابق، ص 159

170 حتي، سابق، ص 99

171 مازيل، سابق، ص 70

172 حتي، سابق، ص 99

173 مازيل، سابق، ص 70

التي قيل عنها في الأسطورة أنها أُسرت وخرجت لتنتزه على شاطئ طروادة لتخفف عن نفسها ألم الأسر فلاحظت أن السمكة الصدفية التي كان كلبها يلعب بها صبغت فمه بلون أرجواني فأعجبت باللون واشترطت على من يريد أن ينال حظوة لديها أن يقدم لها ثوباً مصبوغاً بالأرجوان"174. وعلى الرغم من الأساطير التي تتعدد أبطالها ورواياتها إلا أن الهدف واحد وهو وجود هذه الأصداف على شواطئ البحر الأبيض المتوسط والذي عرفه الفينيقيون قبل غيرهم نتيجة وجود مدنهم ومستعمراتهم على سواحل البحر المتوسط، ونتيجة اتقانهم الفنون التطبيقية في الصناعات. ولا بد من الإشارة هنا إلى الفرق بين اللون الأرجواني والقرمزي الذي اكتشفه الفينيقيون لا سيما وأن كل لون يستخرج من مكان مختلف عن الآخر. بالنسبة للون الأرجواني فقد كان يستخرج من أصداف البحر المتوفرة بكثرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط والتي تعرف بالموركس Murex والتي تستخرج منها السائل الأرجواني، أما اللون القرمزي فكان يُصنع من "نوع خاص من الحشرات التي تتكاثر على أشجار السنديان في السواحل الشرقية للبحر المتوسط، وتحل هذه الحشرات في الحوامض لتعطي اللون القرمزي، وقد ذكر في العهد القديم"175، وذكرت الروايات التاريخية طريقة صنع الصباغ الأرجواني وعملياته المعقدة كون أن المصادر الفينيقية لم تتطرق إلى عملية إعداد الصباغ وصناعاته وإنما نقلت طريقة صنعه من بعض المؤرخين في ذلك العصر. حيث دلت عملية إعداد الصباغ المعقدة على وصول الفينيقيين إلى درجات من البحث والمعرفة والمهارة في الصناعة، وتقدمهم على غيرهم من الشعوب في العلوم والخبرات المكتسبة من التجريب المتكرر. فقد كان استخراج السائل الأرجواني من أصداف الموركس يتطلب خطوات صعبة وكثيرة دونها بعض المؤرخين من ذلك العصر حيث يؤخذ السمك الصدفي حياً وعندما يموت يفرز السائل الأرجواني فيستخرج الفينيقيون من كل صدفة "بضع قطرات من العصارة الملونة الموجودة في غدة القوقعة، وقد وجدت بعض الأصداف التي عثر عليها مثقوبة من جانبها"176، في دليل على أن الروايات التاريخية صحيحة وأن هذه الثقوب كانت بفعل الفينيقيين الذي كانوا يتقنون الاصداف للحصول على هذا الصباغ الأرجواني، ثم "يملح السائل المستخرج كما ذكر بليني

174 حتي، سابق، ص102

175 العهد القديم، سفر اللاويين 4:14

176 مازيل ص71

Pliny 177 ويترك بالملح منقوعاً لمدة ثلاثة أيام ثم يغلى بدرجة حرارة معتدلة وأثناء غليانه تنتزع الرغوة من وقت إلى آخر، وفي اليوم العاشر تصبح محتويات القدر مائعة تغطس المادة النسيجية فيه وتترك لامتصاص السائل مدة خمس ساعات ثم تسرح وتوضع ثانية حتى تنتشر اللون تماماً¹⁷⁸، وقد اشتهرت جميع مدن فينيقيا بإنتاج الصباغ الأرجواني الشهير وعلى رأسهم مدينة "صور (تيروس) التي عدت أصدافها من أفضل الأصداف كون أن صيد الأصداف يكون من أماكن قريبة فضلاً عن أن خطوات عملية إعداد الصباغ جيدة وميسرة¹⁷⁹ إضافة إلى أن صدف صور كان من النوع الممتاز وصبغته من أثنى الأصباغ في العصور القديمة ومن بعد صور احتلت صيدا المركز الثاني شهرةً بالصدف والصباغ الأرجواني.

وجدير بالذكر أن الفينيقيون استطاعوا أن يكتسبوا سر صناعة الصباغ لمدة طويلة من الزمن، وبالتالي احتكار الإنتاج -لكنهم لم يحتكروا المادة- ولم يتاجروا بالصباغ الأرجواني وإنما كانت تجارتهم تقتصر على الأقمشة المصبوغة بهذا الصباغ؛ فارتفعت أثمانها وأصبحت الصباغ الأرجوانية رمزاً للتفوق والتطور والغنى وفي البداية ارتبط اللون الأرجواني بطبقة النبلاء من الملوك والأمراء والتجار والأغنياء وهذا يثبت صحة الروايات عن غلاء أثمانه وعدم قدرة عامة الشعب على دفع ثمنه، ولم يستطع الحصول عليه إلا الأغنياء والملوك مثل كليوباترا ملكة مصر وهيلين¹⁸⁰ في طروادة. هذا الازدهار التجاري في صناعة الأقمشة والمهارة في الصنع والخبرة في التسويق ليس غريباً على السوريين فما أشبه الحاضر بالماضي فما زال أحفاد الفينيقيين يحملون مورثات أجدادهم الفنية وخبراتهم في القدرة على صنع الأقمشة غالية الأثمان والحرفية في إتقانها وجودة صناعتها. وقد ذكر الأرجوان في النقوش القديمة والوثائق التاريخية كسلعة إنتاجية لدى الفينيقيين تُصنع وتعد من أجل صبغ الأقمشة النسيجية كالصوف والكتان والقنب والقطن لبيعها إلى كافة شعوب العالم، فقد ورد ذكره في نص من رأس الشمرة يقول: "إن كمية من الصوف قد وزعت بين الحجاجكين المكلفين بصنع الأرجمان Argmn¹⁸¹. وانتقل الصباغ

177 Pliny, Plinys Natural History, tr: H.Rackham and others, London, 1949-1954, P62

178 فيليب حتي ص103

179 سترابون ص54

180 هيلين: ذكرت في إلياذة هوميروس وتعتبر من أجمل نساء الإغريق، انظر إلياذة هوميروس، تر: سليمان البستاني، القاهرة، مؤسسة هنداوي، 2012

181 حتي، سابق، ص101

الأرجواني من فينيقيا إلى العالم اليوناني كمظهر حضاري مزدهر يعبر عن الغنى الفاحش والرفاهية وأصبحت غالبية المصطلحات والتعابير التي تدل على الرفاهية مرتبطة بالأرجوان الفينيقي مثل (مولود في الأرجوان) كالتعبير في زماننا اليوم عن الذهب (مولود وفي فمه ملعقة من الذهب)، وارتبطت الثياب الأرجوانية في اليونان لا سيما في العصور الهومييرية والهلنستية بالملوك والملكات والسلطة والثراء وقد ذكره هوميروس في إلياذته عندما "وصف شخصية أندروماك" 182 ، وعندما ذكر الملكة هيلين في طروادة، وأيضاً عندما أهدى "أدونيس إلى تيلرفون نطاق مزركش بالأرجوان" 183 حيث اعتاد الإغريقون على تبادل الهدايا الثمينة ومنها الأرجوان الفينيقي. ولم تقتصر سمعة الصباغ الأرجواني المرتبطة بالثراء والرفاهية على العالم اليوناني فقط، وإنما انتقل إلى العالم الروماني أيضاً عن طريق اليونان وعن طريق قرطاجة الفينيقية أيضاً. واستورد الرومان الصباغ الأرجواني من مدن فينيقيا منذ "القرن الأول ق.م وحتى الفتح الإسلامي حيث عرف الأرجوان بالأرجوان السوري الذي استورده تجار البندقية حتى أواخر القرن الثامن الميلادي" 184 ، وغني عن التعريف أن نقول إن الصباغ الأرجواني حاز على إعجاب ملوك الشرق قبل غيرهم وارتداه الملوك وحكام ملوك "آشور وبابل وفارس ومدين وملوك آسيا الذين أسرفوا في استعماله بملابسهم وفي زينة قصورهم وكان يعرف بالبرفير" 185. ومازال حتى اليوم مرتبطاً بالثراء والملوك والأمراء، ونراه اليوم في السجاد الذي يوضع أمام رؤساء الدول أثناء البروتوكولات الدولية في استقبالهم باي بلد أو محفل دولي، وما زال مرتبطاً بالشرق الثري والصناعة الفينيقية التي نفتخر بها ونعتز بمنجزاتها الحضارية التي اخترقت كل أنحاء العالم آنذاك وحتى وقتنا الحاضر. وجدير بالذكر أن الملابس الأرجوانية في البداية اقتصر على الملوك والأغنياء لكن فيما بعد ارتداها رجال الدين ومن ثم عامة الشعب في مدن فينيقيا حيث عثر على "رسوم جدارية في قبور الهكسوس في مصر عام 1700 ق.م تتضمن قوم من الكنعانيين يرتدون الأثواب الطويلة التي تصل إلى الركبة مصنوعة من القماش المصبوغ" 186 في دليل على أن

182 مازيل، سابق، ص 70

183 هوميروس، الإلياذة، 2012، النشيد 7، تر: سليمان البستاني، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ص 92، 93

184 حتي، سابق، ص 103

185 الدبس، سابق، ص 315-316

186 حتي، سابق، ص 101

الألبسة المصبوغة بالصباغ الأرجواني أصبحت في متناول سائر الناس دون تمييز لشهرتها ورغبة الناس في ارتداؤها.

عرف الفينيقيون أيضاً صناعة المعادن وقاموا برحلات طويلة خارج بلادهم للبحث عن المعادن، وانتقلت صناعة الحديد والفولاذ إليهم من حضارات ما بين النهرين، لكنهم حازوا سبق في صناعة النحاس الذي عرف في عهدهم "بالأصفر أي النحاس الأصفر" 187، والنحاس في الإنكليزية (Copper) أما السرو (Cypress) وكلا الاسمين اشتقا من لفظة (Cyprus) وهي جزيرة قبرص التي اشتهرت بصناعة النحاس 188. وقد عثر في قادس على "آثار فينيقية تعود إلى حوالي القرن الثامن ق.م تؤكد وجود مركز تجاري على مفترق طرق المعادن حيث استخرج النحاس والفضة واستقدم الذهب والعاج من إفريقيا أيضاً" 189. وقد بدأت صناعة المعادن في أوغاريت ثم انتقلت إلى اليونان حيث عثر على منتجات معدنية فينيقية في اليونان تؤكد لها "الإشارات التي ظهرت في أشعار هوميروس التي تعكس العلاقات الاقتصادية بين اليونان وفينيقيا بداية القرن الرابع عشر ق.م" 190. إذ تشير الملاحم إلى أن صيدا كانت مركزاً للمنتجات الحرفية الفينيقية. وجدير بالذكر أن الفينيقيين كانوا محترفين في صناعة المعادن ومزجها مع بعضها في الموامد ليحصلوا على معادن صلبة غير قابلة للكسر كالفولاذ فقد أظهر التحليل الكيميائي لنصل فأس من أوائل القرن الرابع عشر اكتشف في رأس الشجرة ليس معرفة إذابة الحديد فحسب وإنما معرفة مزجه بمعادن أخرى لصنع الفولاذ 191 حيث حاز الفينيقيون على سبق في صناعة الفولاذ الذي لم يكن معروفاً في معظم الحضارات وابتكروه في مواقدهم لجعل الحديد قاسياً وصلباً مما يعطي بناء قلاعهم متانة، وصناعة أسلحتهم صلابة قادرة على هزيمة جيوش جرارة.

وعرف الفينيقيون القصدير أيضاً وأبحروا للبحث عنه واستخراجه من أماكن تواجده في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط في إيطاليا وإسبانيا وسواحل شمال إفريقيا في تونس والجزائر حالياً ولقد ثبت وجود القصدير

187 الدبس، سابق، ص318

188 للمزيد انظر ديورانت، ول، قصة الحضارة، دت، تر: زكي محمود، بيروت ج2، ص312

189 مازيل، سابق، ص120

190 Muhly, op.cit, p21

191 حتي، سابق، ص95

بالقرب من مدينة "البندقية Vannes لكن لم تعد مناجمه صالحة اليوم كما كانت سابقاً بسبب تراجع مستوى الساحل" 192، وعرف الفينيقيون أيضاً صناعة الذهب والصياغة وتاجروا بالمواد الثمينة وبرعوا بصناعة الحلي المفرغة التي قد تكون من أوراق الذهب أو من فتائل معدنية وهذا النوع من الحلي وجد في مختلف الأماكن الساحلية التي عرفها الفينيقيون والقرطاجيون 193 لا سيما في كريت وقبرص وسواحل اليونان والسواحل الجنوبية في أوربا، حيث ذكر هوميروس ذلك من خلال "الكؤوس التي صنعها الصاغة الفينيقيون من معادن ثمينة وقد وجد بعضها في جزيرة قبرص وفي توسكانة في إيطاليا أيضاً" 194، وقاموا بسك عملاتهم من الذهب والفضة في ورشاتهم المنتشرة في المدن الفينيقية، وكانت هذه الورشات بالقرب من نشاطهم التعدين قرب المناجم وبرعوا في الحساب الذي ارتبط بالعملات المعدنية وبطبيعة بلادهم واشتهر منهم أهل صيدا حيث ذكرهم الشاعر هوميروس في إلياذته عندما وصف أهل سيدون (صيدون) بأنهم "متعدو المهارات وفنانون إضافةً إلى أنهم حكماء فيما يتعلق بالفاك وعلم الحساب وقد بدأوا بالمحاسبة والإبحار الليلي" 195، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الفينيقيين كانوا مهرة في الصناعة وما شهرتهم بها إلا لسبب واحد هو أنهم كانوا يكتمون سر صناعاتهم ولا يعلموها لأحد وإنما ينقلون بضاعتهم ومنتجاتهم التجارية فقط فقد كانوا "يقفون عند مضائق البحر المتوسط في صقلية وأعمدة هرقل يحرسونها وينكلون بالسفن الغربية ويمنعونها من اقتحام مناطق نفوذهم، ولهم الفضل على أوربا بتعليم شعوبها استعمال المقاييس والمكاييل واستخدام الأرقام والأبجدية وإدخال بعض الصناعات كصناعة النسيج وبناء السفن والأصباغ وكانت مدنهم صور وصيدا وعكا على ساحل الشرق أهم مراكز حضارتهم" 196 ومن بعد الصناعة اكتسب الفينيقيون شهرةً في التجارة وكانوا أول أمة بحرية أبحرت إلى العالم المجهول لتنتقل منتجاتها الصناعية والزراعية إلى شعوب الدول المجاورة ووصل نشاطهم التجاري إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقد ساعدهم على الإبحار وجود موانئ طبيعية وخبرتهم الفذة في بناء موانئ جديدة فبلغوا شهرةً واسعة حتى عرف الفينيقيون بالشعب "البحري العظيم والذي عرف بمهارته وصلابة عوده وشدة حرصه على

192 مازيل، سابق، ص 133

193 مازيل، سابق، ص 70

194 الدبس، سابق، ص 318

195 سترابون، سابق، ص 54

196 بك، محمد رفعت، التيارات السياسية في حوض البحر الأبيض المتوسط، 1949، مصر، لجنة البيان العربي، ص 8

الاستيطان" 197. وبحسب الملاحم الهوميرية فإنه "خلال القرن التاسع ق.م كانت السفن الفينيقية تسيطر على حوض البحر المتوسط وجزر بحر إيجه وكريت وارتبط اسم الفينيقيين بالتجارة والمنتجات ذات الجودة العالية" 198 وكانوا أول أمة بحرية شقت عباب البحر الأبيض المتوسط وأسست مراكز تجارية على شواطئه وخاطرت للكشف عن أماكن المواد الخام. وقد دفعهم ذلك إلى توفير الأمان على الطرق التجارية الداخلية والساحلية، ودعم الاستقرار السياسي سواء في المدينة الأم أو في المستوطنات التجارية التابعة لها عن طريق تنفيذ اتفاقيات سياسية مع إحدى الدول المجاورة القوية كالمصرية والآشورية؛ هذا ما ساعد على تحقيق عوامل الاستقرار الاقتصادي، واقتصرت رحلاتهم التجارية في البداية على السواحل القريبة للبحث عن المواد الخام أو للإتجار بالملابس النسيجية المصبوغة بالصباغ الأرجواني سالف الذكر لكن فيما بعد "ازداد نشاطهم الاقتصادي بعد القرن الثالث عشر أو الثاني عشر ق.م بتأثير ضغط الآراميين عليهم في وسط سوريا في أعقاب هجمات شعوب البحر" 199 وكنتيجة للوضع السياسي الداخلي وعدم كفاية محاصيلهم الزراعية للسكان نتيجة ازدياد عددهم وبسبب كثرة الطلب على المواد الخام اتجه الفينيقيون للإتجار عبر البحار وانكبوا على التجارة البحرية التي انطلقت من السواحل الشرقية للبحر المتوسط حيث حققت الملاحة والتجارة الفينيقية شهرة واسعة "حيث كانت التجارة منذ الألف الثاني ق.م مقتصرة على الملاحة النهرية التي مارسها المصريون في نهر النيل أثناء فترة حضارة الميكانيين" 200.

وجدير بالذكر أن الفينيقيون حافظوا على التجارة البرية الداخلية لكنهم فضلوا التجارة البحرية أكثر واشتهروا بها ويعود ذلك إلى أن الإتجار عن طريق البحر أفضل لهم بدلاً من عبور الصحاري القاسية لا سيما صحراء سيناء التي تقع في طريقهم التجاري نحو إفريقيا؛ كون الفينيقيون سكان جبال ساحلية ومعتادون على المناخ المتوسطي المعتدل ولا يحتملون شدة حر الصحراء، فقد كان الطريق "البحري من سوريا إلى مصر أنسب الطرق وأكثرها

197 موسكاتي، سابق، ص 37

198 J. Boardman, (Excavations in Chios, 1952-1955 Emporio), 1967, p57-75

199 إسماعيل، حلمي، سابق، ص 156

200 مازيل، سابق، ص 69

استعمالاً" 201 واستطاعوا نقل بضاعتهم لا سيما الخشب والزجاج والآنية الخزفية والمنسوجات وغيرها من المنتجات المحلية على سفنهم التجارية عبر البحر المتوسط، ومن خلال احتكاكهم بشعوب الدول المجاورة لم يتاجروا معهم فحسب بل نشروا عناصر حضارتهم أيضاً وجعلوها مرغوبة لدى الطرف الآخر فاستحقوا لقب (المستعمرين الحضاريين). ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الفينيقيين لم يبحروا بالطرق البحرية المكتشفة منذ زمن والمرسومة على الخرائط القديمة فحسب، وإنما اكتشفوا طرقاً بحرية جديدة واستخدموها ثم احتكروها ومنعوا السفن الأخرى من اجتيازها وقاموا بحماية سفنهم التجارية من القراصنة الذين كانوا يترصدون بالسفن الفينيقية من أجل سرقة بضاعتها غالية الأثمان، وكان التجار الفينيقيون يمتلكون خبرات في الحساب والديون والتبادل التجاري، وكان الرأسماليون الفينيقيون تشتمل أعمالهم في ذلك الوقت على تأمينات ساحلية واعتمادات مصرفية وقروض من كل الأنواع وتمويل بالمساهمة أو بالحساب وكل أشكال الحسومات والإجراءات المصرفية 202. ومن أهم الطرق التي استخدمها الفينيقيون في تجارتهم والتي كانت تقسم إلى طرق برية وبحرية، فكانت الطرق البرية تعبر في قلب قارة آسيا وأحد الطرق التجارية في "آسيا تسير في الجنوب حتى اليمن للحصول على المواد الخام من الذهب والحجارة الثمينة والبخور والمر، أما الطرق الثاني البري فكان باتجاه الشرق نحو بابل ونيوى، أما الطريق الثالث فكان باتجاه الشمال نحو البحر الأسود وبحر قزوين" 203.

تاجر الفينيقيون ببضائعهم المحلية التي أنتجتها أراضيهم الخصبة من محاصيل زراعية متوسطة كالقمح والزيت والخمور المعصورة من كروم العنب الذي اشتهرت به كل من "صور وصيداء وبيروت وجبيل وطارت شهرته إلى اليونان وروما" 204 في ذلك الوقت، والأخشاب التي أنتجتها أشجارهم فقد صنعوا منه سفنهم وهياكلهم وبنوا قصورهم ومعابدهم وقصور جيرانهم في كل من آشور ومصر، إضافةً إلى تجارة النباتات والأعشاب والأشجار المثمرة لا سيما في العصر الهومييري والهلنستي حيث حملت السفن التجارية الفينيقية "نباتات ومحاصيل مثل الورود والنخيل والتين والرمان والخوخ واللوز ونبات الغار والدفل والسوسن والنعنع والنعرجس وقد بقيت الأسماء

201 موسكاتي، سابق، ص40

202 مازيل، سابق، ص168

203 الدبس، سابق، ص310-311

204 الدبس، سابق، ص319

اليونانية كما هي في اللغات السامية الفينيقية، إضافةً إلى البلسم والمر، وكانت تجارته في أيدي السبائيين قبل الفينيقيين²⁰⁵. هذه المنتجات الفينيقية زاد الطلب عليها من قبل اليونان القديم وأقبلوا عليها بشكل كبير لا سيما المنسوجات ذات الصباغ الأرجواني والآنية الخزفية والزجاجية والحلي والمصوغات الذهبية وفضلاً عن ذلك الغار الذي شكل عنصراً أساسياً في الألعاب الأولمبية حيث وضع كتيجان للمنتصرين وتيجان للشعراء أيضاً، وكان مادةً مهمة في أساطير الإغريق لارتباطه بالآلهة الإغريقية حيث روت الأسطورة أن "الحورية دفنة Daphne تحولت مرة إلى شجرة غار عندما لاحقها عشيقها أبولون وذلك في مكان قرب أنطاكية لا يزال يحتفظ باسمها"²⁰⁶ حتى اليوم.

ولقد اتبع الفينيقيون في تجارتهم طريقة المقايضة التجارية التي يعود إليهم الفضل في ابتكارها في المجال التجاري لا سيما في السواحل الغربية أو المناطق الجديدة التي يصلونها عندما يشعرون أن سكان هذه المناطق يخافون منهم فكانوا "يأتمنون سكانها على ديونهم من خلال قيام التجار بإنزال البضاعة التي تحملها سفنهم التجارية على رمال الشاطئ ليبعد التجار الفينيقيين بعد ذلك نحو البحر كي يمنحوا السكان الشعور بالأمان أو يعودون في الصباح التالي وحين يطمئن السكان يقتربون من المنتجات ويأخذون ما يحلو لهم ويضعون بدلاً عنها مادة بديلة أو مقداراً من الذهب"²⁰⁷ دون أن يقتربوا من السكان ويتحدثون معهم وبقيت هذه التجارة الصامتة سارية حتى وسع الفينيقيون أسواقهم في المراكز التجارية التي أسسوها وتعاملوا مع أشخاص محليين كانوا على ثقة تجارية فكانوا يقدمون بضاعتهم له وهو يبيعها في المراكز التجارية الجديدة التي أسسوها ليأتوا في اليوم التالي ويأخذون منه ثمنها فأصبحوا "العملاء في توزيع بضائع الشرق في الغرب، وأصبح البحر المتوسط بحيرة فينيقية قبل أن يكون بحيرة يونانية"²⁰⁸، ولم تكن فينيقيا الشرق وحدها من تقوم بالتجارة الصامتة مع أقوام غرباء وإنما كانت فينيقيا الغرب لا سيما قرطاجة تحذو حذوها فقد روى هيرودوت عن أن القرطاجيين كانوا "لهم تجارة مع قوم

205 للمزيد عن تجارة الفينيقيين اقرأ: حتي، فيليب، سابق، ص 114-115

206 حتي، سابق، ص 115

207 مازيل، سابق، ص 60

208 حتي، سابق، ص 105

يسكنون وراء أعمدة هرقل يسافرون ويعرضون بضاعتهم بترتيب حسن عند الموانئ²⁰⁹. أما في المناطق التي يعرفون سكانها وكانت قريبة من موطنهم فينيقيا فكانوا يقيمون مراكز تجارية فيها ويحصلون من حاكم المنطقة على حرية التجارة ويجلبون إليها كافة أنواع البضائع كما فعلوا في مصر حيث جلبوا كل ما يحتاجه المصريون من وراء البحار، وأقاموا عند مصبي فرعي رشيد ودمياط لنهر النيل مراكز تجارية لهم²¹⁰. وقد ظهرت المسكوكات النقدية لاحقاً في صور وتبعثها بقية المدن الفينيقية.

لم يكتف الفينيقيون بإتقانهم التجارة وتأسيس المراكز التجارية على سواحل البحر الأبيض المتوسط وإنما نشطوا بتأسيس المستوطنات الفينيقية في المناطق القريبة والبعيدة عن وطنهم الأم حيث قاموا بالتوسع في المراكز التجارية التي أسسوها عن طريق الهجرات المتتالية إليها من المدينة الأم وتحويلها إلى مستوطنات تابعة لهم، فكانت المستوطنات التجارية التي تأسست في الغرب تابعة لمدن فينيقيا في الشرق ويرجع الفضل بهذا بالدرجة الأولى إلى مدينة صور التي آلت إليها الزعامة السياسية والاقتصادية على مدن الساحل الفينيقي منذ القرن الثاني عشر ق.م وحتى إذا شاركت بعض المدن الفينيقية في عملية الاستيطان هذه فقد فعلت تحت راية مدينة صور ويأمر منها 211، وبلغ النشاط التأسيسي للمستعمرات في غربي البحر المتوسط ذروته "بين منتصف القرنين العاشر والثامن بفضل وجود مستوطنين من المدينة الأم، وانتشرت هذه المستوطنات من شمالي الدلتا المصرية إلى سواحل كيليكيا واليونان" 212 وجزر البحر المتوسط في مالطة وصقلية وسردينيا وكورسيكا وجزر بحر إيجه وصولاً إلى الحوض الغربي للمتوسط في كل من إسبانيا وبريطانيا وشمال إفريقيا حتى أصبح البحر المتوسط بحيرة فينيقية. ولعل أهم المستوطنات الفينيقية في الشمال الإفريقي قرطاجة التي أسستها صور نهاية القرن التاسع قبل الميلاد، ومن أقدم المستوطنات التي أسسوها في الحوض الشرقي للمتوسط جزيرة قبرص في حوالي منتصف القرن الحادي عشر ق.م بسبب قربها من الوطن الأم فينيقيا.

209 هيرودوت، سابق، ص 369

210 إسماعيل، حلمي، سابق، ص 158

211 غانم، محمد، سابق، ص 70

212 حتي، سابق، ص 110

واقصر دور التجار الفينيقيون المستقرون في المستوطنات على تصريف المنتجات الفينيقية والترويج لها ومن ثم جمع المواد الخام اللازمة للصناعة وإرسالها إلى المدينة الأم عن طريق السفن التجارية الفينيقية. وإن أعظم ما اكتشفه الفينيقيون هو اكتشاف رأس الرجاء الصالح والدوران حول أفريقيا قبل البرتغاليين بأكثر من ألفي سنة وقد دلت الوثائق المصرية على هذا الحدث الجغرافي حيث أشار لهم "الفرعون نخاو 609-593 ق.م من السلالة السادسة والعشرين حيث طلب من الفينيقيين القيام برحلة بحرية نحو المحيط الجنوبي" 213، وكانوا أول شعب يبحر نحو المحيط الأطلنطي (الأطلسي) المجهول في ذلك الوقت حيث حكى حوله أساطير الرعب والخيال وارتعدت البحارة من ركوب مياهه حتى أن العرب أطلقوا عليه اسم (بحر الظلمات) وكان يسمى عند اليونان أوقيانوس، وقد أدى وصول الفينيقيين إلى إسبانيا وتأسيسهم مدينة كاديذ (قادس) في الجنوب الغربي لإسبانيا والتي تقع على حد زعم الأساطير وراء أعمدة هيركوليس (عند مضيق جبل طارق) إلى اكتشاف المحيط الأطلنطي (الأوقيانوس). إن تقدم الفينيقيين عبر البحار أثار إعجاب اليونان الذين عانوا من فقر أراضيهم وقلة محاصيلها الزراعية فاتجهوا نحو البحر وسيطروا "خلال القرن السابع ق.م على طرق التجارة بعد أن بدأت المدن الفينيقية تتساقط أمام الاجتياح الآشوري" 214 بعد صراع مع الفينيقيين على الطرق التجارية كان قد بدأ منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وخاضت قرطاجة أيضاً صراعاً طويلاً مع روما على الطرق التجارية أيضاً.

ومن آثار الحضارة الفينيقية على اليونان أن بعض مدن اليونان ما زالت تحمل اسمها الفينيقي كمدينة كورنثوس اليونانية التي قالت الأساطير اليونانية أن اسمها فينيقي "مشتقة من اسم الإله الفينيقي ميكيرتس (ملقارت)، وجزيرة مالطة اسمها سامي كما زعم ديودورس، وعاصمة جزيرة مينورقة الحالية اسمها ماهون Mahon وتشبه اسم Mago القائد القرطاجي" 215، ومن المدن التي بناها الفينيقيين وفقاً للأساطير اليونانية مدينة (ثيفا أو طيبة) التي أسسها قدموس إضافةً إلى بلاد ألبانيا التي عرفت باسم "الليريا نسبةً إلى أليروس ابن قدموس وكان سكان هذه العاصمة الأيولية من أصل فينيقي" 216.

213 حتى، سبق ذكره، ص108
214 حتى، سبق ذكره ص113-114

215 Muhly, op.cit, p49

216 حتى، سبق ذكره، ص114

رابعاً. مجال العمارة والفنون:

. عانى الساحل السوري قديماً من الاضطراب السياسي ومن العزلة التي كانت سمة بارزة لمدن فينيقيا نتيجة المظاهر الجغرافية من جبال وسلاسل وهضاب فصلت بين المدن؛ مما أدى إلى سيادة نظام دويلات المدن السياسي وزاد هذا التشتت رغبة سكان دويلات المدن بالتوجه نحو المجال الاقتصادي أكثر من المجال الفني والعمارة الذي اعتبر فقيراً في سوريا مقارنةً بالإمبراطوريات العظمى التي تأسست في جوارها كبلاد ما بين النهرين ووادي النيل اللتين عرفتا نظاماً سياسياً موحداً أدى إلى الاستقرار السياسي والتوجه نحو البناء وإعمار البلاد وزخرفة قصورهم وهياكلهم، "قالفن في سوريا يمتاز بفقره وجمعه لعناصر أجنبية" 217 استمدتها من الدول الكبيرة المجاورة والتي أسست طراز فني خاص بها نتيجة نموها وازدهارها بشكل كبير مقارنةً بمدن فينيقيا التي كان يسود فيها سياسة التبعية للدول العظمى؛ لذلك لم تهتم بإنشاء قوة سياسية قوية وإنما انهمكت بالأطماع التجارية على سواحل البحر المتوسط حيث تأثر الفن الفينيقي "بالمدراس الآشورية والمصرية" 218.

وعلى الرغم من ذلك فقد اعتبر الفن الفينيقي من أجمل الفنون الشرقية القديمة ودلت الآثار المكتشفة على مدى نبوغ المهندسين الفينيقيين في علوم الهندسة والعمارة وعلى ذوق الفنان الفينيقي ومهارته اليدوية وخبرته المهنية. ولقد كشفت التنقيبات الأثرية عن آثار العمارة والفن الفينيقي في اليونان وأثروريا في إيطاليا حيث وصلت إلى هنا بفضل تجارة الفينيقيين والإغريق. ولم يدخل "التأثير اليوناني على الفن الفينيقي إلا بعد فتوحات الإسكندر المقدوني" 219 ، وأكثر ما اهتم به الفينيقيون في مجال البناء هو بناء "الحصون للدفاع عن المدن ضد هجمات الأعداء المجاورين، ولم تكن هذه الأبنية ذات قيمة فنية كبيرة" 220، وكانت هذه الحصون تتألف من كتل حجرية ضخمة حيث عرف الفينيقيون مهنة قطع الحجارة واستخراجها وقد نسب إليهم في النصوص التاريخية "فن قطع الحجر ونحته من أجل البناء كما في بعلبك" 221. وقد أشارت نصوص العهد القديم على مهارة الفينيقيين في بناء

217 موسكاتي، سابق، ص 134

218 Maxwell. B.J, The Living Past-the Great Civilizations of mankind, London, 1961, p193

219 أرست بابلون، الآثار الشرقية لحضارات كلدية وآثور وبابل وفارس وسورية وفينيقية ويهودية وقرطاجية وقبرصية، 1987، تر: مارون الخوري، طرابلس، دار جروس بيرس، ص 205

220 موسكاتي، سابق، ص 134

221 مازيل، سابق، ص 69

الحصون والأسوار والأبراج عندما تتبأ حزقيال بدمار مدينة صور قائلاً يخربون أسوار صور ويهدمون أيراجها.222. أما القصور الملكية فقد قام الفينيقيون بتقليد فن البناء الرافدي حيث كشفت الحفائر في "أوغاريت وآلاخ عن بعض القصور الملكية التي تتألف من فناء أو أكثر تحيط به الحجرات ولكن كانت أضيق نطاقاً من نظائرها في بلاد الرافدين"223.

وجدير بالذكر القول إن اقتباس الفينيقيين بعض التأثيرات الفنية من جيرانهم لم يؤثر على إمكانياتهم الإبداعية وحرفيتهم في الصناعة والبناء فقد أنتجوا روائع فنية غاية الجمال ووصلت شهرتهم بالبناء ومهارتهم إلى جميع أنحاء العالم حيث امتازت أبنيتهم عن غيرهم بالضخامة وقلة الزخرفة وكانوا "أساتذة لغيرهم من القبائل في هذا الفن ومزية أبنيتهم ضخامة حجارها وحسن تنجيدها، وهم أول من عني بتبليط الأزقة والشوارع في المدن وتظهر بلاط شوارع صور وقرطاجة في أشعار فرجيل"224 ، وعرفوا بناء المدن والمنازل ذات الحمامات ونظام تصريف المياه واشتهروا ببناء بقايا أسوار جزيرة أرواد وبقايا هيكل سليمان وأسواره في أورشليم -القدس- وصحيح أنهم لم يلتفتوا إلى الزخرفة كحال جيرانهم لكنهم اكتفوا باستخدام الأعمدة والتيجان التي لم تستخدم لرفع المباني والسقوف وإنما للزينة حيث كانوا يلصقونها بالعضائد، وقد سبق وأشارت الباحثة إلى أن عاصمة ألبانيا اليوم التي بنيت على الطراز الفني المعماري اليوناني القديم مدينة لسوريا باستخدام الفن الفينيقي في الأعمدة والتيجان التي وجدت شبيهتها في مدن فينيقيا.

كانت المباني الدينية في فينيقيا كذلك لا تختلف كثيراً عن غيرها من الأبنية من ناحية النحت والزخرفة فقد كانت تبنى في الضواحي، وتتألف من بناء يحيط به سور ويضم مذبحاً وحجارة مقدسة. أما بالنسبة إلى معابد المدن فكانت تختلف قليلاً عن معابد الضواحي من حيث وجود السقوف، وفي هذا تشبه إلى حد كبير معابد بلاد ما بين النهرين، ولم يكن من عادة الكنعانيين بشكل عام أن يضعوا الأصنام في معابدهم وإنما في بيوتهم لكي يعبدوها، أو على أسوار الهياكل كنذور للتقرب من الإله وقد اكتفوا بوضع "النصب والعمود المقدسين فقط دون وجود

222 العهد القديم، حزقيال، 4/26

223 موسكاتي، سابق، ص135

224 الدبس، سابق، ص319

أصنام برونزية تمثل بعل واقفاً يلوح بالصاعقة بيده اليمنى المرفوعة²²⁵. وكسائر حضارات الشرق الأدنى القديم ارتبط فن العمارة الدينية بمهارة النحت والنقش على المدافن والتماثيل والأنصاب التي كان من عادة سكان الشرق نصبها ليزبح عليها الذبائح التي يتقرب إليها العابدون من آلهتهم فحفر الكنعانيون بشكل عام على النصب صوراً بارزة كنصب "الإله بعل المشهور في أوغاريت والنصب الذي كشفته الحفائر في حاصور" 226 في فلسطين. على أن النحت على شكل رسوم بارزة لم تكن على النصب فقط وإنما شملت المدافن والتماثيل البرونزية الصغيرة أيضاً وقد أضفى الكنعانيون مهارتهم وذوقهم الفني على هذه النقوش حتى أصبحت النقوش الفينيقية أكثر انتشاراً من زخارف النماذج السابقة التي شاعت من قبل.

وقد حفر الفينيقيون أيضاً التوابيت الحجرية بمهارة عالية وخبرة مهنية فائقة حتى أن التوابيت ما زالت محتفظة بزخرفتها حتى اليوم فقد وجد في مدن فينيقيا لا سيما صيدا توابيت حجرية على سطحها الأعلى قالب الرأس إنسان، واشتهر الصيونيون بحفر تلك "التوابيت الحجرية العجيبة المصرية الشكل والإغريقية القديمة برسوم منقوشة كانت تطلبها العائلات الفينيقية الكبيرة والعريقة على سواحل البحر المتوسط"²²⁷. وقد حافظت هذه التوابيت على وجودها بفضل صناعتها من الحجر والتي وجد منها في كل مدن فينيقيا لا سيما في عمريت التي تألفت من عدة قبور منقورة في الصخر كأمثالها في اليهودية وبلاد العرب ومصر²²⁸. وسادت آثار معمارية في فينيقيا على سواحل البحر المتوسط وجزره وقد صنفها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام وفقاً لنوع نمطها

فمنها ما هو فينيقي بحت من ابتكار الفينيقيين "كآثار عمريت، ومنها ما اختلط بالنمط اليوناني والروماني أثناء تلاقي الحضارتين كصخر نقر فيه جرن العماد في مدينة جبيل، والقسم الثالث آثار يونانية ورومانية بحتة كالأثار التي عثر عليها في البترون وبيروت"²²⁹ التي سادت أثناء عصر الإسكندر الكبير ومن جاء بعده من السلوقيين. وقد تأثر البناء الكنعاني بالتأثيرات القبرصية والمايسينية فقد عثر في بيوت أغنياء أوغاريت على

225 حتي، سابق، ص 130

226 موسكاتي، سابق، ص 135

227 مازيل، سابق، ص 57

228 الدبس، سابق، ص 342

229 الدبس، سابق، ص 342

قبور من الحجر محكمة الصنع على شكل غرفة مستطيلة تحت أرض البيت ينزل إليها بسلم يتألف سقفها من أحجار كبيرة محكمة العقد متشابكة فيما بينها، وقد وجدت مثل هذه القبور في بلاد اليونان وقرب كنوسوس وفي مسينيا باسم قبر (أكامنون)²³⁰ ، وخلال العصر الهلنستي السلوقي تأثر الفينيقيون بالنمط الإغريقي السائد في العمران لا سيما في تخطيط المدن وبناء المسارح والحمامات العامة والملاعب الرياضية. وهذا لا يعني أن الفينيقيين لم يصنعوا تماثيل تمثل آلهتهم توضع في المدافن والهياكل والمعابد لكن ليس في موطنهم الأصلي وإنما في مستعمراتهم الجديدة التي أسسوها على سواحل البحر الأبيض المتوسط وجزره، فقد كانت آثار الفينيقيين في المستعمرات أكثر من موطنهم الأصلي على الساحل السوري لا سيما في قبرص وصقلية وسردينيا ومالطة بالإضافة إلى اليونان وقرطاجة فقد شوهدت تماثيل برونزية فينيقية صغيرة عثر عليها في معابد الفينيقيين في اليونان وفي مدافنهم، أما الأصنام الكبيرة كالتي اشتهرت بها وادي النيل وما بين النهرين فقد كانت قليلة نوعاً ما كتماثيل أدريمي الذي كشف في مدينة آلالاخ²³¹

وعرف الفينيقيون أيضاً فن النحت والرسم على المدافن في مقابرهم وعلى "التمائيل الصغيرة التي تمثل الآلهة الفينيقية والمصنوعة من الحجر أو الخزف أو النحاس ووجدت آثار هذه التماثيل في متاحف أوروبا"²³² كدليل على الاستيطان الفينيقي على سواحل أوروبا وانتقال تأثيرهم الفني والمعماري إلى أوروبا عن طريق اليونان وجزر البحر المتوسط، وكانت هذه التماثيل تحمل زخارف فنية فينيقية بحتة كالتمائيل التي عثر عليها في "جبيل بمعبد الأنصاب (المسلات) حيث لا يستطيع أي خبير ملاحظة التشابه بين هذه التماثيل وبين تماثيل الدول المجاورة"²³³. وما ميز هذه التماثيل البرونزية الصغيرة أنها صنعت من خبرة الفينيقيين في المعادن ومهارتهم في خلطها وصناعتها حيث كانت تصنع من خليط معدني يتألف من النحاس والقصدير وغالباً تضاف معادن أخرى كالزنك وربما الحديد، وبفعل عوامل الجو من مطر ورطوبة وحرارة تأكسدت المعادن فنتج ألواناً متداخلة على التماثيل كانت آية في الجمال والإتقان والتموج اللوني الرائع.

230 Woolley, Lenardo. A Forgotten Kingdom. London, 1959, p102-103

231 آلالاخ: يعرف بتل عطشانة ويقع في سهل العمق في سوريا وقد نقب التل ليونارد وولي 1939-1949 وأسفرت التنقيبات عن اكتشاف عاصمة لمملكة قديمة يمتد تاريخها إلى الألف الثالث ق.م للمزيد انظر: Lenardo Woolley. A Forgotten Kingdom. London, 1959 وتحديدًا يقع موقع تل عطشانة عند المجرى السفلي لنهر العاصي قرب مدينة أنطاكية في لواء اسكندرون، وأظهرت التنقيبات أن الإنسان استوطن في موقع المينا منذ العصر الحجري الحديث ما بين الألفين الثامن والخامس قبل الميلاد، وعثر على تماثيل مصنوعة من الحجر المصقول. للمزيد انظر: مرعي، عيد، تاريخ سورية القديم وآثارها وحضارتها، 2021، وزارة الثقافة، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، ص297، 298

232 الدبس، سابق، ص344

233 مازيل، سابق، ص65

وغلِبَ على تماثيل سوريا بشكلٍ عام نمط جسم الأنثى العارية لكن تماثيل فينيقيا "بولغ في تجسيد مظاهر الأنوثة ووضعت يدان التمثال على الثديين كرمز للخصوبة" 234 . إضافةً إلى ظهور تماثيل نقش عليها صورة البحارة الفينيقيون الذين كانوا يرتدون "القبطان الفينيقي الطويل بدون حزام والذي ارتداه مختلف طبقات الكهنة في المعابد، والصفة الثانية هي تلك القلنسوة العالية حيث كان الفينيقيون أول من نشر هذا النموذج من لباس الرأس وهي تشبه الطربوش المرتفع الذي كان يشبه شكله الصارم رمز السلطة" 235 ، ونجد هذه القلنسوة ما زالت موجودة في بلاد الشام متمثلة في ما يسمى (الطربوش)، وانتقلت إلى اليونان ثم إلى أوروبا وما زالت تمثل في زماننا هذا رمز السلطة حيث يرتدي كبار الكهنة القلنسوة كالباباوات في الفاتيكان، وظل البحارة في العالم حتى القرن الماضي يقلدون الفينيقيين باعتماد القلنسوة الفينيقية التي كانت " كبيرة الحجم منحنية إلى الأمام بشكلها الطري والتي أصبحت بمرور الزمن رمزاً للعمل. كما أصبحت رمزاً للحكم الديمقراطي منذ أن اتخذها القضاة الأوائل في جمهورية البندقية كما نجدها على رؤوس الذين يرأسون كل المختاريات الفرنسية" 236

وارتبط النقش والنحت بفنّين هامين: فن صناعة الأختام وما ارتبط به من صناعة الحلي وأدوات الزينة، وفن سك العملة أيضاً. أما الحلي والأختام التي وجد عليها أثناء التنقيب نقوشاً رائعاً غير أنها تحمل قيمة فنية رفيعة فإنها أيضاً تبدو نقوشاً جميلة تحاكي الواقع والطبيعة التي عاشها الفينيقي في بيئته على سواحل البحر المتوسط فقد وجد على بعض الحلي "صور للنخيل ورؤوس الأسود والوعول والطيور" 237، وبالنسبة لفن سك العملة فقد عرفها الفينيقيون في عصور متأخرة لأنهم اعتادوا على تبادل المنتجات والسلع التجارية بطريقة المقايضة، لكن بعد احتكاكهم بشعوب أوروبا وكونهم بحارة مهرة وتجار من الطراز الرفيع فقد احتاجوا إلى العملات الذهبية فقد أخذوا من اليونان سك العملات من سبائك الذهب حيث وجد نقوداً فينيقية "قائمة على تقليد النقود اليونانية رموز آلهة تلك المدن ورموزاً بحرية وأجسام حيوانات" 238 .

234 موسكاتي، سابق، ص 135

235 مازيل، سابق، ص 65-66

236 مازيل، سبق ذكره، ص 66

237 موسكاتي، 1986، سابق ص 136

238 موسكاتي، سبق ذكره، ص 136

الفصل الثالث: المؤثرات الحضارية المتبادلة

بين الحضارة المصرية و الحضارة الإغريقية

العنوان	رقم الصفحة
تمهيد	117
أولاً. المجال السياسي	120
ثانياً. المجال العلمي	131
ثالثاً. المجال الاقتصادي	160
رابعاً. المجال الديني	170
خامساً. مجال العمارة والفنون	180

تمهيد:

. تعدّ حضارة مصر القديمة أو ما يعرف بحضارة وادي النيل من أعرق حضارات العالم عامةً وحضارات الشرق الأدنى القديم خاصةً حيث ازدهرت على ضفاف نهر النيل وتُعرف اليوم بجمهورية مصر العربية التي تمتد على مساحة واسعة من الأرض تقدر مساحتها نحو "مليون كم²"¹. وتحتل موقعاً جغرافياً هاماً في الشمال الشرقي من القارة الأفريقية حيث تربط بين قارة آسيا وأفريقيا من جهة، وبين إقليم بلاد الشام وإقليم ليبيا من جهة أخرى، وتؤثر تأثيراً كبيراً في الأحداث السياسية بحكم موقعها الاستراتيجي على البحر الأبيض المتوسط فهي عبارة عن إقليم مستطيل ضيق (ما عدا الوجه البحري) يبلغ طوله سبعمائة وخمسين ميلاً تقريباً². ، إضافةً إلى ذلك فإنها تشرف على أهم بحرين في منطقة الشرق الأدنى القديم: البحر الأبيض المتوسط شمالاً الذي يتوسط قارات العالم القديم (آسيا وأفريقيا وأوروبا) ويمتد غرباً إلى المحيط الأطلسي، والبحر الأحمر شرقاً الذي كان مركز النشاط التجاري لحضارة وادي النيل آنذاك.

إضافةً إلى أهمية موقعها الجغرافي والاستراتيجي امتازت مصر منذ عصور ما قبل التاريخ بوجود أكبر وأطول نهر في قارة أفريقيا وفي العالم وهو نهر النيل الذي عرفت حضارتها باسمه (حضارة وادي النيل)، والذي شكل بمجره وادي النيل الخصيب الذي يمتد على ضفتي النهر بدءاً من الجنوب حيث منابعه (بحيرة فكتوريا) في أوغندا حالياً وصولاً إلى الشمال حيث يشكل دلتا النيل شمال مدينة القاهرة قبل أن يصب في البحر الأبيض المتوسط. انظر الخريطة رقم (5)، ويمتد نهر النيل من "ثلاث درجات جنوب خط الاستواء وواحد وثلاثون شمال خط الاستواء وهو أطول الأنهار وأضخمها حيث يقدر طوله بأربعة آلاف ميل تقريباً"³. ويتخذ شكل حرف (N) في وضع مقلوب ويبعد عن الخليج العربي بمسافة تسعمائة أو ألف ستاديين باتجاه الغرب⁴. وقد ورد ذكر نهر النيل في القرآن الكريم باسم (اليم) في قصة سيدنا موسى عليه السلام حين ألقته والدته في النهر خوفاً عليه من فرعون مصر، و(اليم) لفظ كنعاني يقصد به نهر النيل أن اقذفه في تابوت فاقدفيه في اليم فليلقه اليم

1 الجوهري، يسرى، جغرافية البحر المتوسط، 1984، مصر، الإسكندرية، الناشر للمعارف، ص310، الخريطة ص306

2 برستد، جيمس هنري، د.ت، تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، تر: حسن كمال، القاهرة، مكتبة المدبولي، ص3

3 برستد، مصدر سبق ذكره، ص1

4 سترابون، وصف ليبيا ومصر، الكتاب السابع عشر، 2003، تر: محمد الدويب، ط1، جامعة قاريونس، بنغازي، ص19

بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له 5، وورد ذكره أيضاً في القرآن الكريم في قصة فرعون مصر حين قال لقومه: أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون 6 كدلالة على أن نهر النيل العظيم هو آية من آيات الله وسر حضارة مصر العظيمة وأساس وجود حضارتها العريقة. وإن أهم مصادر المعلومات عن حضارة وادي النيل استمدت من ورق البردي الذي دون عليه المصريون منجزات حضارتهم العظيمة والذي عرف باسم Papyri واشتهر بزراعته على ضفاف وادي النيل، ومن خلال الألواح الفخارية أيضاً التي نُقشت عليها الأحداث التاريخية والسياسية للفراعنة ومنجزاتهم الحضارية في مجالات العلم والأدب والتجارة والإدارة، إضافةً إلى ما نقشه الفنانون والنحاتون على جدران المعابد والمقابر وما بنوه من أشكال معمارية متميزة عن غيرها من الحضارات، وما صنعوه من تماثيل تميزت بضخامتها، وعلاوةً على ذلك ما كتبه المؤرخين القدماء اليونانيين والرومانيين عن حضارة مصر وتاريخها؛ كل هذا ساهم في كشف النقاب عن أقدم حضارة تميزت "بالسبق الزمني المبكر حيث تعود إلى أكثر 40,000 سنة قبل الميلاد أي إلى العصر الحجري الأعلى، ونشأت على ضفاف

نهر النيل على شكل مجتمعات زراعية مستقرة متحضرة قبل عصر الأسرات بآلاف السنين" 7

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هدف هذا الفصل من البحث هو ذكر المنجزات الحضارية التي ابتكرها الشعب المصري القديم السباق في مجال التطور والركب الحضاري قبل الشعب اليوناني بآلاف السنين على المستوى السياسي والعلمي والاقتصادي وفي مجال العمارة والفنون، والتطرق إلى المنجزات الحضارية التي اقتبسها اليونانيون من حضارة وادي النيل العظيمة إلى مستعمراتهم التي أسسوها على سواحل البحر الأبيض المتوسط أولاً ثم إلى بلادهم الأصلية ثانياً، ومن ثم تسليط الضوء على التفاعل الحضاري الذي حدث في مصر القديمة بين المصريين واليونانيين خلال الألفية الأولى قبل الميلاد لا سيما في العصر الصاوي وهو الفترة التي اتسمت بهجرة اليونانيين إلى مصر، وفي العصر الهيلينستي أثناء وجود الإسكندر المقدوني في مصر. حيث أشارت الباحثة إلى فضل المصريين على اليونانيين في المجال السياسي من حيث اقتباس بعض مظاهر نظام الحكم السياسي

5 القرآن الكريم، سورة طه، الآية 39

6 القرآن الكريم، الزخرف، الآية 51

7 د. علي، محمود، الأصول الشرقية للعلم اليوناني، 1998، ط1، جامعة أسبوط، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ص15

المصري واتخاذ ألقاب الفراعنة القديمة وتصوير حكام اليونانيين أنفسهم بصور فراعنة مصر وتبني المركزية السياسية الموحدة في كامل البلاد، ومن ثم تطرقت الباحثة إلى هجرة الإغريق إلى وادي النيل وبناء مستوطنات تجارية تشبه المدن المصرية في بناءها والتي تحولت مع مرور الزمن إلى تجمعات عسكرية ثم إلى مدن سياسية ذات تنظيم يوناني حكموا من خلالها مصر وأضحّت هذه المدن فيما بعد منارة للعلم المصري واليوناني.

أما في المجال العلمي فقد ذكرت الباحثة منجزات المصريين في مجال الفلسفة والفلك والرياضيات والطب والتي نهل منها اليونانيون وعدلوا عليها، إضافةً إلى إنجازات المصريين في المجال الأدبي لا سيما اختراع الكتابة الهيروغليفية التي سجل بها المصريون القدماء منجزاتهم الحضارية واستخدمها الإغريق أيضاً في مصر، وسلّطت الباحثة الضوء على هجرة علماء اليونان العلمية إلى مصر للنهل من منجزاتها العلمية والثقافية، ومن ثم انتقلت إلى المجال الاقتصادي حيث تحدثت الباحثة عن الزراعة في مصر وتطور الصناعة ثم تطرقت إلى التجارة لا سيما مع الإغريق، وفي المجال الديني تحدثت الباحثة عن الدين وأهمية المعتقدات الدينية في مصر وانتقال بعض المعتقدات إلى الإغريق كقضية البعث واليوم الآخر وتناسخ الأرواح، وانتقال غالبية المعبودات الدينية إلى اليونان مع تغيير الألقاب والأسماء، واقتباس الإغريق بعض الطقوس الدينية والشعائر، واتخاذ حكام اليوناني في مصر ألقاب الفراعنة، وتسليط الضوء على الكهنة ودورهم في مصر، إضافةً إلى عبادة الحيوانات في مصر والتي انتقلت أيضاً إلى الإغريق، وأخيراً في مجال العمارة والفنون تحدثت الباحثة عن الآثار المصرية التي صنعها الفنانون المصريون المبدعون ونقشوا رسومها وكتاباتهما، وذكرت أهم المنجزات الحضارية التي اقتبسها اليونانيون عن المصريين في هذا المجال سواء في ببلادهم الأصلية اليونان أو في مستعمراتهم على سواحل البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى. وجدير بالذكر أنه قبل الحديث عن المنجزات الحضارية لا بد من التطرق إلى معرفة حدود مصر القديمة جغرافياً حيث تطرقت الباحثة إلى توضيح الحدود الجغرافية لمنطقة وادي النيل قديماً وسعي الفراعنة إلى توسيع حدودها بشكلٍ دائم، ومن ثم تحديد أصول الشعب المصري القديم.

أولاً. المجال السياسي:

إنَّ الحدود الجغرافية لمصر القديمة لم تكن ثابتة عبر العصور وإنما متغيرة وفقاً للأحداث السياسية والمراحل التاريخية التي مرت بها ابتداءً من العصر الفرعوني ثم العصر اليوناني ووصولاً إلى العصر الروماني، حيث كانت الحدود الجغرافية في توسع مستمر وتغير دائم نتيجة الحروب العسكرية التي قام بها حكام مصر القدماء لا سيما فراعنة الدولة الحديثة من أجل توسيع رقعة الإمبراطورية حيث يؤكد سترابون 63ق.م - 24 م هذه الحقيقة التاريخية بأن "القدماء أطلقوا اسم مصر على الشريط الضيق الزراعي الذي كونه نهر النيل ويمتد من أسوان حتى البحر المتوسط أما في العصر الإغريقي توسعت حدود مصر وأصبحت تشمل إضافةً إلى الدلتا الصحراء الشرقية وجزء من الصحراء الغربية وشمال سيناء"8، وعلاوةً على ذلك فإن مصر لم تعرف في العصر القديم بهذا الاسم وإنما أطلق المصريون القدماء عليها اسم "(كمى-أرتا-كمى) في نهاية الدولة القديمة ومعناه الأرض المثمرة، ثم اندثر هذا الاسم وظهر اسم (أخت) والذي يعني الأرض الطيبة المثمرة التي كانت تنقسم إلى (تامحيت) وهي أرض الشمال، وتاشمع) وهي أرض الجنوب"9، ويجب الإشارة هنا إلى أن المصري قد أطلق على بلده اسم يشبه تربتها الخصبة الوفيرة بالماء فيقول الدكتور محمود أن الاسم الوحيد لمصر هو "(كمت Kmt) والتي تعني التربة السوداء لأن كمت في اللغة المصرية القديمة تعني السواد وأما بقية الأسماء فهي ربط لمصر بألقاب مقدسة"10. وفي العصر الإغريقي والروماني عرفت مصر باسم إيجيبتوس Aegyptus، ومن هذا الاسم اليوناني اشتق اسم مصر Egypt في اللغات الأوروبية.

وجدير بالذكر أن المصريين تعود أصولهم إلى شعوب محلية من شمال أفريقيا استوطنت منذ آلاف السنين على ضفاف وادي النيل، وفي بعض الروايات الدينية هم من نسل حام بن نوح عليهما السلام وأن الحضارة المصرية نشأت على يد مصريين بن بيسر بن حام، وقد اختلط العنصر السامي بهم نتيجة هجرة بعض الساميين من فلسطين وبلاد الرافدين إلى مصر أثناء التجارة أو الغزوات العسكرية التي قام بها الفراعنة المصريين أو

8 وهيبة، عبد الفتاح، مصر والعالم القديم، د.ت، مصر، جامعة الإسكندرية، ص224-225

9 وهيبة، مرجع سبق ذكره، ص223

10 د. أحمد، محمود، تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، 2012/2011، جامعة دمشق، ج1، ص13

الهكسوس، ويعتبر المصريين من أقدم سكان منطقة الشرق الأدنى القديم وهم سكان المنطقة الأصليين، وقد وصفهم هيرودوت بأنهم "أعرق أقوام الأرض، وإن المصريين قد وجدوا على سطح الأرض منذ ظهور البشرية"¹¹. وقد رأى الباحثون والآثاريون بعد دراسة الهياكل العظمية التي عثروا عليها في مصر "وجود عنصرين بشريين أحدهما يتميز بجماجم طويلة ذات ملامح زنجية تختلف عن العنصر الثاني الذي كانت له قامة طويلة وجمجمة أكبر مما يثير الاعتقاد إلى أن البنية الأساسية للمصريين كانت تتكون من العنصر الأفريقي ثم طغت عليها الهجرات البشرية القادمة من المشرق العربي"¹². ومن المعلوم أن سكان وادي النيل قد حافظوا على خصوصية حضارتهم القديمة التي كانت خلاصة فكر الإنسان المصري القديم منذ أقدم العصور وحتى العصر الهلينيستي، حيث بدأت حضارة مصر في هذا العصر بالاختلاط مع اليونانيين واستطاعت مصر حينها أن تجمع بين "حضارة الشرق القديمة وحضارة الغرب (اليوناني والروماني) وصهرت كل المنجزات الحضارية الشرقية والغربية في بوتقة واحدة ظهرت نتائجها في مدينة الإسكندرية وسطرت منجزاتها الثقافية والفكرية على ورق البردي التي ما زالت كنوزها تتدفق من بين حبات الرمل المصرية الدافئة لتضيء جوانب التاريخ"¹³. وجدير بالذكر أن هذا الفصل يتحدث عن فضل الحضارة المصرية القديمة على اليونانيين لكننا لا نستطيع إنكار فضل الحضارة اليونانية على مصر ومن ثم على العالم لكن هدف هذا البحث إظهار المنجزات الحضارية المصرية التي كانت أساس الحضارة اليونانية في وقت يتجاهل الكثير من المؤرخين والعلماء فضل حضارة وادي النيل على الحضارات الأخرى لا سيما الحضارة اليونانية ويعتقدون أن الحضارة اليونانية قد نهلت أسس حضارتها من ذاتها على الرغم من اعتراف العديد من العلماء اليونانيين بفضلها عليهم، فقد درس بعضهم في مصر وتعلموا الكثير من علومها وفنونها وآدابها سواء منذ القدم أو في العصر الهلينيستي حيث يشير المؤرخ برستد إلى "هجرة علماء اليونان إلى مصر واندھاشهم من علومها ومعارفها فنهلوا منها مما نتج عنه حضارة أرفع مقاماً من الحضارة المصرية"¹⁴، وفي هذا دليل على أن حضارة وادي النيل كانت حضارة مزدهرة غنية بالعلوم قبل الحضارة

11 هيرودوت، تاريخ هيرودوت، 2001، تر: عبد الإله الملاح، أبو ظبي، المجمع الثقافي في الإمارات، ص133، وص139

12 د.أحمد، محمود، 2012/2011، مرجع سبق ذكره، ص17، 18

13 برنال، مارتن، أثينا السوداء، 2002، تر: لطفي يحيى وآخرون، ج1، القاهرة، ص40

14 برستد، مصدر سبق ذكره، ص390

اليونانية بآلاف السنين، وعلاوةً على ذلك فقد كان اليونانيون على احتكاك مستمر بحضارة وادي النيل منذ القدم حيث يمتد الاحتكاك الحضاري المصري-اليوناني إلى زمن بعيد إبان السيطرة اليونانية على مصر لكن أوج الاحتكاك والتفاعل الحضاري كان خلال الألفية الأولى قبل الميلاد لا سيما بعد بناء الإسكندر المقدوني مدينة الإسكندرية التي أضحت منارة للعلم والثقافة في العصر الهلنستي وأصبحت مصر بعد ذلك مقر للحضارات الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) بسبب أهمية موقعها الاستراتيجي، وكان لمصر حينها الفضل على الحضارة الإغريقية مرةً أخرى في "حفظ التراث الإغريقي في مدنها المصرية التي بناها الإغريق كالإسكندرية ونقراطيس وبطلمية وأكسيريخوس وأنطينوبوليس ومدن إقليم الفيوم 15 المختلفة"16. فلولاً هذه المدن المصرية لضاع التراث الإغريقي وما استطاع الوصول إلى قارة أوروبا ليكون نواة العلم الأوروبي الحديث.

ولقد امتازت حضارة وادي النيل عن غيرها من حضارات الشرق الأدنى القديم بنظام الحكم السياسي الذي عرف بالنظام الملكي المطلق والمركزية السياسية الواحدة في كل البلاد حيث تركزت كل السلطات في يد الفرعون الذي كان يعتبر حاكماً إلهياً أو نائباً عن الإله على الأرض ويرأس هرم السلطة الذي يتدرج بدءاً من الوزراء وحكام الأقاليم والكهنة إلى صغار الموظفين، وينتقل الحكم من بعده بالوراثة إلى أبنائه أو إخوته حيث اعتبرت الملكية في مصر "رمزاً لوحدة البلاد وكان الملك مينا ملك الجنوب أول من أقام الوحدة السياسية في مصر"17 حيث كانت مملكتا وادي النيل تضم مملكة شمالية عاصمتها (بوتو) ومملكة جنوبية عاصمتها (نخن) أو كما أسماها اليونانيون (هيراكنوبوليس) وكانتا على خلاف وحروب دائمة حتى استطاع الملك مينا تحقيق الوحدة بينهما وإنهاء الخلاف بين أبناء الشعب المصري وقد "عثر الباحثون على وثائق في السجل المصري التي تثبت أحداث الوحدة الشمال والجنوب التي تحمل أعباءها مملكة الجنوب"18. بينما اتسمت بقية حضارات الشرق الأدنى القديم كحضارة بلاد الرافدين والحضارة الفينيقية بنظام الحكم الديمقراطي من خلال دولة المدينة الذي كان سائداً آنذاك ثم تطور لاحقاً إلى السلطة المركزية ونظام الحكم الملكي. أما بالنسبة لبلاد الإغريق فقد ساد النظام الملكي في

15 الفيوم: اسمها المصري سودو وتسمى عند اليونانيين كروكوذيوبوليس أي مدينة التمساح لأنه كان من معبوداتها أيام الفراعنة، زكي بك،

أحمد، قاموس الجغرافية القديمة، 1899، ط1، مصر، المطبعة الكبرى الأميرية، ص61

16 الناصري، سيد أحمد، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، 1973، ط2، جامعة القاهرة، دار النهضة العربية ص7

17 حلاق، حسان، 1991، ملامح من تاريخ الحضارات، بيروت، الدار الجامعية، ص29

18 د. أحمد، محمود، 2012/2011، مرجع سبق ذكره، ص55

بلاد الإغريق منذ العصور الباكورة لا سيما الفترة المسينية إلا أنه لم يكن يشبه النظام السياسي في وادي النيل من حيث السلطة المطلقة للملك وإنما كان هناك مجلسان يساعدان الملك في إدارة الحكم (مجلس الأرستقراطيين ومجلس الشيوخ)، وكان انتقال الحكم بالوراثة إلى الابن الأكبر سنّاً فقط ثم تطور نظام الحكم فيها إلى النظام الديمقراطي الذي انتقل من بلاد الرافدين عبر تجار فينيقيا، وعلى الأرجح فإن العامل الجغرافي قد لعب دوراً كبيراً في نوعية نظام الحكم السياسي حيث تختلف جغرافية وادي النيل عن بلاد الإغريق من حيث الحدود الجغرافية والمظاهر الطبيعية فوادي النيل يحيط به الصحراء من الشرق والغرب والبحر المتوسط من الشمال لذا كان وادي النيل منطقة آمنة و"مسالمة منذ البداية بسبب صعوبة احتلالها من قوى خارجية كونها محمية ببحر خالٍ من الموانئ شمالاً، ومن الشرق ومن الغرب بالصحاري الليبية والعربية في جزيرة العرب"19. أما بلاد الإغريق فهي بلاد مقسمة جغرافياً تفصلها السلاسل الجبلية عن بعضها وتقسمها إلى أقاليم متعددة، وتعتبر المظاهر الجغرافية عائقاً طبيعياً أمام وحدة البلاد؛ لذا تعددت أنظمة الحكم فيها بين مدينة وأخرى. حيث "فرقت المظاهر الجغرافية بلاد الإغريق إلى أجزاء صغيرة منعزلة تسكن في كل منها مجموعة من السكان على عكس وادي النيل وسهول الفرات ودجلة الواسعة التي أنشأت دول كبيرة موحدة" 20 ومنذ أن ابتكر الإنسان المصري القديم الكتابة الهيروغليفية بدأ تدوين تاريخ وادي النيل أي منذ "قيام دولة مصر القديمة الموحدة نحو 3400 ق.م."21، لكن هذا لا يعني أن تاريخ حضارة وادي النيل قد بدأ منذ هذا التاريخ؛ وإنما وجدت حضارة وادي النيل منذ ظهور البشرية وقد دل على ذلك المكتشفات الأثرية التي عثر عليها في عصور ما قبل التاريخ على وجود حضارة مذهلة ووثائق تدل على وجود نظام سياسي واحد ومتربط من حيث السلطة والإدارة والقوانين السائدة الموحدة على كامل أراضي وادي النيل حيث عاش المصريون القدماء في تطور لافت مقارنةً بغيرهم من الشعوب كما أكد ذلك الكثير من الباحثين والمؤرخين حيث يشير أسترابون إلى ذلك بقوله: عاش المصريون منذ البداية على نحو متمدن ومهذب وسكنوا أماكن مشهورة ولذلك يحكى عن قوانينهم وهم يمدحون عموماً لأنهم عرفوا كيف يستثمرون خبرات بلادهم بجدارة فقسموها بشكل جيد واهتموا بها إذ إنهم اختاروا ملكاً وقسموا الشعب إلى

19 سترابون، وصف ليبيا ومصر، 2003، مصدر سبق ذكره، ص81

20 ديسارة، خليل، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم وأسبابه، 2002/2001، الرسالة 177، الحولية 22، جامعة الكويت، ص19

21 وهيبه، عبد الفتاح، مصر والعالم القديم، دت، مرجع سبق ذكره، ص221

ثلاث طبقات سماوا الأولى الجنود والثانية الفلاحين والأخيرة الكهنة. وقد اهتم هؤلاء الكهنة بالأشياء المقدسة

أما الآخرون (الجنود والفلاحون) فقد اهتموا بالأمور المتعلقة بالإنسان..22 هذا أدى إلى فضول الإغريقي في القدوم إلى وادي النيل والتعرف على حضارته والنهل من منجزاته الحضارية التي لطالما سمعوا عنها من خلال رحلات التجار الفينيقيين واليونانيين وحلموا بثرواتها والتمتع بحضارتها. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن العلاقات المصرية-اليونانية سواء السياسية أو التجارية أو حتى الثقافية لم تبدأ منذ عهد الإسكندر المقدوني فحسب وإنما سبقته بآلاف السنين وتعود تقريباً إلى "الألف الثالث ق.م من خلال تأثير حضارة وادي النيل بكريت الذي ثبت من خلال المكتشفات الأثرية، وتأثيرها أيضاً على حضارة بحر إيجة مما يعني أن أسماء الأعلام والأماكن وصلت إلى بحر إيجة من مصر قبل ظهور الحضارة الإغريقية".23، وهذه العلاقات تعود بفضل قريهما من بعضهما البعض في منطقة جغرافية استراتيجية واحدة وتجربتهما التاريخية المشتركة منذ أقدم العصور -تقصد الباحثة في العصر الصاوي والعصر المقدوني والبطلمي- فإن انتشار الجزر في بحر إيجة سهل التواصل بين شبه جزيرة البلقان وشبه جزيرة آسيا الصغرى من جهة وبين جزر آسيا الصغرى ومنطقة المشرق العربي القديم من جهة أخرى "فكان البحر هنا أداة وصل بين اليونان والمشرق حتى أن أشعار هوميروس في الإلياذة تصور احتكاك اليونانيين عسكرياً بطروادة على ساحل آسيا الصغرى قبل ظهور الإسكندر بحوالي أربعة قرون" 24، وقد أكدت النصوص التاريخية والأساطير الشعبية دخول التأثير المصري إلى اليونان بكل ما حمله من تحضر وعلوم خلال العصور المختلفة منذ القدم، فقد عرف اليونان قديماً "المدنية بواسطة مستعمرات تابعة لمصر وفينيقياً مثل فورونيوس وكيكروبس المصريين وكاديموس الفينيقي حيث حمل كل منهم من مستعمرات بلاده إلى اليونان المذاهب الدينية والفلسفية"25. ويجب ألا ننسى أن كثير من رجال المشرق اقتحموا بلاد الإغريق وأسسوا المدن ونقلوا مظاهر حضارات المشرق إليها وأصبحوا حكاماً فيها فيما بعد مثل كاديموس (قدموس الفينيقي)، وداناؤوس المصري.

22 سترابون، وصف ليبيا ومصر، 2003، مصدر سبق ذكره، ص22

23 برنال، مرجع سابق، ص36

24 د. الشيخ، حسين، العصر الهلنستي، 1993، مصر، جامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ص3

25 جيمس، جورج، التراث المسروق، د.ت، تر: شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، ص61

وخلال الألفية الأولى قبل الميلاد ازداد الاحتكاك بين سكان وادي النيل وبلاد الإغريق بشكل كبير لا سيما في القرن السادس ق.م إلى درجة انتقال الإغريق إلى السواحل المصرية وبناء مستوطنات يونانية ذات طابع تجاري لكن جدير بالذكر هنا أن هذه المستوطنات اليونانية التجارية كانت شبيهة بالمدن المصرية إلى حد كبير حيث قام المصريون ببناء مدينة نقراتيس 26 التي عدها المؤرخون من أقدم المدن في مصر الفرعونية وأهم المراكز التجارية التي أنشأها المصريون قديماً وبنائها الإغريقون لاحقاً بالقرب من العاصمة المصرية القديمة سايس على أحد فروع نهر النيل، وجذبت هذه المدينة التجار الإغريق الذين كان يميلون إلى الاستقرار في مصر وإنشاء مستعمرات تجارية على سواحلها بعيداً عن بلاد الإغريق التي كانت تعاني حينها من الثورات الشعبية والمشاكل السياسية والاجتماعية. فكان التوطن الإغريقي في وادي النيل في بدايته توطناً مدنياً تجارياً في مستوطنات ساحلية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط وفي دلتا النيل 27، وخلال القرن السادس ق.م تقريباً وما بعده تحول التوطن الإغريقي في وادي النيل إلى توطن عسكري حيث توغل الإغريقون في مصر عسكرياً من خلال خدمتهم كمرتزقة في جيوشها - أي في العصر الصاوي - منذ استلام بسامتيك 28 عرش مصر الذي وحد مصر بعد الخلافات السياسية والأخطار الخارجية التي اجتاحت مصر، ثم طرد الآشوريين من بلاده وبنى جيشاً قوياً من خلال اعتماده على المرتزقة اليونانيين في وادي النيل حيث سبق وأشارت الباحثة إلى أن تجار الإغريق استقروا في مدينة عند المصب الغربي لنهر النيل عند الفرع المعروف بالفرع الكانوبي في مدينة نقراتيس 29 واستقروا فيها كجماعات واستقروا فيها كجماعات عسكرية إلى جانب التجار، وفي أيام "الأسرة السادسة والعشرين تميزت سياستهم بالعطف على الإغريق فاستخدموهم كمرتزقة في الجيش المصري وأصبح لهم المكان الأول في الجيش واتخذ منهم الفراعنة حرسه الخاص وأنشأ لهم الملك بسامتيك حينئذٍ معسكرين نقراتيس بالقرب من الفرع

26 نقراتيس: مدينة إغريقية قديمة تأسست في عهد أبسمتيك الأول كانت شديدة الشبه في مظهرها الخارجي بأي بلد مصري. انظر: نصحي،

إبراهيم، 1976، مصر في عصر البطالمة، ط4، ج1، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ص3

27 الدلتا: يبدأ من شمال القاهرة بعد أن يصبح نهر النيل غير قادر على أن يسير في مجرى واحد، ويحدد دلتاه الآن فرعي رشيد ودمياط غير أن الدلتا فيما مضى يتميز بوجود سبعة فروع كما ذكرها سترابون من الشرق إلى الغرب: الفرع البيلوزي، الثاني، المنديزي، الفاتنتي، السبيني، البليتي، والكانوبي. الجوهري، مرجع سابق، ص311

28 بسامتيك: يرجح أن والد بسامتيك (نيخاو) أمير صا الحجر توفي في كفاح مع تانوت آمون وأن ابنه المدعو بسامتيك هرب إلى الآشوريين وعلى إثر ذلك عينه آشور بانينال أميراً على إقليم والده الأصلي وأضاف إليه إقليم منف. انظر: برستد، مصدر سابق، ص391

29 نقراتيس: في هذا الزمن تحولت نقراتيس إلى مدينة عسكرية وأصبحت معسكر لجماعات من اليونانيين أذنت لهم الفراعنة مصر في الإقامة في الوجه البحري وهو على مقربة من الإسكندرية في مكان يعرف بالنبيرة اليوم. انظر: زكي، بك، سابق، ص79

الكانوبي ومعسكر في السويس"30. ولا بد من القول أن التوطن اليوناني قد اتخذ في وادي النيل شكله النهائي وهو الشكل السياسي عندما قرر الإسكندر المقدوني في القرن الرابع ق.م غزو مصر وضمها إلى بلاده حيث ازداد في هذا الزمن التفاعل الحضاري بين حضارتي وادي النيل والإغريق لا سيما سياسياً نتيجة التعايش المشترك في مصر تحت نظام سياسي واحد حيث أعجب الإغريق حينها بحضارة وادي النيل ونهلوا من منجزاتها الحضارية واقتبسوا شكل نظامها السياسي وأسلوب الإدارة المركزية الموحدة وقلدوا المصريين في عاداتهم وتقاليدهم وحتى في عبادة معبوداتهم الدينية التي كان لها أثراً سياسياً على وحدة البلاد واتحادهما، واتخذ اليونانيون حكام مصر الجدد ألقاباً فرعونية من عهد الإسكندر المقدوني وحتى عصر البطالمة وخير دليل على ذلك أن يرياندر حاكم كورنث باليونان سمي وارثه وابن أخيه باسم بسامتيك ولم يستعمر هذا الاسم إلا لمكانة هذا الفرعون المصلح العظيم31، حتى أن الإسكندر المقدوني اعتبر نفسه فرعوناً مصرياً أيضاً حيث حمل "ثلاثة من الألقاب الخمسة التي درج الفراعنة على حملها وسار على سياسته خلفاؤه البطالمة من بعده حيث حمل بطليموس الأول بعض ألقاب الفراعنة بينما حمل بطليموس الثاني والثالث ألقاب الفراعنة جميعها، أما بطليموس الرابع فلم يكتفِ بألقاب الفراعنة فقط بل توج نفسه على نهج الفراعنة القدماء فكان بذلك أول ملك من ملوك البطالمة اتخذ صفات الفراعنة كاملة"32. وفي هذا دليل على التأثير الإغريقي بنظام الحكم السياسي المصري القديم الذي استمر قروناً طويلة سعى من خلالها المقدونيون في مصر إلى التدرج في اتخاذ ألقاب الفراعنة المصريين ربما خوفاً من إغضب الشعب المصري كونهم أجانب محتلين، أو على الأرجح تأثرهم بالسياسة المصرية ورغبتهم في محاكاتها وتقليد نظام الحكم السياسي.

بعد أن استلم الإسكندر المقدوني33 عرش مقدونيا خلفاً لوالده وثبت أسس حكمه فيها ووطد الاستقرار في اليونان اتجه نحو الشرق إلى أقرب المناطق جغرافياً إلى بلاده وهي وادي النيل بحكم قرب جزر حوض بحر إيجيه وساحل آسيا الصغرى من مصر؛ مما سهل التقدم العسكري حيث غزا مصر في "خريف ق.م وأول ما قام به أنه

30 د. بكر، محمد، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديم، مصر، وزارة الثقافة المصرية، ص 250-251

31 برستد، سابق، ص 391

32 نصحي، إبراهيم وآخرون، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد 2، ط1، المؤسسة المصرية العامة للنشر، ص 28

33 الاسكندر الثالث بن فيليبوس الثاني المقدوني من زوجته أولمبياس ولد في بيلا في 356 ق.م، وقد تولى أرسطو تعليمه بدءاً من الثالثة من عمره فتلمذ على يديه الاسكندر في الأخلاق والسياسة والفلسفة وفن الحكم. انظر: د. الشيخ، حسين، العصر الهلينيستي، سابق، ص 4

تقرب من الآلهة المصرية حيث سارع إلى تقديم القرابين للآلهة وتوج نفسه كفرعون مصري في معبد فتاح كي يضيف الشرعية الملكية على حكمه فيضمن خضوع المصريين له".³⁴، وبحصول الإسكندر الأكبر على تأييد آلهة مصر وتأييد الإله آمون شرع بتنظيم البلاد والتخطيط لمشروعاته المقبلة من خلال السيطرة على الشرق الأدنى القديم بأكمله لتأسيس إمبراطورية يونانية كبيرة لكنه يجب الإشارة هنا إلى أن الإسكندر قد بدأ مشروعه بالسيطرة على مصر لأسباب سياسية واقتصادية بآن واحد فمن المعلوم أن وادي النيل أرض خصبة جداً غنية بالمحاصيل الزراعية التي ستمد الإغريق بمصادر اقتصادية هامة بفضل وفرة المحاصيل الزراعية والتي ستصبح فيما بعد أحد أهم عوامل الاستقرار السياسي لليونان. وأثناء وجود الإسكندر في مصر أمر بتنظيم الإدارة فيها قبل مغادرته ومنحها الاستقلال الداخلي وجعل الحكم بيد حاكمين "كلاهما من الإغريق (أبولونيوس) على غرب الدلتا و(كليومنس) على المنطقة الشرقية"³⁵. ولم يخالف عادات البلاد وتقاليدها وديانته وإنما أظهر لهم الاحترام وقدر آلهتهم "ولم يحاول مخالفة تقاليد الشعوب فقد كانت هذه طريقة الاسكندر في التعامل مع الشعوب التي سيطر عليها"³⁶ ؛ مما قربه من المصريين كثيراً على المستوى السياسي والعسكري وكسب ودهم وود الإغريق المتواجدين على أرض مصر على حد سواء. ويجب الإشارة هنا إلى أن دخول الإسكندر إلى مصر واختياره منطقة وادي النيل الاستراتيجية: لأهميتها السياسية في منطقة الشرق الأدنى القديم وأهميتها السياسية على سواحل البحر الأبيض المتوسط وثقل مصر السياسي في الأحداث الجارية على الساحة السياسية وهذا كان أحد أسباب التفاعل السياسي بين وادي النيل والإغريق حيث عدّ فتح مصر من قبل الإسكندر الأكبر من أهم الأسباب السياسية التي ذكرتها الباحثة سابقاً، إضافة إلى سبب سياسي آخر: وهو رغبة الإسكندر في التخلص من السيطرة الفارسية على البحر الأبيض المتوسط وعلى مصر واحتكارها له، ووضع شرق البحر الأبيض المتوسط وسواحله وجزره تحت سيطرته والدليل على ذلك رفض الإسكندر الأكبر "معاهدة السلام التي عرضها الفرس بقيادة الحاكم دارا الثالث على اليونانيين فحاربهم وانتصر عليهم"³⁷ . وتعتبر هذه المرحلة التاريخية التي تتضمن دخول

34 نصحي، إبراهيم وآخرون، تاريخ الحضارة المصرية، سابق، ص4

35 الزنكي، انتصار، 2023، التفاعل الحضاري المصري واليوناني إبان السيطرة اليونانية (التأثير والتأثر) 332- 30 ق.م، جامعة كربلاء،

مجلة دراسات في التاريخ والآثار ، العدد 87، ص410

36 د. بكر، سابق، ص 255

37 الزنكي، سبق ذكره، ص409

الإسكندر الكبير إلى مصر مرحلة تاريخية مفصلية في تاريخ العالم على المستوى السياسي كونها كانت بداية عصر سياسي جديد في المنطقة تمثلت بوحدة العالم الشرقي والغربي على يد الإسكندر الأكبر، فقد كان العالم قبل ظهور الإسكندر وسيطرته على مصر يتمثل بقطبين "القطب الشرقي ويضم المناطق الآسيوية والأفريقية المطلة على البحر المتوسط، والغربي الذي يضم مقدونيا واليونان ومستعمراتها على الساحل الغربي لشبه جزيرة آسيا الصغرى"38.

وبالمقابل كان موقف المصريين من هذا الاتحاد بين العالمين الشرقي والغربي موقفاً إيجابياً إذ تطلعوا إلى السيطرة المقدونية على مصر على أنها تحرير بالنسبة لهم لا احتلال؛ لذلك يقال عن دخول الإسكندر المقدوني إلى مصر على أنه فتح وليس غزو كونه حرر مصر من الاحتلال الفارسي (الأخميني) آنذاك وخير دليل على ذلك عدم وجود مقاومة شعبية أو ثورات سياسية في المصادر التاريخية ضد دخول الإسكندر إلى مصر من قبل الشعب المصري القديم وإنما لقي الإسكندر الترحيب بشرعية حكمه التي أضفى عليها قدسية إلهية مصرية من خلال تقديم القرابين إلى الآلهة وتقديره للمعابد المصرية والكهنة القائمين عليها وزعمه الحصول على السلطة من الإله آمون كما سبق وأشارت الباحثة إلى ذلك سابقاً. إضافةً إلى ذلك فإن دخول الإسكندر المقدوني إلى مصر كان بداية تأسيس ممالك هيلينية39 لأول مرة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط جمعت حضارة الشرق والغرب وأصبحت حضارة عالمية راقية واعتبرت مصر من أكثر الممالك الهلينية ثباتاً ورسوخاً بل إن الحضارة الإغريقية ظلت تترعرع على ضفاف النيل ما يقرب ألف عام (ثلاثة قرون للأسرة البطلمية وتسعة قرون للحكم

الروماني البيزنطي.40 حيث تسلم الحكم في الممالك الهلينية لا سيما في مصر نظام سياسي شبيه بالنظام السياسي المصري الفرعوني؛ أي نظام ملكي يقوم على مبدأ الوراثة بحكم التعايش اليوناني-المصري فقد نهل

38 د. الشيخ، سابق، ص3

39 الممالك الهلينية نسبةً إلى الفترة الهلينية التي تمتد من القرن الثالث ق.م على القرن الأول ق.م وكان الإسكندر رائد هذه المرحلة وباعث الحضارة الجديدة التي أراد أن تكون عالمية وكان حريصاً أينما وصل في فتوحاته على بناء مدن عالمية سميت باسمه كالإسكندرية في مصر، وكان الهدف من ذلك التمازج البشري والثقافي بين الشرق والغرب. انظر: حلاق، حسان، 1991، ملامح من تاريخ الحضارات، بيروت، الدار الجامعية، ص126

40 الناصري، سيد أحمد، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، 1973، جامعة القاهرة، دار النهضة العربية، ص531

المقدونيون من مصر النظام السياسي القائم بغالبية صفاته وأساليه، وكان الملك "يعتبر نفسه الشريعة الحية وصاحب الإدارة المطلقة"⁴¹.

وعلاوة على ذلك لم يكتفِ الإسكندر المقدوني بتنظيم أمور البلاد إدارياً وسياسياً، وإنما شرع أيضاً ببناء المدن على الطراز اليوناني وهنا يظهر أثر التفاعل المصري-اليوناني من خلال بناء مدن تشبه إلى حد كبير المدن المصرية لكن بمخططات يونانية ومنها مدينة الإسكندرية التي بدأ بناءها "عام 331 ق.م وسلم مهمة تصميم شوارعها إلى المهندس اليوناني (دينوكراتيس النقراطيسي)"⁴². لكن لم يتحقق حلم الإسكندر برؤية هذه المدينة بسبب وفاته قبل اكتمال بناءها، إضافة إلى مدينة نقراطيس والإسكندرية بنى الإغريق أيضاً مدينة (بطلمية)⁴³ في عهد البطالمة الذي تلا عهد الإسكندر المقدوني، وقد تمتعت هذه "المدن الإغريقية في مصر البطلمية بالاستقلال الذاتي في إدارة شؤونها الداخلية"⁴⁴.

ويجب الإشارة هنا إلى أن الباحثة قد ذكرت أن دخول الإسكندر المقدوني إلى مصر قد عدّ مرحلة تاريخية مفصلية في التاريخ، وكذلك فإن وفاته قد عدّها المؤرخون مرحلة تاريخية مميزة أيضاً حيث اتفقوا على تسميتها بالفترة الهيلينستية بسبب نشأت حضارة هجينة جمعت ثقافات الشرق بالغرب اليوناني وانتشرت على نطاق واسع من الإمبراطورية في آسيا وأفريقيا في عصر الإسكندر وخلفائه هذا العصر الذي اتسم "باتصال مصر بالعالم الإغريقي اتصالاً وثيقاً منذ الفتح المقدوني وحتى العصر البطلمي الذي ينتهي بموقعة أكتيوم في عام 31 ق.م وهي التي بسط الرومان بعدها سلطانهم على مصر"⁴⁵ خلف الإسكندر المقدوني بطليموس الأول⁴⁶ الذي أسس الأسرة البطلمية الحاكمة في مصر وهي أسرة مقدونية ومن أشهر حكامها "الملكة كليوباترا آخر حكام هذه الأسرة

41 حلاق، سابق، ص128

42 الزنكي، سابق، ص411

43 بطوليميس: هي مدينة أنشأها بطليموس الأول غربي النيل في أقاصي الصعيد لتكون مهداً للحضارة الإغريقية في الوجه القبلي ومركزاً لمقاومة نفوذ العاصمة المصرية القديمة طيبة. انظر: نصحي، إبراهيم وآخرون، تاريخ الحضارة المصرية، سابق، ص22

44 د. الشيخ، سابق، ص83

45 نصحي، إبراهيم، 1976، مصر في عصر البطالمة، سابق، ص39

46 بطليموس: ابن لاجوس حكم مصر والذي عرف فيما بعد باسم بطليموس الأول أخذ يعمل بصفة منفصلة كمؤسس لدولة جديدة مستقلة منفصلة عن سائر الإمبراطورية. الشيخ، سابق، ص27-28

التي دام حكمها حوالي ثلاثة قرون 332-30 ق.م⁴⁷. وقد تولى بطليموس حكم مصر بشكل رسمي خلفاً للإسكندر وذلك "ابتداءً من 323 ق.م عقب مؤتمر بابل الذي عقد لتقسيم إمبراطورية الاسكندر"⁴⁸.

وتعتبر دولة البطالمة من أكبر الدول التي انفصلت عن إمبراطورية الإسكندر عمراً إذا بقيت حاكمة في مصر حتى سيطر عليها الرومان كما أسلفت الباحثة في الذكر، وقد اتخذوا من الإسكندرية عاصمةً لهم ومركزاً ثقافياً وتجارياً هاماً، وسعى بطليموس الأول من خلال هذه المدينة إلى دمج الحضارة اليونانية الوليدة مع الحضارة المصرية العريقة ودمج الشعب اليوناني بالمصري حيث أدخل العنصر الإغريقي في الجيش البطلمي لاسيما المهاجرين من اليونان والمستقرين منهم في مصر، وحافظوا على استقلال مصر السياسي والاقتصادي، وقاموا بحماية الحدود وإنشاء الموانئ البحرية، اعتبروا أنفسهم حكام مصر الحقيقيين وتشبهوا بفراعنة مصر القدماء ونقشوا صورهم على الآثار المصرية، وساهموا في نشر العلوم والمعارف بعد بناءهم أكبر مكتبة في العالم القديم في مدينة الإسكندرية، واهتموا بالعلم والتقدم الحضاري الذي نشره في أصقاع العالم باسم اليونانيين.

47 الزنكي، سابق، ص 417

48 د. الشيخ، سابق، ص 39

ثانياً. المجال العلمي:

بدأت ملامح حضارة وادي النيل بالظهور حوالي القرن الرابع قبل الميلاد، ومرت بفترات تاريخية وسياسية تطورت العلوم عبرها وازدهرت أكثر فأكثر في مجالات الهندسة والبناء والعلوم والطب والفنون والكتابة التي عدت الكتابة الوعاء الفكري الذي حفظ من خلالها منجزات حضارة وادي النيل الفكرية والعلمية والأدبية، ولقد تركت حضارة وادي النيل خلفها أثراً شاهقة تشهد على عظمتها كالأهرامات والمعابد الضخمة والمسلات الشهيرة التي عكست براعة المصريين القدماء في الهندسة والحساب والفنون. وتذكر الوثائق التاريخية المصرية القديمة بأن "أقدم وأعظم علماء مصر كان يعتبر إلهاً واسمه توت حيث تمكن من كتابة 36000 كتاب في مواضيع مختلفة".⁴⁹، أو على الأرجح أن الإغريق اعتبروه إلهاً؛ لما عرف عنه من نباعة في الفكر وخبرة في العلوم، وفي هذا إشارة إلى أهمية العلم والعلماء المصريين حيث رفع بعض العلماء إلى مكانة مقدسة في مصر القديمة. وحين أصبح الإغريق سادة العالم القديم وسيطروا على البحر الأبيض المتوسط وساحله وجزره توجهوا بجيوشهم وعلمائهم أولاً إلى مصر التي كانت تزخر بالعلوم والتقدم الحضاري حتى ذلك الوقت لينهلوا الفكر والتحضر من منابعه الأصلية، وعلى الرغم من ظهور تيار غربي متشدد في وقتنا الحالي ينادي بأصالة الحضارة اليونانية القديمة واقتباس منجزاتها الحضارية من ذاتها إلا إن المكتشفات الأثرية والوثائق التاريخية تؤكد سبق حضارات الشرق الأدنى القديم بالنسبة إلى الحضارة اليونانية سيما وأنه لا يوجد حضارة نشأت من ذاتها دون احتكاك بالحضارات الأخرى خاصة وأن المجتمع اليوناني كان على اتصال دائم بحضارة وادي النيل في كل الأزمنة والعصور.

وفي الحقيقة إن سبق حضارة وادي النيل وحجم منجزاتها الحضارية أجبر بعض اليونانيين على الاعتراف بذلك حيث أكد العديد من العلماء اليونانيين عظمة حضارة وادي النيل عندما هاجروا إليها وشاهدوا منجزاتها الحضارية قبل الفتح المقدوني لمصر لا سيما (هيرودوت) الملقب بأبي التاريخ الذي زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد وهي تحت سيطرة الفرس ووصف حضارتها -على حد قوله- بأنه "وجد عالماً عجبياً وحضارة توشك على

المغيب فمكت فيها أربعة أشهر وجمع معلوماته مما تبقى في أذهان أولي العلم لا سيما الكهنة ودونه في كتابه الثاني الذي خصه لمصر ضمن مؤلفه الضخم (تمحيص الأخبار) "50. ويرجح المؤرخون أن زيارة هيرودوت إلى مصر كانت "أثناء عقد معاهدة الصلح بين أثينا والفرس أي على نحو 448 ق.م في عصر أتاگزركيس الأول".51. وقد ازدادت العلاقات المصرية-اليونانية خلال العصر الصاوي في مصر الذي تميز بنهضة مصرية جديدة في القرن التاسع قبل الميلاد تقريباً بعدما حرر المصريون بلادهم من الآشوريين؛ مما شجع الكثير من الإغريق للهجرة إلى مصر ويقال "إن الفيلسوف الإغريقي طاليس زار مصر وتعلم فيها الحساب والهندسة، ونهل فكرته التي نشرها بأن الماء من عناصر الطبيعة الثلاث"52. واستمرت هجرة الإغريق إلى مصر حتى عصر الإسكندر المقدوني وبرز عدد من العلماء اليونانيين في عصره وهصر خلفائه نهلوا معارفهم من حضارة وادي النيل ونقلوها إلى الإغريق، ومن علماء مصر القدماء ومؤرخيها الشهيرين الذين عاصروا العصر الهيلينستي (عصر البطالمة) الكاهن مانيتون المصري53 الذي عاش على زمن الدولة البطلمية في مصر وكان يتقن اللغة الإغريقية وكتب كتاب (تاريخ مصر) الذي يعرف "باسم (Aigyptiaka) والذي كتبه بعد اطلاعه على دور المحفوظات للأقاليم المصرية ويعد كتابه من أهم مصادر تاريخ مصر القديمة، وهو صاحب فكرة تقسيم مصر القديمة إلى ثلاثين أسرة حاكمة"54 إضافة إلى مانيتون ظهر العديد من علماء مصر الذين برعوا في مجالات العلوم كافة من خلال مدرسة الإسكندرية التي أضحت منارة للعلم والثقافة في العصر المقدوني وصولاً إلى العصر الروماني ومنهم هيروفيلاس مؤسس علم التشريح وإيرستراتوس مؤسس علم وظائف الأعضاء وديموكريتوس صاحب نظرية الذرة والعالم كرينيوس كلسوس الذي وضع تذكروته الطبية الشهيرة لمنع تلف

الأسنان وسراييون الإسكندراني الذي تعمق في عقاقير قداماء المصريين.55

50 د. بكر، محمد، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديم، مصر، وزارة الثقافة المصرية، ص15

51 نصحي، إبراهيم، مصر في عصر البطالمة، 1976، ط4، ج1، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ص8

52 نصحي، سبق ذكره، ص10

53 مانيتون السمنودي: كان كاهناً مصرياً من شمال الدلتا وغالباً من سمنود وتولى منصب الكاهن الأكبر لمعبد آمون في هليوبوليس وبالتالي كانت السجلات المصرية متاحة له التي كتبت باللغة اليونانية، ويبدو أنه ظهر في أواخر عصر بطليموس الأول، وقد حذا مانيتون في كتابه من التاريخ المصري حذو بيروسوس الكاهن والمؤرخ البابلي، ومعلوماتنا الأساسية عن كتاب مانيتون نستمدّها من كتاب المؤرخ اليهودي جوسيفوس. د. الشيخ، حسين، العصر الهلنستي، 1993، مصر، جامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ص120، 121

54 د. بكر، محمد، سابق، ص16

55 د. كامل، مراد، تاريخ الحضارة المصرية، نخبة من العلماء، ط1، المجلد1، المؤسسة المصرية العامة للنشر، ص245

وجدير بالذكر أن وجود الإغريق لم يقتصر على بلادهم الأصلية فقط، وإنما هاجروا إلى جزر بحر إيجه وسواحل آسيا الصغرى -والتي تعرف اليوم باسم (تركيا) وعرفت تاريخياً باسم (أيونيا)- واعتبرت المنفذ الأول لليونان تجاه بلاد المشرق القديم ثم تحولت فيما بعد إلى مناطق استوطنتها المهاجرون اليونانيون حيث بنوا فيها مستوطنات تجارية لهم خلال الألفية الأولى قبل الميلاد وسعوا دائماً إلى الهجرة إلى وادي النيل كزيارات علمية للنهل من منجزاتها الحضارية وتلقي العلوم حيث تذكر الوثائق التاريخية عن "فيثاغورس الذي تعلم في مصر وعاد إلى مهبط رأسه جزيرة ساموس ليؤسس مذهبه، وكذلك طاليس الذي تلقى تعليمه في مصر مع رفيقه أنكسماندر وأناكسيمانز وكانوا من مواطني أيونيا في آسيا الوسطى التي كانت مركز إشعاع حضاري للعلوم المصرية إضافةً إلى هيراقليطس وأمبيدوقليس وأنكساجوراس وديموقريطس كانوا أيضاً من مواطني أيونيا ودرسوا علوم الطبيعيات".⁵⁶ لذا كانت العلاقات المصرية- اليونانية منذ بدايتها علاقات تجارية، وربما تعدتها إلى علاقة ثقافية من خلال الاقتباس الحضاري فقط حيث لم يكن يسمح للأجانب دخول مصر القديمة حفاظاً على أمنها لكن بسبب الظروف السياسية التي طرأت في القرن الثامن قبل الميلاد من ظهور عدو مشترك للمصريين واليونانيين في آن واحد وهو الفرس بدأت هذه العلاقات تزداد حتى وصلت إلى المستوى العسكري والسياسي لا سيما في العصر الصاوي والعصر المقدوني حيث شكل الغزو الفارسي الحافز الأساسي لهجرة علماء اليونان إلى مصر واستطاعوا هناك "أن يكتبوا تاريخ نثري لأيونيا مما أسفر عن نشوء عصر التنوير لهم".⁵⁷ واستمرت هجرتهم إلى مصر حتى استولوا عليها في زمن الإسكندر الأكبر. ومن المعلوم أن مصر تحولت حينها إلى ولاية يونانية وأصبح ازدهار علومها وتقدم فنونها وآدابها يشاع باسم الحضارة اليونانية الوليدة حتى في العصر البطلمي والهيلينستي حيث شهد هذا العصر "ظهور المكتبات العامة الكبيرة وأكثرها شهرة المكتبة الكبرى في الإسكندرية التي أنشأها بطليموس الأول"⁵⁸.. واستطاع اليونانيون خلال هذا العصر اقتباس منجزات المصريين ومحاولة محاكاتها حيث أضحت الكهنة المصريون في ذلك الوقت أساتذة لطلبة العلم اليونانيين ونهل اليونانيون كل علوم الحضارة المصرية القديمة "حتى قيل إن المعابد والمكتبات المصرية نهبت عقب غزو الإسكندر لمصر وحولت

56 جيمس، جورج، التراث المسروق، د.ت، تر: شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، ص25

57 جيمس، سابق، ص53

58 مفيد، العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، 1979-1980، جامعة دمشق، المطبعة الجديدة، ص363

مكتبة الإسكندرية إلى مركز أبحاث لأرسطو".59، وهنا لن تبخس الباحثة حق اليونانيين العلمية فقد سكب اليونانيون جل معارفهم وعلومهم وفلسفاتهم ومناهجهم البحثية والعقلية على مصر أثناء وجودهم فيها، وأصبحت مكتبة الإسكندرية منارة للعمل والثقافة في زمن الإسكندر المقدوني فكانت "جامعتها (دار الحكمة) مصرية أصيلة في نظام الدراسة، إغريقية في مناهج البحث عن الحقيقة وألحقت بها مكتبة ضخمة وحدائق لإجراء التجارب العلمية، واهتمت بدراسة مختلف العلوم، ومن مشاهير جامعة الإسكندرية أراتوستين وبطليموس الجغرافي في الجغرافية الفلكية وأريستاخورس في الفلك وأرشميدس في الرياضة والطبيعة وثيوفراستوس في علم النبات وأراسيسترأتوس في الطب وهيكتيوس في التاريخ، ومن الشعراء كليماكوس وثيوكريتوس"60، وشرع علماء اليونان حينها للهجرة إلى مصر والكتابة عن حضارتها في كتبهم ودراسة جغرافيتها وأساطيرها ومعتقداتها، واقتباس أفكارها وعلومها كالرحالة "هيكتاتوس الملطي الذي زار مصر عام 520 ق.م وكتب عن حياة المصريين، والفيلسوف الإغريقي الشهير أفلاطون في القرن الرابع ق.م والذي أَلَم بأصول المعتقدات والمعارف المصرية، إضافةً إلى المؤرخ ديودور الصقلي الذي زار مصر عام 59 ق.م وكتب عنها في كتابه الأول، والمؤرخ الشهير أسترابون الذي زار مصر في القرن الأول ق.م، والمؤرخ الإغريقي بلوتارخ زار مصر عندما كانت تحت سيطرة الرومان وكتب عن العقائد المصرية".61 إضافةً إلى أن الموسيقي اليوناني (بثاجوراس) وضع أصول النوتة الموسيقية والسلم الموسيقي قد تعلمها في مصر ونقلها إلى اليونان.

وجدير بالذكر أن من أبرز ملامح التفاعل الحضاري قبل السيطرة اليونانية على مصر هو ذلك التمازج الحضاري بين الثقافة المصرية والفلسفة اليونانية والتي كانت نتاجاً هجيناً من ثقافة إغريقية ثقافة شرقية. فكانت الفلسفة من أهم العلوم التي عنيت باهتمام الإغريق في مصر على الرغم من أن الفلسفة المنسوبة إلى الإغريقين لم تنطلق من بلاد الإغريق الأصلية وإنما من مستعمراتهم التي كانت على سواحل آسيا الصغرى لا سيما الساحل الأيوني -أيونيا سبق وقد أشارت إليها الباحثة-الذي كان ملتقى حضارة مصر الشرقية بالحضارة اليونانية الغربية وهذا ما

59 جيمس، جورج، سابق، ص17

60 وهيبه، عبد الفتاح، مصر والعالم القديم، د.ت، مصر، جامعة الإسكندرية، ص399

61 بكر، محمد، سابق، من ص15 إلى 17

يؤكد المؤرخ جيمس بقوله: حين نتعقب مسار ما يسمى الفلسفة اليونانية نجد أن تلامذة أبونيا عادوا إلى موطنهم الأصلي بعد أن تلقوا تعليمهم على أيدي الكهنة المصريين. 62؛ وهذا ما يؤكد أن نواة الفلسفة اليونانية كانت مستمدة من تراث المصريين القدماء حيث تتلمذ اليونانيون في معابد مصر وعلى يد كهنتها واستقوا ديانتها وعلومها ثم عادوا ليؤسسوا مذاهبهم الفلسفية في موطنهم على ساحل آسيا الصغرى وقد اختلفت نظرياتهم الفلسفية بسبب تنوع نظريات الخلق المصرية أساساً حيث أخذ كل فيلسوف من النظريات المصرية ما يتفق وميوله الشخصية خاصة وأن فلاسفة الساحل الأيوني قد زاروا مصر ونهلوا من علومها وأسرارها فتأثروا بنظريات المصريين القدماء. ومن فلاسفة الساحل الآسيوي العالم اليوناني طاليس الذي أخذ فكرته عن "عناصر الطبيعة الثلاث (النار والماء والهواء) من معابدها وتعلم أيضاً أصول الهندسة والحساب". 63 أثناء زيارته إلى مصر إضافةً إلى ذلك يعدّ طاليس من أوائل فلاسفة اليونان في الساحل الأيوني الذي كان عقر المنابع الأصلية للعلوم اليونانية "فطاليس وأناكسيماندروس، وأناكسيمينيس انتقلوا من مدينة ميليتوس في القرن السادس ق.م -التي أسماها العرب ملطية- إلى مصر، كما أنجبت مدينة أفسوس فيلسوفها هيراكلييتوس في حين اشتهرت ساموس بالرياضي فيثاغورس بينما أهدت مدينة كلوفون فيلسوفها إكسينوفانيس، وفي القرن الرابع ق.م انتقلت الفلسفة بعد ذلك إلى صقلية وجنوب إيطاليا أي إلى ما يعرف ببلاد الإغريق الكبرى Magna Graecia. 64 بعد أن بقيت رديحاً من الزمن في الساحل الأيوني. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ساحل آسيا الصغرى لم يكن يونانياً في كل العصور وإنما كان يخضع لسيطرة الدول القوية على حوض البحر الأبيض المتوسط ووجود مستعمرات يونانية لا يعني أنه يونانياً ففي بعض الأوقات خضع للسيطرة الفينيقية، وهناك وثائق تاريخية أيضاً تنص على أن هذا الساحل كان تحت السيطرة المصرية حيث يروي ذلك كل من الكاهن المصري مانيتون والمؤرخ اليوناني ديودور الصقلي بأنه عثر في مصر على نصبين في العرابة المدفونة -مدينة أبيدوس تقع بين أسيوط والأقصر - "للإلهة إيزيس والإله أوزيريس ومنقوش على الثاني قول الإله أنه قاد جيشنا إلى منابع نهر الدانوب حتى وصل إلى مشارف المحيط؛ وهذا يعني أن الإمبراطورية المصرية شملت أيونيا و بحر إيجه وأن الأيونيين من فترة حياة

62 جيمس، جورج، سابق، ص25

63 د. الشيخ، حسين، العصر الهيلينستي، سابق، ص13

64 - د. أمين، شرف الدين، الإسهام الحضاري لمصر القديمة في الفلسفة اليونانية، كلية الآداب، جامعة سوهاج، ص10-11

طاليس إلى حياة أرسطو لم يكونوا مواطنون يونانيين بل رعايا مصريين ثم أصبحوا رعايا للفرس".⁶⁵ لذا اعتبر العالم جيمس أن الفلسفة اليونانية هي فلسفة مصرية اقتبسها سكان الساحل الأيوني ونشروها بينهم ومن ثم نقلوها إلى إيطاليا وبعدها إلى أثينا.

وإذا تطرقنا لتفسير معنى كلمة فلسفة *Philosophia* فالكتب التاريخية تشير إلى أنها كلمة يونانية وتعني حب الحكمة، وهي مصطلح ابتكره الفيلسوف الرياضي اليوناني فيثاغورس وفضل لقب فيلسوف على لقب حكيم لأن برأيه لقب الحكمة مخصص للآلهة فقط لكن في الحقيقة إن كلمة فلسفة تعود بأصولها إلى المنطقة الشرقية لا سيما إلى حضارة وادي النيل فأفلاطون يرى أن "كلمة سوفيا *Sophia* ليست يونانية وإنما أجنبية اقتبسها اليونانيون من البرابرة، أما مارتن برنال فيرى أن أصل كلمة فلسفة مصري نقلاً عن إيسوكراتيس الخطيب الأثيني".⁶⁶ وستورد الباحثة دليل تاريخي على أن نواة الفلسفة اليونانية كانت تراثاً وفكراً مصرياً بحثاً من خلال عدة دلائل أولها: العبارات التي عرف بها فلاسفة اليونان وردوها بشكل دائم وعرفوا بها كانت بالأصل علوم مصرية وعبارات دينية خاصة بالعقائد الدينية في وادي النيل كعبارة "(اعرف نفسك) التي عرف بها سقراط لكنه في الواقع لم يكن هو صاحبها وإنما نقلها من الجدران الخارجية للمعابد المصرية حيث نقشَت كوصية موجهة إلى المريدين الجدد، والفضائل الأربعة الرئيسة لأفلاطون لم يكن هو صاحبها وإنما قد اقتبسها من نظم الأسرار المصرية التي اشتملت على تسع فضائل اقتبس منها أفلاطون أربعة هي: العدالة، الحكمة، الاعتدال، الشجاعة".⁶⁷

أما الدليل الثاني فهو موقف حكومة أثينا من الفلسفة فصحيح أن أثينا شكلت المقر الرئيسي للفكر الفلسفي والبيئة المناسبة للنقاش الحر والجدال المنطقي إلا أن بداية ظهور الفلسفة أثار خوف أثينا منها واعتبرتها أفكار غريبة الأطوار لا سيما وأنها نظرت إليها على أنها "فلسفة أجنبية المنشأ وتعاملت معها على هذا الأساس، بالإضافة

65 جيمس، جورج، سابق، ص26

66 د. أمين، شرف الدين، سابق، ص9

67 جيمس، جورج، ص19

إلى أن فلاسفة اليونان قديماً كانوا مواطنين غير مرغوب فيهم".⁶⁸، والدليل الثالث والأخير: تحول الفلاسفة اليونان من دراسة الفلسفة إلى علم الأخلاق وكان ذلك بعد موت "أرسطو عام 322 ق.م بعد أن ساعده الإسكندر الأكبر في الحصول على الكتب العلمية من المكتبات الملكية ومن المعابد في مصر؛ وذلك علامة على أن الإغريق لم تكن لديهم على ما يبدو القدرة الطبيعية على النهوض بهذه العلوم والتقدم فاقتبسوا علم الأخلاق من مفهوم مبدأ الخير الأسمى المصري".⁶⁹، ويقوم علم الأخلاق الذي بدا واضحاً في فلسفات سقراط وأفلاطون على الفضيلة والعدالة والأخلاق النفعية والاعتماد على العقل. أما مضمون الفلسفة اليونانية فهي نشأت منذ بدء ظهورها على مفاهيم الدين المصري القديم وأسرار الكهنوت والأساطير المصرية مع إضفاء الطابع العقلاني والعلمي وقد تمحور الدين المصري وأساطيره حول الخلق ونشأة الكون والحياة الآخرة والعلاقة بين البشر والآلهة، وآمنت الديانة المصرية بمفاهيم إنسانية كالحقيقة والعدالة والأخلاق، إضافةً إلى أن كهنة مصر القدماء قد وضعوا كتاب الموتى الذي يتضمن مجموعة من النصوص الجنائزية والتعاويذ السحرية المستخدمة في مصر القديمة والنصائح التي تساعد الموتى وتحميمهم أثناء انتقالهم إلى العالم السفلي وتتضمن أسرار دينية وفلسفية كثيرة، وهنا لا تقصد الباحثة أن الفلسفة اليونانية بأكملها اقتبست التراث المصري القديم، وإنما تقصد أن بداية شرارة الفلسفة اليونانية انطلقت بالاستناد إلى التراث المصري والديانة الكهنوتية القديمة في مصر أي أن "ديانة حضارة وادي النيل القديمة قد احتوت على البذور الكامنة لنشوء الفلسفة اليونانية وأن فلاسفة اليونان تأثروا كثيراً بآراء المصريين الخاصة بالكون والخلق".⁷⁰ ولقد أعجب اليونانيون بالديانة المصرية كما سبق وأن أشارت الباحثة إلى ذلك وبأساليب التربية والتعليم التي اتبعتها كهنة معابد مصر مع تلاميذهم من حيث التدريب الروحي والأخلاقي والتعليمي والتركيز على القيادة وتدريبهم على الممارسة العملية للطقوس والمراسم الدينية والملكية والتعليم الديني وأداء الشعائر ويبدو أن أبرز المعجبين اليونانيين كان "إيسوكراتيس (سقراط) الذي أعجب بأساليب التربية وصرامتها والتي أنتجت (الأنثيوريثيكوس) أي الرجل المتأمل الذي كان يستخدم حكمته العليا لصالح

68 جيمس، جورج، ص18

69 جيمس، سبق ذكره، ص19

70 برستد، سابق، ص390

دولته، وبالمقابل أكد إيسوكراتيس على أن الفلسفة كانت نتاجاً مصرياً وقد استخدمها الفيثاغوريون المتمصرون (المنتمون ثقافياً إلى مصر) منذ القرن السادس ق.م.⁷¹

ومن العلوم التي اهتم بها المصريون الرياضيات بكل أنواعها من حساب وهندسة، حيث كانت الرياضيات تطبيقية؛ بسبب حاجة السكان إليها في حياتهم اليومية من خلال: قياس مساحات الأراضي الزراعية وبناء المنازل والمعابد والآثار الضخمة كالأهرامات، وقياس مستوى فيضان نهر النيل، وحساب الأيام والشهور والسنوات وحساب الغلال الزراعية والصناعية في البيع والشراء والتجارة وتعاملاتهم اليومية حتى أن المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوت أشار إلى ذلك بقوله: إن مصر عرفت الهندسة لحاجتها للقياسات وعنها أخذ الإغريق هذا العلم.⁷²

وأتقن المصريون كذلك العمليات الحسابية الأساسية من جمع وطرح وضرب وقسمة، وعرفوا الكسور والمعادلات الرياضية والجذور التربيعية، وابتكروا نظام العد العشري، وحسبوا مساحة الأشكال الهندسية بقيم تقريبية وغالبيتها كانت قيماً صحيحة، وكانت مهمة تعلم الحساب في المعابد على يد الكهنة أو على يد الكتاب حيث حظي الكاتب بمرتبة مرموقة؛ لاهتمام سكان وادي النيل بالعلم والعلماء حيث يؤكد ذلك أفلاطون على لسان سقراط: "أنه سمع أن في أرض مصر إله من الآلهة القدماء اسمه (توت) وهو الذي اخترع الأعداد والحساب والهندسة، وكان طائره المقدس يسمى أبيس".⁷³، ولكن يجب أن ننوه هنا كما ارتأت الباحثة وسبق أن أشارت إلى ذلك أن (توت) كان مجرد عالماً مصرياً بعلوم الرياضيات وكان يدرس التلاميذ الراغبين بالتعلم، ولكن من شدة إعجاب الإغريق به على الأرجح وصفوه بالآله سيما وأن تقديس الأشخاص والأبطال كانت سمة العصر في كل من مصر واليونان. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الباحثة تحاول إظهار أثر الرياضيات المصرية على اليونان لا لإثبات الجدارة والتفوق العلمي؛ وإنما لبيان الحقيقة ورد الأصول والفضل إلى أصحابها خاصة وأن هناك بعض التيارات التي تقترى على علوم مصر لا سيما على علم الرياضيات حيث تزعم أصحابها أن علم الحساب والهندسة المصرية كان علماً تجريبياً خالياً من الطابع العلمي والارتقاء الفكري، وهذا غير صحيح فكيف لأقوام وشعوب أن تبني آثاراً

71 د. أمين، شرف الدين، سابق، ص10

72 هيرودوت، سابق، ص180

73 د. علي، محمد، الأصول الشرقية للعلم اليوناني، 1998، ط1، جامعة أسبوط، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص112، وتجده أيضاً في أفلاطون، محاوره فايدروس، ص123-124

بهذه الضخامة وهذه الحرفية الباهرة من خلال ضبط "اتجاه أضلاع الهرم نحو الجهات الأربعة مما أثار عجب المؤرخون من دقة الضبط والاتقان".⁷⁴ إضافةً إلى قياس فيضان النهر بدقة وتسجيل عمليات حسابية معقدة وحل معادلات رياضية وجدت آثارها في البرديات القديمة وهي لا تمتلك القدرة على التفكير بشكل علمي!

فالآثار الشاهقة والمجسمات الضخمة والمقابر الفرعونية تدل على تقدم المصريين في علم القياسات الهندسية التي تحتاج إلى تخطيط ورسم ودراية بالمساحات والأحجام والأوزان والأبعاد أيضاً، ومثال على ذلك أن أفلاطون الذي كان "يعيب الرياضيات المصرية ويقول بأنها تغلب عليها النزعة التجريبية إلا أنه يؤكد في محاوره (فايدروس) بأن المصريين أول من اخترعوا الأعداد والحساب والهندسة"⁷⁵؛ لذا ستسلط الباحثة الضوء على التقدم الفكري الرياضي لسكان حضارة وادي النيل سيما وأن البرديات المكتشفة تؤكد تقدم علوم الحساب والهندسة في مصر قبل الشعوب الأخرى فقد أثبتت البرديات المصرية كبردية (أحمس أد قرطاس أحمس) التي تعود إلى عهد الأسرة الثانية عشرة 1849-1801 ق.م وتحتوي على خمس أبواب الباب: الأول في العدّ وكتابة الأرقام، والثاني في القواعد الأربعة، والثالث يحتوي الكسور، والرابع عن الجذر التربيعي وحل معادلات الدرجة الأولى والمتواليات، والخامس عن الهندسة.⁷⁶ بالإضافة إلى برديات كثيرة تعود إلى عصور مختلفة في مصر منذ عهد الدولة القديمة وعهد الدولة الوسطى والحديثة اكتشفت حديثاً واشتهرت إلى حد كبير "كبردية كاهون وبردية برلين وبردية موسكو وبردية أخميم"⁷⁷، وهذا يعني أن علم الرياضيات لم يتطور في عصر معين وإنما بدأ منذ القدم في وادي النيل واستمر في تقدمه وتطوره الدائم، وقد أكد العلماء الذين درسوا البرديات المصرية وتعمقوا بها بأن المصريين كانوا على دراية بطرق الحساب والقياسات الهندسية وعرفوا قياسات المستطيل والمثلث والمربع عن طريق ضرب وحدة قياس القاعدة بالارتفاع، ويعود الفضل في ذلك إلى نهر النيل الذي كان يفيض على الأراضي الزراعية؛ مما دفع المصريون القدماء إلى الإبداع في علم الرياضيات والهندسة من خلال معرفة المقاييس والمساحة بقياس منسوب مياهه وقياس مساحة الأراضي الزراعية، ومعرفة "حجم الكرة وسعة الأسطوانات بسبب حاجتهم إلى قياس

74 برستد، سابق، ص66

75 د. علي، الأصول الشرقية للعلم اليوناني،، سابق ص112، وتجده أيضاً في أفلاطون، محاوره فايدروس، ص123-124

76 د. علي، سبق ذكره، ص101

77 د. علي، سبق ذكره، ص101

حجم كومات الحبوب وما تحتويه من سعة".78. ونؤكد الوثائق التاريخية والآثار المكتشفة أيضاً بأن المصريين هم أول من اكتشف علم الهندسة "فكلمة Geometry مأخوذة من اللغة اليونانية وهي عبارة عن Go, Matron وتعني قياس الأرض"79، وقد أكد سترابون أيضاً على حقيقة انتقال علم الهندسة من مصر إلى اليونان بقوله: "أخذ الإغريق عن المصريين الهندسة كما يعتقد وأخذوا الفلك والحساب عن الفينيقيين".80

وجدير بالذكر أن علم الرياضيات انتقل من الحضارات الشرقية عامةً وحضارة وادي النيل خاصةً إلى بلاد الإغريق لكن! ليس إلى بلاد الأصلية وإنما إلى ساحل آسيا الصغرى أولاً الذي كان على تماس مباشر مع حضارات الشرق كما سبقت للباحثة أن أشارت إلى ذلك، ثم انتقل لاحقاً إلى بلاد الإغريق الأصلية في شبه جزيرة البلقان حيث اقتبس "سكان الساحل الأيوني علم الهندسة من المصريين القدماء واتخذوه أداة لكثير من التطبيقات الهندسية".81، واتخذوا علم الهندسة المصرية في حياتهم اليومية الذي ساعدهم على "تحديد المسافات بين السفن، وبين السفن والشاطئ فضلاً عن دراسة الظواهر الفلكية في فراغ هندسي".82، وفي الكثير من أعمالهم اليومية التي تحتاج إلى القياسات والحسابات الصحيحة كالبناء وشق الترع وبناء الجسور.

ومن أشهر علماء الرياضيات من الساحل الأيوني -آسيا الصغرى- العالم طاليس الذي يعزى إليه نقل العلوم الرياضية والفلكية المصرية إلى بلاد اليونان حيث نهل علومه من مصر وعاد إلى أيونيا ليؤسس نظرياته الهندسية التي تميزت بالاستدلال العلمي والنتائج الهندسية الصحيحة، وشرح كثير من النظريات التي توصل إليها من بعده العالم اليوناني إقليدس والتي كانت الأساس الذي قامت عليه علم الهندسة اليونانية. إضافةً إلى العالم اليوناني فيثاغورس الذي تعود أصوله إلى جزيرة ساموس -التي تقع في الجزء الشرقي من بحر إيجه- القريب من قارة آسيا المشهور بالجدول الفيثاغورثي ولكن في الحقيقة لم يكن فيثاغورس هو مبتكر الجدول لأنه من المحتمل جداً وجود "جداول أخرى سابقة عليه لا تزال محفوظة بالهيروغليفية وأن هذا الجدول نفسه ورد في كتب

78 برستد، سابق، ص66

79 الموسوي، سابق، ص60

80 سترابون، وصف بلاد ما بين النهرين، سابق، ص55

81 جيمس، بيرك، عندما تغير العالم، تر: ليلي الجبالي، 1994، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص19

82 د. علي، محمد، الأصول الشرقية للعلم اليوناني، ص112

(أرتماطيقا) ليويثيوس الذي عاش قبل فيثاغورث بما يزيد عن قرن من الزمان، حتى نظرية فيثاغورث عن المثلث قائم الزاوية أخذها عن مصر والدليل ورودها في بردية أحمس⁸³. حتى أن الكثير من مؤرخي اليونان اعترفوا أن فيثاغورث قد زار مصر التي كانت منارة للعلم والثقافة آنذاك ونهل علومه منها فيلوتارك وديمترىوس قالوا: إن فيثاغورس أسس علم الرياضيات بين اليونانيين وأنه قدم فدية إلى ربات الفنون في مصر عندما شرح له الكهنة المصريون خصائص المثلث قائم الزاوية، وتثقف فيثاغورس أيضاً في الموسيقى على أيدي الكهنة المصريين.⁸⁴

وعلاوة على ذلك لم يكن الأثر الشرقي على اليونانيين في بلادهم، أو ممن زار مصر منذ القدم، وإنما استمر هذا التأثير حتى دخول الإسكندر الأكبر مصر وبنى فيها مكتبة علمية ضخمة أضحت من خلالها مهد للعلم والتقدم الفكري الذي مزج بين علوم الشرق والغرب وظلت العلوم الشرقية لا سيما المصرية هي الطاغية فوق كل العلوم خلال هذا العصر على اليونانيين الذين تعلموا في مدينة الإسكندرية كأرخميدس وهيبارخوس وأبولونيوس وإقليدس "إقليدس الذي يعتبر من أعظم علماء الرياضيين اليونانيين وعرف بكتابه (أصول الهندسة) قد تعلم في الإسكندرية فهل يعقل أن يصل إقليدس إلى كتابه هذا من نظريات رائدة لو أنه لم يعيش في الإسكندرية ويطلع على الإنجازات الرياضية والتطبيقات الهندسية المذهلة في مصر؟"⁸⁵ سيما وأن كتابه جمع فيه المعارف القديمة للمصريين والمعارف الحديثة للإغريق فكان أول من "ربط بين علومه علوم الشعوب الأخرى، وأول من وضع النظريات الرياضية في ترتيب منطقي قوي"⁸⁶ أما العالم اليوناني أرخميدس فقد نهل علومه أيضاً من مصر أرخميدس وكذلك "أبولونيوس الذي جمع بين الرياضيات والهندسة إضافة إلى أرتوسيش الذي عاش في مدينة الإسكندرية وكان معاصراً لأرخميدس".⁸⁷ ولا بد من القول أن علم الرياضيات قد ارتبط بعلم الفلك في وادي النيل؛ لحاجتهم إلى عد الأيام والشهور وحساب السنوات، وحساب فيضان نهر النيل الذي ارتبط بجاذبية القمر

83 د.علي، محمد، سبق ذكره، ص114

84 جيمس، جورج، سابق، ص55

85 د. علي، محمد، سابق، ص115

86 د.علي، محمد، سبق ذكره، ص116

87 الزنكي، انتصار، التفاعل الحضاري المصري واليوناني إبان السيطرة اليونانية (التأثير والتأثر) 332-30 ق.م، جامعة كربلاء، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، العدد 87، 2023، ص421

والشمس وبالنجوم لا سيما نجمة الشعرى اليمانية التي كانت تنزغ في الفجر، وكان أيضاً للمعتقدات الدينية دوراً في علم الفلك وحاجتهم الروحية إلى خلود الإنسان وميوله نحو التنبؤ والتنجيم لمعرفة طالعهم، وقد ساهم ذلك بظهور علم التنجيم والتنبؤات والتنجيم والسحر وبناء المقابر الضخمة كالأهرامات التي كانت مقراً لحياة الآخرة لفراعنة مصر، وقد ربط الفلكيين المصريين بين "حركة الكواكب السيارة وبين ما يجري على الأرض وعلاقتها بحياة الإنسان" 88 ولا بد من الإشارة هنا إلى أن بعض العلماء يأخذون على علم الفلك المصري مأخذين: الأول أن علم الفلك المصري القديم كان علماً يعج بالسحر والتنجيم والتنبؤات، لكن بعد دراسة الوثائق التاريخية وقراءة ما كتب عن الآثار الفلكية رأَت الباحثة أنه لم يكن علماً بسيطاً ساذجاً كما يزعم بعض علماء الغرب وإنما كان علماً متقدماً استطاع من خلاله سكان وادي النيل أن يثبتوا جدارتهم بضلوعهم فيه مقارنةً بمن ينتقدون وينتقد علومهم في وقت كان غيرهم يسبح في غياهب الجهل والخرافات والأساطير، إضافةً إلى ذلك كان السحر والتنجيم سمة العصر أي أن كل حضارات الأمم القديمة كانت تمارس السحر والتنبؤ والتنجيم ومزجوها بعلوم الفلك والحقائق الفلكية التي تعلموها والخبرات التي مارسوها فمثلاً "العالم الألماني العظيم كيبلر Kipler الذي حدد المدارات البيضاوية للكواكب واكتشف أعظم القوانين الفلكية الرياضية كان يؤمن بالتنجيم، ولم يكن يعتقد أن ممارسته له تتعارض مع علمه بل اعتبره أحد أهم الأسباب التي حرص الحكام الراغبون بمعرفة طالعهم على تحفيز العلماء والفلكيين على ممارسة علم الفلك وربطه بالتنجيم فأدى ذلك إلى نهوضه بوقت مبكر". 89. أما المأخذ الثاني فهو قلة الوثائق التاريخية التي تثبت ضلوع المصريين بعلم الفلك وخبراتهم العالية بالنظريات الفلكية التي ابتكروها والسبب يعود إلى أن كهنة مصر القدماء اعتبروا هذا العلم خاصاً بهم وعدوه سراً من أسرار المهنة التي لا يجب لأحد الاطلاع عليها غيرهم. فالتنبؤ بالغيب عندهم من أمر آلهة معينة وقدرة لا يملكها البشر. 90، وقد أكد ذلك العالم سانت هير عن قلة الوثائق والبرديات الفلكية المصرية كونها: "كانت تعتمد على مشاهدات مضبوطة ولكن ليس لها عالم فلكي" 91 وإنما كانت خاصة بالكهنة جميعهم الذين اعتبروا هذا العلم

88 د. الجابري، علي، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديم وحضارة اليونان، 2005، الأردن، إربد، دار الكتاب الثقافي، ص 135

89 د. علي، محمد، سابق، ص 133

90 هيرودوت، سابق، ص 169

91 د. علي، محمد، سابق، ص 132

حكراً عليهم لوم ينسب لأي كاهن بالاسم وإنما اشتغل به الكهنة جميعهم تحت سرية تامة، وعلاوةً على ذلك فقد وجد الآثاريون المنقبون في أرض وادي النيل على معلومات فلكية نقشت على جدران المقابر والمعابد مثل "معبد رمسيس الثالث ومعبد أبيدوس ومعبد الإلهة حتحور".⁹² وهذه النقوش تدل على أن علماء المصريين قد بلغوا في علم الفلك مبلغاً عظيماً. وستورد الباحثة الأدلة على وصول المصريين القدماء إلى مستويات علمية متقدمة في مجال الفلك منها: أن المصريون هم من اكتشفوا السنة الشمسية وأول من ابتكر الوحدات الفلكية لقياس الزمن من خلال تقسيم السنة إلى اثني عشر شهراً، وقسموا اليوم إلى اثنتي عشرة ساعة نهاراً واثنتي عشرة ساعة ليلاً وقد أشاد العالم اليوناني هيرودوت بعلوم المصريين وتقدمها مقارنةً باليونانيين بقوله: إن المصريين أول من قسم السنة إلى اثني عشر جزءاً وأسلوبهم في الحساب هو في ظني أفضل مما بلغه الإغريق ذلك أن الإغريق يكسبون شهراً بكامله كل سنتين، وأن المصريين كانوا أول من ابتكر المذبح ونصب الأصنام وشيد المعابد للآلهة ونحت التماثيل من الحجارة.⁹³ وقد أشار في كتابه عن علوم المصريين الفلكية وكيف ربطوها بالتنجيم القائم على أسس علمية بعيدة عن الخرافات والشعوذة حيث "خص المصريون كل شهر بإله من معبوداتهم، كما اكتشفوا مسيرة حياة الإنسان وشخصيته من دراسة يوم ولادته وقد نهل من هذه الاكتشافات الشعراء الإغريق".⁹⁴ ولقد استخدم المصريون القدماء العديد من الآلات والأدوات الفلكية التي ابتكروها لمعرفة التوقيت الزمني ورصد الكواكب والنجوم كالمزولة الشمسية والمائية. وتعتمد المزولة الشمسية في مبدأ عملها على ضوء الشمس وتتكون من "عصا مستقيمة توضع بشكلٍ أفقي على سطح الأرض ويتغير طول ظلها بتغير الشمس الذي يبلغ أقصره عند الظهيرة، إضافةً إلى المزولة المائية التي اعتمدت في مبدأها على الماء في ظل غياب ضوء الشمس وهي آلة ذات شكل أسطواني تنقب من الأسفل مما يسمح بمرور الماء بصورة تدريجية بحيث يدل على التوقيت كلما انخفض مستوى الماء من خلال خطوط رسمت عليها".⁹⁵

92 د. علي، محمد، سبق ذكره، ص 134

93 هيرودوت، سابق، ص 134

94 هيرودوت، سبق ذكره، ص 169

95 د. علي، محمد، سابق، ص 136

إضافةً إلى أن حضارة وادي النيل كانت السبابة في ابتكار تقويم شمسي ونجمي بالاعتماد على الشمس والنجوم السيارة والتي اكتشفوها منذ عصور ما قبل التاريخ باستخدام أدوات بسيطة حيث كانت سماء مصر الصافية تحفز الفلكيين والكهنة على تأمل أضواء الشهب ورصد حركة الأجرام السماوية فعرفوا الكثير عن المجموعات النجمية التي أكد وجودها العلم الحديث باستخدام تقنيات عالية الجودة، ومن أهم النجوم التي رصدها سكان وادي النيل نجم الشعرى اليمانية الذي لعب دوراً هاماً في علم الفلك لحضارات الشرق الأدنى القديم من خلال دوره في مواسم الفيضان لا سيما نهر النيل عند المصريين، واستخدمه العرب لاحقاً كدليل للمسافرين ليلاً، ولأهميته الفلكية فقد ذكر في القرآن الكريم بقوله تعالى: "وأنه رب الشعرى" 96، وقد أطلق المصريون عليه "اسم (سبدت)، وهو في الواقع النجم ألف من المجموعة المعروفة باسم (كلب الجبار أو الكلب الأكبر) وتعرف أيضاً باسم (سيروس Sirius) أو (سوتيس) وقد اشتقت من الأصل المصري إلى اليونانية واللاتينية، ويعد نجم الشعرى من أشد النجوم لمعاناً في مواعيد محددة حيث يظهر مرة كل عام مع بدء موسم الفيضان في مصر وبدء الدورة الزراعية" 97. إضافةً إلى اعتماد سكان وادي النيل على التقويم الشمسي الذي استخدموه في شؤونهم الدينية كمعرفة السنوات وتاريخها فقسموا السنة "إلى اثني عشر شهراً وكل شهر إلى ثلاث عشرات بحيث تكون السنة من ست وثلاثين عشرة (360 يوماً)، ثم أضافوا موسماً للأعياد مؤلفاً من خمسة أيام فأصبحت سنتهم 365 يوم" 98، وكان هذا التقسيم يستند فلكياً على علوم المصريين في الفلك حيث قدرت على "عدد الأبراج الفلكية (الزودياك) لديهم فالسنة 360 يوماً، وطول الشهر ثلاثين يوماً، مع إضافة خمسة أيام سموها الشهر الصغير أو النسئ وبلغ مجموع أيام السنة 365 يوماً وهي بذلك تقل عن السنة الطبيعية بمقدار ربع يوم كل سنة" 99 وهذا دليل على خبرتهم الفلكية المتقدمة وازدهار علومهم رغم بساطة الأدوات. ونستنتج مما سبق: أن التقويم المصري قد جمع بين التقويم الشمسي والتقويم النجمي حيث استخدموا السنة الشمسية لمعرفة الأيام والشهور والسنوات، واستخدموا السنة النجمية في معرفة مواسم الفيضان وبدء الدورة الزراعية للأرض حيث قسموا السنة النجمية إلى ثلاثة فصول:

96 القرآن الكريم، سورة النجم، الآية 49

97 د. بكر، محمد، سابق، ص 35

98 د. علي، محمد، سابق، ص 135

99 د. بكر، محمد، سابق، ص 35

فصل فيضان نهر النيل، ثم فصل الزراعة وبذر الحبوب، وأخيراً فصل الحصاد، وقد اقتبست الحضارات الأخرى التقويم المصري لا سيما حضارة الإغريق خلال الألفية الأولى قبل الميلاد وكانت التقاويم التي ابتكرت في أوروبا في عصور لاحقة تعتمد كل الاعتماد على التقويم المصري كالتقويم اليولياني والغريغوري، وعند دخول الإسكندر الأكبر مصر ظل يستخدم التقويم المصري، ونهل الإغريق حينها الكثير من العلوم الفلكية المصرية لا سيما سكان الساحل الأيوني الذي اعتاد سكانه على الهجرة إلى مصر لتعلم معارفها ومن أشهرهم (طاليس) كما سبق وقد أسلفنا الذي "اقتبس دورة الكسوف المتعاقبة عند القدماء المصريين والبابليين وتتألف للأيونيين باحتجاب ضوء النهار في العام الذي حدده بالاعتماد على المعارف المصرية، كما أخذ أنكسمندر الملطي عن المصريين والبابليين آلة المزولة واسمها في اليونانية "Gnomon" 100. إضافة إلى إقليدس الذي عاش حوالي 300 ق.م والذي عرف بأعماله الهندسية والتي شكلت لاحقاً الأساس لعلم الفلك الحديث الذي اعتمد على الهندسة وحساب حركة الأجرام السماوية، والعديد من العلماء اليونانيين الذين استفادوا من المعارف الفلكية المصرية مثل فيثاغورث الذي "تأدى بكروية الأرض، ومن المحتمل أنه استعار هذه الفكرة من المصريين والبابليين، إضافة إلى يدوكسوس الكينيدي الذي رحل إلى مصر للتعليم واستطاع خلالها ابتكار نظريات فلكية كنظرية الكرات متحدة المركز؛ وبهذا يعد مؤسس الفلك العلمي اليوناني" 101 الذي كان أساسه معارف الفلك المصري القديم. وظل التأثير الشرقي المصري واضحاً على الإغريق خلال الألفية الأولى قبل الميلاد كما أشارت الباحثة إما عن طريق الساحل الأيوني قديماً، أو من خلال فترة دخول الإسكندر المقدوني إلى مصر ومحاولته دمج علوم الشرق بالغرب وتشجيعه على العلم والعلماء فبنى مكتبة الإسكندرية التي ساهمت في بروز علماء يونانيين في مصر اعتمدوا على المعارف المصرية القديمة وزادوا عليها خبراتهم الرياضية والفلكية الحديثة حتى بلغ الفلك أعلى مراتبه في الإسكندرية وبرز من "علمائها الأوائل تيمارخوس" 102، وكذلك أفلاطون وأرسطو اللذان تأثرا بعلم المشرقيين ولا سيما المصريين حيث اطلع أرسطو خلال وجوده في مصر على "الكشوف المصرية والبابلية التي أرسلها له ابن اخته (كاليستان) منذ 1900 سنة واستطاع من خلالها التوصل لإثبات أن الأرض كروية، وأثبت أن حافة الظل

100 د. علي، محمد، سابق، ص141

101 د. علي، محمد، سابق، ص142

102 د. الشيخ، حسين ، العصر الهلنستي، 1993، مصر، جامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ص 108

أثناء خسوف القمر مستديرة دائماً، وأن وفرة الأرصاد الشمسية والقمرية والكوكبية لدى اليونانيين في القرنين الخامس والرابع ق.م تدل على أنها قد جاءت من مصر ومن بابل، حيث ذكر سيمبلوكس في شرحه لكتاب Decaelo لأرسطو أن لدى المصريين كنزاً من الأرصاد عن 63000 سنة¹⁰³. وجدير بالذكر إلى أن التقويم المصري القديم ظل مستخدماً في مصر حتى "عام 46 ق.م عندما أمر يوليوس قيصر فلكي الإسكندرية بتصحيح الخطأ بإضافة الست ساعات المهمة التي إذا جمعت على مدار 4 سنوات كونت يوماً كاملاً بالتقويم الجولياني، ثم أجرى البابا غريغوري الثالث عشر تعديلاً على التقويم عام 1582م بإلغاء السنة الكبيسة عندما تكون السنة الأخيرة في القرن 3 مرات كل أربع قرون".¹⁰⁴

ومن العلوم التي نهلها اليونانيون من مصر أيضاً علم الطب الذي كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالدين حيث فسرت الأمراض في ذلك الوقت على أنها غضب من الآلهة على الإنسان الآثم، وشمل الطب في حضارة وادي النيل على نوعين كما في بلاد ما بين النهرين: الطب الكهنوتي والذي تضمن طقوساً دينية سحرية لاسترضاء الآلهة واستعمال التمايم والرقى والتعاويز السحرية للوقاية من الأرواح الشريرة والصلوات للآلهة من أجل الاستشفاء وتقديم القرابين لها تقريباً منها فقد كان الطبيب المصري إلى جانب خبرته العملية في الطب "عليماً بأمر السحر وبالحالة النفسية للمريض، وفي الواقع عدّ الطبيب السحري عاملاً مساعداً في العلاج وليس هو العلاج الفعلي".¹⁰⁵، إضافةً إلى الطب العلاجي الذي استند إلى العلم باستخدام الفحوص والعلاج والأدوية والعقاقير وممارسة العمليات الجراحية التي أحرزت تقدماً هائلاً وأكد ذلك العالم اليوناني هيرودوت بأن المصريون أكثر شعوب العالم إسهاماً في تشخيص الأمراض ومن شأنهم أنهم كلما لاحت لهم ظاهرة شرعوا في ملاحظتها ومتبعتها نتائجها وتدوينها.¹⁰⁶، ويجب الإشارة هنا إلى أن الطب المصري القديم قد ارتبط في بدايته بالعقيدة الدينية المصرية لذلك حظي الكهنة والأطباء بمرتبة مرموقة وشهرة عظيمة في مصر القديمة لا سيما وأنهم اختصوا بعلاج فراعنة مصر وملوك الدول الأخرى لا سيما الإغريق حيث وصلت شهرة أطباء المصريين إلى اليونان وذكرهم "هوميروس

103 د. علي، محمد، ص143، ص144

104 الموسوي، سابق، ص57

105 داليو، كريستيانو، الطب عند الفراعنة، 2013، ط1، تر: ابتسام عبد المجيد، مصر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ص10

106 هيرودوت، سابق، ص169

في أشعاره (هوميروس، الأوديسة الفصل الرابع من 229 إلى 232)، كما ذكر هيرودوت أن شيرو طلب من الفرعون أمازيس (الأسرة السادسة والعشرين) أمهر طبيب عيون في مصر لعلاج من مرض التهاب العيون¹⁰⁷. ولقد عرف المصريون إلى جانب الطبيب الجسدي، الطبيب النفسي أيضاً الذي كان جزءاً من الممارسات الطبية والدينية من خلال استخدام الأعشاب ومنها (الأفيون) إلى جانب الموسيقى والرقص والرياضة، ووثقت بعض العلاجات النفسية في بردية (كاهوم) عام 1900 ق.م كذلك وجد لدى الإغريق أيضاً في وثائقهم التاريخية ما يدل على ارتباط الطب بالعقيدة الدينية لديهم خاصةً (الإله أسكليبيوس) الذي كان بطلاً ثم ألهمه الإغريق فأصبح إله الطب والشفاء في الأساطير اليونانية؛ لقدرته على إحياء الموتى وعلى شفاء المرضى، ويشتهر هذا الطبيب برمز عصاه الملففة حولها أفعى التي مازالت تستخدم حتى اليوم كرمز لمهنة الطب، ويعتبر نظيراً للإله الصري القديم (إمحتوب)¹⁰⁸ المعماري المصري الشهير وأول طبيب في مصر والذي رفع إلى درجة الآلهة بعد وفاته، فعندما قرأ الإغريق "كتابات الطبيب المصري (أيمحتب) لم يصدقوا أن هذا النابغة يمكن أن يكون بشراً، فألهوه واعتبروا أماكن عبادته أماكن يحجون إليها المرضى من أجل طلب الشفاء".¹⁰⁹ لذا كان للدين دور كبير في التأثير على علوم الطب، وكان لحضارة مصر التأثير الأكبر في علوم اليونانيين ليس في مجال الطبيب الجسدي فحسب وإنما حتى الطبيب النفسي "فقد عرف الإغريق العلاج النفسي كما عرفها المصريون قبلهم ومارسوها في معابد آلهتهم مما يشير إلى احتمال تأثر الإغريق بهم خاصةً عن طريق نقرطيس¹¹⁰ سيما وأن الإغريق كانوا يعدون سكان وادي النيل أهل العلم والمعرفة منذ القدم وكانت مصر بالنسبة لهم "مهد الحضارة وأرض العلوم لا سيما في مجالات الكشف عن المرض وعلاجه بالنباتات والأعشاب الطبية المتوفرة في مصر وقد أشاد أشهر شعراء الإغريق (هوميروس) في الأوديسة في القرن الثامن ق.م بمقدرة المصريين القدماء أكثر من الآخرين في معالجة الأمراض".¹¹¹ حتى أن الحضارة الروحية التي شاعت لدى الإغريق والتي كانت تتضمن رعاية الروح وتعزيز الرفاهية النفسية -كونهم عرفوا أن الروح لا تنفصل عن الجسد

107 داليو، سبق ذكره، ص 62

108 أيمحتوب: أحد نوابغ التاريخ ممن تتجلى عبقريته في أكثر من ميدان فقد جمع إلى جانب نبوغه في فن العمارة والنحت نبوغاً في الطب لا يقل شأنًا، ولقد شبهه الإغريق بأكلبيوس (إله الطب) لمهارته. انظر: الموسوي، سابق، ص 37

109 د. علي، محمد، سابق، ص 83

110 د. الشيخ، حسين، سابق، ص 133

111 داليو، سابق، ص 7

ويجب أن يوازن الإنسان بينهما لتحقيق حياة أفضل والاعتناء بهما يتطلب التأمل الفلسفي والتمارين الروحية-لم تكن من ابتكار الإغريق وإنما هي "طقس ديني روحي مارسه المصريون القدماء حيث تضرعوا للآلهة من أجل الصحة والإخصاب، وقد اقتبسه الإغريق منهم "112، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن التقدم المصري في المجال الطبي قد وثق على أوراق البردي باللغة الهيروغليفية ومن أهم المخطوطات: "بردية (شاسينا) التي تمتاز بعلاج أمراض العيون وأمراض النساء والأطفال والخراجات، ووصفت العلاجات باستخدام القطرات والمساحيق، وبردية (زينون) التي لا تقل أهمية عن هذه البردية في وصف العلاجات والأعشاب الطبية والعقاقير"113. إضافة إلى بردية سميث (Edwin Smith) سميت على اسم التاجر (إدوين سميث) الذي اشتراها عام 1862م وهي أقدم بردية طبية تؤكد أن الطب المصري ليس طباً قائماً على التعاليم الدينية والسحرية فقط وإنما هو علم قائم على العلاج الطبي العلمي من حيث العلاج الصحيح، وكانت دليلاً للجراحات العسكرية وعلاج الأورام والإصابات والكسور والجروح، ويعود تاريخها إلى الفترة الانتقالية الثانية في مصر القديمة، " وهي أفضل مؤلف طبي يعود تاريخها إلى حقبة لأسرة الرابعة 2680 ق.م"114. كذلك بردية إيبس 115 Ebres أحد أهم المخطوطات الطبية المصرية القديمة، وهي شاهدة على مدى تقدم الطب المصري والعلاج آنذاك وتغطي مجموعة متنوعة من الموضوعات الطبية بما في ذلك العلاج بالأعشاب ونصائح الجراحة وأهم الأمراض السارية حينها كالمalaria والحُميات والتسمم، وتطرق إلى العلاج النفسي والعقلي كالهذيان، وشخصت الأمراض بناءً على الأعراض وهذا يدل على فهم الأطباء المصريين المرض ليس كأعراض وإنما كمسببات ومعرفة علاج هذه المسببات بالأعشاب الطبيعية المحلية التي زرعت في حوض وادي النيل الخصب.

هذا التقدم الهائل في الطب لدى المصريين القدماء يجعل الإنسان يقف مذهولاً أمام حضارة أجداده القدماء ويرفع لهم القبعة احتراماً على ما ابتكروه وما قدموه للحضارات الأخرى من منجزات حضارية رائعة، وقد قرأت الباحثة

112 د.علي، محمد، سابق، ص82

113 د.كامل، مراد، تاريخ الحضارة المصرية، نخبة من العلماء، سابق، ص246

114 الزنكي، انتصار، سابق، ص407، وتجده أيضاً لدى جين بوترو، الشرق الأدنى والحضارات المبكرة، ص327

115 بردية إيبس: اكتشفها سميث عام 1862 ثم تنازل عنها لإيبس عام 1872 وهو من قام بنشرها عام 1875 وتوجد في مكتبة جامعة ليزج، وتعد أكبر نص طبي إذ تصل إلى 110 صفحات وتضم 877 فقرة تم تأريخها بحقبة الملك أمنحتب الأول عام 1530 ق.م عهد الأسرة الثالثة عشرة. للاطلاع: داليو، سابق، ص23

في إحدى المراجع عن التقدم الطبي الهائل في مصر لدرجة أن الأطباء عرفوا بعمل القلب والأوردة والدورة الدموية وعلاج حالات كسور العظام حتى كسور الفقرات في العمود الفقري والجمجمة والتي تعتبر اليوم من أخطر العمليات الجراحية رغم تقدم الأدوات الطبية والتقنية فتذكر إحدى البرديات التي يبلغ طولها 4,5 متر ويعود تاريخها إلى عام 1600 ق.م على الفقرة الآتية: يوجد في جميع أجزاء الجسم أوعية متصلة بالقلب فإذا ما وضع الطبيب أصابعه فوق الرأس أو على الذراعين أو على الساقين سيقابل القلب فيها جميعها لأن أوعيته تصل إلى جميع الأعضاء. 116. كذلك علاج الأسنان والعمليات التي أجريت للفم وربط الأسنان بشرائط معدنية وثقبها بثقوب صغيرة تكاد تكون معجزة طبية حقيقية في ذلك الوقت لا يستطيع العلم الحديث القيام بمثل هذه العمليات على الرغم من تقدم التقنيات والأدوات التكنولوجية.

ولقد كان للطب في مصر اختصاصات متعددة كما في عصرنا الحالي "فكل طبيب مرض يختص به دون سواه، وكل يعنى بعلاج عضو من الأعضاء". 117 ، وقد ثبت ذلك في أوراق البردي وفي كتابات المؤرخين القدماء لا سيما اليونانيين فالتخصص في مجال واحد يزيد من براعة وإتقان الشخص لعمله ضمن مجاله؛ لذا توزع الأطباء على تخصصات متنوعة كأمراض العيون والعظام وأمراض الرأس والأسنان والأمعاء والتشريح والكسور والطب الروحاني (النفسي) وكذلك الطب البيطري، حيث بلغ الطب البيطري تقدماً وازدهاراً في مجال تربية الحيوانات والاهتمام بصحتها لأهميتها في حياة الإنسان وفي الزراعة والنقل أو حتى في عبادة بعضها (كالثور) فكان من الضروري العناية بها ومعرفة كيفية علاجها فعند فحص العظام المكسورة لبعض جثث الحيوانات في وادي النيل وجدت العظام قد "ضمدت إلى بعضها بطريقة في منتهى الحذق والمهارة تدل على نبوغ الأطباء المصريين في جبر العظام المكسورة بطريقة عملية". 118 وجدير بالذكر أنه من كان يرغب بالتعلم في مصر كان عليه التوجه إلى المركز التعليمي والذي عرف باسم (بيت الحياة) وهو مصطلح يشير في وقتنا الحالي إلى دور العلم والمكتبات التي كانت موجودة آنذاك، والتي لعبت دوراً محورياً في نقل المعرفة وحفظها في كافة المجالات، وقد

116 الموسوي، سابق، ص61

117 هيرودوت، سابق، ص169

118 للمزيد عن ذلك انظر: د.حسن، سليم، مصر القديمة في مدينة مصر وثقافتها في الدولة القديمة والعصر الأناسي، 1992، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج2، ص128

جمعت بين الجوانب الدينية والعلمية والأدبية، واختصت في المقام الأول بتعليم الكهنة والكتبة، ومن ثم الأطباء فمن أراد أن يكون طبيباً في مصر القديمة كان عليه أن "يتعلم في بيت الحياة (دار العلم) وعادةً ما كان يعتبر من ملحقات المعابد الكبرى في مصر".¹¹⁹ ؛ ومما يتضح أن المصريين القدماء برعوا في المجال الطبي الذي انتشرت إنجازاته ليس في مصر فحسب وإنما تعدته إلى الدول القديمة المجاورة، وكان الأشخاص الذين عرفوا بممارسة الطب والعلاج المرتبط بالعلاج الطبي والكهنوتي هم: "السحرة (حيكاو)، والأطباء (سونو)، و(حيم-نيتز) أي خدم الإله وهم الكهنة".¹²⁰ ، وكان التطبيب قائم على قواعد علمية وطبية صحيحة بفضل اطلاعهم على العلوم وممارساتهم وخبراتهم المتراكمة منذ القدم، وطبيعة الأرض التي أخرجت نباتات عشبية ذات أثر طبي وعلاجي؛ لذا لم يكن طباً تجريبياً كما يزعم البعض قائم على فنون السحر والخرافات الموروثة.

وبسبب ارتباط الطب بعلم الكيمياء فقد برعوا في معرفة التفاعلات الكيميائية وتركيب العقاقير والأدوية وكيفية استخدامها لعلاج الأمراض على الرغم من أن الأطباء المصريين لم يستخدموا المصطلح العلمي الحديث (الكيمياء) أو (الصيدلة) بالمعنى المعروف في عصرنا الحالي لكنهم كانوا يمتلكون معرفة واسعة بالعناصر الكيميائية واستخدام الأعشاب الطبيعية ومزجها مع بعضها لتحضير مستحضرات طبية فعالة، وستقتصر الباحثة على ذكر الكيمياء في المجال الطبي فقط لأن الكيمياء مصطلح واسع متعدد الاستخدامات يشمل مجال الصناعة والتعدين وغيره، وأحرزوا تقدماً في مجال الكيمياء وقد عرفت خبرة المصريين في هذا المجال من خلال البرديات المكتشفة حيث أتاحت للمصريين القدماء أن "يصبغوا أنسجة ملابسهم بألوان رائعة لا سيما الكتان ودهن جدران المباني والقصور بألوان زاهية ما تزال تنبض بالحياة إلى يومنا هذا، بالإضافة إلى أنها مكنتهم من تحنيط جثثهم التي ظلت سليمة لمدة تقرب من الأربعة آلاف عام".¹²¹ ، ولا يستطيع العلم الحديث بكل تقنياته أن يحاكي هذا التقدم الهائل في علم الكيمياء المصري القديم. فالكيمياء المصرية لم تكن مجرد تفاعلات كيميائية كما هي اليوم، وإنما تركيب للأعشاب والعقاقير الدوائية من النباتات والمعادن على حدٍ سواء حيث كانت النباتات جزءاً أساسياً

119 داليو، سابق، ص12

120 داليو، سبق ذكره، ص22

121 د. علي، محمد، سابق، ص18

في الطب القديم، واستخدمت أعشاب (كالآس والصبّار واللّبان والريحان)، إضافةً إلى العسل والزيت النباتية، ولم تقتصر خبراتهم في مزج العقاقير فحسب، وإنما في معرفة العقاقير أيضاً ومعرفة صفاتها واستخداماتها وطرق علاجها للداء والأوقات المناسبة لاستعمالها، ووثق ذلك في العديد من البرديات الطبية حيث وجد في "خزانة الكتب في معبد (إدفو) كتباً في معرفة كل أسرار المعمل وكيفية مزج العقاقير، ولم تخل المعابد من معامل صغيرة تستخدم كمخازن للمواد زكية الرائحة مثل معبد الكرنك في الأسرة الثامنة عشرة".¹²²، وطرق استخراج الزيوت النباتية والطبية وطرق استعمالها وكيفية خلطها. وعلاوةً على ذلك يعتبر فن التحنيط من أبرع فنون الطب والكيمياء على حدٍ سواء والذي اشتهر به المصريون القدماء وتقردوا به مقارنةً بغيرهم من الشعوب التي كانت تتخلص من الجثث إما بدفنها أو بحرقها، وكان فن التحنيط يقوم على تجفيف الجسد وسحب الرطوبة من الأنسجة حتى لا تخرج روائح الميت الكريهة بفعل البكتيريا التي تفتت الجسد وتأكله، وله مختصون حيث "يأتي أحدهم إلى المختصين بجثمان أحد أقاربه المتوفي ليحنطه، فيعرض المختص عليه نماذج مصنوعة من الخشب ومطلية بالصباغ لتبدو طبيعية ويختار ما يناسبه".¹²³، وبلغ التحنيط شأنًا عظيمًا لا سيما وأنه قد ساعدهم على فتح الجسم البشري ومعرفة أعضائه ومحتوياته ليدرسوه بشكلٍ دقيق؛ مما ساهم في تقدمهم الطبي، وكانت عملية التحنيط التي يقوم بها الكهنة تستمر "لمدة اثنتين وسبعين يوماً".¹²⁴ استخدموا فيها مواد كيميائية كالنطرون (كربونات الصوديوم) والراتجات وبعض المواد الكيميائية والعشبية، وقد عثرت التنقيبات الأثرية على موميאות متعددة تعود إلى عصور مختلفة حيث وضع البعض منها في متاحف دول العالم "ومتحف القاهرة كشاهد على وصول الطب في مصر إلى ذروته في التشريح والحنيط ومعرفة العقاقير الكيميائية، ودليلاً على تقدم هذه العلوم على مر العصور"¹²⁵..

إن هذه المنجزات الطبية هي أهم المنجزات التي عرفت بها حضارة وادي النيل باختصار وستتحدث الباحثة عن المنجزات الطبية التي اقتبسها الإغريق من حضارة وادي النيل خلال الألفية الأولى قبل الميلاد حيث حدث

122 د.السعدني، محمود، تاريخ الحضارة المصرية، 2005، مصر، جامعة حلوان، مكتبة الأنجلو المصرية، ص24

123 هيرودوت، سابق، ص170

124 د. بكر، محمد، سابق، ص 47

125 الجابري، علي، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديم وحضارة اليونان، 2005، الأردن، إربد، دار الكتاب الثقافي، ص135

الاحتكاك الحضاري بين مصر واليونان وتبادل الخبرات الطبية كما سبق وأسلفت الباحثة في الذكر خلال عدة عصور منذ القدم وحتى العصر الصاوي (من خلال مدينة نقراتيس اليونانية في مصر)، وصولاً إلى دخول الإسكندر المقدوني مصر وما بعده والذي عرف بالعصر الهيلينستي حيث تعمقت العلاقات المصرية-اليونانية فانتقل الطب من المصريين إلى الإغريق بالتدريج وعلى فترات زمنية، وهنا لا نبخس من قدرات اليونان عندما نشير إلى اقتباسهم معارف الطب المصري فقد أضاف الإغريق على المنجزات الطبية المصرية ما عرفوه من خبرات ثم حاولوا تفسيره بطرق علمية رائعة حتى لمع منهم العديد من الأطباء كالطبيب "هيوكرات (أبقراط) الذي مارس الطب في جزيرة كيوس في القرن الخامس ق.م بعد أن تعلم في مصر، وإن أجزاء من مؤلفاته تكاد تكون منقولة من البرديات الطبية المصرية في دليل على مدى تأثيره بالطب المصري، إضافةً إلى انتقال علماء اليونان إلى مدينة الإسكندرية عندما احتلت مركز الصدارة كأتباع أبقراط وهو فيلومينوس والطبيب هيروفيلوس وإيراستراتوس"126. إضافةً إلى الطبيب اليوناني المعروف جالينوس (Galen) أحد أعظم أطباء اليونان في العصور القديمة، وهو من سكان آسيا الصغرى التي كانت على علاقات وثيقة بمصر وعلى احتكاك دائم بحضارتها القديمة وقد تأثر "جالينوس في القرن الثاني ق.م والطبيب اليوناني (ديوسفريدس) من أطباء القرن الأول الميلادي بالطب المصري القديم"127. وقد أسهم جالينوس في تطور الطب اليوناني الغربي من خلال دراسته في مدينة الإسكندرية التي كانت مركزاً مهماً للعلوم والمعارف في ذلك الوقت ودرس التشريح والطب على يد كهنة مصر ويعد "واضع نظرية الدورة الدموية وصاحب الفضل الأكبر بعد أبقراط في تقدم الطب"128. حيث بقيت نظريته عن الدورة الدموية في أوربا رداً من الزمن، وهناك أيضاً الطبيب اليوناني (ديموسيد) من الأطباء المشهورين في العصر الكلاسيكي، وقد عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وكان له دور بارز في تاريخ الطب اليوناني ومن أشهر إسهاماته الطبية أنه استطاع التوصل إلى علاجات لحالات الالتواء المصحوب بتمزق الأنسجة. 129، ومن الأطباء الإغريق الذين تأثروا بالطب المصري القديم ودرسوا في مدينة الإسكندرية الطبيب

126 د. الشيخ، حسين، سابق، ص 107

127 الزنكي، انتصار، سابق، ص 420

128 د. الشيخ، حسين، سابق، ص 108

129 داليو، سابق، ص 45

هيروفيلوس الذي برز في العصر الهيلينستي، ويعد من أوائل الأطباء اليونان الذين اهتموا بتشريح جسم الإنسان بشكل علمي، وأسس علم التشريح العصبي والطب السريري واستطاع من خلالها فهم وظائف الأعضاء بعدما درس في مدينة الإسكندرية، وتوصل إلى اكتشاف "أن القلب له دور في عملية النبض والضخ، وأن الشرايين تحتوي على دماء وليس هواء كما كان معروفاً سابقاً في اليونان؛ وبذلك يعتبر مكتشف الدورة الدموية"130. لكنه لم يفهم الدورة الدموية بشكل كافٍ كما اكتشفها وفسرها الطبيب الإنكليزي ويليام هارفي في العصور الحديثة.

وقد تجلّى تأثير اليونانيين بالطب المصري القديم إما من خلال هجرة علماء اليونانيين للدراسة والتعلم في مصر، وإما من خلال البرديات المصرية القديمة التي قرأوها واستفادوا منها في كتابة مؤلفاتهم كبردية إيبيرس وبردية سميث التي تركت أثراً كبيراً على المنجزات الطبية اليونانية وعلى كتابات الأطباء اليونان لا سيما أبقرات وجالينوس، وقد قدر اليونانيون الطب المصري حيث أشاد هوميروس بذلك في أوديسته الرائعة أن الأطباء المصريين كانوا أعلى درجة من الذكاء الذي لم يصل إليه شعب من الشعوب.131 ، ولا تزال الكثير من العلاجات التي ابتكرها المصريون القدماء والتي تقوم على النباتات الطبيعية والأعشاب الطبية مستخدمة حتى عصرنا الحالي لا سيما لدى أجدادنا الذين ما يزالون يتداون بالطب القديم معتمدين على الأعشاب الطبيعية، وهناك الكثير من العلاجات المصرية القديمة أيضاً التي انتقلت إلى الدول المجاورة حيث اقتبس اليونانيون "بعض الوصفات والعلاجات الطبية ونقلوها إلى بلادهم ثم إلى أوروبا والتي مازالت مستخدمة إلى اليوم بين الفلاحين في الأرياف"132.

ومن أهم المنجزات العلمية لحضارة وادي النيل ابتكار اللغة الهيروغليفية التي حفظت كل الإنجازات الحضارية والمعارف العلمية والفكرية لسكان وادي النيل، وقد استخدمت اللغة الهيروغليفية في كل مجالات الحياة لا سيما المراسلات السياسية بين حكام البلاد، وفي الكتابة الدينية التي حفظت في المكتبات والسجلات الدينية، وفي النقوش على جدران المعابد والمقابر والأهرامات، وفي التعليم وإبداع الأدب أيضاً الذي برع به المصريون القدماء،

130 د. الشيخ، حسين، سابق، ص 134

131 د. علي، محمد، سابق، ص 81

132 برستد، سابق، ص 67

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ابتكار الكتابة في مصر يعود إلى تاريخ 3500 ق.م، وكانت المحاولات الأولى للتعبير عن الكتابة في عهد الأسر المصرية الأولى حيث اتصفت بكونها كتابة مصورة مستمدة من طبيعة مصر الزراعية وكنائنها المحلية، ثم تطورت تدريجياً عبر الزمن، وانتقلت إلى الحضارات الأخرى كالحضارة الإغريقية التي استخدمتها في حياتها اليومية بعد التعديل عليها بما يناسب النطق اليوناني، ويؤكد ذلك برنال بقوله: إن 25% من اللغة الإغريقية ذو أصل سامي، و20-25% من أصل مصري، و40-50% هندوأوروبي. 133؛ لذلك كان لحضارة وادي النيل الفضل الكبير على الإنسانية أولاً ثم على حضارات الشعوب لا سيما الحضارة الإغريقية من خلال ابتكارهم اللغة الهيروغليفية التي تألفت من 24 حرفاً، وعدت الوسيلة الأكثر سهولة للتفاهم والتعامل مع الآخرين. وقد أسماها الإغريق بالكتابة الهيروغليفية أو الخط الهيروغليفي عندما شاهدوا النقوش المصرية على جدران المعابد والمقابر، ومعنى الهيروغليفية في اليونانية الكتابة المقدسة، فهي تتألف من مقطعين الأول "(هيروس Hieros) أي مقدس والثاني (Gluphe) أي نقش" 134، وظلت مستخدمة حتى "القرن الثالث الميلادي" 135، وقد حظيت الكتابة الهيروغليفية بأهمية خاصة؛ كونها أساس لفهم نصوص الحضارة المصرية القديمة والكشف عن منجزاتها الحضارية، وكانت تعبير فني من خلال الرسوم والأشكال التي أبدعها المصري القديم والتي احتلت "ثقله نوعية كبيرة تؤكد حرص المصري القديم على تسجيل منجزاته وأفكاره، وكانت العلامات الهيروغليفية للغة المصرية القديمة من الواقع المصري المحيط بالفلاح" 136، وقد استخدم المصريون في الكتابة بعدما تطورت "المداد الأسود والأحمر" 137 على أوراق البردي، وقد اعتبرها الكهنة كتابة مقدسة، ونقل صفة قدسيتها علماء الإغريق أيضاً حيث يؤكد أفلاطون قدسيتها بقوله أن علامات الخط الهيروغليفي "تتحول من كونها عناصر كتابية إلى صور فنية إلى (نسق ونماذج) وتحمل في الوقت نفسه صفة القدسية لأنها من صنع الآلهة" 138.

133 برنال، مارتن، أثينا السوداء، 2002، تر: د. لطفي عبد الوهاب وآخرون، ج1، القاهرة، ص29

134 الموسوي، سابق، ص66

135 د. بكر، محمد، سابق، ص 127

136 د. السعدني، سابق، ص19

137 الموسوي، سابق، ص26

138 د. أمين، شرف الدين، الإسهام الحضاري لمصر القديمة في الفلسفة اليونانية، كلية الآداب، جامعة سوهاج، ص6

ويجب الإشارة هنا إلى أن الفضل في نجاح فك رموز الكتابة الهيروغليفية يعود للعالم الفرنسي شامبليون الذي جاء إلى مصر مع الحملة الفرنسية التي قادها الضابط الفرنسي نابليون بوناپرت عام 1798 أثناء محاولته احتلال مصر وقد عثر حينها أحد ضباط هذه الحملة على حجر عرف بحجر رشيد 139 ليبدأ علماء الآثار حينها بفك رموزها ليكشفوا النقاب من بعدها عن المنجزات الحضارية المصرية التي كتبت بهذه اللغة والتي بقيت مجهولة حتى استطاع شامبليون فك شيفرتها. وقد دون على حجر رشيد ثلاث كتابات اثنتان مصريتان الهيروغليفية وهي الكتابة المصورة، والديموطيقية وهي الكتابة الشعبية المبسطة، والثالثة هي الإغريقية 140. وقد مرت الكتابة الهيروغليفية بعدة مراحل تطورت من خلالها إلى الخطوط الثلاثة وهي: الخط الهيراطيقي، والخط الديموطيقي، وآخرها الخط القبطي. فالخط الهيراطيقي هو نفسه الخط الهيروغليفي مع تبسيط بالحروف، وقد "استعمله كهنة مصر القديمة والتسمية مأخوذة من اللغة اليونانية ومعناه (خاص بالكهنة)" 141. أما المرحلة الثانية من تطور الكتابة الهيروغليفية عرف الخط حينها بالخط الديموطيقي الذي استخدمه وظهر في "القرن الثامن ق.م، ومعناه في اللغة اليونانية (خاص بالشعب) ويعتبر الصورة المبسطة للغة الهيروغليفية التي استخدمها المصريون القدماء في العصور عامة الشعب بحروف مبسطة أكثر من سابقته المتأخرة" 142، واستعملت لدى الكتاب والأدباء المصريين الذين كتبوا أشعارهم وقصصهم الشعبية بهذا الخط البسيط، وفي حياتهم اليومية أيضاً من خلال عقود البيع والشراء والزواج وغيره. وأخيراً المرحلة النهائية التي مرت بها اللغة الهيروغليفية وهي الخط القبطي حيث استبدل الخط الديموطيقي بالحروف اليونانية فقد استخدم المصريون الحروف اليونانية وأضافوا إليها ستة حروف ديموطيقية لكتابة لهجتهم الجديدة المأخوذة أصلاً من الهيروغليفية وسميت باللغة القبطية. 143 وقد وجدت آثار الخط القبطي خلال الألفية الأولى قبل الميلاد لا سيما في "القرنين الثاني والثالث للميلاد، وكلمة قبط تعني باللغة اليونانية أجبتوس أي مصر" 144. وهنا نجد أثر التفاعل والاحتكاك بين حضارة وادي

139 حجر رشيد: هو قطعة من البازلت الأسود عثر عليها أحد ضباط الحملة الفرنسية في يوليو 1799 بالقرب من مدينة رشيد عند مصب فرع

النيل الغربي. انظر: د. بكر، محمد، سابق، ص 19

140 د. بكر، محمد، سابق، ص 25

141 د. كامل، مراد، سابق، ص 228

142 د. كامل، مراد، سابق، ص 228

143 د. الشيخ، حسين، سابق، ص 68

144 د. بكر، محمد، سابق، ص 128

النيل والإغريق من خلال اقتباس الخطوط والحروف الهجائية في لغاتهم التي لم يقتصر اقتباسها على اليونان وإنما امتدت لتشمل كل أوربا في لغتهم اللاتينية.

يجب الإشارة هنا إلى أن اللغة الهيروغليفية كتبت على الألواح الفخارية وعلى أوراق البردي الذي اشتهرت مصر بزراعته في وادي النيل، واشتهرت مدينة جبيل اللبنانية (ببيلوس) على الساحل السوري بتجارة البردي المستورد من مصر القديمة ونقله التجار الفينيقيون إلى أوربا وبلاد اليونان، وكانت صناعة البردي من المهن المحلية التقليدية التي اشتهرت بها مصر، ويعرف هذا النبات المائي في حوض النيل ودلتاه ويتميز بالسيقان الطويلة التي تقسم إلى شرائح وتجفف. وعلى الرغم من أنه ليس ورق لكنه استخدم كمادة للكتابة ولعب دوراً في تطور الكتابة في العالم القديم وارتبط فيما بعد بالحضارة المصرية. وكلمة البردي مشتقة من الكلمة اليونانية (Papuros) والتي تعني الورق المصنوع من البردي ومنها اشتق كل الكلمات التي تدل على الورق وصناعته ومن يتاجر به وتوسعت الكلمة حتى شملت العلم والكتب والمكتبات كمدينة جبيل الفينيقية التي سبق وذكرتها الباحثة والتي سميت "ببيلوس بسبب امتنانها تجارة البردي، وتبعاً لذلك سميت المكتبات في معظم اللغات الأوربية باسم ببلوتيكا (Bibliothek) ، كما سمي الكتاب المقدس اسم (Bible) 145.

وفي مجال الأدب فقد عرف المصريون أنواعاً كثيرة من الأدب الجنائزي والأدب الديني والشعبي والقصصي وكتب هذه الأنواع المتعددة منذ بداية عصر الفراعنة حتى العصر اليوناني - حين سقطت مصر بيد الإسكندر المقدوني - وصولاً إلى رضوخ مصر لنير الاحتلال الروماني، والأدب المصري القديم يشبه الأدب المشرقي لا سيما الأدب السومري الذي تميزت به حضارة ما بين النهرين من حيث قدمه من بين آداب الأمم القديمة وروعة مضمونه، وقد دون الأدب على ورق البردي وألواح الفخار والألواح الخشبية والصروح الحجرية والتوابيت، لكن غالبيتها تلفت بسبب رطوبة منطقة وادي النيل التي سببها فيضان النهر، أما الآثار التي وجدت في الصحراء كانت سلمية واستطاعت الحفاظ على نفسها كونها دفنت في الصحراء الجافة.

ولأن الكتابة قد احتلت مرتبة هامة في مصر وحظي القارئ والكاتب بوظيفة مرموقة في مؤسسات الدولة، وبتزرف إلى طبقة اجتماعية عالية فقد سعى سكان وادي النيل إلى التعلم رغم قلتهم؛ بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية الصعبة حيث فضل غالبية السكان العمل كمزارعين وفلاحين في أراضيهم لكسب قوتهم في الحياة، وقد تولت الكتبة آنذاك مسؤولية حفظ ونقل الأدب لا سيما في العصر الكلاسيكي حيث اقتبست القصص المصرية القديمة وتداولت في اليونان بصورة كبيرة كقصة سنوحي ووصايا أمنمحات. ومن أقدم الآداب المصرية (الأدب الديني) الذي برع المصريون فيه من خلال تفسير العقائد الدينية على شكل نظريات للحياة الآخرة وأسرار الكون والأساطير المتعددة للآلهة وتفسير الظواهر الطبيعية التي لم يجد لها تفسيراً علمياً، إضافةً إلى الصلوات وأناشيد الآلهة "ونصوص الأهرام والتوابيت وكتاب الموتى 146 وكذلك المدائح الدينية للآلهة والتي بلغت ذروتها أيام أخناتون في مدائح المعبود آتون" 147، وقد أثرت نصوص الحكمة المصرية القديمة على الإغريق خاصةً (تعاليم آمون)، و(تعاليم بتاح حوتب) وتميزت هذه النصوص باحتوائها على نصائح حياتية وأخلاقية أثرت في الأدب الفلسفي اليوناني. ولأن الشرقي بصفة عامة والمصري بصفة خاصة شديد التدين فقد نظم للآلهة أناشيد دينية وترانيم تشيد بهم وتثني على نعمهم وتصف قوتهم فقدموا لها القرابين والثناء، وشملت هذه الأناشيد وصفاً لأعمال الآلهة في خلق العالم معبرين لهم "في صورة شعرية عن امتنانهم وعبادتهم، وقد ترك هذا الشعر الديني المقدس أثراً بالغاً على الآداب اللاحقة الكلاسيكية القديمة اليهودية والمسيحية" 148، وقد أثر الأدب الديني المصري القديم على الإغريق من خلال نقل الأساطير الدينية المصرية لا سيما أسطورة (أوزوريس) التي أثرت في الأدب والفلسفة اليونانية والتي عدت رمزاً لعلاقة الإنسان بالآلهة والحياة، ويعتقد أن فكرة (أطلانتس) التي كتب عنها الفيلسوف اليوناني أفلاطون قد تكون مستوحاة من الأدب الديني المصري أيضاً، وامتد هذا التأثير ليشمل الطقوس الدينية التي ستفيض عنها الباحثة في المجال الديني.

146 كتاب الموتى: هو عبارة عن كتابات دينية تدون على أوراق البردي يتم وضعها مع الموتى لتقيهم مخاطر بعد الموت. الموسوي، سابق، ص26

147 د. بكر، محمد، سابق، ص 128

148 د. أمين، شرف الدين، سابق، ص30

ومن أنواع الآداب المصرية أيضاً الأدب القصصي الذي شمل أنواعاً مختلفة من القصص التي كتب بعضها لإيصال فكرة أخلاقية ونصيحة تربوية وعرف بأدب الحكمة كأسطورة (تحت) إله الحكمة والمعرفة عند المصريين، وقد تأثرت الأساطير اليونانية بهذا الرمز الأسطوري، وكتبت هذه القصص بالأسلوب الشعبي وكان هدفها الترفيه والتسلية كقصة "البحار الذي كاد أن يغرق على الرغم من كونه الشخص الوحيد الذي نجا بعدما تحطمت سفينته في البحر إثر عاصفة هوجاء، ووصلت هذه القصة مدونة على بردية محفوظة بمتحف الأرميتاج بمدينة لينغراد" 149، وقد تشابهت الكثير من الآداب المصرية القديمة مع الأنواع الأدبية كالإغريقية لا سيما الملاحم والقصص الشعبية والأساطير فيرى بعض النقاد المسرحيين أن هناك تشابهاً دقيقاً بين قصة البحار المصري وبين بعض ما ورد في الأوديسة لهوميروس عندما وصف الأهوال التي لاقاها أديسيوس بطل الملحمة الشعرية وهو في طريق العودة إلى أرض الوطن بعد أن شارك في تحطيم طروادة مع غيره من أبطال الإغريق دفاعاً عن الشرف مما أدى إلى القول بأن هوميروس قد تأثر بهذا اللون الأسطوري الملحمي من الأدب المصري القديم. 150، وقد خلط الأدب المصري بين الواقعية والخيال وتناول موضوعات تحت على الحب والولاء والانتماء والعدالة ومساعدة الغير. ولقد كان التأثير الشرقي عامّةً والمصري خاصةً جلياً على الآداب الإغريقية في فترات مستمرة وأهمها الفترة القديمة، وفي العصر الصاوي، وفترة العصر الهيلينستي، ويؤكد جونتر التأثير الشرقي على اليونان من خلال قوله: "إن أكثر التأثيرات الأجنبية التي أثرت على تطور الآداب والأساطير اليونانية كانت من نصيب المشرق" 151.

وعندما غزا الإسكندر المقدوني مصر بدأ عصر جديد يعرف بالعصر الهيلينستي 152 الذي مزجت فيه علوم الشرق مع الغرب وبدأ التأثير والتفاعل الحضاري بين الحضارتين المصرية القديمة واليونانية لا سيما على المستوى الثقافي والأدبي، وكانت مصر حينها رائدة بين بلدان الشرق القديم حيث لا تزال قصص سنوحي والقروي الفصيح التي تغلغت في الآداب الأخرى كدليل على ذلك، وقد اعتبرت هذه القصص نقطة انطلاق أدب القصة

149 د. بكر، محمد، سابق، ص 133

150 د. بكر، سيق ذكره، ص 134

151 جونتر، فيتمان، مصر والأجانب في الألفية الأولى ق.م، 2009، تر: عبد الجواد مجاهد، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص 269

152 تعرف الآثار الأدبية الإغريقية التي ظهرت في القرون الثلاثة الأخيرة قبل ميلاد المسيح بأدب العصر الهيلينستي وهو العصر الذي يبدأ بموت الإسكندر المقدوني في 323 ق.م وينتهي باستيلاء الرومان على مصر عام 30 ق.م. د. الشيخ، حسين، سابق، ص 106

والرواية لديهم، وكانت مدينة الإسكندرية آنذاك رائدة المدن في العلم والعلوم من جديد في العصر الهيلينستي حيث اعتبرت "زعيمة المراكز الأدبية الأخرى، فقد كان نجاح الأديب أو العالم مرتبط برأي نقاد مدينة الإسكندرية، وكان إنتاج الإسكندرية الأدبي طابع خاص عرف فيه وأصبح نموذجاً يحتذى به في العالم"153.

ومن المعروف أن الحكام المصريين في آخر عهد جلبوا المرتزقة الإغريق إلى مصر للعمل في الخدمة العسكرية حيث عاد البعض من هؤلاء المرتزقة إلى بلادهم ليخبروا عائلاتهم عن خيرات مصر الوفيرة وثرواتها الهائلة، والبعض الآخر من الجنود المرتزقة اختلط بالتجار الإغريق في مدينة نقرطيس وأخبروهم عن مدى النعيم الذي يعيشه المصريون وازدهار الفكر والحضارة فيها "قوصلت أخبار عجائب طيبة"154 إلى اليونان، وتأثرت بها الأغاني الهوميرية في آخر عهدها، وظهرت أيضاً الآلهة المصرية في الأساطير الدينية اليونانية"155، ومن هنا بدأ اليونانيون يرغبون في الهجرة إلى وادي النيل ورؤية حضارتها التي وصلت صداها إلى كل أمم العالم القديم لتبدأ مرحلة الاحتكاك والتفاعل الحضاري لتنتج لنا حضارة مبدعة كان مزاجها كافوراً جمعت حضارتين تحملان أسس التطور العقلي والعلمي وكانتا أساس التقدم والازدهار في المعارف والعلوم في كل العصور وهما الشرقية المصرية واليونانية.

153 د. الشيخ، حسين، سابق، ص 106
 154 طيبة: هي عاصمة الصعيد في أيام الفراعنة ومكانها اليوم مدينة الأقصر. زكي بك، أحمد، قاموس الجغرافية القديمة، 1899، ط1، مصر، المطبعة الكبرى الأميرية، ص56
 155 برستد، سابق، ص389

ثالثاً. المجال الاقتصادي:

. يعدّ الاقتصاد المحرك الأساسي لتطور المجتمعات والحضارات القديمة، ويمثل الدافع الرئيسي لتنظيم المجتمع وتلبية حاجة السكان اليومية من خلال الأنشطة الاقتصادية المتنوعة من زراعة وصناعة وتجارة كانت قائمة على الأدوات البسيطة المتوفرة بسيطة الصنع، وعلى تبادل السلع بأسلوب المقايضة، ثم تحضرت المجتمعات وسكت العملات المعدنية التي ساهمت في تطوير التبادل التجاري، وجدير بالذكر أن حضارة وادي النيل قد اشتهرت عبر تاريخها الطويل بنشاطها الاقتصادي الكبير حيث قام اقتصاد مصر منذ بدء الخليقة على الزراعة والثروة الحيوانية، وامتلكت مصر أراضي زراعية خصبة واسعة ساهم نهر النيل في توفير المياه لأنواع الزراعات كافة ولسقاية الأراضي الخضراء والتي جذبت السكان منذ القدم، وبنوا على ضفتيه القرى التي تطورت لاحقاً إلى المدن بعد أن شهدت تحضراً في كافة مجالاتها؛ فلولا نهر النيل لما كانت مصر ذات أهمية اقتصادية وسياسية فهو ليس مجرد ممر مائي فحسب وإنما كيان سياسي-اقتصادي، وآية من آيات الله على الأرض لدرجة أن سكان مصر القدماء قدسوه واعتبروه واهب الحياة والخلود، وكذلك كان الكهنة يمارسون طقوسهم الدينية بالقرب من نهر النيل حيث يغنون له ويمدحونه ويثنون على عطايها ليعيد لهم الحياة إلى مصر من جديد، وكانت مياه نهر النيل تحمل الطمي الخصب لا سيما في أوائل فصل الصيف؛ لذا كان من الطبيعي أن يقدر المصريون نهر النيل ويقيمون له الحفلات والأعياد السنوية وينظمون له الأغاني 156 حيث يعرف هذا الفصل من السنة بجفاف طقسه في المناطق القريبة من البحر الأبيض المتوسط.

كل هذا جعل من الفلاح المصري إنساناً مكتفياً غذائياً واقتصادياً لكن بالمقابل كانت بلاد الإغريق التي عرفت باسم (هيلاس) تفتقر إلى التربة الخصبة والتي لا تضاهي خصوبة وادي النيل التي زرعت في أراضيها الخصبة الحبوب كالقمح والشعير المادة الغذائية الأساسية للشعوب منذ القدم فاضطر اليونانيون إلى استيراد معظم المحاصيل الزراعية من مصر لا سيما القمح لأن بلاد الإغريق كانت "لا تنتج سوى القليل من محصول القمح

ولهذا اعتمدت على استيراده من مصر"157؛ مما أدى إلى تحكم مصر بالأمن الغذائي اليوناني، ومن ثم بالسياسة التجارية للإغريق حيث كان هذا السبب الاقتصادي أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت الإسكندر المقدوني يفكر في غزو مصر أولاً قبل غيرها طمعاً بسلتها الغذائية كونها تكفي العديد من الشعوب التي رغب في توحيدها تحت جناحه. ويعتبر هذا أحد أوجه التفاعل الحضاري بين وادي النيل والإغريق قديماً في المجال الاقتصادي وهو السعي إلى السيطرة على أكبر اقتصاد عالمي ومخزون غذائي وجد في وادي النيل يكفل تحقيق العدالة والاستقرار السياسي، وبذلك استطاع الفلاح المصري التحول لاحقاً من منتج للمحاصيل الزراعية إلى متقن للصناعات والمعدات اللازمة للحياة اليومية وللزراعة، ومن ثم الإتجار بما زرعه وصنعه مع الدول المجاورة عبر البر والبحر، حيث اعتمد في التصنيع بدايةً على نوعين من الصناعات: الصناعات الزراعية كالصناعة النسيجية وصناعة قصب السكر وصناعة ورق البردي، إضافةً إلى الصناعات التقليدية كصناعة الزجاج والتعدين وغيره. ولقد عدت الصناعة النسيجية من أهم الصناعات في مصر القديمة وأقدمها حيث لعبت دوراً أساسياً في الحياة اليومية والمعتقدات الدينية وفي الاقتصاد المصري القديم بصورة عامة، وأتقن المصري القديم الصناعات النسيجية بكافة أنواعها على عكس غالبية الحضارات التي اعتمدت على الصوف.

أما في مصر فإن خصوبة نهر النيل ووفرة المياه وطبيعة أرض مصر ومناخها الدافئ ساهم في إنتاج القطن والكتان الذي اشتهر على أنه نسيج ناعم الملمس على الجسد يرغب الجميع في امتلاكه، وبما أن الكتان قد ارتبط بالعقيدة المصرية من حيث النقاء والطهارة فقد احتل أهمية كبيرة في المجتمع المصري القديم لا سيما بين الكهنة الذين اعتادوا على ارتداء الكتان الأبيض النقي أثناء الطقوس الدينية، وقد "غزل المصريون الكتان المصريين ونسجوه وصنعوا منه أنسجة غاية في الدقة والرقّة والمتانة يصعب على الرائي تمييزها عن الأنسجة الحريرية"158، حتى أن لفائف المومياوات صنعت من الكتان أيضاً؛ لضمان الحفاظ على الجسد في رحلته إلى العالم الآخر، وعلى الرغم من أن منتج القطن والكتان كان أبيض اللون إلا إن المصريون صبغوه بصباغ طبيعية استخرجوها من النباتات كالزعفران ونبات النيلة، وزينوا الأقمشة وطرزوها بأيديهم، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن

157 الزنكي، سابق، ص412

158 برستد، سابق، ص63

الملابس تنوعت بتنوع الطبقات الاجتماعية وتعدد المناسبات وعرف المصريون التزيين بالحلي وتميزت مصنوعاتهم بالدقة الفنية العالية وجمال التشكيل واستمدت العناصر الزخرفية من الطبيعة مثل نبات البردي والنخيل وزهرة اللوتس والأحجار الكريمة. 159 سيما وأنهم عرفوا مهنة الصياغة منذ قدم التاريخ، وصنع المصريون الحلي التي اتصفت "بدقتها وإتقانها حيث جلبت الفضة من آسيا الصغرى" 160. إضافةً إلى ذلك فقد اشتهر المصريون أيضاً بصناعة ورق البردي الذي يعد منتجاً هاماً وأساسياً للكتابة سواء في المعابد أو في القصر الملكي، وهو نبات مثّلت الساق ينمو في الأعراس والمستنقعات وعلى ضفتي نهر النيل وشواطئ البحيرات، وظل مستخدماً طوال العصر الفرعوني وأيضاً في العصرين اليوناني والروماني حتى أن اليونان والرومان استوردوه من مصر والتي بدورها كانت تصدر ورق البردي عن طريق ميناء بيبيلوس الفينيقي على البحر المتوسط، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن اليونانيين لم يتمكنوا من نقل زراعة نبات البردي من مصر إلى اليونان وإنما نقلوا صناعته فقط حيث اعتمدوا في ذلك على استيراد المادة الخام من مصر التي بدورها تحكمت بأسعاره وتجارته.

وعرف المصريون الصناعات الغذائية كصناعة زيت الزيتون والنبذ، وعرفوا أيضاً الصناعات التقليدية كصناعة الفخار التي اعتمدت على طمي نهر النيل، إضافةً إلى صناعة الزجاج حيث عرف المصريون طرق صهر الزجاج وتلوينه وتشكيله عن طريق النفخ البدائي، ووصلت المصنوعات الزجاجية الفاخرة إلى بلاد الإغريق كسلع باهظة الثمن، وبعد بناء مدينة (نقراطيس) في مصر تعلم سكانها اليونانيين أسرار صناعة الزجاج المصري ثم بدأوا بمحاكاتها إلى أن طوروها ونقلوها إلى بلادهم الأصلية في اليونان. وعرف المصريون أيضاً التعدين وكيفية استخراج المعادن حيث اعتمد المصريون على شركائهم التجار من الفينيقيين والإغريق في جلب المعادن اللازمة للصناعة كالنحاس والقصدير من غرب أوربا على الرغم من توفر معدن النحاس في مصر لكن ازدادت الحاجة إليه بسبب كثرة الطلب على الصناعة وبسبب "وفرة النحاس في سيناء صنع المصريون منه أدواتهم النحاسية ومن

الزمرد والفيروز المتوفر في سيناء والنوبة صنعوا الحلي بأشكاله المتعددة"161 ، وتوفرت في مصر أيضاً الأحجار الصلبة الصالحة للبناء إضافةً إلى توفر الطمي (الطين) بفعل فيضان نهر النيل حيث اعتبر الطمي المادة الأساسية للبناء، وكانت صناعة الأحجار وقلعها من مقالعها وصقلها وتهذيبها من أهم الصناعات في مصر كونها السبب في زيادة ثروة البلاد ورفاهيتها سنوياً حيث كانت محاجر الجرانيت بالشلال الأول والأحجار الرملية جهة السلسلة والأحجار الصلبة الملساء جهة وادي الحمامات ومحاجر المرمر خلف تل العمارنة.162

، وقد صنعوا بالأحجار التماثيل والمسلات والتوابيت والأثاث والأدوات كونهم شعب خلق بالفطرة

ميال للفنون والإبداع والقدرة على الصناعة بدقة ورهافة. وبالاتقال إلى النشاط الاقتصادي الثالث والأهم وهو التجارة التي عدّت المحرك الأساسي للتنمية الاقتصادية في وادي النيل سمحت من خلالها للشعوب بالحصول على السلع والمحاصيل الزراعية المتوفرة، وقد أتقنت مصر التجارة الداخلية والخارجية، واتصفت التجارة الداخلية باحتكارها من قبل الفرعون الذي استأثر بها واعتبرها حكراً على السلطة الحاكمة؛ لذا لم تتحدث النصوص التاريخية عن "التاجر حتى نهاية الألف الثانية ق.م كما أنه لم نجد أية قوانين مصرية قديمة تنظم التجارة ذلك بسبب أن التجارة كانت بيد الفرعون ابن الإله على الأرض، فهو الزارع الأول والتاجر الأول يملك أرض مصر وما تنتجه من محاصيل زراعية"163، وكانت التجارة الداخلية تقوم على بيع المنتجات الزراعية والصناعية لسكان وادي النيل في الأسواق، أما التجارة الخارجية فكانت المنتجات والسلع ترسل إلى شواطئ البحر الأحمر أو عبر نهر النيل لنقلها إلى البلاد الأخرى حيث اعتبرت المياه أحد وسائل النقل النهري للتجارة الخارجية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى البضائع التي استوردتها مصر في العصر الفرعوني حيث اقتصر على المواد الأولية اللازمة للصناعة كالمعادن والمواد الغذائية غير المتوفرة بكثرة لديها فاستوردت من "بلاد الإغريق وآسيا الصغرى وصقلية وإيطاليا النبيذ وزيت الزيتون والصوف والعسل والسمك المجفف والجبن والمرمر والحديد والفسفور (من

161 حلاق، سابق، ص33

162 برستند، سابق، ص61

163 وهيبه، سابق، ص307

صقلية) والخيول من قرطاجة"164، والقصدير والنحاس من الأناضول كونهما المعدنان الأساسيان لصناعة البرونز اللازم لصناعة الأسلحة. أما البضائع التي صدرتها مصر القديمة إلى الدول الأخرى كآسيا الصغرى وبلاد الإغريق كان أهمها: المحاصيل الزراعية الوفيرة في وادي النيل كالقمح والحبوب لاسيما وأن بلاد الإغريق كانت تقتقر إلى القمح؛ وهذا أحد أسباب اهتمام البطالمة بتجارة الحبوب في مصر مع اليونان "بسبب ارتفاع أسعارها في بلاد الإغريق فاهتم الحكام البطالمة بالحبوب اهتماماً خاصاً"165. إضافةً إلى الذهب الأفريقي والمصنوعات الحجرية والزجاجية، والأقمشة النسيجية بكل أنواعها وعلى رأسها الكتان الذي تميز بخفته بما يلائم مناخ مصر الحار، وجودته ومتانته، وقد اعتبر من السلع الفاخرة لدى اليونان، وبعد سيطرة الإسكندر المقدوني على مصر احتك اليونان بالصناع المصريين ونقلوا تقنيات الغزل والنسيج من مصر إلى بلاد الإغريق، وعلاوةً على كل ذلك صدرت مصر أهم منتج زراعي وهو ورق البردي الذي صدر إلى دول العالم القديم كافةً حيث كانت "مصر المنتجة الوحيدة والمصدرة له، وقد اعتمدت بلاد اليونان على هذه السلعة منذ القرن الخامس قبل الميلاد والدليل على ذلك خطاب الفيلسوف سبوسيبوس إلى الملك فيليب المقدوني أواسط القرن الرابع ق.م. يعتبر الفيلسوف للملك بعدم قدرته على الكتابة بسبب ندرة الورق نتيجة الاحتلال الفارسي مصر"166

وبصورة عامة من المعلوم أنه كلما ازدادت الصناعات المحلية نمواً ازدادت الحاجة إلى التجارة لتصريف هذا الإنتاج؛ لذا نشطت التجارة الخارجية في مصر والتي كانت الجسر الأول الذي ربط بين الحضارة المصرية القديمة والحضارة الإغريقية وزاد من عمق العلاقات السياسية والاقتصادية لا سيما مع المناطق القريبة من مصر التي اعتبرت مستعمرات إغريقية كسواحل البحر الأبيض المتوسط وسواحل بحر إيجه، ولقد برزت في التاريخ القديم جزر بحرية تعاملت مع مصر تجارياً منذ القدم وكانت على اتصال تجاري وثيق مع مصر هما: جزيرة كريت وجزيرة قبرص. بالنسبة إلى جزيرة كريت -تقع في البحر المتوسط إلى جنوب اليونان- كانت أول جزيرة من جزر البحر الإيحي على تواصل مباشر مع بلاد المشرق الأدنى القديم ومن "أولى المناطق التي انفتحت على

164 وهيبه، سبق ذكره، ص315

165 وهيبه، سبق ذكره، ص320

166 الزنكي، سابق، ص412

حضارة وادي النيل وتفاعلت مع حضارتها فاقترنت منها استخدام معدن البرونز الذي كان محور حضارتها¹⁶⁷. أما جزيرة قبرص-التي تقع جنوب آسيا الصغرى وغرب الساحل الفينيقي-برزت في التاريخ المصري القديم كأهم جزيرة تعاملت مع مصر تجارياً، ولعبت أيضاً دور الوسيط التجاري بين مصر والغرب الأوربي حيث كانت قبرص تجلب البضائع والسلع من "الشرق القديم بناءً على طلب واحتياجات الغرب اليوناني"¹⁶⁸ لا سيما من مصر والساحل الفينيقي بسبب حاجتهم للمواد الغذائية غير المتوفرة في بلادهم، وإلى الأدوات والأقمشة المصنعة في الشرق حيث "تاجر اليونانيون مع بلدان شرق البحر المتوسط بمختلف السلع من الحبوب إلى حجر الرحي (الطاحون) والحريز والنحاس والصمغ والملح حتى عهد طاليس"¹⁶⁹.

ولا بد لنا أن نتطرق هنا إلى أهم الأسباب التي ساهمت في ظهور التجارة الخارجية في وادي النيل: أولاً وقوع مصر على طريق القوافل التجارية التي تمر من آسيا إلى مصر، ومن بلاد النوبة إلى مصر فسواحل البحر المتوسط والتي ساهم الفراعنة بحمايتها وتأمينها، ولاحقاً عني الإسكندر المقدوني ومن بعده البطالمة كذلك بحماية طرق القوافل التجارية وقاموا بتعبيدها والإشراف عليها ناهيك على أن "تأسيس الإسكندر المقدوني لمدينة الإسكندرية قد أحدث ثورة في طرق التجارة العالمية وأوجد طريقاً تجارياً جديداً لجميع القارات الثلاثة القديمة التي تلتقي في مصر"¹⁷⁰ ، وثانياً وجود شركاء تجارة بحرية للمصريين كالفينيقيين والإغريقين والذين ساهموا بجلب المواد الخام من المناطق البعيدة إلى مصر، وثالثاً وأخيراً إشراف مصر على أهم بحار العالم حيث تطل مصر على البحرين الأبيض المتوسط والأحمر؛ مما ساعدها على ازدهار تجارتها الخارجية، وعزز الاحتكاك التجاري بشعوب البحر المتوسط كالإغريق والقبارصة الذين كانوا على اتصال وثيق مع المصريين القدماء وعن طريق القبارصة والفينيقيين تعلم الإغريق أسس الملاحة والتجارة البحرية وبذلك اجتمعت مصلحة هؤلاء الثلاثة معاً

167 الناصري، سابق، ص25

168 د.السعدني، سابق، ص191

169 بيري، عندما تغير العالم، ص18

170 الناصري، سابق، ص532

"والتقت المصلحة القبرصية مع المصلحة المصرية في الاستعانة بالمرتزقة اليونان في منتصف القرن السابع قبل الميلاد والذين لعبوا دور الوسيط التجاري طامعين في الحصول على الثروات"171.

ويجب الإشارة هنا إلى أن التجارة الخارجية بلغت مبلغاً عظيم الشأن في مصر مكنتها من السيطرة في فترات زمنية على البحر الأبيض المتوسط وعلى الساحل الفينيقي أيضاً. وقد دلت الوثائق على وجود تجارة خارجية لحضارة وادي النيل من خلال اكتشاف عملات نقدية أجنبية في مصر حيث عثر "في أواخر القرن الثامن ق.م على عملات أجنبية غير مصرية، إضافةً إلى اكتشاف أدلة على وجود نظام المقايضة في مصر"172، وكانت المقايضة تقوم أساساً على تبادل السلع والمنتجات الزراعية والغذائية دون استخدام النقود التي لم تكن قد اخترعت بعد حيث دفعت المدن اليونانية قيمة القمح والبردي للمصريين بإرسال بعض منتجاتها من الخمر والأخشاب.173 لكن بعد السيطرة الإغريقية على البحر الأبيض المتوسط واكتشاف العملات النقدية

كوسيلة للتبادل التجاري سك اليونانيون العملات الفضية "لغنى بلادهم بمناجم الفضة حيث أصبحت العملات الفضية اليونانية الوسيلة العالمية للتبادل التجاري"174، وبسبب إطلالة مصر على البحرين المتوسط والأحمر، وإتقانها التجارة البحرية اهتمت ببناء السفن واستخدم المصريون علم الفلك والنجوم في تحديد الاتجاهات في الصحراء وأثناء ركوب البحر، وأصبحت علومهم فيما بعد أساس الملاحة البحرية الدقيقة لدى الإغريق الذين نقلوها إلى أوروبا، وكان المصريون رواداً في بناء السفن الملاحية ونهل الإغريق منهم تقنيات بناء الهياكل السفن المتينة وتركيب الأشرعة فتطورت مراكبهم البحرية التجارية التي نافست بقية دول العالم القديم لكن وجب القول هنا أن خبرة بناء السفن والملاحة والتجارة البحرية اكتسبها الإغريق أكثر من التجار الفينيقيين.

وجدير بالذكر أن بناء المدن الجديدة وإنشاء المراكز التجارية والموانئ البحرية هي أحد وجوه النشاط الاقتصادي؛ وهذا ما دفع المصريون إلى الاهتمام بالمدن الساحلية التي كانت واجهة البلد التجارية في وقت كانت تعاني بلاد

171 د.السعدني، سابق، ص195

172 حلاق، سابق، ص33

173 الزنكي، سابق، ص412

174 سارة، تاريخ الإغريق، 2021، 2022، ص23

الإغريق من الفقر والحروب فبدأت هجراتهم المتتالية إلى مصر التي اشتهرت بوفرة نشاطاتها الاقتصادية وفرص العمل الكثيرة والثروات الهائلة، وبسبب فقر التربة الزراعية في بلاد الإغريق هاجر الإغريقون إلى مصر التي استقبلتهم كونها كانت على تواصل مستمر مع بلاد الإغريق منذ القدم كعلاقة تجارية، واتسمت الهجرة اليونانية بالانتقال التدريجي حيث هاجروا في البداية من "أقاصي شمال أوروبا إلى اليونان ثم إلى المراكز الصناعية، ثم إلى مصر كتجار أو كمرتزقة"175، واستخدمهم حينها حاكم مصر (بسامتيك) كمرتزقة في الجيش المصري لتوطيد حكمه كون الإغريق محترفي في المجال العسكري واحترفوا الارتزاق نتيجة لانعدام موارد الرزق وتفشي الفقر في بلادهم.176؛ فانتشروا في سواحل البحر المتوسط يطلبون العمل فمنهم من التحق بالجيش المصري ومنهم من جاء إلى مصر طالباً العمل بالتجارة وتجمع بعض التجار اليونانيين على ساحل البحر المتوسط وعلى دلتا النيل وأسسوا في البداية أحياء يونانية خاصة بهم، فبالقرب من مصب نهر النيل الغربي (القانوب) أو الكانوبي عند "سايس أسس تاجر ميلتوس -ملطية-حي لهم أطلق عليه اسم (قلعة أهل ميلتوس) في عصر أبسمتيك أي حوالي 650 ق.م، وعرفت فيما بعد نقراطيس"177 Naucratis في (محافظة البحيرة حالياً) وبسبب اختيارهم هذا المكان ربما يعود إلى قربه من بحر إيجيه وسهولة الإتجار وجلب المواد الخام لمصر، وبدأت فعلاً ازدياد تدفق التجارة الإغريقية على مصر، فأعجب حكام مصر بالتجار الإغريق وأعطوهم حريتهم التجارية وعاشوا حياة مستقلة في المدن التجارية داخل مصر حتى أن (بسامتيك) حاكم مصر آنذاك "شجع هجرة الإغريق إلى مصر وبنى لهم المستوطنات التجارية فانتشرت المصنوعات الإغريقية في مصر لاسيما في غربي الدلتا"178. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن استقرار التجار والمستوطنين اليونانيين في مصر لعب دوراً محورياً في تعميق التبادل التجاري بين البلدين من خلال أولاً تبادل السلع والمنتجات بين مصر والإغريق، وثانياً بناء المدن والمراكز التجارية اليونانية في مصر، وثالثاً والأهم أن انتقال الإغريق إلى مصر لم يقتصر على انتقال السلع التجارية فقط؛ وإنما شمل نقل الأفكار والعلوم والعادات والعقائد وأضحت مصر بوتقة لصهر الثقافتين الإغريقية

175 برستند، سابق، ص389

176 د.سارة، خليل، تاريخ الإغريق، 2022/2021، جامعة دمشق، ص23

177 نصحي، سابق، ص3

178 برستند، سابق، ص389

والمصرية مما سمح بانتقال الأفكار والعادات والثقافات، ولا بد من التأكيد أيضاً أن بناء مدينة نقرطيس كمركز تجاري يوناني في مصر كان بمثابة امتداد لسياستهم التجارية والاستيطانية في التوسع والانتشار فبناء مستعمرة يونانية داخل مصر شأنها شأن العديد من المستعمرات التي بدأ اليونانيون في

تأسيسها على سواحل البحر الأسود والبحر المتوسط وجنوب إيطاليا في بداية حركتهم التوسعية. 179 ، وفي القرن السابع ق.م في عهد أبسماتيك الأول أصبحت نقرطيس أهم مركز تجاري، ثم منحها الملك أحمس الثاني - الذي عرف لدى الإغريق باسم أمازيس - حكماً ذاتياً في القرن السادس ق.م وكانت نقرطيس بمثابة منطقة تجارية ومستودعاً ضخماً حيث كانت السفن التجارية تفرغ حمولتها، ثم توالى تأسيس المراكز التجارية اليونانية في مصر حيث أسس الإغريق "في منف حي خاص بهم" 180 ، ثم تعمقت العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الإغريق أكثر لا سيما خلال القرن الرابع قبل الميلاد مع دخول الإسكندر المقدوني حيث شهدت مصر نوعاً من الهجرة الإغريقية ذات الطابع التجاري والثقافي أيضاً، وعلى الأرجح كما يبدو أن سبب توجه الاسكندر لاحتلال مصر كان بسبب "مدى الثراء الذي بلغته مصر ووفرة قدراتها الاقتصادية إضافةً إلى موقع مصر المتميز" 181 .

وسار الإسكندر المقدوني على خطا الفراعنة حيث اهتم بمصر وحاول تحسين اقتصادها أكثر فأكثر مستفيداً من موقع مصر الاستراتيجي وإمكاناتها الاقتصادية الهائلة ببنائه مدينة الإسكندرية التي كان لها التأثير الكبير على التجارة العالمية حيث أصبحت مدينة الإسكندرية الميناء الأول في البحر المتوسط وانتقل مركز التجارة من "مدينة صور الفينيقية إلى مدينة الإسكندرية البطلمية فكانت فرصة للإغريق لفتح طريق جديد يربط بين المحيط الهندي والبحر المتوسط عن طريق البحر الأحمر ليتحول البحر الأحمر إلى قناة تجارية مصرية-إغريقية" 182 ، وفقدت نقرطيس بذلك أهميتها التجارية بعد بناء مدينة الإسكندرية التي فاقتها في أهمية موقعها الجغرافي وقدرتها الاقتصادية والثقافية حيث أراد الإسكندر أن تكون مدينته الجديدة ليس ميناءً تجارياً فحسب؛ وإنما ومركزاً من مراكز الثقافة الإغريقية تلتقي فيها ثقافة الشرق بالغرب وحقاً لم تنقُص مئة عام حتى أصبحت مدينة الإسكندرية

179 د. الشيخ، حسين، العصر الهلنستي، ص20

180 برستد، سابق، ص389

181 الزنكي، سابق، ص411

182 الناصري، سابق، ص535

منارة الثقافة لكل حضارات العالم لكن مات الإسكندر قبل أن يحقق حلمه برؤية قوة مدينته التي أسسها كنقطة انطلاق لمشروعه التوسعي. وسار البطالمة على خطى الإسكندر المقدوني في الاهتمام بتجارة مصر، وتأمين قوافلها التجارية خاصة بعدما أصبح البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر تحت إشرافهم حيث تشير كل الوثائق التاريخية إلى ازدهار تجارة مصر في عهد البطالمة من خلال: توثيق علاقاتهم التجارية مع الدول المجاورة واهتمامهم بطرق التجارة البحرية والبرية والنهرية حيث "أنشأ البطالمة الموانئ على البحر الأحمر وبنوا السفن التجارية، وحفروا القناة التي تربطه بالنيل، وشددوا الحراسة على الطرق الصحراوية الشرقية التجارية، واعتنوا بزراعة المحاصيل الزراعية لا سيما القمح الذي أصبح من أهم صادرات مصر" 183 ، وحاولوا الحصول على ما نقصهم من خامات طبيعية ومحاصيل زراعية من ممتلكاتهم التي استولوا عليها كمصر وسوريا.

رابعاً. المجال الديني:

. احتل الدين مكانةً كبيرةً جداً في حياة سكان وادي النيل الذين تميزوا بتدينهم الشديد وآمنوا بمعتقداتهم الدينية التي كانت جزءاً لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي والثقافي للمنطقة كالحياة الآخرة التي هي امتداد للحياة الأولى؛ لذا ابتكروا فن التحنيط وبنوا قبوراً ضخمة وزخرفوها (الأهرامات) لتكون بيوتاً أبدية لملوكهم، وزودوها بنصائح وإرشادات للميت (ككتاب الموتى) 184 ليتمكن من متابعة رحلته إلى الآخرة بصورة صحيحة. ولقد كونت الديانة المصرية القديمة نظاماً دينياً يتألف من مجموعة واسعة من المعتقدات والطقوس والشعائر التي لعبت دوراً محورياً في تشكيل حياة السكان ونظامهم الاجتماعي والسياسي، ولقد تعددت نظريات خلق الكون في وادي النيل من إقليم إلى آخر لكن غالبيتها تضمنت قيام الإله الأكبر بخلق نفسه من العدم، ثم خلق الكون والكائنات الحية لا سيما نظرية "هليوبوليس" ومكانها حالياً المطرية وتعتبر ضاحية من ضواحي القاهرة- التي تقول: إن الإله الأكبر (أتوم Atum أي الكامل) خلق نفسه، ثم أنشأ عنصر الهواء الذكر وعنصر الماء الأنثى فتزوجا وأنجبا الأرض (جب) الذكر والسماء (نوت) الأنثى، ثم قام إله الهواء بالفصل بين السماء والأرض ورفع السماء عن الأرض، ثم خلق أول جيل للبشر وهم أوزوريس وأخته وزوجته فيما بعد أيزيس ثم (ست) وأخته وزوجته (نفتيس) ولعل أوزيريس وست يقابلان قابيل وهابيل 185، وهذا يتشابه مع ما وجد في الديانات الإبراهيمية لا سيما في القرآن الكريم بقيام الرب بخلق السماء والأرض "أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففلقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" 186.

ويجب الإشارة هنا إلى أن الإيمان بالحياة الثانية بعد الموت هو من عقائد قدماء المصريين قد استلهموه من طبيعة الأرض الزراعية ومن مظاهر الطبيعة والحياة من حولهم "حيث كان للطبيعة المصرية أثر كبير في إيمانهم بعقيدهم بالحياة الأخرى منذ القدم فنهري النيل مثلاً يفيض ثم ينحسر ثم يعود، والقمر والكواكب كذلك تولد

184 كتاب الموتى المصري: هو كتاب ووصفات وتعاليم سحرية استهدفت توجيه قدر النفس الراحلة. جيمس، التراث المسروق، سابق، ص131

185 د. بكر، محمد، سابق، ص59

186 القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية 30

وتموت، والحياة الزراعية تتحسر وتعود¹⁸⁷ من خلال تعاقب الفصول الأربعة واصفرار أوراق الشجر ثم عودة الخضرة والزرع في فصل الربيع، والتي ربطوها بالعقيدة الدينية وبموت الآلهة وبعثها مرةً أخرى كأسطورة (أوزوريس وإيزيس) المصرية القديمة التي تتحدث عن المعتقدات المصرية القديمة حول الملكية والصراع بين النظام والفوضى، ثم انتصار الحق ومفهوم البعث بعد الموت. حيث تقول الأسطورة: أن الإله أوزوريس أحد أكبر الآلهة المصرية والذي كان ملكاً على مصر ويحظى بشعبية كبيرة ومحبة لا توصف قتل على يد أخيه الإله ست بدافع الحسد، وقطع جسده لمنع دفنه ورماء في أنحاء وادي النيل -وهنا تتحدث الأسطورة عن فكرة الموت- فقامت أخته وزوجته المخلصة إيزيس بجمع أشلاء جسده وعاد أوزوريس للحياة مؤقتاً بفعل الطقوس السحرية لينجب ابنه حورس من إيزيس الذي سيثأر لأبيه لاحقاً -حيث تتجلى هنا فكرة البعث بعد الموت- وبعد البعث أصبح أوزوريس إلهاً للعالم السفلي -وهنا تظهر فكرة الحياة الآخرة- وقد جسدت هذه الأسطورة المصرية القديمة الحياة والخصوبة والبعث كدورة الخصوبة في الطبيعة، ودلت أيضاً على صراع الخير والشر وانتصار الخير في النهاية -عندما انتصر الإله حورس على عمه ست بعد صراعٍ طويل وعنيف- وقد انتقلت آلهة مصر إلى الإغريق واقتبسوا عبادة "الإلهة إيزيس والإله أوزوريس من مصر" 188 ، ولأن الحضارات الإنسانية القديمة تزخر بالأساطير والقصص المتشابهة والتي اقتبسها الشعوب من بعضها البعض والتي تعكس رؤيتها للكون وميولها للعدالة وانتصار الحق من بعد الفوضى فقد ظهرت بعض الأساطير المشابهة للأسطورة المصرية القديمة في أساطير الأمم القديمة، وقارنت الباحثة بين الأسطورة المصرية القديمة (أوزوريس) وما وجدته مشابهاً لها في الديانات الإبراهيمية وفي أساطير الإغريق واستطاعت استنتاج أوجه الشبه والاختلاف باختصار دون التطرق إلى فحوى الأساطير لتبين من خلاله هدف البحث وهو مدى التفاعل الحضاري والثقافي بين حضارة وادي النيل وحضارة الإغريق. حيث تتشابه هذه الأسطورة المصرية القديمة مع قصة أبناء آدم وحواء (قابيل وهابيل) في الكتب المقدسة للديانات الإبراهيمية التي كانت تعبر عن خطيئة الحسد والغيرة وعواقبه المدمرة والصراع العائلي الدموي الذي يؤدي إلى القتل بسبب تمزق الروابط الأسرية، وتتشابه القصة المصرية القديمة مع (الأوريستيا)

187 د. بكر، محمد، سبق ذكره، ص53

188 الزنكي، انتصار، سابق، ص416، وتجده أيضاً: باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، 2011، بغداد، ص109

للكاتب اليوناني (إيسخيلوس) -وهي عبارة عن ثلاثية من المأساة (التراجيديات) كتبها في القرن الخامس قبل الميلاد تتناول قصة عائلة أترئوس- من حيث الصراع العائلي الدموي الذي انتهى بالاعتماد على العدالة والعقل والقانون.

أما أوجه الاختلاف فتكمن بعنصر البعث الذي لا نجده في الديانات الإبراهيمية أو الأسطورة الإغريقية وهنا يعكس تبايناً في المعتقد الديني من حيث الإيمان بالموت أو ربما لم يذكر البعث مطلقاً في قصة (قابيل وهابيل) رغم إيمان أتباع الديانات الإبراهيمية بالبعث بعد الموت، إضافةً إلى أن الحسد والغيرة كان الدافع الرئيس في أسطورة (أوزوريس) المصرية وقصة (قابيل وهابيل) الإبراهيمية واللذان ركزتا على دورة الحياة من خلال الموت والبعث وخطيئة القتل وأهمية الطاعة الإلهية وانتصار الحق. أما في الأسطورة الإغريقية فكان الدافع الرئيس الانتقام العائلي فقط وركزت في نهايتها على انتصار العدالة والقانون. ولقد احتل الإله أوزوريس مكانة كبيرة في الدين المصري وفي بقية أديان الحضارات الأخرى التي انتقل إليها فقد كان موته وبعثه يمثلان خصوبة الأرض والحياة، وق كان قدماء المصريين في طقوسهم الدينية لا سيما في الاحتفالات الدينية بفيضان نهر النيل يصنعون تماثيل من الطين للإله أوزوريس بين نبات الشعير رمزاً لولادته من جديد فهو الإله "الأكثر شعبية في مصر لأنه ابن الأرض والسماء فعبادته أملاً بالبعث والحياة، وكان إلهاً لزراعة النيات لا سيما القمح" 189 ، ورغم وفاته فقد حافظ قدماء المصريون على مكانته السامية حيث أصبح إله العالم السفلي ورئيساً لمحكمة الموتى حيث كان يحاسب الموتى على أفعالهم وقد وجدت آثار هذا الإله من خلال النقوش حيث رسم الإله أوزوريس بصورة وهو "جالس على عرشه وأمامه كل شارت الملك والسلطان، ومن خلفه اثنان وأربعون قاضياً يمثلون عدد أقاليم مصر كلها وضع الميزان" 190. ولأن المصريين آمنوا بالحياة الأخرى بعد الموت فقاموا ببناء المقابر الضخمة، وزينوها بالنقوش وعطروها بالبخور والنباتات ذات الرائحة الزكية، واختص كهنة وأطباء بعلم التحنيط وكنتموا أسرارهم، وقد تطورت مقابرهم مع مرور الزمن من "المصاطب وهو الشكل المستطيل التقليدي إلى

الأهرامات الضخمة"191. هذا العلم الوحيد الذي أخفوه ليس على الإغريق فحسب وإنما على جميع سكان الأرض وحتى سكان وادي النيل فلم يعرف أسرار المهنة إلا الكهنة الذين دفنوا هذا السر معهم بعد وفاتهم.

ومن آثار التفاعل الحضاري بين حضارة وادي النيل والإغريق انتقال بعض المفاهيم الدينية المصرية القديمة المتعلقة بالموت والآخرة إلى الإغريق لا سيما (قضية الحياة والبعث) التي دوراً كبيراً في ديانة وادي النيل كما سبق وسلطت الباحثة الضوء عليها، إضافةً إلى عقيدة (تناسخ الأرواح) والتي انتقلت على الأرجح من مصر إلى بلاد الإغريق وعقيدة (التحدث مع الأموات). فقد أورد فيثاغورث فكرة اقتبسها عن مصر عندما زارها وتعلم على يد كهنتها طقوسها وعلومها وفلسفتها وتتضمن فكرته: تحول الميت إلى حياة أخرى ليس هذا فحسب وإنما "التناسخ وهو انتقال روح الإنسان إلى مخلوق آخر أيضاً، وإن هذه الفكرة الدينية قد نشأت في مصر وتكونت فيها تدريجياً ودرست فيما بعد في مدارس اللاهوت المصري-الإغريقي نقلاً عن مصر وحرف فيثاغورث فيها فكرة تحول المتوفي إلى تناسخ روحه وعده عقوبة للنفس الآثمة إلى أن تتطهر وتلتحق بالسماء"192، وقد وجدت هذه النظريات والعقائد الدينية التي تتحدث عن تناسخ الأرواح وانتقالها من جسد الإنسان إلى الحيوانات في مصر القديمة حيث أورد هيرودوت ذلك بقوله: يذهب المصريون إلى القول بأن ديميتر (إيزيس) وديونيسوس (أوزيريس) أقوى آلهة العالم السفلي وأول من خرج بالعقيدة القائلة بخلود الروح وذهابها إلى أن الروح لا تفسى وإنما تحل عندما يموت الجسد في مخلوق آخر لحظة ولادته وفي هذه العقيدة تدور الروح دورتها وتحل في مختلف المخلوقات من حيوانات وطيور وأسماك حتى تحل في النهاية في جسد إنسان وقد أخذ بهذه النظرية بعض الكتاب الإغريق المتقدمين والمتأخرين ونسبوا هذه العقيدة لأنفسهم.193 ، ولا تزال هذه العقيدة موجودة لدى بعض الطوائف الدينية حتى وقتنا الحاضر. أما عقيدة (الحديث مع الأموات) فقد كان في مصر اعتقاد أن بعض الكهنة قادرين على الحديث مع الأموات، وقدرة الفرعون على إحياء الموتى وقد وجدت هذه العقيدة سبيلاً لها في بلاد الإغريق في شعر الملحمة اليونانية المبكرة ومن بين ذلك الفكرة غير اليونانية التي برزت في

191 د. بكر، سبق ذكره، ص 53

192 د. أمين، سابق ص26

193 هيرودوت، سابق، ص189

النشيد الحادي عشر للأوديسة لأسطورة نيكيا الشهيرة التي تجعل الميت في استطاعته التحدث إلى الأحياء

من خلال قربان الدم بوصفه غذاء. 194

ولا شك أن ميول المصريين إلى الدين يشبه ميول بقية الأمم القديمة كالليونانيين والذي يعود إلى الخوف من المستقبل والرغبة في ضمان النعيم والبعد عن العذاب والخوف من غضب الآلهة عليهم هذه الآلهة التي كانت تسيطر على العالم أجمع، إضافةً إلى رغبتهم في تفسير الظواهر الطبيعية التي تحدث ومعرفة أسبابها وتفسير أسرار الكون بتعاليمه وزواجه مما أدى بهم المطاف إلى التأمل والتفلسف في مشكلة أصل الوجود تأملاً ميتافيزيقياً سامياً وهذا ما عدّه الفيلسوف اليوناني أرسطو أسماً لأنواع التفكير". 195 ، ولكسب رضا آلهتهم قاموا بالصلوات والطقوس الدينية وقدموا لها القرابين. واعتقدوا بقوة الآلهة التي تتحكم بالكون والبشر وأن الكوارث الطبيعية والأمراض ما هي إلا عقوبة من الآلهة على البشر؛ لذا مارسوا طقوساً دينية وقدموا القرابين التي ساهمت في الاستقرار الروحي للإنسان واعتبرت وسيلة للنجاة واسترضاء الآلهة، وعدّ الحاكم في مصر (الفرعون) نائب الإله على الأرض وله السلطة المطلقة في سلطات الحكم وشعائر الدين. وقد قسم الكاهن المصري (مانيتون) الفراعنة إلى ثلاثين سلالة وزعت على ثلاثة فترات زمنية: "الفترة الأولى خلال فترة السلالة الأولى والثانية عندما بلغت ممفيس شهرة كبيرة، والفترة الثانية في عهد أمنحوتب الثاني حيث استقرت الحياة السياسية في مصر وبنيت الأهرامات، والفترة الثالثة عندما أصبحت طيبة عاصمة لمصر وشيدت المعابد كمعبد آمون-الكرنك" 196، ولقد ساهم الاتصال والاحتكاك الحضاري القديم بين مصر والإغريق إلى اقتباس الكثير من المظاهر الحضارية والدينية وسبق وأن أشارت الباحثة إلى أن هذا التفاعل لم يقتصر على بحر إيجه وسواحل آسيا الصغرى خلال الألف الثالثة ق.م، وإنما تعداه للألف الأولى قبل الميلاد عند دخول المقدونيين مصر ومن مظاهر التفاعل الديني انتقال عبادة بعض الآلهة المصرية إلى بلاد الإغريق حتى أن الفيلسوف اليوناني سقراط كان "يقسم بالآلهة المصرية دون أن يعترض عليه تلاميذه" 197؛ وهذا يعود لتقديم حضارة مصر وقوة آلهتها مقارنةً بغيرها. إضافةً

194 جونتر، سابق، ص 269

195 د. أمين، سابق، ص 8

196 الموسوي، سابق، ص 30-31

197 د. أمين، سابق، ص 11

للمؤرخ برنال الذي يشير إلى أن معظم أسماء آلهة الإغريق جاءت من مصر 198، وقد تأثر الإغريق بالعبادات المصرية وأظهروا احتراماً لها وشبهوها بآلهتهم ويؤكد ذلك المؤرخ اليوناني هيرودوت بقوله: أبوللو عند المصريين هو حوروس، وديميتر هي أيزيس، وأرتميس هي بوباستيس 199، وأن الإغريق اقتبسوا "ديانتهم من المصريين" 200 وشبهوا كبير آلهة الإغريق زيوس بالإله المصري أمون والإله حورس (الصقر)، وشبهوا الإلهة حتحور المصرية بالإلهة أفروديت آلهة الجمال عند الإغريق التي انتقلت عبادتها إلى الرومان باسم (فينوس) وتعود أصول عبادتها إلى المشرق العربي حيث كانت تمثل "الربة السورية عشتار ربة الخصب والحب والجمال" 201 وعند دخول الإسكندر المقدوني مصر أظهر احتراماً للآلهة المصرية وأضفى قدسية الآلهة على حكمه وقدم القربان للآلهة المصرية إلى درجة أنه "نصب نفسه فرعوناً في معبد بتاح في منف على الطريقة المصرية القديمة مثلما كان يعمل ملوك مصر القدماء" 202 ، وسار خلفاء الإسكندر على نهجه السياسي في تقدير الآلهة المصرية حيث أظهر البطالمة احتراماً للعقيدة الدينية المصرية ومقابل هذا اعتبر كهنة آمون الحكام البطالمة فراعنة لمصر. حتى في عهد البطالمة ابتكروا إله جديد يجمع بين صفات الآلهة المصرية والآلهة الإغريقية "ليكون عامل سياسي من خلال توحيد الشعبين من الناحية الدينية وهو الإله سيرابيس" 203 ، ثم بدأ الإغريق يتفاعلون بكثرة مع المعبودات المصرية سيما في القرن الرابع حيث "فقدت الآلهة الإغريقية تأثيرها ورهبتها بسبب عجزها عن وقف الحروب وحماية الإنسان من الوباء، فاتجه عامة الناس لديانات الشرق الوافدة مثل أمون وإيزيس وغيرها" 204. وجدير بالذكر هنا إلى أن الإله هرقل والمعروف بالإله (هيراكليس) الذي يعتبر بطلاً إلهياً (نصفه إله) كما تدعي الأسطورة اليونانية وهو ابن الإله زيوس كبير آلهة الإغريق، وبشتهر بقوته الخارقة ومغامراته المتنوعة، وقد زعم الإغريق أنه إله يوناني ولكن بعد البحث تبين أنه إلهاً مصرياً انتقل من مصر إلى بلاد الإغريق أثناء احتكاكهم الحضاري قديماً وقد أكد ذلك هيرودوت بأنه مصري الأصل خاصة وأن هناك

198 برنال، مارتن، سابق، ص47

199 هيرودوت، سابق، ص206

200 جونتر، سابق، ص269

201 د. الزين، محمد، د. حامدة، أحمد، د. الطيار، محمد، آثار العصور الكلاسيكية الإغريقية، 1998، منشورات جامعة دمشق، دمشق، مطبعة الداودي، ص44

202 د. بكر، سابق، ص252

203 د. الشيخ، حسين، سابق، ص40

204 الناصري، سيد أحمد، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، 1973، ط2، جامعة القاهرة، دار النهضة العربية، ص596

إشارات تاريخية وأسطورية تربطه ببعض الآلهة المصرية، كما ذكر العالم توينبي أن المصريين "إله قديم خاص بهم يدعى هرقل ضمن زمرة الاثني عشر إلهاً، وأن الهلليين قد أخذوا اسم الإله هرقل عن المصريين وأطلقوا اسم هرقل على ابن أمفثيون" 205.

وعلى الأرجح أن الاختلاف الكبير بين حضارة وادي النيل وحضارة الإغريق أن المصريين لم يعظموا إلا آلهتهم على عكس الإغريق الذين أسرفوا في "تعظيم الأبطال ورفعهم إلى مكانة الآلهة" 206 ، ولا بد من الإشارة هنا إلى أهم التفاعلات الحضارية في المجال الديني هي ديانة التوحيد التي انتقلت آثارها من مصر إلى بلاد الإغريق، وكان مؤسس هذه الديانة كما أشارت الدراسات التاريخية حاكم مصر أمنحوتب الرابع 1350-1367 ق.م والذي عرف بلقب (أخناتون)، ويعد أخناتون من الشخصيات العظيمة التي أثرت في التاريخ المصري القديم وتاريخ بعض الأمم القديمة أيضاً، وتتجلى عظمته بقيامه بتوحيد الآلهة في مصر ودعوته لديانة التوحيد المتمثلة بعبادة أتون (الشمس)، وتعدّ ديانة أتن "أقدم ديانة موحدة في تاريخ العالم هذا إلى جانب كونها ديانة عالمية؛ حيث انتشرت خارج حدود مصر واتسمت برحمة إلهاها ليس فقط على المصريين وإنما اتسعت لتشمل كل الشعوب، وقد وجدت آثار هذه الديانة من خلال النقوش الكتابية على جدران المقابر وعلى معبد الكرنك" 207 ، وقد انتقل فكر أخناتون الديني إلى بلاد الإغريق وحاولوا محاكاة أخناتون وتقليد ديانة أتن عن طريق توحيد الآلهة الإغريقية حيث تأثر بذلك "كسينوفا الذي التقط خيط التوحيد من الفلاسفة الشرقيين وأعجبته فكرة الإله الواحد وقام بدور أخناتون في بلاده اليونان عن طريق نقد عقائد معاصريه من جهة، والدعوة إلى إله واحد من جهة أخرى" 208

وجدير بالذكر أن المفوض الرئيس والمسؤول الأساسي عن الدين في حضارة وادي النيل من بعد الحاكم أو الملك هم الكهنة الذين اتسموا بمهامهم الدينية من خلال: قيادة الطقوس والشعائر الدينية، وممارسة الطب الكهنوتي الذي يقومون بواسطته بتطهير الجسد البشري من الأرواح الشريرة المتسلطة عليه أو من الإثم المرتكب أو من غضب الآلهة، إضافةً إلى دورهم في خدمة الآلهة من خلال إضفاء القدسية على الملك وشرعية حكمه؛ وتقديم

205 توينبي، أرنولد، 1990، الفكر التاريخي عند الإغريق، تر: لمعي المطيعي، ط2، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، ص223

206 هيرودوت، سابق، ص157

207 د. أحمد، محمود، تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، 2012/2011، ج1+ج2، جامعة دمشق، ص206

208 د. أمين، سابق، ص30

الولاء مما ساعد على تحقيق الاستقرار السياسي في مصر، إضافةً إلى إدارة المعابد والإشراف على التلاميذ الجدد (المريدين) وعلى الكتب الدينية وكتابتها وحفظها وتعليمها للكهنة الجدد، وعلاوةً على ذلك إتقان السحر والقدرة على التنبؤ بمستقبل الحاكم ومستقبل بلاده، وحسب رواية هيرودوت فإن الكهنة المصريين قد "امتلكوا قوى خارقة للطبيعة وقدرة كبيرة في السحر وكانوا يتمتعون بقدرة على التحكم في عقول الناس (التنويم) كونهم تدربوا على الأسرار الأعظم" 209، وقد ذكرهم الله تبارك وتعالى في محكم آياته الكريمة عندما واجهوا نبي الله موسى عليه السلام بسبب قوة سحرهم بقوله تعالى: "وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين، قال نعم وإنكم لمن المقربين" 210. وكان منصب الكاهن غالباً ينتقل بالوراثة عن طريق اختيار الكهنة للشخص، أو في بعض الأحيان امتياز من الملك كمكافأة له أو لفعل قام به. وإن منصب الكهانة كان قريباً من الملك والقصر وعدّ رجل من رجال الدولة؛ كل هذه الميزات جعلت سكان وادي النيل يرغبون في تقلد منصب الكهانة وطلبها وتعلم مهنتها، ولقد كانت مهنة الكهانة وإدارة المعابد بحظبان بين القدماء بشرف كبير لكن الآن تقابلان بإهمال كبير. 211 ولقد اتصف الكهنة في حضارة وادي النيل بصفات جسدية اختلفت عن بقية كهنة الحضارات الأخرى من حيث: حلق الرؤوس فقد كان كهنة غالبية الحضارات يتسمون بشعورهم الطويلة ولحاهم البارزة أما في مصر "فيخلقون رؤوسهم، وليس هذا فحسب وإنما يحرصون على تنظيف أجسادهم من الشعر حتى لا يعلق بها القمل أثناء تأدية الطقوس الدينية، ويرتدون الملابس المنسوجة من الكتان، وينتعلون الأحذية التي صنعت من ورق البردي لأنه كان من المحظور عليهم استخدام غير الكتان في اللباس والبردي للانتعال، ويشربون بكؤوس من النحاس" 212 إضافةً إلى حرصهم الشديد على النظافة الفائقة للجسد، ومن مهام الكهنة أيضاً أداء الطقوس الدينية والشعائر في مواسم الاحتفالات والأعياد، وتعد الطقوس وجه من أوجه التفاعل الحضاري بين منطقة وادي النيل واليونان حيث انتقلت غالبيتها إلى الإغريق بحكم سبق الزمن والتاريخي حيث كان المصريون القدماء أول من أقام الأعياد والاحتفالات الدينية بسبب فيضان نهر النيل، وانتقلت طقوسها إلى بلاد اليونان والتي عرفت

209 جيمس، جورج، سابق، ص130

210 القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية 113/114

211 سترابون، وصف لبيبا، سابق، ص72

212 هيرودوت، سابق، ص149

قديمًا باسم (هياس) لا سيما طقوس الاحتفال بالإله ديونيسوس حيث يؤكد هذا التشابه في "طقوس ديونيسوس في مصر وهياس أنه ليس محض صدفة لأن هذه الطقوس كانت تجري في هياس فقط دون بقية المدن الهيلينية وهذا التشابه ليس في الطقوس فحسب وإنما وفدت سائر أسماء الآلهة تقريباً إلى هياس من مصر، وكثير من البدع الأخرى التي وفدت من مصر إلى هياس مع تعديلات بسيطة على شكلها"213.

وآخر ما ستحدث عنه الباحثة عن أوجه التفاعل الحضاري الديني بين وادي النيل واليونان هو عبادة الحيوانات وتقديسها والتي وجدت بالأصل في منطقة المشرق العربي وانتقلت إلى بلاد الإغريق مع مرور الزمن؛ ويعود ذلك إلى طبيعة البلاد الزراعية التي وفرتها خصوبة نهر النيل حيث عاش الإنسان في طبيعة زراعية ومن حوله الحيوانات التي كانت غالبها عوناً له في العمل والتنقل والحراسة، والبعض الآخر استخدم صوفها وجلدها ليستر جسده وليرد عنه برد الشتاء، واقتات على لحومها وألبانها. وكانت رمزاً للخصوبة بسبب تكاثرها فأغنته وسدت رمقه وكانت سبباً في كفايته بالحياة، على أن بعض المصريين اعتبر الحيوانات أنها تمتلك قدرة خارقة فرفع بعضها إلى مرتبة الآلهة لا سيما وأنه شعر بالخوف من بعض الوحوش الكاسرة حيث تؤكد ذلك إحدى الروايات الدينية في الديانات الإبراهيمية (اليهودية) أن (موسيس) يقصد النبي موسى عليه السلام- كان "كاهناً مصرياً يقطن في الأرض المسماة السفلى -شمال وادي النيل- وقد هرب من هناك بعد أن عارض نظام الحكم ورافقه كثير من عبدة الإله المتدينين، وعلم عند عودته أن المصريين يتصرفون بشكل سيئ عندما يصورون الإله في صور حيوانات متوحشة أو أليفة"214 ، وهنا يقصد الثور أبيس، حيث اعتبر قدماء المصريون أن الثور من ممتلكات الإله أبافوس (أبيس - الإله الثور).215 ، وقد وصفه سترابون بقوله: "إن الثور أبيس هو نفسه أوزوريس يعيش في معبد في مدينة ممفيس، وهو ذو لون أبيض في الجبهة وفي بعض الأجزاء الصغيرة من الجسم أما بقية الأجزاء فهي سوداء"216. وجدير بالذكر أن قدماء المصريين لا يقدمون الثيران كقرابين وإنما يضحون بالأغنام والماعز باستثناء "الثور والعجل الذكر فإنهم يضحون به للإله آمون بشرط أن يكون نظيفاً أما

213 توينبي، أرنولد، 1990، سابق، ص 198، 197

214 سترابون، وصف بلاد ما بين النهرين، سابق، ص 66

215 هيرودوت، سابق، ص 150

216 سترابون، وصف ليبيا ومصر، سبق ذكره، ص 60

الأنثى فالشائع عندهم تجنب التضحية بها لأنها مقدسة عند الإله إيزيس، وتصور هذه الآلهة في شكل امرأة ذات قرنين كالبقرة وتشبه في هذا صورة الإله (إيو ١٥) عند الإغريق²¹⁷، وهي فتاة أحبها كبير آلهة الإغريق (زيوس)، وقد تحولت إلى بقرة لحمايتها من غيرة الإلهة هيرا زوجة زيوس، وأخذ اسمها من البحر الأيوني عقر الاتصال والتفاعل الحضاري بين مصر واليونان.

217 هيرودوت، سابق، ص151

خامساً. مجال العمارة والفن:

. تعدّ العمارة والفن العامل الجمالي لأي حضارة إنسانية فهي تأثر تأثراً كبيراً في حياة الإنسان وفي حسه الفني والثقافي، وتوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتترك أثراً عميقاً على الأجيال القادمة فهي تعكس تاريخ وثقافة القدماء كونها السجل المادي للتاريخ والحضارات والثقافات وهوية المجتمع وتراثه حيث تربط الحاضر بالماضي العتيق، وتحمل بين طياتها قصص تطور الشعوب وأفكارها وعاداتها الاجتماعية وعقائدها الدينية على مر العصور، وتهدف إلى تقديم رسالة الثناء للآلهة عن طريق تصويرهم ونحت مجسماتهم وتضخيمها لمنحها الهيبة والقوة، ولأن المصريين آمنوا بالحياة الأبدية والبعث من بعد الموت دفعهم هذا إلى بناء المقابر الفاخرة كالمصاطب والأهرامات لحفظ جثث الموتى.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن العمارة المصرية ارتبطت بالدين المصري القديم وبالعقائد الدينية المنتشرة آنذاك وبعباداتهم وتقاليدهم الاجتماعية فقد استنتجت الباحثة ذلك بعد رؤية صور التماثيل وكيفية تجسيدها، وقراءة الكثير عن نحت التماثيل والمجسمات المصرية أن: المرأة المصرية القديمة قدست زوجها، وحظيت للمرأة أيضاً بمكانة مرموقة في المجتمع آنذاك، وقدسوا الحاكم (الفرعون)، واحترموا الآلهة وقدروها، ومنحوا بعض الحيوانات كالثور والصقر قدسية دينية من خلال تصويرهم كمجسمات ربطوها بالآلهة؛ لقوتها وعطاءها اللامحدود، وعنوا بالحياة الآخرة وجهزوا لها القبور الخاصة التي تحفظ أجساد الأموات وزينوها بالنقوش الدينية لتكون دليلاً لهم عند بعثهم، ونحتوا التماثيل لأصحاب المقامات العالية كالحكام لتكون بديلاً للجسد الذي يفنى فكانت "تتحت التماثيل على شاكلة صاحبها في مرحلة شبابه وهي أحسن مراحل حياته ويكتب عليها اسمه وألقابه لتحل روحه فيها بعد الموت" 218 وقسم الآثاريون العمارة المصرية إلى أنواع منها: العمائر الجنائزية، والعمارة الدينية، والعمارة المدنية والعسكرية. شملت العمارة الجنائزية كل ما يتعلق بدفن الموتى والحياة الآخرة، ولقد مرت بأربع مراحل تطورت من خلالها المقابر الملكية من المصاطب إلى المقابر المنحوتة في الصخر ففي المرحلة الأولى كانت المقابر تعرف (بالمصاطب) التي ظهرت منذ بدء حضارة وادي النيل، في اللغة العربية تعني المصطبة البناء المرتفع قليلاً

والذي يأخذ شكل المستطيل يبنى فوق حجرة الدفن، وكان للفرعون "قبرين أحدهما في مصر الشمالية والآخر في الجنوبية حيث يتضمن أحد القبرين الجثمان والآخر يعتبر ضريح رمزي، ويحاط بالقبرين العديد من القبور كرسالة دينية وفنية أن هذه القبور حرس للفرعون وقرباناً له"219. أما المرحلة الثانية تطورت خلالها المصاطب إلى أهرامات مدرجة كهرم زوسر المشهور في سقارة حيث يقال إن الملك زوسر "أصدر أمر إلى المهندس المعماري الشهير (إيمحوتب) أن يبني مقبرة أكثر فخامة مما قبلها فشيّد له بناء ضخّم يتألف من 6 مصاطب تتناقص بالحجم وتندرج تعلوه قمة مسطحة"220، ثم تطورت إلى المرحلة الثالثة وأصبحت الأهرامات كاملة كالأهرامات المعروفة بأهرامات الجيزة (خوفو، خفرع، منقرع) وقد بدأت عندما أراد ملك مصر (سنفرو) بناء هرم مدرج كمن سبقه من الملوك لكنه "أضاف عليه طبقة سطحية فكان هذا أول هرم حقيقي"221، إلى أن انتهت بمرحلتها الرابعة من التطور.

حيث بنى الملوك مقابرهم في باطن الجبال؛ لحمايتهم من اللصوص كمقابر وادي الملوك في الأقصر، وتعدّ الأهرامات من أجمل الأمثلة على العمارة الجائزية المصرية وأضخمها، ومن أقدمها هرم زوسر ثم هرم ميدوم، وأشهرها أهرام الجيزة الثلاثة وتمثال أبو الهول الذي شيّد في عهد الأسرة الرابعة وبلغ عدد الأهرامات التي بنيت 97 هرمًا.222، ولم تستمر مصر على تقاليدّها القديمة في فنون عمارتها وإنما طوّرتها مع مرور الزمن حيث شهد عصر الدولة الحديثة المصرية في وادي النيل أساليب معمارية جديدة من خلال ابتكار تصميمات محلية وفنون دقيقة اقتبسها النحات المصري من محيطه ومن طبيعة مصر على جدران المعابد الضخمة لا سيما معبد الكرنك وأبو سمبل ونحتت المسلات الفرعونية-وهي عبارة عن أعمدة حجرية ضخمة تتحت من الغرانيت- ووضعت عند مداخل المعابد، واستخدمت الأعمدة بكثرة في المعابد وكانت تيجانها تصمم على أشكال نباتية مثل زهرة اللوتس ونبات البردي والنخيل، واختلفت المقابر الملكية من مرحلة تاريخية إلى أخرى وفقاً للأسر الحاكمة

219 الموسوي، سابق، ص33

220 الموسوي، سابق، ص35

221 الموسوي، سابق، ص35

222 الموسوي، سابق، ص19

في مصر حيث شهدت "مقابر الأسرة الأولى استعمال الغرانيت كأرضية في مقبرة الملك يوسفيس" 223 ، ووضعت جثث الموتى بتوابيت خشبية زينت بنقوش دينية عرفت باسم نصوص التوابيت 224 هذا الاتصال الوثيق بين الدين والعمارة تجسد على كامل أراضي وادي النيل وحضارتها القديمة بالمجسمات والتماثيل والأبنية والأضرحة والنقوش الدينية أيضاً.

أما العمارة الدينية التي حظيت بالاهتمام الكبير في أعمال النحات المصري حيث شملت الأماكن المخصصة للعبادة وتقديم القرابين كالمعابد الإلهية والمعابد الجنائزية، كانت تبنى من الحجر لتقاوم عوامل الطبيعة من جفاف ورطوبة، وخصصت المعابد الإلهية لعبادة إله معين كمعبد الكرنك ومعبد الأقصر، أما المعابد الجنائزية فكانت تلحق بالمقابر الملكية وخصصت لإقامة الطقوس الجنائزية للملك المتوفى كمعبد حتشبسوت في الدير البحري، وفي الغالب بنيت المعابد المصرية على نمط معين حيث تبدأ بشارع احتفالي مثل شارع أبو الهول وتصف على جانبيه تماثيل ضخمة لحيوانات أسطورية بجسم أسد ورأس رجل أو امرأة أو صقر، وفي المعابد أبراج ضخمة وفناءات كبيرة وقاعات قائمة على أعمدة وساحات داخلية مظلمة وغرف سرية معتمة ذات طبيعة خاصة لمتطلبات المعبد. 225 ، وأخيراً العمارة المدنية والعسكرية كالقصور الملكية والمنازل والمدن والحصون والقلاع والتي بنيت من الطوب اللبن لذلك لم يتبق منها شيء مقارنةً بالمباني الحجرية التي حافظت على ثباتها أمام عوامل الطبيعة، ومن أشهرها "معبد اللابرنت الذي أطلق عليه الإغريق لقب قصر التيه الذي بناه الملك أمنمحات الثالث في هوراه وبنى القلاع والحصون والأسوار على حدود مصر الشرقية" 226. وفي العموم لقد اعتمد المصريون في البناء كباقي الأمم القديمة على المواد المحلية المتوفرة فاستخدموا اللبن المصنوع من طين النيل لبناء المنازل والقصور الملكية فشيّدوا "عماراتهم باللبن المجفف في الشمس كما يستخدمه اليوم الفلاحون" 227. واستخدموا ورق البردي وسعف النخيل لسقوف للمنازل، والحجر للمباني الدينية والجنائزية كالمعابد والمقابر

223 برستد، سابق، ص 27

224 نصوص الموتى: هي كتابات دينية مدونة على جدران التوابيت الخشبية ظهرت في فترة الانتقال بين الدولة القديمة والوسطى زمن الأسرتين التاسعة والعاشر. انظر: د. بكر، محمد، سابق، ص 55

225 الموسوي، سابق، ص 32

226 الموسوي، سابق، ص 20

227 برستد، سابق، ص 61

لضمان بنائها، واستخدم "الفايبر" أو قطع القصب بين صفوف الطابوق لتقويتها، واتصفت جدران المعابد الكبيرة بطولها وسماكتها حيث يصل سمكها بين 9-24,5 متر ولهذا السبب لم يستخدم القوس في الأبنية الحجرية الضخمة²²⁸. ولم يعاني المهندس المصري من صعوبة نقل الأحجار الثقيلة والضخمة؛ لأنه استخدم مياه نهر النيل إضافةً إلى أنه عرف "الكثير عن علم رفع الأثقال (الميكانيكا)"²²⁹، ومع سهولة إحضار أحجار البناء شيد المصريون العمارات الضخمة والأهرامات الشاهقة ونقلوا الغرانيت من أسوان إلى أنحاء مصر، وعلى الرغم من أن الأدوات التي استخدمها المهندس والمعماري المصري كانت بسيطة ومن صنع أيديهم كالميزان والمطرقة والأزاميل لكنهم أثبتوا أن المباني كانت تبنى بمقاييس صحيحة وكانت الجدران مستقيمة دون انحراف أو اعوجاج. وجزير بالذكر أن العمارة المصرية القديمة تعدّ من أقدم صور العمارة في تاريخ البشرية كون المصريون القدماء مؤسسي علم الهندسة والبناء التي ألهمت الحضارات الأخرى التي جاءت من بعدها، واقتبست منها فنون الهندسة المعمارية، وتميزت العمارة المصرية القديمة في وادي النيل بعدة مميزات منها: ضخامة المباني والأحجار الكبيرة التي بنيت منها المباني الضخمة، والجدران السمكية التي تميل إلى الداخل كلما ارتفعت؛ مما يزيد من متانتها ومقاومتها لعوامل الطبيعة كالكوارث والزلازل، إضافةً إلى أن قدماء المصريين وصلوا إلى مستويات مذهلة في هندسة البناء وزخرفتها ونقوشها باستخدام أدوات بسيطة لا تزال تبهرنا حتى اليوم ونعجز عن محاكاتها وتقليدها، وعلاوةً على ذلك تميزت العمارة المصرية القديمة بمحاذاتها الفلكية الدقيقة وقياساتها الرياضية الصحيحة حيث بنيت المعابد الدينية المصرية وفقاً لمعارف الفلك والأجرام السماوية بحيث تكون المعابد مواجهةً لشرق الشمس لارتباط العمارة لديهم ارتباطاً وثيقاً بالعقائد الدينية وبالتحديد قرص الشمس الذي احتل مكانة هامة في التراث المصري وكان له قدسية دينية ربطت بالآلهة في عهد أخناتون، وسار اليونانيون على خطاهم في هذا النمط من البناء من خلال توجيه إطلالة المعابد الدينية نحو الشمس والناظر إلى هذه الآثار العظيمة في مصر توحى له على أن قدماء المصريين كانوا متقدمين في علوم الفلك والرياضيات فاستطاعوا بناء مجسمات وأبنية وأهرامات بحرفية باهرة.

228 الموسوي، سابق، ص32

229 برستد، سابق، ص66

وستقدم الباحثة أمثلة على ما ورد أعلاه عن دقة البناء وقدرتهم على ربط العمارة بما يتوافق وعلم الفلك والهندسة والحساب: أولاً محاولة المعماريين المصريين ضبط قاعدة الهرم على الجهات الأربعة الرئيسية وضبط زوايا الهرم بشكل صحيح فكانت "أضلاع الهرم نحو الجهات الأربعة مما أثار عجب المؤرخون من دقة الضبط والاتقان"230، وثانياً: بنى المصريون القدماء تمثالاً للملك (رمسيس الثاني) في معبد أبو سمبل بحيث تتعامد الشمس على وجه التمثال في يومين محددين من كل عام يوم مولده ويوم تنويجه (يوم 22 أكتوبر/تشرين الأول، ويوم 22 نوفمبر/تشرين الثاني)؛ مما يعكس معرفتهم الواسعة في علم الفلك والهندسة على حد سواء، وثالثاً: نحتوا تماثيلين في طيبة الغربية وهما في الأصل "تمثالان للملك أمنحتب الثالث الذي يشتهر بالنعمة الموسيقية التي تصدر منه لكن في الواقع إن هذا الصوت ما هو إلا الأتنين الذي يصدر من التمثال بفعل أشعة الشمس في الصباح جعلت من هذا التمثال أسطورة لدرجة أن السياح الأوروبيين حتى اليوم يرغبون بزيارته؛ لأنهم رأوا فيهما صورة أحد ملوك أثيوبيا وحليفه برجام المدعو ممنون والذي ذكر في إلياذة هوميروس أثناء سقوطه بيد البطل أخيل في طروادة"231.

إضافةً إلى ذلك يجب الإشارة هنا إلى أن المصريين لم يستخدموا علوم الفلك والحساب والهندسة في العمارة من بناء القصور والأهرامات والمعابد فقط، وإنما في مسح الأراضي الزراعية وسقاية المزروعات والري وشق الترع والمصارف حيث نعلم أن جاذبية الشمس والقمر تؤثر على البحار من خلال حركات المد والجزر، وأن قياس مسافات الأراضي الزراعية وشق الترع لا يصح إلا بعلوم الحساب والهندسة حتى أن هانز غوديك أشاد بروعة الأهرامات المصرية قائلاً: إن الهرم من أكثر الصروح كمالاً حينما يقف المرء أمامه ويرنو ببصره نحو القمة (الذروة) فيبدو أمامه ثمة طريق يؤدي به إلى اللامحدود ليكون خط ولوج عالم الإنسان البعيد.232 وما يميز الفن المصري في النحت والعمارة ميول المصريين إلى تصوير الطبيعة التي عاشها الفنان في محيطه على عكس اليونانيين الذين اهتموا بتجسيم الجمال فنجد النحات المصري قد نقش زهرة اللوتس على أيدي ملاعقه وشرب

230 برستند، سابق، ص66

231 د. بكر، سابق، ص 101

232 د. الجابري، علي، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديم وحضارة اليونان، ص134

النبيذ في أقداح زرقاوية اللون على شكل برعم اللوتس وصنع أرجل سريره بهيئة أرجل الثيران القوية العضلات وليسها بالعاج.233. إضافةً إلى أن النحات المصري كان ميالاً لنحت تماثيل ضخمة وهذا أحد أسباب تفوقها على غيرها؛ مما جعلها من "أشهر تماثيل العالم القديم قاطبة في نوع النحت العملاق، وفي صلابه أحجارها التي كانت تصنع من أحجار قوية مثل الجرانيت الأسواني"234.

وبالانتقال إلى مظاهر التأثير المصري على العمارة والفن اليوناني ستحدث الباحثة عن التأثيرات خلال الألفية الأولى قبل الميلاد حيث يظهر تأثير الفن المصري بشكل واضح على العمارة اليونانية على مرحلتين: أول مرحلة هي المرحلة القديمة منذ بداية الاحتكاك المصري-اليوناني في سواحل آسيا، وتلاها دخول بعض القادة الفينيقيين والمصريين إلى اليونان وبنائهم مدن كمدينة طيبة، وأيضاً الاحتكاك الحضاري الذي استمر طيلة العصر الساسي-عصر النهضة المصرية (الأسرة السادسة والعشرين)- لا سيما في عهد (بسامتيك) حاكم مصر، وتجلي التأثير المصري من خلال قيام "مدارس التصوير في أيونيا-آسيا الصغرى- على نحت نماذج تشبه ما نحتته كل من ميليتس ورودوس (شرق بحر إيجه)، ونحتت كلازوميني -بالقرب من أزمير-توابيت كبيرة من الفخار نقش عليها معارك تاريخية، وقد عثر على هذا النوع من الطراز مشوباً بالتأثير المصري في مدينة دافني في الدلتا حيث أنزل الملك بسامتيك جنوده المرتزقة من الأيونيين"235 كدليل على التمازج المعماري بين أيونيا ومصر في مدينة نقرطيس حيث نقله التجار اليونانيون من مصر إلى بلاد اليونان الأصلية في شبه جزيرة البلقان أو ما يسمى (Magna Graecia)236. ومن المناطق الأخرى التي شهدت تأثير التفاعل الحضاري المصري-اليوناني من بعد أيونيا (جزيرة قبرص) التي كانت مركز الاحتكاك التجاري والحضاري بين مصر القديمة والغرب الأوربي لا سيما وأن قبرص خضعت للسيادة المصرية في القرن السادس قبل الميلاد -عندما غزاها أحمرس الثاني-كونها أهم مفاتيح السيطرة على طرق شرق البحر الأبيض المتوسط؛ فازداد الاحتكاك الحضاري أكثر في

233 برستد، سابق، ص 67

234 د.السعدني، سابق، ص 24

235 جاردنر، علم الآثار، 1936، تر: محمود حمزة وزكي حسن، سلسلة المعارف العامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ص 99، 98

236 Magna Graecia: اصطلاح لاتيني يعني بلاد الإغريق العظمى ويقابله باليونانية (ميجاليه هيلاس) ويطلق على المستعمرات الإغريقية بجنوب إيطاليا وصقلية التي كانت من أغنى المستعمرات اليونانية لخصب تربتها الناتج عن غزارة أمطارها وأثر الحمم البركانية. انظر: د.الزوين، محمد، آثار العصور، سابق، ص 142

كافة المجالات، وتركت هذه الفترة تأثيراً مصرياً واضحاً على الفن والنحت القبرصي الذي تبنى بعض الأساليب المصرية في النحت حيث "كشفت التنقيبات على مقبرة مبنية في سلاميس القبرصية وبها زخرفة جدارية ذات ألوان عديدة وأهمها زهرة اللوتس المصرية" 237 وبدأت التأثيرات الشرقية واضحة المعالم على العمارة والنحت اليوناني بصورة عامة خلال هذه الفترات سابقة الذكر وتأثر النحت اليوناني في هذه الفترة بالعقائد الدينية الشرقية حيث ظهر فن يوناني جديد "متأثراً بالحضارات الشرقية عرف (بالفن الأيوني) لا سيما في المدن الواقعة على سواحل الأناضول حيث صور الفنانون الإغريقون الإنسان مستقياً في ثياب فضفاضة تخفي تفاصيل جسده بما يتناسب والتقاليد الشرقية المحتشمة، على عكس الفن اليوناني الذي صور الإنسان بشكلٍ عارٍ" 238. ويجب القول هنا أن الفن والنحت الإغريقي اختلف اختلافاً تاماً عن الفنون الشرقية في الكثير من التفاصيل والميول الفنية حيث اعتاد النحاتون اليونانيون على خلو أعمالهم من "الأسرار التي اكتتفت معظم المنحوتات الشرقية ولم يتأثروا بالمفاهيم الغامضة للنحت الشرقي رغم تأثر الإغريق الضئيل بفنون الشرق في البدايات" 239. بينما مال الفنانون الشرقيون إلى ربط منحوتاتهم بأفكارهم وتقاليدهم وبعقائدهم الدينية ورموزها التي عجز الفنانون الإغريقون عن فكها في بداية التفاعل الحضاري، لكن رغم ذلك عمل بعض النحاتون الإغريقيون على نقل التأثيرات المصرية في النحت كونهم أعجبوا بتفاصيله وأساليبه وتأثروا بالتقنيات المصرية لا سيما في القرن السادس ق.م حيث بدأ الفن اليوناني يميل بوضوح أكثر مما سبق إلى نحت التماثيل الضخمة التي تصور البشر والذي نقلوه من مصر مستمدين منها وضعية الوقوف بصلابة والابتسامة الغامضة كتماثيل الكوروس (Kouros) 240 اليونانية التي تصور شاباً يقف بصلابة وينظر إلى الأمام ويديه على جنبه ويقدم إحدى قدميه على الأخرى، لذا كان مجسم الكوروس "مديناً للنحت المصري في بداياته في منتصف القرن السابع قبل الميلاد" 241. كذلك نجد تماثيل الإله أبولو "المعبود الشمسي اليوناني الذي نحتت بشكل مشابه للنحت المصري" 242 من حيث تصميمه كتماثيل

237 د.السعدني، سابق، ص193

238 د. الزين وآخرون، آثار العصور الكلاسيكية الإغريقية، د.1998، منشورات جامعة دمشق، دمشق، مطبعة الداودي، ص46

239 د. العابد، مفيد، دراسات في تاريخ الإغريق، 1979-1980، جامعة دمشق، المطبعة الجديدة، ص368

240 Kouros: أي فتى، والمقصود تماثيل الشباب في العصر القديم ذات الوضعية المواجهة التي يترافق فيها الجانبان وتمتد القدم اليسرى إلى الأمام. د. الزين وآخرون، آثار العصور الكلاسيكية الإغريقية، سابق، ص154

241 د.السعدني، سابق، ص198

242 برستد، سابق، ص390

الكوروس مع إضفاء تعديلات بسيطة عليه من خلال إضفاء شكل الجسد المثالي عليه وهو الجسد الرياضي فنراه مفتول العضلات، إضافةً إلى تمثال لفتاة (كورى) 243 التي صنعت من الرخام والحجر الجيري، وتتميز بأنها تقف بصلابة على قدم متقدمة على الأخرى في كثير من الأحيان وبالابتسامة الخفيفة، وباختصار تمثل تماثيل الكوري وقفة المرأة الشابة في اليونان بجمالها ووقارها، وكانت على عكس تمثال الكوروس العارية كانت تماثيل الكوري ترتدي ملابس ثقيلة (البيلوس - الصوف) ثم أصبحت ترتدي الملابس الخفيفة (الختون الأيوني-الكتان)، وحاول النحاتون في هذه النماذج إظهار جمال القماش وطياته. ولعل أكثر الأدلة وضوحاً على التأثير الشرقي لا سيما المصري في العمارة اليونانية هو استخدام كلمة (كانون Canon) 244 وهي وحدة قياس قديمة ذات أصل شرقي وبالتحديد من منطقة الشرق الأدنى القديم استخدمتها حضارات بلاد الرافدين ومصر القديمة لقياس الأطوال والمسافات وتعادل تقريباً ذراع الإنسان، ثم تطورت عبر الزمن ويتطور معنى الكلمة إلى (قانون) ليصبح بمعنى القاعدة والمعياري في اللغة العربية والعديد من اللغات الأخرى. من هذه البدايات من الاحتكاك الحضاري بين الحضارتين اليونانية والمصرية تأثر الإغريق بما شاهدوه في مصر في القرن السابع والسادس ق.م فتطور الفن اليوناني في المجالات كافة وظهرت الأوابد والمباني والهياكل والتماثيل الضخمة التي استلهموها من الهياكل والمباني المصرية لكن! كانت الأحجار الضخمة في مصر تنقل عبر مياه نهر النيل الذي يربط وادي النيل ببعضه البعض من شماله إلى جنوبه أما في اليونان فقد عانى اليونانيون من صعوبة نقل الأحجار والكتل الضخمة؛ لذا لم ينقلوها كالمصريين إلى مكان العمل وإنما "قطعت الكتل في المحاجر ثم نقلت إلى المكان الذي يريدون إقامة التماثيل فيه، وبعض التماثيل غير المكتملة ظلت باقية مكانها في جبل بنديليكسوس وجزيرة ناكسوس؛ بسبب صعوبة نقلها" 245. ومن أنواع التأثير المصري أيضاً على العمارة والنحت اليوناني ظهور الأعمدة في العمارة اليونانية والتي استلهم المهندسون الإغريقون فكرتها من النماذج المصرية التي شاهدوها في المعابد الدينية خاصة الطرازين الدوري والأويوني الذي انتشر في اليونان مشابهاً للطراز المصري، إضافة إلى أن

243 Kore الصبية أو العذراء وجمعها Korai الصبايا أو العذارى والمقصود بها تماثيل الصبايا الواقفات خلال العصر القديم. انظر: د. الزين وآخرون، سابق، ص145

244 Canon: كلمة من أصل شرقي وهي عصارة مجوفة تستعمل في قياس المسافات المستقيمة وقد استعملها هيرودوت في هذا المعنى كما استعملها أريستوفانيس في شعره في ذات المعنى ومؤخراً استعملها بوكيليتس في مقالة عن النسب بين أجزاء الجسم البشري في فن النحت. انظر:

د. الزين، وآخرون، سابق، ص143

245 د. الزين، وآخرون، سابق، ص48

تيجان الأعمدة المصرية التي أخذت شكل نبات زهرة اللوتس أو النخيل قد ألهمت اليونانيين بزخرفة الأعمدة أيضاً، ولم يحاكي اليونانيون طراز الأعمدة الحجرية التي شاهدها في المعابد المصرية فحسب بل نقلوا حتى عبادة الآلهة المصرية من هذه المعابد "كعبادة الإله أمون المصري الذي أقيم له معبد في أثينا وكان له عرافين ووضع في مصاف عراقي دلفي ودودونا" 246 ، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن التأثير المصري بالعمارة اليونانية ليس نقل وتقليد جاف، وإنما محاكاة واندماج للأساليب والأفكار التي ساهمت في تشكيل تراث معماري عالمي جديد نقل إلى أوروبا وعرف لاحقاً بالحضارة الكلاسيكية التي شملت المنجزات الحضارية للإغريق والمنجزات الرومانية الحضارية في جنوب القارة الأوربية وسواحل البحر المتوسط.

وتتسم مرحلة التوسع الإغريقي في البحر الأبيض المتوسط بأنها أكثر المراحل التي حدث خلالها التفاعل الحضاري المصري-اليوناني والتي بدأت منذ القرن الثامن قبل الميلاد مدفوعاً بالزيادة السكانية الهائلة ونقص الأراضي الزراعية، وفقر البلاد والحاجة إلى موارد جديدة؛ فاندفعوا اتجاه سواحل البحر المتوسط وأسسوا المستوطنات الإغريقية التي لم تكن مستوطنات تجارية فحسب وإنما مدن دويلات مستقلة سياسياً كمدينة نقرطيس، ولقد كان التوسع الإغريقي خلال القرن الثامن والسابع قبل الميلاد "إبذناً ببداية عصر الحضارة الإغريقية الذي امتد ثلاثة قرون تلقى الإغريق خلاله دروسهم العمرانية الأولى من المدارس الشرقية" 247 ، ولقد بدأ عصر التوسع اليوناني بالانتقال إلى الشرق لا سيما مصر ليس من أجل تحصيل العلوم والمعارف فقط، وإنما لرؤية الآثار الشاهقة والثروات الهائلة التي سمعوا عنها من كتابات علمائهم ومؤرخيهم فحاولوا تقليد النحت المصري وأساليب العمارة ومحاكاتها مستخدمين في ذلك أدوات بسيطة متوفرة محلياً مثلهم مثل المصريين في ذلك كالمنشار والمثقب والمطرقة. وجدير بالذكر أن عصر الهجرة اليونانية بلغ أقصاه في "عصر الدولة المصرية الحديثة لاسيما في عصر بسامتيك الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرين المصرية والذي عني بأعمال التعمير والإنشاء وبناء المعابد" 248. ناهيك عن أنه قام بنقل اليونانيين إلى مصر كمرتزقة للخدمة في الجيش المصري

246 الشيخ، حسين، سابق، ص4

247 للمزيد انظر: د.الزين، وآخرون، سابق، ص11، 17

248 د. علي، محمود، الأصول الشرقية للعلم اليوناني، سابق، ص80

وبنى لهم مدن تجارية كان أهمها نقراطيس حيث لعبت نقراطيس دوراً هاماً في التبادل الثقافي والحضاري حيث نقلوا ما شاهدوه في نقراطيس إلى اليونان، وعلى هذا فإن الإغريق تلقوا دروسهم العمرانية الأولى من المدرسة الشرقية ومما يؤيد هذا الرأي أن المدن الإغريقية التي بنيت في العهد البدائي في بلاد اليونان لم تدخل مبادئ التنظيم المقدمة في إنشائها ومنها مدينة أثينا نفسها التي كانت طرقها ضيقة ومتعرجة ومنازلها صغيرة. 249.

وفي مستهل القرن السابع ق.م بدأ التطور في الأسلوب الهندسي اليوناني بعد تأثره بالأسلوب المصري كما تحدثت الباحثة سابقاً من خلال التأثير بمجسمات الكوروس لكن تقصد الباحثة هنا التطور الفني على الأواني المستخدمة في اليونان والتي تأثرت بالطراز المصري الذي شوهد في المستوطنات اليونانية التي أنشأها اليونان في مصر كمدينة نقراطيس حيث ظهر طراز كلاسيكي متكامل في التصميم انعكست على زخرفة الأواني الفخارية حيث قسمت الأواني التي تأثرت بالطراز الشرقي خلال القرنين السابع والسادس ق.م إلى قسمين: الدوري أو الكورنتي، الأيوني أو الرودي، وكان القسم الأول منتشراً بوجه خاص في بلاد اليونان أما طراز القسم الثاني فكان ذائعاً بآسيا الصغرى. 250 ، واتسم الطراز الدوري بالرسوم الهندسية الصارمة والتركيز على الطقوس الجنائزية، أما الطراز الأيوني بدا متأثراً بالطراز الشرقي بشكل كبير من حيث قلة الهندسة الصارمة واستبدالها بمواضيع أكثر حيوية وتضمنت هذه الأشكال الصور الحيوانية الحقيقية والأسطورية كالأسود والوعول، والزخارف النباتية كالورود وسعف النخيل "والصيف النباتية الشرقية كزهرة اللوتس والمراوح النخيلية والوحوش الشرقية كالأسود والنمور" 251 ، ولقد وجد هذا الطراز الأيوني الشبيه بالطراز الشرقي في مدينة نقراطيس المصرية حينما هاجر اليونانيون من بلادهم إلى مصر نقلوا معهم أدواتهم ومعداتهم وتأثروا بالتأثيرات الفنية المصرية في الرسم على الأواني وهو "طراز خاص من الأواني ذات الصور الملونة نقل عن طراز ميليتس ورودوس" 252. أما التماثيل الفخارية فقد مزج النحاتون الإغريق في نقراطيس بين الطراز القبرصي والطراز المصري لينتج لدينا تمازج

249 د.الزين، وآخرون، سابق، ص 17

250 جاردنر، سابق، ص 96، 97

251 د.الزين، وآخرون، سابق، ص 118

252 جاردنر، سابق، ص 99

حضاري مصري-يوناني وأكبر دليل على ذلك "التمثال الفخار في مدينة نقرطيس يشبه التماثيل الفخارية القبرصية، وفي الواقع هو تجسيد لفلاحة مصرية أثناء تقديم القران للمعبد اليوناني"253.

أما المرحلة الثانية من التأثير المصري على العمارة اليونانية فتبدأ منذ دخول الإسكندر المقدوني إلى مصر واستمرت حتى عصر البطالمة وعرفت آثار هذه المرحلة بآثار الحضارة الهيلينستية، ومن أهم آثارها مدينة الإسكندرية التي تجلت فيها "عبقريّة الاسكندر في التخطيط وبراعة بطليموس وخلفائه في التنفيذ"254 فقد مات الإسكندر قبل أن يرى منشأته الجديدة التي حلم به مكتملة البناء فتابع خلفاؤه البطالمة من بعده بنائها، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن مدينة الإسكندرية كانت قبل دخول الإسكندر إليها "عام 331 ق.م قرية قديمة تدعى (رهاكوتس) بين البحر المتوسط وبحيرة مريوط"255 أي أن المنشأة كانت موجودة وقائمة ولم تخلق المدينة من العدم وإنما وسع شوارعها وصمم مبانيها وبنى مبانٍ جديدة بعد أن نظمها، وفي المقابل تسلم تخطيط المدينة المهندس اليوناني الشهير دينوقراطيس الذي صمم المدينة "بمخطط الزوايا القائمة وهي خطة تلائم الإسكندرية بسبب ضيق شوارعها فشق فيها شوارع مرصوفة واسعة ومستقيمة تتقاطع من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب"256 حيث ساد في بلاد الإغريق في القرن الرابع ق.م تصميم المدن بمخططات تشبه رقعة الشطرنج وامتد تأثير هذا الطراز إلى المستوطنات التي بناها اليونانيون على سواحل البحر المتوسط وأقاليم سوريا ومصر وبلاد الرافدين. وجدير بالذكر أن العصر المقدوني الذي بدأ بحكم الإسكندر المقدوني، ومن بعده البطلمي اتسم بأنه عصر التعمير والإنشاء حيث أنشأ الإسكندر المقدوني في كل بلدٍ حل به العديد من المدن كالإسكندرية وأنطاكية وسلوقية ولاوديكية -اللاذقية- وبنى المكتبات كمكتبة الإسكندرية، وأنشأ المباني العديدة المدنية والعسكرية والحصون والقلاع والمعابد الدينية بكل أنواعها وكان عصرًا لم يقتصر على التغييرات السياسية والعسكرية وإنما على المستوى الحضري والعمراني أيضاً تجسد باهتمام الإسكندر بالعمارة لا سيما المدن والمعابد الدينية الشبيهة بالمعابد المصرية، ولعل أشهر المعابد التي عرفت في هذا العصر واعتبرت من أعظم مباني العصر الهيلينستي

253 د.السعدني، سابق، ص197

254 الناصري، سيد أحمد، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، 1973، ط2، جامعة القاهرة، دار النهضة العربية، ص534

255 د. الزين وآخرون، سابق، ص85

256 وهيبه، سابق، ص384

هو معبد "الربة أرتميس" 257 في مدينة أفسوس في آسيا الصغرى والذي عدّ من عجائب الدنيا في العصر القديم" 258 ، ولا بد أن نشير هنا إلى أن فترة حكم الإسكندر كانت قصيرة نسبياً قضاها في تأسيس حكمه من خلال الحملات العسكرية التي قادها؛ لذا فإن معظم المباني التي تنسب إلى عصره بناها هو وأكملها من بعده خلفاؤه البطالمة في مصر والسلوقيين في سوريا كمدينة الإسكندرية التي أكملها خلفاؤه من بعده بعدما صمم مخططها المهندس اليوناني دينوقراطيس (دينوكراتيس) والذي بدوره أنشأ العديد من المباني الشهيرة والتي أضحت من عجائب العالم كمعبد الربة أرتميس سالف الذكر والذي يعد من أجمل آثار العصر الهيلينستي حيث تجلّى في هذا المعبد التفاعل الحضاري بين الذوق المصري والعمارة اليونانية من سيادة الذوق الأيوني في الأعمدة الطويلة الرئيسية واتساع الأبعاد واحتذاء نسب المعابد الشرقية الكبيرة. 259 حيث طرأت على العمارة في هذا العصر الهيلينستي تحولات كثيرة مقارنةً بالعصر السابق من خلال الانتقال من المباني الفردية إلى الحضارية الشاملة كالمدن، والتوجه نحو الضخامة والعظمة؛ لإظهار قوة وثروة حكام العصر الهيلينستي. أما في المعابد الدينية فاتسمت بالاتجاه نحو "الرقّة وأصبحت الأعمدة أكثر طولاً ورشاقة، وبدأ التحول المعماري بزيادة الزخرفة والترف كخروج على طابع البساطة الذي ساد في القرن الخامس ق.م" 260.

كذلك سار البطالمة على خطى الإسكندر في تصميم المعابد اليونانية الشبيهة للمعابد المصرية بتصميماتها وزخرفتها الشرقية مثل معبد "الإله حورس في دفو، ومعبد الإله حتحور في دندره" 261 ؛ ويعود ذلك إلى إعجاب الإغريق بالحضارة المصرية القديمة وبآثارها الشاهقة التي عدت من عجائب الدنيا السبعة بعدما شاهدها بأعينهم عند دخول الإسكندر المقدوني إلى مصر واحتكاكهم بحضارتها فظهرت تيارات فنية جديدة امتزجت فيها فنون اليونانيون مع المصريين لتكون عناصر هجينة عرفت بالعمارة الهيلينستية. وإن أكثر ما لفت إعجاب الإغريق في مصر ليس فقط فنون العمارة والنحت والعلوم والمعارف التي نقلوها وإنما أيضاً المعتقدات الدينية

257 الربة أرتميس: هي إلهة غير إغريقية ومن كبرى معبودات البلقان والأناضول وكريت المينوية، ولدت في إفسوس على ساحل الأناضول مما يدل على أصلها الأناضولي. للمزيد انظر: د.سارة، خليل، تاريخ الإغريق، ص302

258 الناصري، سابق، ص583

259 د.الزين وآخرون، سابق، ص74

260 د.الزين وآخرون، سابق، ص82

261 د.بكر، سابق، ص102

المصرية التي أشبعت العاطفة الدينية لديهم لا سيما بعد الحروب التي اشتعلت في بلادهم وشعروا بضعف الآلهة اليونانية فبدأوا يتقربوا من الآلهة المصرية التي شعروا "بعظمتها وأصالتها فحاولوا التقريب بينها وبين الآلهة الإغريقية، وابتكروا ثلوثاً إلهياً يتكون من أوزيريس وإيزيس وحورس وحد بين الشعبين المصري واليوناني" 262 وبذلك كان المعتقد الديني سبب التوحيد بين شعبين مختلفين ثقافياً ودينياً ولغوياً في وقت تحتاج شعوب اليوم المشتركة في لغتها وتاريخها ودينها إلى هذا النوع من الاتحاد. هكذا نستنتج أن للحضارة المصرية الفضل الكبير على الحضارات الإنسانية والحضارة الإغريقية بالذات من حيث عطاءاتها اللامحدودة في المجالات كافة، وأن لمصر دور حضاري ليس فقط من خلال التفاعل الحضاري الذي شمل المستوطنات الإغريقية في آسيا الصغرى وبحر إيجه بل كان لها دور حضاري حتى في أرض مصر ذاتها من خلال استقطاب التجار والعلماء والأدباء اليونانيين لينهلوا العلم المصري القديم بكل أسرارهِ ويضيفوا عليه أفكارهم وفلسفاتهم الجديدة ويمزجوها بعلوم الشرق لتنتج حضارة جديدة هجينة جمعت بين حضارة الشرق والغرب ووحدت الشعبين ثقافياً.

الفصل الرابع: أثر المستعمرات الإغريقية في آسيا الصغرى

خلال الألف الأولى قبل الميلاد

العنوان	رقم الصفحة
تمهيد	192
أولاً. الموقع الجغرافي	195
1- حوض البحر الأبيض المتوسط	195
أ. الحوض الشرقي للمتوسط	197
ب. الحوض الغربي للمتوسط	199
2. سلسلة جبال اليونان	201
3. أثر الموقع الجغرافي على المواطن الإغريقي	203
ثانياً. المجال السياسي	208
ثالثاً. المجال الاقتصادي	216
رابعاً. المجال الاجتماعي	222

. تمهيد:

. تقع اليونان في جنوب القارة الأوروبية، وهي إحدى دول البلقان المطلة على سواحل البحر الأبيض المتوسط على شكل جزيرة، وعرفت بلاد اليونان قديماً ببلاد هيلاس (Hellas) وتشمل ما يعرف بشبه جزيرة البلقان ومجموعة الجزر المنتشرة في حوض بحر إيجيه (Aegean Sea) والتي "تبلغ 483 جزيرة"1 ، وكذلك المدن اليونانية المنتشرة على ساحل شبه جزيرة آسيا الصغرى حيث كان هذا الساحل المسرح الذي شهد ولادة الحضارة الإغريقية القديمة؛ بسبب قربها من موطن حضارات الشرق الأدنى القديم، وعُرفت اليونان أيضاً باسم "أراغوس (Aragos) حيث ذكرت في أشعار هوميروس، وأراغوس هي إحدى مدن إقليم أرجوليس في شبه جزيرة البلوبونيز"2، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن اليونانيين قد أطلقوا على أنفسهم اسم (الهيلينيين)؛ نسبةً إلى الجد الأسطوري (هيلين) كما شاع، أو نسبةً إلى قبيلة كانت تسمى هيلين قطنت في شمال شبه جزيرة البلقان وعمم الاسم لاحقاً على كل سكان اليونان، ويؤكد توكوديديس أن هوميروس لم يستخدم اسم الهلينية في الإشارة إلى الجيش الذي ذهب إلى طروادة وإنما احتفظ بهذا الاسم لأتباع أخيلوس الذين قدموا من أخيا أفثيوتيس وكانوا في الواقع هم الهلينيون الأصليون لأن اسم بلاد هيلاس لم يعرف في ذلك الوقت.3 أما اسم اليونان فهو مشتق من اللغات السامية القديمة وهو "تحريف للفظ أيونيين (Iones) وهم سكان ساحل آسيا الصغرى الغربي وهم أول شعب احتك بممالك الشرق الأدنى القديم"4 ؛ لذلك نرى الكنعانيون يطلقون على اليونانيين لقب (ياؤنيين) وفقاً للنطق في اللهجات الشرقية القديمة. أما اسم الإغريق5 (Graeci) فهي تسمية أطلقها الرومان على سكان اليونان القدماء نسبةً إلى الجرايين (Graioi) 6 القاطنين في شرق إقليم بويوتيا في اليونان.

1 حسين، عاصم، تاريخ وحضارة الإغريق، 1998، القاهرة، ص49

2 علي، عبد اللطيف أحمد، التاريخ اليوناني، 1976، بيروت، ص7

3 توكوديديس، تاريخ الحروب البلوبونيزية، تر: دنيا الملاح وعمرو الملاح، 2003، الكتاب الأول، أبو ظبي، ص20-21

4 علي، أحمد، سابق، ص8

5 إن كلمة إغريقي والإغريق في هذا البحث هي نفسها كلمة يوناني واليونان.

6 الجرايين: هم جماعة من شرق إقليم بويوتيا في بلاد اليونان وقد أسسوا مدينة كيمي أو كومان على الساحل الغربي لإيطاليا وهي أقدم المستوطنات اليونانية (750-725 ق.م) للمزيد اقرأ علي، عبد اللطيف أحمد، التاريخ اليوناني، 1976، بيروت، ص8

ولقد شهدت بلاد اليونان الكثير من الأحداث الغنية التي عصفت بالسكان سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، وقلبت الأحداث رأساً على عقب، وأسهمت في زيادة الأزمات الداخلية والتوترات السياسية؛ التي أفضت في النهاية إلى ولوج الإغريقين إلى أبواب الحضارة بعد مرورهم بتجارب سياسية كثيرة واكتسابهم خبرات اجتماعية واقتصادية وعلمية ساعدتهم على الوصول إلى التحضر، لا سيما بعد هجر الديانات الوضعية والتقاليد الشعبية والموروثات المتخلفة التي اعتمدت على الأساطير والخرافات والشعوذة والسحر والنبوءات فحرروا من دياناتهم واعتمدوا على لغة العقل والحوار والفلسفة والبحث العلمي وفسروا الحوادث الطبيعية بمسبباتها العلمية والحقيقية بعيداً عن الخيال والأساطير اللذين اشتهرت بها النصوص التاريخية الإغريقية وأخضعوا كل النظريات التي استقوها من حضارات الشرق للتجريب والبحث العلمي؛ مما ساهم في زيادة الوعي والقضاء على الجهل والتخلف السائد. وكانت "إسهامات الإغريق في التطورات الحاصلة مساهمات مهمة للغاية بالنسبة لأوروبا وللعالم"7 حيث وصل اليونان إلى أعلى درجات التمدن، وأصبحوا مضرِباً للمثل في تحضرهم ورفيهم. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الحضارة الإغريقية ظهرت في المستوطنات التي أسسها الإغريق على سواحل البحر الأبيض المتوسط وفي جزره وجزر بحر إيجه حيث لعبت هذه المدن الساحلية والجزر بفضل موقعها الجغرافي والاستراتيجي القريب من الشرق دوراً هاماً في نقل منجزات الحضارات الشرقية القديمة من آسيا وأفريقيا إلى اليونان وعدت أيضاً "بمثابة جسر بحري يربط قارة آسيا بأوروبا، لا سيما جزيرتي قبرص وكريت اللتان كانتا الجسر الحضاري والتجاري الواصل بين أوروبا وشمال أفريقيا"8، وكانت بلاد هيلاس أو اليونان (الإغريق) بمفهومها الجغرافي الواسع الذي أشارت إليه الباحثة سابقاً أول منطقة في قارة أوربا تتأثر بالحضارات القادمة من الشرق الأدنى القديم، وكان لها الدور الرئيس في تقدم اليونان من خلال قيادة الصراع السياسي الذي اشتعل بين الحكام الطغاة في الوطن الأم (اليونان) وقادة المستعمرات اليونانية حيث سعى النظام القائم في اليونان إلى الاستبداد بالناس وزيادة فقرهم وانتهى الأمر بالثورات التي أفضت إلى الحرية والديمقراطية. ومن الملاحظ أن الشعب الإغريقي كان له وجود في تلك المناطق منذ القدم حيث أثبتت الآثار المكتشفة والحفائر الحديثة أن سكان بلاد اليونان كانوا في معظمهم من

7 غودي، جاك، سرقة التاريخ، 2010، ط1، تر: محمد التوبة، السعودية، ص84

8 د.محمد، محمود، الأصول الشرقية للعلم اليوناني، ص26

عرق "البحر المتوسط ذات الصفات المشتركة في الشكل وفي الحياة الاجتماعية والاقتصادية مع بقية سكان الحوض"9. أما بالنسبة إلى أصول سكان بلاد اليونان فهم ينتمون إلى خليط من السكان الوافدين والسكان الأصليين الذين أطلق عليهم الإغريق لقب (البلاسجيين) وامتزجوا بالسكان الأصليين وتوحدوا معهم فيما بعد، ومن المرجح أن هجرتهم كانت "خلال العصر الحجري الحديث (Neolithic) 3500 ق.م - 1900 ق.م قادمين من آسيا الصغرى عن طريق مضيق البوسفور والدردنيل إلى اليونان قبل وصول الهجرات الآرية أو الهندو-أوربية"10 أو الهجرة الوافدة التي تمثلت بالعناصر (الأيونية، والأأيولية، والدورية) التي هاجرت إلى شواطئ آسيا الصغرى واستقرت فيها، وبعدما اكتملت وحدة سكان الإغريق أطلقوا على الجميع اسم الهيلينيين.

يهدف هذا الفصل من البحث إلى تسليط الضوء على الموقع الجغرافي لليونان وأثر السلاسل الجبلية فيها والتي لعبت دوراً هاماً في نهضة شعبها، ودور البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه والجزر الساحلية التي ساهمت بفضل موقعها الجغرافي والاستراتيجي في توفير البيئة المناسبة للنهضة العلمية والثقافية والتطرق إلى أثر العامل الجغرافي في ذلك على الصحة البدنية والعقلية وطرق الاحتكاك الحضاري بالشرق، ثم تحدثت الباحثة عن الوضع السياسي داخل البلاد واضطراب الأوضاع الاجتماعية والسياسية وانتشار الفقر مما أدى إلى ظهور الثورات الشعبية التي أطاحت بالنظم الاستبدادية التي تطورت إلى أن وصلت إلى نظام دويلات المدن الديمقراطية الذي اقتبسوه من مدن فينيقيا نتيجة الاحتكاك الحضاري معهم، وتطرقت الباحثة أيضاً إلى الوضع الاقتصادي ومعاناة الفلاحين من النظم الاقتصادية التي ارتبطت بالوضع السياسي والأنشطة الاقتصادية التي اقتبسوها من حضارات الشرق، وذكرت العادات الاجتماعية البالية، وانتشار الفقر والمجاعات مما ساهم بهجرة الإغريق إلى سواحل آسيا الصغرى وتأسيس مستوطنات تجارية أثرت في بقية الحضارات.

9 حسين، عاصم، تاريخ وحضارة الإغريق، 1998، القاهرة، ص56

10 عاصم، سابق، ص56

أولاً. الموقع الجغرافي:

. تقع اليونان في جنوب القارة الأوروبية وتبلغ مساحتها 131,944 كم 2 انظر الخريطة رقم (6) وهي إحدى دول البلقان المطلة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، وتحتل موقعاً حيوياً في القارة الأوروبية حيث تعد شبه جزيرة البلقان الجزيرة الشرقية للقارة الأوروبية، وعلاوة على ذلك تتمتع بإطلالة بحرية من ثلاث جهات: على البحر الأبيض المتوسط جنوباً، وعلى البحر الأدرياتيكي غرباً، وعلى بحر إيجه شرقاً. وتسمى بلاد الإغريق في عصرنا الحالي (اليونان)، وكانت بلاد الإغريق قديماً تشمل اليونان الحديثة اليوم بما فيها إقليم البلقان والجزر اليونانية القريبة من سواحلها حيث نشأت حضارة الإغريق في بلاد اليونان وفي المستعمرات التي أسسوها على سواحل بحر إيجه وسواحل أيونية 11 - الساحل الغربي لآسيا الصغرى - في الحوض الشرقي من البحر المتوسط، وعلى سواحل الحوض الغربي منه أيضاً، وقد ساعدت العوامل الجغرافية والطبيعة المناخية سواء في البحر المتوسط أو في بلاد اليونان على نهوض حضارة عريقة أثرت في غيرها من الحضارات اللاحقة وكانت الأساس في الثورة العلمية والتطورات الحضارية التي حدثت في القارة الأوروبية. فالمسرح الذي تعاقبت عليه "فترات التاريخ اليوناني لم يقتصر على شبه جزيرة اليونان وإنما شمل كافة المستوطنات التي أسسها اليونانيون في أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط" 12 والتي من خلالها نقل اليونانيون تراثهم الفكري والحضاري والثقافي إلى شعوب العالم. ولكي نستطيع فهم مقومات الحضارة الإغريقية لا بد لنا من دراسة جغرافية أرضها وطبيعة مناخها كي نستطيع الكشف عن أسباب صفاء أذهانهم وقدرتهم السريعة على الاقتباس والتعلم والابتكار.

1. حوض البحر الأبيض المتوسط:

. يشير مصطلح حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الأراضي التي تحيط بالبحر المتوسط وهي أراضي قارات العالم القديم في كل من (غرب آسيا وشمال إفريقيا وجنوب أوروبا)، ويعدّ البحر الأبيض المتوسط على امتداده بحراً شبه مغلقاً نوعاً ما؛ لوقوعه بين هذه القارات، ولكنه لا يتصل بالبحار والمحيطات الأخرى إلا عبر

11 أيونية: يعتقد بعض الباحثين العرب اللغويين بأن العرب اشتقوا من تسميتها كلمة يونان ويونانيين. للمزيد انظر د. العابد، مفيد، دراسات في تاريخ الإغريق، سورية، جامعة دمشق، 1980/1979، المطبعة الجديدة، ص5
12 د. عياد، محمد كامل، تاريخ اليونان، ج1، ط3، 1980، دار الفكر، ص18

ممراتٍ ضيقة حيث "يتصل بالبحر الأحمر عبر قناة السويس ونهر النيل، وبالبحر الأسود في الشرق عبر مضيق الهلسبونت، وبالمحيط الأطلنطي عبر مضيق أعمدة هرقل. وبذلك فهو من أهم بحار العالم؛ لأنه يتوسط العالم القديم"13. وينقسم حوض البحر الأبيض المتوسط إلى حوضين غير متساويين في المساحة: شرقي وغربي، ويطل على البحر المتوسط سلاسل جبلية من الجهة الشرقية والشمالية والجنوبية منه، ففي الشمال سلاسل البلقان والألب في أوروبا، وفي الجنوب جبال الأطلس المغربية في أفريقيا، وفي الشرق سلاسل بلاد الشام الساحلية في غرب آسيا، ويحتوي على "ثلاثة أشباه جزر هي: شبه جزيرة البلقان في الشرق، وشبه جزيرة إيطاليا في الوسط، وشبه جزيرة إيبيريا في الغرب؛ لذا فإن شبه جزيرة البلقان لم تكن منفصلة عن باقي أوروبا"14. ويعود تاريخ البحر الأبيض المتوسط إلى عصورٍ موعلة في القدم حيث كان حوضاً أكبر حجماً وعرضاً واتساعاً من البحر الحالي وكان يُعرف ببحر (تيتس) ففي هذا البحر "تشكلت الرواسب التي حملتها عوامل التعرية من الجبال الأفريقية، وكان للحركات الالتوائية أيضاً دورٌ كبيرٌ في تشكل هذه جغرافيته من تكوين السلاسل الجبلية التي تحيط بالبحر، وتشكل سواحلته وخلجانه وهدوء مياهه"15، ويعدّ تاريخ البحر المتوسط حافلاً بالأحداث التاريخية والسياسية التي شهدتها منذ القدم حيث كان مركزاً للعديد من الحضارات القديمة كالحضارة الفينيقية والمصرية القديمة والإغريقية ومن ثم الرومانية، واعتبر طريقاً حيوياً للتبادل التجاري والثقافي بين شعوبه. إضافةً إلى أنه اتصف عن غيره من البحار بعدم حدوث "حركات المد والجزر القوية؛ مما سهل ملاحة السفن ضمن الخلجان والموانئ، وفي تخطيط المدن الساحلية"16. وقد قسم العلماء والجغرافيون البحر الأبيض المتوسط إلى حوضين: حوض شرقي، وحوض غربي.

13 حسن، محمد إبراهيم، دراسات جغرافية أوروبا وحوض البحر المتوسط، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، 1999، ص209
 14 د. بكر، حسن صبحي، الإغريق والرومان والشرق الإغريقي، الرياض، ط1، 1985، دار عالم الكتب، ص16
 15 الجوهري، يسرى، جغرافية البحر المتوسط، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1984، ص12
 16 د. سارة، خليل، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم وأسبابه، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 22، الرسالة 177، جامعة الكويت، 2002/2001، ص16

أ. الحوض الشرقي للبحر المتوسط:

. يطلق مصطلح الحوض الشرقي على المنطقة الممتدة من شواطئ بلاد الشام شرقاً إلى تونس أو إيطاليا غرباً، ويعدّ من أهم المسطحات المائية على مر العصور حيث شكل ملتقى للحضارات القديمة وممرات حيوية للتجارة وموطن للحضارات العظيمة التي قامت في منطقة الشرق الأدنى القديم والتي امتازت عن غيرها من الحضارات القديمة بسبقها الزمني وكثرة إنجازاتها الحضارية وتشابهها على الرغم من تعدد أجناسها البشرية سواء في فينيقيا أو في مصر، ويشمل هذا الحوض البحر الإديرياتيكي وبحر إيجه، وهو ذو مساحة كبيرة مقارنةً بالحوض الغربي.¹⁷ ويمكن تقسيم الحوض الشرقي إلى حوضين أيضاً: الحوض الشرقي الشامي نسبةً إلى سواحل بلاد الشام أو الساحل الكنعاني، والحوض الغربي الأيوني نسبةً إلى البحر الأيوني المتاخم للبلقان.

يقع في الحوض الشرقي بحر (إيجه) الذي يمتد بين تركيا شرقاً إلى اليونان غرباً وبذلك سهل اتصال الإغريق بحضارات الشرق الأدنى القديم، وما زال البحر الإيحي يحتفظ بمكانته الجغرافية والاستراتيجية حتى وقتنا الحاضر، ويتسم بكثرة جزره وبخلجانه العميقة التي تتوغل في سواحل بلاد الإغريق وآسيا الصغرى، ففي "شمال هذا البحر مضيقان هما: مضيق الدردنيل، ومضيق البوسفور اللذان يصلان بلاد الإغريق بآسيا الصغرى وسوريا ومصر" 18 حيث يتصل بحر إيجه ببحر مرمرة عن طريق مضيق الدردنيل ومنه إلى البحر الأسود عبر مضيق البوسفور، وجدير بالذكر أن هذه المضائق لا تعتبر فاصلاً بين اليونان ودول الشرق الأدنى القديم بل على العكس كانت صلة الوصل ولعبت دوراً هاماً في الاحتكاك الحضاري بين شعوب المنطقة حتى استطاع الإغريق الوصول إليها من خلال تجارتهم الواسعة حيث اعتبر "مضيق الدردنيل والبوسفور صلة وصل بين قارتي آسيا وأوروبا أيضاً" 19، وعلاوةً على ذلك يحتوي الحوض الشرقي على عدد كبير من الجزر التي سهلت التواصل بين سكان المنطقة، وشهدت نزاعاً سياسياً مازالت حتى يومنا هذا. ومن أهم الجزر جزر البحر الإيحي والتي تعرف بالأرخبيل اليوناني حيث "يبلغ عددها نحو 483 جزيرة إلى الشرق من بلاد اليونان ونحو 116 جزيرة في غربها" 20، ويتميز الحوض الشرقي للبحر المتوسط بوجود سلسلة صخرية تمتد من جنوب إيطاليا إلى جزيرة قبرص، أما صخور بحر إيجه فتتكون من صخور الجير؛ بسبب تعرضها لنشاط بركاني منذ القدم أدى إلى تنوع تكويناته الصخرية من صخور بركانية إلى رخام أبيض نقي ولكن رغم ذلك فإنه صخوره تتسم بأنها "جرداء قاحلة

17 الجوهري، يسرى، سابق، ص9

18 د. بكري، حسن صبحي، سابق، ص16

19 عياد، كامل، ج1، سابق، ص24

20 جندي، إبراهيم عبد العزيز، معالم التاريخ اليوناني القديم، القاهرة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 1999، ص58

لكنها جذبت المستوطنين اليونان بسبب صفاء جوها واعتدال طقسها وكثرة أشجارها المثمرة وكروم العنب والتين²¹ وغناها بالمعادن الثمينة حيث شكلت هذه المعادن والثروات الباطنية محور النزاع الدائم بين الدول القوية كالمصريين القدماء والفينيقيين واليونانيين الذين أسسوا مستعمرات تجارية في هذه المنطقة ومارسوا التبادل التجاري مع الجزر القريبة من شواطئ فينيقيا ومصر، ولقد احتوت هذه الجزر على المعادن الأرضية النادرة والموارد المعدنية الأخرى، وتكثر فيها الحجارة الثمينة كالذهب في (سفنوس) و(تاسوس) والعقيق في (ميلوس) والمرمر الممتاز في (تاكسوس) و(باروس) ويوجد فيها جميعها أحسن أنواع الغضار لصناعة الأواني الخزفية كما أن شواطئها غنية بالأسمك²². وبسبب هذه الثروات الباطنية أولاً، ثم قرب الجزر من بعضها سهل على سكانها الانتقال بسهولة من جزيرة إلى أخرى لا سيما وأن اليونانيين قد اكتسبوا من البحارة الفينيقيين أسس الملاحة والتجارة. فهناك مجموعة من الجزر "تعتبر أثراً على الرابطة الجيولوجية بين الجزر مصفوفة الواحدة إلى جانب الأخرى وكأنها جسوراً يسهل التنقل عليها"²³.

أما المناخ السائد في الحوض الشرقي والذي يعدّ جزءاً لا يتجزأ من مناخ البحر الأبيض المتوسط حيث يسود المناخ المتوسطي بلطافة تياراته الهوائية ووجود نسيم البحر المنعش ويشهد تعاقب الفصول الأربعة في السنة على عكس بعض المناطق التي يسود بها مناخ فصلي الشتاء والصيف فقط، ولا شك أن للمناخ دور مهم في نشوء حضارات على سواحل البحر المتوسط كالحضارة الفينيقية والحضارة الإغريقية التي تأثرت بالمناخ السائد من حيث القدرة على الملاحة والتجارة في البحار وقلة الحوادث البحرية، وبنية الأجسام القوية في ظل مناخ ملائم يتميز "بانعدام الفوارق الفصلية ووجود فصلين مميزين الصيف الحار الجاف والشتاء غزير الأمطار"²⁴ حيث تتسرب الأمطار إلى أعماق التربة؛ مما يسهم بخصوبتها.

21 د. سارة، خليل، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم وأسبابه، سابق، ص15

22 د. سارة، خليل، سبق ذكره، ص15

23 عياد، كامل، ج1، سابق، ص24

24 غانم، محمد الصغير، التوسع الفينيقي في البحر الأبيض المتوسط، دمشق، دار التميز، 2003، ص16

ب . الحوض الغربي للبحر المتوسط:

. يعدّ الحوض الغربي جزءاً من البحر الأبيض المتوسط الذي يفصل إفريقيا جنوباً عن أوروبا شمالاً، ويمتد من تونس وإيطاليا إلى مضيق جبل طارق-الذي يصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلنطي (الأطلسي)-ويحدد الجغرافيون الحوض الغربي للمتوسط بالطول الممتد ما بين جبل طارق وجزيرة صقلية وينفتح الحوض الغربي شمالاً على البحر التيراني المحصور بين البلقان وجزر كورسيكا وسردينيا، وفي أقصى الجزء الغربي منه تقع جزر البليار الإسبانية، ويفصله عن الحوض الشرقي سلسلة من الارتفاعات الواقعة في جزر البحر مثل: جزيرة مالطا. ولا بد من الإشارة هنا إلى تاريخ الحوض الغربي للبحر المتوسط في النصوص التاريخية حيث ذكر في الأساطير على أن "الطبيعة التي أوجدته كان من عمل البطل الأسطوري هرقل"25. ويتألف قاع الحوض الغربي في البحر المتوسط من ثلاثة أحواض مميزة وهي:

أ. حوض البوران: يمتد هذا الحوض من مضيق جبل طارق إلى جزر البوران26

ب . حوض البليار: يمتد من جزر البليار إلى جزيرتي سردينيا وكورسيكا.

ج . البحر التيراني: يقع بين إيطاليا وسواحل صقلية وكورسيكا وسردينيا ويمثل فيه مضيق مسينا وقناة صقلية ممران لهما الأهمية دولية في حوض البحر التيراني" 27

وعلى الرغم من تشابه مناخ البحر الأبيض المتوسط بين حوضه الشرقي مع الغربي لكننا نشاهد بعض الاختلاف والفوارق فمناخ الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط يتميز بتعاقب الفصول الأربعة على الرغم من وجود فصلين واضحين هما: الصيف والشتاء، ويكون الصيف أكثر طولاً وجفافاً في أجزائه الجنوبية وأقل طولاً وجفافاً في أجزائه الشمالية؛ وكذلك الفرق بين شرقه وغربه، وترتفع درجة الحرارة صيفاً، أما في الشتاء فتهب الرياح القوية المحملة بالرطوبة ونادراً ما تظهر الشمس من خلال كتل السحب، وبسبب امتداد السلاسل الجبلية في الشمال

25 د.أبو صوة، محمود أحمد، دراسات في تاريخ البحر المتوسط في العصر الوسيط، منشورات إلغاء، 2000، ص17
26 جزر البوران: تقع شرق إسبانيا وتحصر بينها وبين مضيق جبل طارق بحر البوران. للمزيد انظر: الجوهري، سابق، ص12
27 الجوهري، يسرى، سابق، ص12

الأوروبي والصحراء الكبرى في الجنوب الإفريقي فإن مياه الحوض تتأثر "بالمرتفعات والمنخفضات الجوية التي تساهم في رفع درجة الحرارة وخفضها، وتتأثر بالرياح الجافة أيضاً بفعل الصحراء المحيطة حيث تتبخر كميات كبيرة من المياه ويعوض البحر الأسود هذه المياه وكذلك المحيط الأطلسي عبر مضيق جبل طارق، ويشهد في معظم أجزائه حركتي المد والجزر" 28

ومن أهم جزر الحوض الغربي :

1. **جزيرة صقلية:** أو سيسيليا كما تنطق باللاتينية أو بالإيطالية، وتعدّ من أكبر الجزر مساحةً وسكاناً في البحر المتوسط حيث تشكل مع عدد من الجزر الصغيرة المحيطة بها أحد الأقاليم الإيطالية، وتقع وسط البحر المتوسط حيث يفضلها "مضيق مسينا عن رأس الجزيرة الإيطالية، وتحيط بالجزيرة البحر الأيوني من الشرق والبحر التيراني من الشمال، وتقدر مساحتها 25.696 كم مربع" 29 ، وتتميز صقلية بسهولها المرتفعة لا سيما سهل كاتانا الواسع.
2. **جزيرة سردينيا:** ثاني أكبر جزر الحوض الغربي في البحر الأبيض المتوسط بعد صقلية، وتقع في الجزء الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية، وتقدر مساحتها "نحو 24.078 كم مربع وتشبه بنيتها الجغرافية إلى حد كبير جزيرة كورسيكا" 30 ، وتحدها من الشمال الجزيرة الفرنسية كورسيكا، ومن الجنوب جزيرة صقلية وتونس، أما مناخها فيتصف بالاعتدال على مدار العام، وتغطيها "الصخور المتبلورة التي تشكلت بفعل الحركة الالتوائية الألبية" 31
3. **جزيرة كورسيكا:** وهي جزيرة فرنسية تقع غربي إيطاليا سيطر عليها الفرنسيون في القرن الثامن عشر، "تقدر مساحتها 8771 كم مربع وهي الرابعة في المساحة من بعد صقلية وسردينيا وقبرص، وتمتد من "الساحل الفرنسي على بعد 185 كم جنوب شرق مدينة نيس، وتسمى بالفرنسية كورس" 32.

28 رلز، هريبرت جورج، معالم تاريخ الإنسانية، تر: عبد العزيز جاويد، ط2، ج1، مجلد 1، 1963، ص137

29 د. موسى، علي، و د. الحمادي، محمد، جغرافية القارات، دمشق، دار الفكر، 1997، ص77

30 د. موسى، د. الحمادي، مصدر سابق، ص78

31 الجوهري، سابق، ص163

32 عتريس، محمد، معجم بلدان العالم، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، 2002، ص299

4. جزر البليار: وهي مجموعة جزر (أرخبيل) قريبة من الساحل الشرقي لشبه الجزيرة الإيبيرية، وتقع هذه الجزيرة شرق إسبانيا وتتبع لها رسمياً، وتمتلك "أهمية تاريخية وجغرافية حيث احتلتها شعوب متعاقبة فتعددت الحضارات على أرضها، وأثر ذلك على السكان الذين عاشوا برفاهية اقتصادية نتيجة التجارة الكنعانية واليونانية"33، وتكون هذه الجزر في مجموعها الآن إحدى الولايات الإسبانية وتسمى ولاية (باليارس) وتعرف جزر البليار بالجزائر الشرقية أو جزائر شرق الأندلس.34 ، وتتكون من 151 جزيرة منها خمس جزر مأهولة بالسكان وهي: ميورقة (مايوركا)، منورقة (منوركا)، إبيزا، فرمنتيرا، وقبريرا (كابريرا).

2. سلسلة جبال اليونان:

. تقع شبه جزيرة البلقان في الجزء الجنوبي من قارة أوروبا إلى الشرق من شبه جزيرة إيطاليا وشمال غرب منطقة الأناضول، وتستمد المنطقة اسمها من سلسلة جبال البلقان الممتدة من الغرب إلى الشرق، وتتفرع عنها شبه جزيرة صغيرة كانت تسمى في العصور القديمة هيلاس أما اليوم فتسمى اليونان، وهي عبارة عن "شبه جزيرة صغيرة ضيقة ومتفككة جغرافياً تتفرع عن شبه جزيرة البلقان ذات الضخامة والانتساع والتكتل الجغرافي"35، وتقترب من القارة الأوروبية حيث تلتصق بها بواسطة كتل جبلية هي امتداد لجبال الألب الدينارية، ومن امتداد هذه الكتل في داخل البحر المتوسط يتكون هيكल البلاد اليونانية36. وتمتلك اليونان حدوداً مع ألبانيا ومقدونيا وبلغاريا من الشمال، ومع تركيا من الشرق، ويقع بحر إيجه على أراضي اليونان الشرقية والجنوبية، بينما يقع البحر الأدرياتيكي من جهة الغرب، وتتصف بأنها أرضاً بحرية وجبلية في آن واحد حيث تقدر نسبة الجبال متعددة الأشكال فيها ثمانين بالمائة تقريباً من مساحة البلاد، وتتصف الجبال بكونها متداخلة، وتكثر فيها آثار الحركات الالتوائية من الانكسارات والانهدامات والمرتفعات والمنخفضات"37. ولقد امتلكت اليونان موقعاً جغرافياً واستراتيجياً هاماً على سواحل البحر الأبيض المتوسط حيث بلغت مساحتها نحو مئة وواحد وثلاثين ألف كيلو

33 الجوهري، يسرى، ص74

34 د.حاتمة، محمد عبد، إيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، 1996، ص26

35 عياد، كامل، ج1، سابق، ص22

36 عياد، كامل، سابق، ص22

37 د.سارة، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم وأسبابه، سابق، ص18

متراً. وعلى الرغم من "صغر حجمها حيث يقدر طولها بما لا يزيد عن 400 كيلو متراً، وعرضها على 300 كيلو متراً"38 لكن رغم ذلك كانت نقطة عبور تجارة حضارات الشرق إلى أوروبا وموطن الاحتكاك الحضاري والثقافي بين الشرق والغرب، وصلة الوصل بين قارة العالم القديم. وفي العصور القديمة تعرضت سلسلة جبال اليونان إلى الحركات الالتوائية التي شملت مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط والمناطق المحيطة به والتي ساعدت على ظهور العديد من المظاهر الجيولوجية من زلازل وبراكين وصدوع في الطبقات الصخرية، وانكسار بعض المرتفعات الجبلية، وانهدام القشرة الأرضية الذي أدى إلى: أولاً. أن انفصل عدد كبير من الجزر عن

بقية الأرض

ثانياً. ساعدت هذه الحوادث الجيولوجية على نفوذ البحر إلى داخل البر من كل الأطراف في خلجان كثيرة وعميقة.

ثالثاً. أن حوادث الانهدام والانكسار كانت سبباً في تجزئة البلاد كلها إلى عدد لا يحصى من السهول والوديان39..

وجدير بالذكر أن بلاد اليونان تقسمها المظاهر الجغرافية عن بعضها البعض إلى مناطق صغيرة؛ ويعود ذلك كما أشارت الباحثة سابقاً إلى تعرض سلسلة الجبال اليونانية إلى حركات تكتونية نتيجة الضغط من الصفائح القارية والمحيطية؛ ونتج عن هذا الاصطدام الجيولوجي الكثير من المرتفعات والمنخفضات والعقد التضريبية، وازداد عمق الانهدامات وبلغت الجبال ارتفاعاً شاهقاً فسكن "في كل إقليم جماعة تستقل بنفسها وتقوم بحماية أفرادها من القبائل الأخرى"40 ، وأدت الطبيعة الجغرافية للبلاد إلى صعوبة الاتصال بين هذه الجماعات وتوحيدها في دولة واحدة، فارتبطت بالقبيلة التي تنتمي إليها فقط على عكس دول الشرق الأدنى التي اتسمت بتأسيس دول مترامية الأطراف مثل "وادي النيل حيث السهول الفسيحة، وفي بلاد ما بين النهرين حيث سهول دجلة والفرات أما في

38 د. عياد، ج1، سابق، ص23

39 د. سارة، خليل، تاريخ الإغريق، جامعة دمشق، 2022/2021، ص51، 50.

40 عياد، كامل، ج1، سابق، ص22

اليونان فإن الحواجز الطبيعية كانت سبباً لظهور النزعة الانفصالية ونشوء مجتمعات صغيرة مستقلة بذاتها⁴¹. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن بلاد الإغريق لم تقتصر على الموطن الأساسي لليونان وهي بلاد اليونان القارية، وإنما امتدت لتشمل مناطق كثيرة هاجر إليها الإغريق واستقروا فيها، وأسسوا مستعمراتٍ لهم كجزر بحر إيجة وشواطئ آسيا الصغرى الغربية، إضافةً إلى شواطئ بحر مرمرة والبحر الأسود وحوض البحر الأبيض المتوسط.

3. أثر الموقع الجغرافي على المواطن الإغريقي:

. يؤثر الموقع الجغرافي على الإنسان بشكلٍ عام من حيث الجانب الفيزيولوجي، والاجتماعي، والعقلي؛ لذا تختلف حضارات الشعوب وإمكانياتها من مكانٍ إلى آخر وقد أكد الكثير من العلماء أثر العامل الجغرافي على الإنسان وإبداعاته وعلى وظائف العقل وقوة مداركه، وهذا ما لمسناه في اليونان بفضل تنوع المظاهر الجغرافية على أرضها وسواحلها حيث أثر المناخ المتنوع: مناخ البحر الأبيض المتوسط، ومناخ اليونان الجبلي على سكانها من خلال "المناخ المعتدل والمنعش الذي جذب إليه شعوب الشمال البارد وشعوب الجنوب الحار"⁴². إضافةً إلى انتظام تعاقب فصول السنة ووضوح كل الفصول بحيث لا يطغى فصل على آخر، واعتدال درجة الحرارة بفعل هبوب الرياح المعتدلة القادمة من البحر ومن أعالي الجبال. أما مناخ حوض البحر الأبيض المتوسط فقد تميز بمميزات جغرافية نادرة فريدة من "ثبات مناخه فلا يتغير مثل مناخ المناطق الصحراوية خلال أيام أو ساعات؛ لأن هذه التغيرات ممكن أن تؤدي إلى خلل بتوازن وظائف الجسم والعقل"⁴³؛ لذلك مال الإنسان بشكلٍ عام للاستقرار على سواحله وخلجانه وجزره المتناثرة في حوضه والتي كان ينتقل من خلالها طلباً للعمل في الملاحة والتجارة، إضافةً إلى أن مياه حوض البحر المتوسط اتصفت بهدوئها معظم أيام السنة وخلوها من المرتفعات والمنخفضات الحرارية؛ مما ساهم في صفاء سمائه وانتظام فصوله حيث "تهطل الأمطار في فصل الشتاء فتتغذى الأرض، وتهب الرياح بنسائمه المنعشة في الربيع والخريف فتتعش الإنسان وتثير فيه الحماس والنشاط"⁴⁴، وقد ساعدت هذه التيارات البحرية الهادئة في البحر المتوسط الإغريق على الملاحة دون عوائق، وعلى الاستيطان في سواحله وجزره وممارسة نشاطهم التجاري، فأسسوا حضارةً بحريةً شملت اليونان وسواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقي والغربي إضافةً إلى الجزر القريبة منها والتي كان أهمها جزيرة كريت، وعدّ الأسطول البحري التجاري معلماً من معالم الحضارة الإغريقية العظيمة.

41 د.سارة، ، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم وأسبابه، سابق، ص19

42 د.البكري، سابق، ص15

43 د.سارة، ، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم وأسبابه، سابق، ص17

44 د.عياد، تاريخ اليونان، ج1، دار الفكر، ط3، 1980، ص19، 20

هذا وقد أكد كثير من المؤرخين والجغرافيين على أهمية البحر الأبيض المتوسط الجغرافية وأثره المناخي على الإنسان؛ لذلك عده الكثيرون من أفضل المناطق للاستقرار؛ وكان هذا أحد الأسباب التي دفعت شعوب المنطقة للصراع فيما بينها من أجل الاستيلاء على مناطق وسواحل وجزره، فبعد أن سيطر الفينيقيون قرونًا عديدة على البحر المتوسط وحولوه إلى بحيرة فينيقية ضعفت سيطرتهم نتيجة للأوضاع السياسية فسمحت هذه الفرصة للإغريق بالانتشار على سواحل بحر إيجه⁴⁵ والبحر المتوسط مستغلين فرصة غياب الفينيقيين بعدما اكتسبوا منهم مهارة فن الملاحة والتجارة، وأصبح حوض البحر المتوسط مركز استقرارهم حيث أثبتت النصوص التاريخية ذلك من خلال "فنونهم وآدابهم وأشعارهم لا سيما الشاعر اليوناني هوميروس الذي ذكر بحر إيجه الغني بالجزر والخلجان والمرافئ في أشعاره"⁴⁶ حيث تمتع بحر إيجه بموقع جغرافي مهم سبق وأن أشارت إليه الباحثة سابقاً من حيث الربط بين العالم القديم، وسهل اتصال الإغريق مع العالم الخارجي من خلال مضيقي البوسفور والدردنيل، وكان له الأثر الجغرافي الكبير من حيث دوره في تعديل درجة حرارة المناطق الداخلية لليونان وانتشار الرطوبة البحرية. ولقد كان لمناخ البحر الأبيض المتوسط الأثر الجغرافي والاجتماعي في حضارة اليونان حيث ساهم في نشأة حضارتها وتكوين سماتها المميزة من خلال دفع السكان إلى الاهتمام باللياقة الجسدية والقوة العضلية ورغبة السكان في ممارسة الرياضة على عكس المناطق الباردة والحارة التي تؤدي إلى الخمول؛ وهذا كان له الأثر تأسيس العديد من الألعاب القاسية التي عُرفت فيما بعد (بالألعاب الأولمبية)⁴⁷.

واتصف مناخ البحر المتوسط أيضاً "بارتفاع الحرارة والجفاف صيفاً، واعتدالها في فصل الشتاء، وانتشار الضوء في كل الفصول السنوية مما أثر على القدرات العقلية وأنعش الأبدان"⁴⁸ ، وقد عده بعض الباحثين **بحيرة كبيرة خلفتها الطبيعة لتكون صلة وصل بين مختلف البلاد الساحلية**⁴⁹ ، وبعد هجرة الإغريق للاستقرار على سواحل البحر المتوسط وجزره أدى ذلك إلى ازدياد نشاط حركة التجارة البحرية بين الإغريق والشعوب البحرية المجاورة؛

45 بحر إيجه هو الجزء الشمالي من القسم الشرقي للبحر المتوسط الذي يقع بين شبه جزيرة البلقان في الغرب وآسيا الصغرى في الشرق. للمزيد انظر: د. سارة، خليل، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم وأسبابه، سابق، ص14

46 د الزين، محمد وآخرون، نقد الحضارة الغربية، ج1، ط1، 2021، العراق، ص36

47 يعود تأسيس الألعاب الأولمبية إلى ثلاثة أساطير: الأولى يعود فضلها إلى هيراكليس من جزيرة كريت، والأسطورة الثانية ترجع تأسيس الألعاب إلى هيراكليس شخصية من مدينة طيبة الذي نفذ الأعمال الاثني عشر التي فرضت عليه، أما الثالثة فتعتبر أن مصدر الألعاب من آسيا الصغرى للمزيد اقرأ: د.قاسم الشواف، الفينيقيون والألعاب الأولمبية، 2011، ط1، دمشق، دار علاء الدين، ص159-161

48 د. سارة، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني وأسبابه، ص14

49 د. عياد، ج1، سابق، ص23

"فازدادت الصناعات اليدوية الإغريقية، وارتفع شأن طبقة التجار والصناع الذين كانوا في صراع دائم مع الأرستقراطيين؛ لذا فإن عملية الاستيطان في سواحل المتوسط تعتبر عاملاً مهماً من عوامل الارتقاء بالنظم السياسية في اليونان" 50 بغية الوصول إلى النظام الديمقراطي.

أما بالنسبة إلى المناخ الجبلي الداخلي في بلاد اليونان الذي اتصف باعتدال المناخ في الشتاء والجفاف في الصيف كمناخ البحر الأبيض المتوسط باعتبارها قريبة منه، إضافةً إلى صفاء السماء التي تشعر الإنسان بصفاء التفكير والرغبة في التأمل والابتكار على عكس منظر السماء الملبدة بالغيوم التي تثير مخاوف الإنسان ورغبته في البقاء في المنزل أو النوم والخمول، إضافةً إلى هبوب الرياح بشكلٍ دائم مما يسهم في خفض درجات الحرارة وهذا المناخ كان سبباً في التأثير على سكان البلاد الداخلية حيث ساهم في إنعاش أجسادهم وكثرة تأملاتهم التي كانت سبباً في التطور الفكري، وساهمت أيضاً "تنوع المظاهر التضريبية وتفاوت ارتفاعاتها إلى صفاء الذهن اليوناني وزيادة فعالية قدراته العقلية والفكرية والفنية مما ولد خيال خصب يعج بالأساطير" 51 حيث تبعث الطبيعة بجمالها وسحرها الخلاب الرغبة في المغامرة واكتشاف الحياة. وجدير بالذكر أن لمناخ اليونان الجبلي تأثيرات سلبية من حيث وعورة التضاريس التي شكلت صعوبة للسكان في التنقل والتواصل فيما بينهم ففضلوا التوجه نحو البحر وتعلم مهنة الملاحة والتجارة من الفينيقيين الأمة البحرية الشهيرة فقد كانت رؤوس الجبال اليونانية تشير إلى البحر وتقول لليونانيين: اذهبوا وانتشروا في العالم، وأصبحوا قراصنة مجازفين بعد أن كانوا محاربين متوحشين وانقلبوا بحارة قديرين بعد أن كانوا رعاة جبليين وصاروا تجاراً ماهرين بعد أن كانوا فلاحين بسيطين. 52 فتعرف الإغريقي من خلال الملاحة البحرية على حضارات الشعوب القديمة سواء في شرقي البحر الأبيض المتوسط أو في غربه؛ مما ساهم في زيادة الاتصال بالمراكز السياسية والاقتصادية للقوى العظمى آنذاك مثل: فينيقيا وبابل ومصر، فنقلوا ما لفت اهتمامهم من المظاهر الحضارية التي وجدوها لدى الحضارات الأخرى والتي نلمسها اليوم في أبجديتهم وفنونهم وأنظمة الحكم السياسية وبعض أنماط الحياة الاجتماعية والدينية. إضافةً إلى وعورة الجبال فقد عانت

50 د. بكر، محمد إبراهيم، قراءات في حضارة الإغريق القديمة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002، ص 68

51 د. العابد، سابق، ص 8

52 د. عياد، ج 1، سابق، ص 37

اليونان من فقر الأرض بالتربة الخصبة وازدياد عدد السكان غير المتناسب مع الإنتاج الزراعي المحلي؛ والذي أدى بدوره إلى "حدوث تضخم سكاني مما دفعهم إلى الهجرة بحثاً عن أراضٍ جديدة" 53 ساحلية قريبة على بلادهم وأن تكون أغنى من بلادهم بالتربة الخصبة والموارد الطبيعية. علاوةً على ذلك فقد ساهمت المعالم التضريبية في اليونان على العزلة الاجتماعية التي كانت بمثابة عوائق طبيعية؛ مما نتج عنه عزلة سياسية أيضاً من خلال نشوء دويلات المدن، وكان من مفرزات ذلك العزلة الفكرية التي شجعت الإغريق على تأسيس دول خاصة بهم بعيداً عن التبعية السياسية لأي قوى عظيمة آنذاك، والتمسك بوحدة واستقلال المدينة عن بقية دويلات المدن. وصحيح أن وعورة الجبال كان لها أثراً سلبياً في المجال الاقتصادي لكن رأي الباحثة أنه كان له أثر إيجابي أيضاً في المجال السياسي من خلال وصول الإغريق إلى أنظمة حكم ديمقراطية وكذلك دفعتهم إلى الهجرة وتأسيس دول قوية ذات حضارة عظيمة، وقد أثر ذلك على فكرهم ومعتقداتهم التي أصبحت تميل بتجاره القانون والعدالة فتميز الإغريقي عن غيره من الشعوب بالنظرة الشمولية للأمور، فلم ينظروا إلى التفاصيل وإنما إلى الكل حتى أن أعلامهم وشعرائهم وأدباءهم لم يختصوا بمجال معين وإنما تعددوا في الاختصاصات فالمشرع اليوناني صولون كان "مصلحاً سياسياً واقتصادياً ورجل أعمال وشاعراً" 54 وأديباً في نفس الوقت. أضف إلى ذلك أن وعورة السلاسل الجبلية في اليونان أدت إلى أثر إيجابي أيضاً على الوضع الاجتماعي من حيث عزلتهم وتكتلهم على بعضهم البعض واجتماعاتهم في الساحة العامة (الآجورا) وقد ساعد على ذلك مناخ اليونان الجبلي وصفاء سمائه حيث "ناقش اليونانيون بعضهم بعضاً في أمور السياسة والفلسفة وأمورهم العامة في فصل الشتاء أما أعمالهم ونمهم فقد تركوها لفضل الصيف" 55 حيث ساهم تنوع المناخ بدفع السكان إلى الخروج من منازلهم والاجتماع مع بعضهم في ساحة المدينة، وقد لمسنا نتائج حواراتهم السياسية في الانقلابات الشعبية على النظم الأرستقراطية الطاغية التي استلمت كل حقوق الشعب وحولت الغالبية منهم إلى عبيد.

ونتيجة فقر التربة في اليونان وقلة مساحة الأراضي الزراعية الصالحة للزراعة اتجه اليونانيون إلى البحر، فمساحة الأراضي الزراعية قليلة حيث تركزت في تسالية وبويوتية ومعظم بلاد البلوبونيز باستثناء أركاديا

53 د. العابد، مفيد، سابق، ص7

54 د. بكر، محمد إبراهيم، سابق، ص152

55 د. سارة، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم وأسبابه، سابق، ص17

وسواها من الأراضي الخصبة في هيلاس⁵⁶ ، فكان من السهل على اليوناني ركوب البحر على أن يتسلق المرتفعات الشاهقة الوعرة سيما جبال البلقان التي اتسمت بكونها غير واضحة المعالم فهي جبال "متكتلة غير متناسقة تتألف من سلاسل متعددة تتحدر باتجاه الجنوب وتتصل بسلاسل جبلية أخرى"⁵⁷، وشكلت هذه الجبال عوائق طبيعية بين دويلات المدن التي ظهرت فيما بعد. ونتيجة هذه الطبيعة الجبلية فقد افتقرت السهول الضيقة إلى التربة الخصبة كما أشارت الباحثة سابقاً؛ فقلت الزراعة وندر الرعي وضعف الاقتصاد وأصبحت الفئات المتوسطة تحت خط الفقر؛ ونتيجة لذلك توجه شعب الإغريق إلى البحر لممارسة النشاط التجاري فأسسوا مستعمرات على سواحل البحر الأبيض المتوسط سواء في الحوض الشرقي على سواحل إيجيه أو في الحوض الغربي منه، ويؤكد توكوديديس في هذا الصدد ميل الإغريق إلى الهجرة نحو البحر فيقول: في تلك الأيام الخوالي حين أصبح الانتقال بالبحر أسير غدت القرصنة لذلك مهنة شائعة عند الهلنيين⁵⁸ ، فبحثوا عن أراضي غنية بالموارد الطبيعية وقريبة على بلادهم الأم من أجل سهولة التواصل ونقل المنتجات التي اشتهروا بصناعتها بعد إتقانهم العديد من الحرف والصناعات في المستوطنات الجديدة وقاموا بنقلها والإتجار بها في بلادهم الأم وفي بقية البلدان المطلة على سواحل البحر المتوسط فأضحت حضارة تجارية بحرية بالدرجة الأولى كما كانت الحضارة الفينيقية سابقاً. ويبدو أن مناطق الاستيطان الإغريقي التي ذكرت في المصادر الأصلية قد شملت كثيراً من مناطق العالم القديم خاصة تلك المناطق التي تجاور سواحل البحر الأبيض المتوسط، ولا بد أن ازدياد حركة الاستيطان دليل على رغبة الإغريق في الخروج من بلادهم وتأسيس وطن جديد لهم يستطيعون العيش فيه بحرية وكرامة. ولقد اتخذ الاستيطان الإغريقي "منذ القرن الثامن ق.م وحتى السادس ق.م عدة اتجاهات وفقاً لعلاقاتهم مع الشعوب الأخرى، وكون الإغريق علاقات جديدة سلمية يشوبها المحبة والتبادل التجاري مع بعض الشعوب البدائية مثل: الكلتيين والإيبيريين الذين عاشوا في فرنسا وإسبانيا"⁵⁹.

56 توكوديديس، تاريخ الحروب البلونيزية، الكتاب الأول، سابق، ص20

57 عياد، ج1، سابق، ص21

58 توكوديديس، سابق، انظر صفحات يتحدث عن الهجرة والقرصنة ص21-26

59 د. بكر، محمد إبراهيم، سابق، ص63

ثانياً . المجال السياسي:

. ظهر في بلاد اليونان بسبب العوامل الجغرافية والطبيعية سابقة الذكر والتي أدت إلى انفصال الأقاليم اليونانية عن بعضها البعض نظام سياسي جديد يعرف بنظام دولة المدينة Polis حيث تحكم كل مدينة ذاتها وما حولها من ضواحي وأرياف، وألفت كل منطقة جغرافية كياناً مستقلاً قائماً بذاته له مقومات الدولة الشكلية على الأقل 60 من خلال وجود حاكم ومجالس للشعب وفي بعض الأحيان جيش يدافع عن المدينة كمدينة إسبرطة. وعلى الرغم من الانقسام السياسي الذي طغى على دويلات المدن اليونانية إلا أنه أوجد وحدة حضارية جمعت كل المدن اليونانية بعدة روابط مشتركة وهي: اللغة الواحدة وإن تعددت اللهجات، والتراث الأدبي المشترك، والعقائد المشتركة والألعاب الأولمبية والمهرجانات الرياضية التي يشارك فيها جميع السكان في اليونان؛ لذا كانت المدن اليونانية مستقلة بذاتها عدا "الاتحاد الأثيني الذي ترأسه مدينة أثينا، والاتحاد الإسبرطي الذي ترأسه مدينة إسبرطة" 61، وقبل أن نتحدث الباحثة عن هذا النظام الديمقراطي سنتطرق إلى الأوضاع السياسية القائمة آنذاك والتي كانت السبب في وصول اليونان إلى حكم دولة المدينة المتحضر، إضافةً إلى الحديث عن الأسباب التي ساعدت على ظهور هذا النوع من الحكم.

لقد ظهر في بلاد اليونان أنظمة سياسية متعددة وهي بالترتيب: الملكية، الأرستقراطية، الأوليغارشية (حكم الأقلية)، حكم الطغاة، وأخيراً الحكم الديمقراطي، وجدير بالذكر أن هذه النظم السياسية "لم تظهر في المدن اليونانية في نفس التوقيت، وإنما تبعاً لتطور كل مدينة وظروفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية" 62. وبعد النظام السياسي (الملكي) أول نظام حكم عرفته اليونان القائم على سلطة الملك الاستبدادية ذات الصلاحيات الواسعة والذي ينتقل الحكم إليه بالوراثة ويساعده في إدارة البلاد مجلس من أعيان المدينة، وتسلم الحاكم عدة مناصب مثل "منصب الكاهن الأعلى، وقاضي القضاة، والقائد الأعلى للجيش، وكان يتلو قراراته على أفراد

60 د. سارة، تاريخ الإغريق، سابق، ص319

61 الطائي، ابتهاج، تاريخ الإغريق منذ فجر بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، ط1، 2014، الأردن، دار الفكر.

62 د. سارة، نقد الحضارة، ج2، سابق، ص71

الشعب في ساحة المدينة (الأجورا) بعد أن يوافق عليها مجلس الشيوخ دون مناقشة أو رفض⁶³. وذكر أرسطو في كتابه السياسات أن نظام الحكم الملكي كان حكماً ملكياً ذلك الحكم الفردي الذي ينظر إلى المصلحة العامة⁶⁴، وكذلك كانت نظرة الإغريق إلى الحكم الملكي أنه حكم استبدادي متفرد بالقرارات والسلطة والمناصب والثروات. وبسبب كثرة الاستبداد والفساد حل محل النظام الملكي نظام سياسي عرف بالأرستقراطي، ويمثل هذا النظام انتقال السلطة إلى طبقة النبلاء وملوك الأراضي التي جمعت أموالها من الضرائب المفروضة على الشعب الفقير والذي كان لا يملك الكثير من الحقوق، وتحول الحكم من حكم الفرد (الملك) إلى حكم الجماعة (الطبقة الأرستقراطية) بعد ضعف الملوك وانهيار سلطتهم داخل القصر وخارجه وظهور طبقة اجتماعية غنية من النبلاء والقادة العسكريين التي تميزت عن فئات الشعب الفقيرة بقوتها التي استمدتها من مناصبها العسكرية وقدراتها المادية، وضمنت هذه الطبقة الأرستقراطية "كبار الإقطاعيين وكبار الموظفين وبخاصة أعضاء محكمة الأريوباجوس حيث أصبحت هذه المحكمة تحت ظل.

هذا النظام تعبر عن مصالحهم على حساب مصالح الشعب".⁶⁵ وجدير بالذكر أن هذا النوع من نظام الحكم قد ظهر بعدما استقرت المدن اليونانية سياسياً وبدأ الدور الاقتصادي يظهر جلياً، وأصبح للتجار الذين عملوا في المستوطنات الساحلية مع الفينيقيين والمصريين ثقلاً سياسياً في المدن اليونانية؛ فأزاحوا الملك عن سلطاته السياسية ليحتفظ بسلطاته الدينية فقط باعتباره ممثل الشعب أمام الآلهة اليونانية، فما إن حل "القرن السابع ق.م ليظهر النظام الأرستقراطي بكل قوته ويسيطر زعماء العشائر على الحكم على اعتبار أن المورد الاقتصادي الرئيس في البلاد (الأرض) كان تحت سيطرتهم"⁶⁶، وقد أدلى أفلاطون Plato برأيه عن الأرستقراطيين في كتابه (الجمهورية) بأنهم أشخاص ارتقت بهم أعمالهم العظيمة فوق مستوى الإنسانية مثل المحاربين

63 د. البكري، سابق، ص30

64 أرسطو، السياسات، تر: الأب أوغسطينس البولسي، بيروت، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، 1957، ص135

65 د. العابد، سابق، ص62

66 د. سارة، تاريخ الإغريق، سابق، ص315

والمشرعين وتمسك أحفادهم بالامتيازات التي حصلوا عليها⁶⁷، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المدينة الوحيدة في اليونان التي حافظت على النظام الأرستقراطي هي إسبارطة.

وبدأ الوضع المعيشي لطبقات الشعب يتدهور لا سيما وأن الباحثة سبق وأشارت إلى معاناة اليونان من فقر بالتربة الزراعية وقلة المحاصيل في وقت كان الأرستقراطيين يتمتعون بأراضي البلاد وثرواتها من ناحية وبالأموال التي تدر عليهم من تجارتهم الراحبة مع الفينيقيين؛ لذلك كل هذه الأوضاع السياسية والاقتصادية دفعت مواطني الإغريق إلى الهجرة خارج حدود اليونان للسعي على مصدر رزق أو مناطق جديدة للاستقرار ذات وضع سياسي أفضل لا سيما وأن اليونان أصبحت غير صالحة للمعيشة بسبب الهوة الاقتصادية التي حدثت بين طبقات الشعب نتيجة هذا النظام؛ مما أثر سلباً على الفقراء، ودفعهم للبحث عن وطن يجدون فيه الحياة الكريمة فتدفقت الهجرات إلى سواحل وجزر البحر المتوسط وسواحل آسيا الصغرى وتعلموا من الفينيقيين فنون التجارة التي درت عليهم أموالاً طائلة، ومع مرور الزمن ظهرت طبقة جديدة هي (طبقة التجار) التي انقلبت على نظام الحكم القائم لكن بدل من أن تقف مع الشعب الفقير قامت بالتحالف مع "الطبقة الأرستقراطية ملاك الأراضي في المدن الأم وأسسوا نظام حكم جديد عرف بحكم الأقلية (الأوليغاركي)"⁶⁸؛ ويعود السبب في ذلك إلى أن الطبقات الفقيرة من الشعب التي قامت الثورات الشعبية ضد الأرستقراطيين تعرضت للخيانة من قبل بعض الأشخاص الأرستقراطيين من خلال تسللهم إلى صفوف الثوار فحصلوا على الدعم الشعبي وأطاحوا بالنظام السياسي القائم واستلموا الحكم واستأثروا بمواقع السلطة مستغلين غياب بعض قادة الثورات والعناصر "الساخطة من عامة الشعب خارج اليونان التي تحرك الشعب"⁶⁹ فهؤلاء هم فتيل الثورات الشعبية لينتهي الوضع بمأساة اجتماعية واقتصادية جديدة ويبدأ عهد حكم الطغاة.

ويعدّ حكم الطغاة مرحلة مهمة في تاريخ اليونان القديم حيث ظهر كبديل عن حكم الأقلية وشكل جسراً نحو الحكم الديمقراطي، ولا شك أن الطغاة غالباً كانوا من أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين استولوا على الحكم بدعم من فئات

67 أفلاطون، الجمهورية، تر: حنا خباز، ط1، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2017، ص43

68 د. سارة، تاريخ الإغريق، سابق، ص316

69 حسين، عاصم أحمد، سابق، ص126

الشعب الساخطة على الأرستقراطيين السابقين. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن كلمة طاغية لم تكن تحمل الدلالة السلبية كما في عصرنا؛ وإنما كانت تعني الحاكم الذي يصل إلى الحكم بطرق غير شرعية دون انتخابه من قبل الشعب، وكانت "لا تكاد تخلو مدينة إغريقية منذ القرن السابع وحتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد من طاغية أو أكثر رغم المعارضة العنيفة من الشعب وبالأخص من الفلاسفة السياسيون لا سيما أفلاطون" 70، وعلى الرغم من أن الطغاة قد وصلوا إلى السلطة بطرق غير شرعية إلا أن العديد منهم قام بإصلاحات في كافة المجالات في مدنها حيث عملوا على تطوير الصناعة والتجارة واهتموا برعاية الشعراء والفنانين وغالباً ما كانوا يحظون بدعم الشعب لهم في البداية من خلال اتخاذ إجراءات لصالح الطبقات الفقيرة كإعادة توزيع الأراضي وإلغاء الديون. ومن المؤكد أن ظهور هذا النوع من النظام السياسي له أسبابه ودوافعه التي تجلت بالصراع الطبقي بين الطبقة الأرستقراطية الغنية التي تسيطر على مقاليد الحكم وعلى الأراضي والثروات وبين طبقات الشعب الفقيرة كالفلاحين الذين لا يملكون قوت يومهم، إضافةً إلى ظهور طبقة جديدة سبق وأن أشارت إليها الباحثة وهي طبقة التجار الأثرياء (طبقة برجوازية) التي بدأت تتنافس الأرستقراطيين، وعلاوةً على ذلك اشتعال الثورات الشعبية التي كانت من أسبابها القوانين التي سنها الحكام الطغاة آنذاك والتي حولت معظم السكان إلى عبيد وفقراء مسحوقين حتى أن البعض لم يكن يستطيع أن يحمل لقب المواطن الإغريقي كونه يحتاج إلى شروط قاسية لتحقيقها ومنها دفع الضرائب الباهظة فتحول غالبية السكان إلى عبيد عدا الأثرياء وأصحاب الحرف حيث كان صاحب الحرفة مواطناً لأن الكثير من أهل الصناعات يحصلون على الغنى 71 ومن لم يستطع دفع الديون أو الضرائب يتحول إلى عبد. لكن لم يدم حكم الطغاة طويلاً في معظم المدن اليونانية فمع نمو الوعي الديمقراطي، وتطور الأوضاع الاقتصادية للتجار، واحتكاك اليونانيين بشعوب الشرق الأدنى القديم لا سيما الفينيقيين وإعجابهم بنظام الحكم الفينيقي القائم على الحكم الذاتي للمدن، وقيام الثورات الشعبية التي أطاحت بحكم الطغاة انتهى هذا النظام نهائياً ومهد الطريق لقيام نظام ديمقراطي عرف بنظام حكم المدينة (Polis) أو ما يسمى دولة المدينة الحرة (Free-City-State)، وهذه اللفظة اليونانية تستخدم للدلالة على المدينة الدولة التي تتكون نتيجة لعملية الإسكان

70 د. العابد، مفيد، سابق، ص70

71 أرسطو، سابق، ص130

المشترك هي (Polis) وأصل معناها هو القلعة، وقد كان من الطبيعي أن تقيم المجتمعات التي تسكن مسكناً مشتركاً داخل مدينة الدولة، قلعة مشتركة تصبح ملاذاً لسكان الأرياف ومواشيهم في حالة الحرب على أقل تقدير. 72 ، ويرى الكثير من المؤرخين أن التاريخ الفعلي للحضارة الإغريقية يبدأ منذ ظهور دويلات المدن وما تبع ذلك من تطور في النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ومن المعلوم أن لفظة (Polis) هي لفظة يونانية؛ لذا فقد اختلف المؤرخون والباحثون حول ماهيتها وترجمتها إلى العربية فترجمها البعض على أنها دويلة أو مدينة وبالإنكليزية (City-State) لكن "نادراً ما ترجمت إلى مدينة لأن هذه الكلمة توحى إلى عقولنا بضخامة مجتمع مدني على نطاق غير معروف للعالم الهليني، فهذه الكلمة تعني من الناحية القانونية (دولة) ومن الناحية الفعلية (بلداً) بينما كان شعبها يشكل (أمة)". 73 ، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن نظام دويلات المدن "Polis وجمعها Polies قد عرفه السومريون منذ عام 3000 ق.م" 74، ومن السومريون انتقل هذا النظام السياسي إلى الفينيقيين الذين نقلوه بدورهم إلى اليونان بطرق غير مباشرة من خلال احتكاكهم بهم، ومن خلال أيضاً مساعي الشعب الإغريقي الذي قام بالثورات الشعبية لذلك سمي بالحكم الشعبي أو الديمقراطي، ويتضمن مبادئ "المساواة بين طبقات الشعب، وألا يتولى أحد السلطة العليا دون الآخر وإنما يتمثلها في المناصب؛ لذا فإنه وفر الحرية والمساواة ومشاركة الجميع في سياسة الدولة" 75. ولقد وجدت في بلاد اليونان العديد من العوامل التي ساعدت على ظهور دويلات المدن الحرة الديمقراطية حسب رأي الباحثة فأولاً: يعود ذلك إلى الأسباب الدينية السائدة في المجتمع اليوناني البدائي ومنها ديانة الأسلاف أو الأسرار التي وجدت منذ العصر الباكر لتاريخ الإغريق والتي كان من أبرز خصائصها الاستقلال الديني لكل أسرة من حيث العبادة والشعائر والدفن وكانت ديانة كل أسرة تختلف عن غيرها من الأسر الأخرى. 76 فهذه القوانين الدينية القاسية التي فرضت على أفراد الشعب لم تمنح له بفرصة الابتعاد والعزلة عن أسرته أو عشيرته مما ساهم في زيادة الروابط الأسرية والعائلية والقبلية وساعدت على نشوء نظام دولة المدينة. أما العامل الثاني: كان السبب

72 د. العابد، سابق، ص42

73 توينبي، أرنولد، الفكر التاريخي عند الإغريق، تر: لمعي المطيعي، ط2، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت، ص35-36

74 محمود محمد، الأصول الشرقية، ص26

75 أرسطو، سابق، ص194

76 د. سارة، نقد الحضارة، ج2، سابق، ص316

السياسي من خلال كثرة المشكلات والاضطرابات السياسية التي شهدتها المدن اليونانية بدءاً من الحرب الطروادية ووصولاً إلى هجرة القبائل إلى اليونان لا سيما القبائل الدورية الذين قدموا من غرب آسيا الصغرى وأسسوا الحضارة الموكينية في بداية الألف الأول في بلاد الإغريق، فدخل المجتمع اليوناني بعدها في حالة من الضعف الشديد والانحطاط السياسي والاقتصادي، ورغم سلبات هذه الفترة إلا أنها في الحقيقة أتاحت "استيعاب عناصر جديدة من القبائل الدورية واختلاطها مع السكان الأصليين في اليونان" 77 فتعدلت التركيبة العرقية للسكان، واندمجوا مع بعضهم البعض وأسسوا تجمعات سكانية تقوم على أساس رابطة الدم والانتماء للعشيرة تحت تكوين سياسي عرف باسم دولة المدينة Polis. وقد ساعد هذا الانقسام السياسي والثورات الشعبية والتنافس بين الدويلات اليونانية على "تضوج الفكر السياسي بين اليونانيين ونبوغ عبقريتهم" 78 وازدهار الحضارة اليونانية.

أما العامل الثالث: فيعود إلى الأسباب الطبيعية والجغرافية لبلاد اليونان حيث أسهمت امتداد السلاسل الجبلية اليونانية في تقسيم المنطقة إلى مقاطعات صغيرة منعزلة يفصل بينها الحواجز الطبيعية من الجبال والأنهار والمنخفضات فعاشت في كل منطقة معزولة جماعات معدودة ينتمون في الغالب إلى أسرة أو عشيرة واحدة. فكانت الجبال عبارة عن "حواجز طبيعية بين الأجزاء السهلية القليلة التي لم تكن تتجاوز خمس مساحة اليابسة بحيث أصبح من الصعب الانتقال من مكانٍ لآخر" 79، وكانت كل مدينة منقسمة إلى تلال وسهول ضيقة، ما عدا إقليم "تساليا الذي كان يتميز بسهوله الفسيحة التي يمكن أن تتوحد في وحدة سياسية كبيرة إلا أن موقعه كان في منتصف الطريق بين الشعوب اليونانية والمقدونية والإليرية" 80؛ لذا كانت العوامل الجغرافية والمظاهر التضريبية سبباً لانفصال المدن عن بعضها البعض وسبباً لانتشار الروح الانفصالية والانعزالية بين المدن اليونانية المستقلة. ويتجلى العامل الرابع في: التدهور الاقتصادي والاجتماعي الذي شهدته اليونان في القرن الثامن ق.م وما بعده نتيجة طبيعة الأرض الجغرافية التي أدت إلى الفقر وتدني مستوى المعيشة ونتيجة تحكم طبقة الأرستقراطيين من ملاك الأراضي وكبار الزعماء السياسيين بالشعب حيث هيمن هؤلاء الأرستقراطيين على

77 الشيخ، حسين، اليونان، الإسكندرية، دار المعرفة، 1987، ص26

78 د. سارة، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم، سابق، ص20

79 حسين، عاصم، تاريخ وحضارة الإغريق، القاهرة، 1998، مكتبة نهضة الشرق، ص51

80 علي، عبد اللطيف، التاريخ اليوناني، 1976، بيروت، دار النهضة العربية، ص30

مقاليد السلطة وعلى عصب الاقتصاد في البلد من خلال امتلاكهم للأراضي الزراعية ووضع قوانين ساهمت في إفقار الشعب، وأخذوا "يستولون على سلطات الملك العسكرية والسياسية والقضائية بشكلٍ تدريجي وجعلوا له السلطات الدينية باعتباره ممثلاً لديانة المدينة وسلامة أهلها".⁸¹، وعلاوةً على ذلك كان لفقر التربة الزراعية في اليونان وضيق المساحات الجغرافية الصالحة للزراعة سبباً بالغ الأهمية لدفع الإغريق للإبحار والهجرة مما نتج عنه تأسيس مستعمرات يونانية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ساهمت في رفع الوضع الاقتصادي لبعض الفئات الدنيا من عامة الشعب، وساعدت على التعبئة الشعبية للقيام بالثورات ضد حكم الطغاة الذي انتهى بانتشار السيادة اليونانية على البحر المتوسط وزيادة التوسع في الأسطول البحري اليوناني ليبدأ عصر سياسي جديد سمي بدولة المدينة Polis. وأخيراً العامل الخامس: وهو العامل الخارجي المتعلق بالأوضاع السياسية والقوة العسكرية للدول المجاورة بما فيها دول الشرق الأدنى القديم والذي تمثل في تراجع السيطرة الكنعانية – الفينيقية على البحر الأبيض المتوسط بسبب الصراع السياسي بين الفينيقيين والآشوريين حيث قام الآشوريون "إبان الفترة التي يشار إليها بالأسرة الرابعة 943-745 ق.م بالقضاء على القوة السياسية للشعوب الآرامية"⁸²، حتى وصل إلى العرش الملك الآشوري "شلمنصر الثالث (858-824) ق.م فأخضع سورية وفينيقيا وفلسطين في عام 842 ق.م".⁸³، حيث عدّت السيطرة الفينيقية على البحر المتوسط قوة عسكرية وسياسية واقتصادية كبيرة فاقت قوة اليونانيين المبتدئين؛ لذلك لم يستطع اليونانيون الانتشار على سواحل المتوسط في البداية بسبب السيطرة الفينيقية على البحر المتوسط وسواحل آسيا. إضافةً إلى وجود دولة مصر القديمة في جنوب البحر الأبيض المتوسط والتي أعاقَت بدورها تحركات الإغريق البحرية والتجارية حتى وصل إلى العرش أسر ضعيفة نتيجة الغزوات الآشورية على مصر؛ أدى ذلك إلى ضعف قوة مصر السياسية والاقتصادية "وازدادت ضعفاً إبان حكم ملوك الأسرة الثانية والعشرين وبدأ الانقسام يسودها"⁸⁴. إذاً فقد ساهمت العوامل السابقة من: العوامل الدينية، والسياسية الداخلية والخارجية، والجغرافية، والاقتصادية، والاجتماعية في ظهور دولة المدينة المتحضرة Polis

81 د.سارة، تاريخ الإغريق، سابق، ص314

82 د.شمس الدين، إيمان، نقد الحضارة الغربية، ط1، ج2، العراق، النجف، المركز الإسلامي للدراسات التاريخية، ص285

83 مهران، محمد بيومي، تاريخ العراق القديم، الإسكندرية، دار المعرفة، 1990، ص 376

84 علي، رمضان عبده، تاريخ مصر القديم، ج1، القاهرة، دار نهضة الشرق، 2001، ص365

في بلاد اليونان التي جمعت المظاهر الحضارية والثقافية في حدود جغرافية محدودة وفرضت الولاء للمدينة على كل شخص يقطنها، وأفرزت مظهر سياسي جديد من خلال كسب ود السكان فلم نعد نرى روح العدائية بين السلطة والمواطن، وتغيرت نظرة المواطن إلى دولة المدينة "حيث ساد التعاون بين الشعب والحكومة السياسية بعدما أدركوا أنها حكومة ترعى مصالحهم وتيسر شؤونهم حتى عم السلام والرخاء في أرجاء المدينة" 85؛ لذا من غير الممكن الحديث عن دولة إغريقية واحدة وإنما عن حضارة إغريقية شملت كل المدن اليونانية وامتدت إلى الجزر البحرية لا سيما في جزيرة كريت 86 والتي عدت حضارتها المينوية جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الإغريقية القديمة، ولقد تألفت هذه الحضارة الإغريقية العظيمة من العناصر والمقومات المشتركة كاللغة والدين الواحد والتراث الأدبي المشترك أمة إغريقية عظيمة من خلال وحدتها وتماسكها رغم تعدد أنظمة الحكم في كل مدينة، ولقد اعتبر فلاسفة الإغريق أن نظام دويلات المدن هو "النظام الأمثل في بلاد الإغريق والذي ظل قائماً حتى نهاية أيامها حين أخضعها روما لسلطانها في عام 146 ق.م وجعلت منها ولاية رومانية" 87.

85 الناصري، سابق، ص 580

86 كريت: تقع إلى الجنوب من منطقة السيكلاد اليونانية شمال الشاطئ الأفريقي لكل من ليبيا ومصر، وتعد كريت من أكبر جزر البحر المتوسط وتتمتع بشواطئ ذات خلجان عديدة، واعتبرت منذ القدم مركزاً بحرياً نشيطاً ونامياً في علاقته المتواصلة مع الشرق منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد. للمزيد انظر: الشواف، قاسم، الفينيقيون والألعاب الأولمبية، ط1، 2011، دمشق، دار علاء الدين، ص 106

87 حسين، عاصم، سابق، ص 3

ثالثاً. المجال الاقتصادي:

. طغى على جغرافية بلاد الإغريق الطابع الجبلي وقلة السهول الزراعية وفقر مساحات شاسعة بالغطاء النباتي فغالبية الصخور جرداء وترتبتها صخرية قاحلة إضافةً على أن مناخها متوسطي جاف صيفاً ممطر شتاءً وهذا ساهم في زيادة جفاف الأراضي. ولقد تركزت الأراضي الصالحة للزراعة في السهول الداخلية وقرب الأودية وفي السهول "التي تحيط بها الجبال كسهل إسبارطة وتساليا وأركاديا أو سهول ساحلية كأرجوس" 88، ومن أهم السهول الزراعية الواسعة والصالحة للزراعة التي ذكرها توكوديديس "تسالية وبويوتيه وأركاديا" 89؛ وعلاوةً على ذلك كانت المحاصيل الزراعية لا تكفي حاجة المجتمع اليوناني قديماً فكانت أشهر محاصيل اليونان الزراعية ما عرف بثالث البحر المتوسط لأهميتها الاقتصادية والغذائية وهي: القمح الغذاء الأساسي للشعب، العنب الذي يصنع منه الخمر والنبيذ، والزيتون الذي يستخدمونه في الغذاء بالاستفادة من زيتته، أو في الحياة اليومية كالإنارة. وكانت الإنتاج الزراعي يقل مع مرور الزمن نتيجة الظروف الجغرافية والطبيعية وضعف مواسم الأمطار، ونتيجة الحروب فكان من الصعب إعادة زرع الشجيرات التي تحتاج ربحاً من الزمن حتى تنمو وتطلق ثمارها "فتدمير شجرة الزيتون يعتبر خسارة فادحة وهذا ما حصل في مدينة أثينا عندما دمرت الحروب البلوبونيزية أشجار الزيتون فيها" 90. ولا بد من الإشارة هنا إلى وجود العديد من الفاكهة التي أتى على ذكرها هوميروس في ملحمة الأوديسة واصفاً بستان أحد القصور بقوله: للآلهة أشجار الرمان المتقلبة بأثمارها مفتحة عن شفاء الأقداح، وحمرة الخجل قد خضبت خدود التفاح الكمثرى وسالت قطرات الشهد من ثمرات التين وتأججت أنواراً زاهية في أفنان الزيتون 91 وكذلك بالنسبة لأراضي المراعي الفقيرة والتي كانت تعاني من نقص حاد في أراضيها فاقتصرت تربية المواشي على الأغنام والماعز.

وفي الواقع كانت الزراعة هي النشاط الأساسي في اليونان حيث عمل ما يقدر 80% من السكان لكن اعتبر الفلاح في المجتمع اليوناني في العصور القديمة من أكثر الناس فقراً حيث كان مثقلاً بالديون يعاني من سلب

88 الشيخ، حسين، سابق، ص10

89 توكوديديس، سابق، الكتاب الأول، ص20

90 الشيخ، سابق، ص11

91 هوميروس، الأوديسة، تر: دريني خشبة، بيروت، 2001، دار العودة، ص67

حقوقه السياسية والاجتماعية بسبب كثرة الضرائب أما بقية الطبقات الاجتماعية فقد عاشت حياة الترف والبذخ لا سيما سادة القوم والنبلاء والأرستقراطيين حيث كان هؤلاء في القانون الاجتماعي يملكون الأراضي، وبالنسبة إلى الصناعيين الذين يملكون حرفة يدوية تدر عليهم أموالاً استطاعوا النجاة من نظام الرق والعبودية الذي انتشر بكثرة بسبب عدم قدرة الفقراء على سداد ديونها وعلى دفع الضرائب للدولة نتيجة وجود نظام سياسي فاسد استبدادي سلب الشعب حقوقه الاجتماعية والسياسية حتى جاء المصلح صولون التي أدت إصلاحاته السياسية إلى حماية الفلاح من العبودية، وفي ذلك الوقت لم يكن التحضر قد طرق باب اليونان بعد فكانوا مجتمعاً ريفياً لا يعرف إلا الزراعة وبعض الحرف اليدوية فلم تكن لديهم "التجارة أو النظم السياسية والاقتصادية" 92.

أما الصناعة فاحتلت المرتبة الثانية في النشاط الاقتصادي بعد الزراعة، وعرفت اليونان الصناعات التقليدية كصناعة الفخار الذي دخل إلى اليونان عن طريق جزيرة كريت التي شهدت نشاطاً تجارياً فينيقياً، وقد كشفت التنقيبات الأثرية في مدافن جزيرة كريت ومدينة أثينا على فخاريات كانت تستخدم لحفظ الحبوب والخمر والزيت. وفي الواقع كانت أراضي اليونان تمتلك مقومات الصناعة لا سيما مقاطعة أتيكا الغنية بثرواتها من المعادن والأحجار والذي ساهم في تسريع عمليات البناء والتطور الحضاري والاقتصادي، فاستخدم الرخام للبناء والطمي لصناعة الأواني الفخارية والخزفية والنحاس والفضة للصناعات المعدنية فاشتهرت أثينا بالفخار وكورنثة وخاليكس بالصناعات المعدنية وميليتوس بالملابس الصوفية 93 وجدير بالذكر أن نشير إلى ان هذه الأحجار كالرخام قد استخدمت في تشييد المعابد ولاحقاً بعدما تطور الاقتصاد في اليونان استخدمت في بناء المباني والمسارح والنوادي الرياضية والثقافية ونلمس ذلك في آثارها المشيدة التي تحتوي الرخام وخليط بين الأحجار والمعادن. ومن الصناعات التي أتقنها الإغريق بعد احتكاكهم بالفينيقيين صناعة السفن التي لاقت رواجاً كبيراً بعد هجرة الإغريق إلى سواحل آسيا الصغرى وازدهرت خلال منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد فعرفوا صناعة السفن الحربية والتجارية وكانت الحروب البلوبونيزية شاهدة على ذلك حيث تألف الأسطول اليوناني من 300 سفينة وجدير بالذكر أن الأخشاب اللازمة لصناعة السفن قد استوردت من صقلية وجنوب إيطاليا بسبب عدم

92 حلاق، حسان، سابق، ص113

93 الشيخ، حسين، سابق، ص12

كفاية الإنتاج الزراعي في اليونان كما سبق وأشارت الباحثة. وبمجرد "انتعاش الصناعة تطور المجتمع وساعد بالتالي على تطور الأنظمة الديمقراطية" 94 سيما مع قيام المصلحون بإصلاحات شملت كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي أزاحت عن كاهل الشعب الكثير من الصعاب التي كانت تعترض مسيرة نشاطهم الاقتصادي.

كل هذه الظروف الاقتصادية والجغرافية المعقدة ساهمت في قيام حركة الانتشار والاستيطان الإغريقي فهاجر الكثير من السكان إلى سواحل آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه للبحث عن فرص عمل ومناطق تتوافر فيها الرزق الوفير سيما وأن هذه المناطق كان يرتادها التجار الفينيقيون؛ وساهم ذلك الاحتكاك مع الفينيقيين إلى إعجابهم بالنظام السياسي لديهم فاقنّبسوه بعد قيامهم بالثورات الشعبية ضد الحكام الطغاة والأرستقراطيين ووصلوا إلى نظام الحكم الديمقراطي الذي عرف بدويلات المدن. وشكل الاقتصاد اليوناني حينها من منتصف الألف الأولى قبل الميلاد نظاماً مميزاً استطاع التغلب على الطبيعة الجبلية الفقيرة والنظم السياسية المستبدّة فتحوّل من نظام اقتصادي يعتمد على الاكتفاء الزراعي إلى نظام اقتصادي تجاري بحري رابح، وأضحى الاقتصاد اليوناني الأكثر تقدماً في العالم بعد أفول نجم الفينيقيين حيث تسلم الإغريق دفعة النشاط الاقتصادي في حوض البحر الأبيض المتوسط ووفقاً "لبعض المؤرخين كان الاقتصاد اليوناني متقدماً صناعياً وكان لكل مدينة نظامها الخاص في الموازين والمقاييس والعملة" 95.

وبدأت اليونان منذ هذه بداية ازدهارها الاهتمام بالتجارة فسعت إلى تأمين شبكة تجارية واسعة للتبادل التجاري وساعدها على ذلك وجود المدن الساحلية التي حولتها إلى موانئ تجارية والجزر الساحلية التابعة لها والتي تحولت إلى مراكز تجارية ضخمة كجزيرة ديلوس، وقد لعبت الموانئ الساحلية دوراً حيوياً في النشاط التجاري كميناء بيرايوس في مدينة أثينا. وبدأت التجارة بالنمو نتيجة المبادلات التجارية الكبيرة لا سيما في المستوطنات الإغريقية في آسيا ومصر التي ساهمت في دعم الاقتصاد المصري الذين أقاموا علاقات تجارية مع الدول

94 سارة، خليل، تاريخ الإغريق، سابق، ص338

95 الطائي، ابتهاج، تاريخ الإغريق منذ فجر بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، ط1، 2014، عمان، دار الفكر، ص91

الشرقية وروجوا لصناعات اليونان. وجدير بالذكر أن النشاط التجاري والبحري للإغريق في المستوطنات الإغريقية في كل من الساحل السوري ومصر وجزر بحر إيجه وآسيا الصغرى أكبر بكثير من الاقتصاد اليوناني في اليونان ذاتها.

وبفعل هذا التطور فقد ازدهرت "التجارة الخارجية حتى أن بريكليرس قال يوماً: أن كل منتجات العالم تجد طريقاً إلى أثينا"⁹⁶. وحري بالقول إن بعد هذه التطورات قد تحول الاقتصاد بشكل كبير وازدهر وأضحى قائماً على الصناعة والتجارة والنظام النقدي فنمت التجارة وتحولت الحرف التي كان مقرها المنزل إلى ورشات صناعية؛ بسبب تزايد الطلب على السلع كالفسار الأثيني المزخرف والمصنوعات المعدنية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى موضوع هام في الاقتصاد اليوناني ألا وهو العبودية التي كانت جزء لا يتجزأ من البنية الاقتصادية والاجتماعية للسكان، وعدّ العبيد قوة عمل أساسية اعتبرت محرك الصناعات والورشات الصناعية الكبيرة والمناجم لاستخراج الثروات الباطنية كالمعادن، إضافةً إلى استخدامهم في مقالع الأحجار وفي القصور والمنازل والأراضي الزراعية. وكان يتم الحصول على العبيد من خلال الحروب أو عن طريق تجارة النخاسة وورثة أبناء العبيد بما يضمن استمرار تدفق العبيد دون استيرادهم من الخارج، وقد بلغ عددهم في مدينة أثينا بشكل لا يصدق فكانوا يعملون كحراس للطرق وخدم في المنازل ولقد انتقل هذا الأثر إلى مصر في عهد البطالمة التي شهدت زيادة واسعة في أعداد العبيد الذين ساهموا بدور اقتصادي كبير فيها من خلال دعم الزراعة والصناعة الذي تميزت به الممالك الهيلينستية آنذاك وتمكنت مصر البطلمية بفضلهم من تحقيق فوائض زراعية هائلة وتصدير العديد من المنتجات الزراعية إلى مختلف أنحاء العالم لا سيما الحبوب.

ومن أهم الصناعات التي ساعدت على رفع اقتصاد اليونان إلى أعلى الدرجات سك العملة التي كانت معيار على السيادة والاستقلال للمدن اليونانية، وكانت المحرك الأساسي للتجارة وتبادل البضائع وقبل معرفة العملات كانت المقايضة هي أساس التبادل التجاري التي تعلمها الإغريق من الفينيقيين وكان لظهور النقود "وحولها محل المقايضة أثر على تطور المستوى المعيشي والاقتصادي وزيادة تعقده مما ساهم بتوسيع الصناعات والأسواق"

97 لا سيما وأن التجار قد لاقوا صعوبات كثيرة في التبادل التجاري في نظام المقايضة التي كانت في غالبية الأوقات "مرهقة وغير دقيقة" 98 سكت كذلك النقود من الفضة لا سيما في أثينا التي عرفت بعملتها القوية المعروفة (الدراخما) التي حملت صورة البومة وكانت دليل القوة الاقتصادية فمن امتلك عملة أثينا امتلك ثروة كبيرة لأنها كانت مقبولة ومتداولة في حوض البحر المتوسط حيث كانت أثينا تستخرج الفضة من مناجمها في جبل لوريوم ومزجت لاحقاً بين الذهب والفضة؛ مما دل على تطور نظامها النقدي ونضوج اليونانيين الاقتصادي. وقد أشار هيرودوت إلى أن أول من سك العملة هم الليديون وكانت من الذهب والفضة. 99 وبدأت أثينا تشجع "التجارة الخارجية بعد إيجادها نقد موثوق به" 100. وفي الحقيقة هناك عدة أسباب جعلت من مدينة أثينا قوة اقتصادية كبيرة تجلت "بقوتها وسيادتها البحرية أولاً، وثانياً بسبب الاتحاد الذي أسسته بين 338-377 ق.م حيث حصلت من حلفائها على إمدادات غذت اقتصادها مما ساهم في تقوية أسطولها البحري التجاري" 101

تطورت مفاهيم الأنشطة الاقتصادية اليونانية وبدأت توجه اهتماماً أكبر بالنظام المصرفي بعدما ساهمت في سك النقود وسيطرت على حوض البحر المتوسط بعملتها، وكانت المعابد الدينية والهيئات العامة والتجار يقومون بإجراء معاملات مالية متطورة من خلال حفظ الدائع وإيداع الأموال لدى البنوك التي ظهرت بشكلها البدائي البسيط والتي قدمت خدمات الإقراض مقابل الفوائد؛ مما ساهم في تمويل المشاريع الاقتصادية ودعم التجارة الخارجية بسبب الثقة الكبيرة في التعاملات النقدية مما شجع على التوسع التجاري الهائل بفضل البنوك استطاع التجار الحصول على الأموال اللازمة أثناء رحلاتهم التجارية الطويلة فربط الشرق بالغرب بصورة لم يسبق لها مثيل وهذا كان بفضل الحضارة الإغريقية التي ساهمت في التأثير في الشرق بعد أفول نجمه فكان العصر الهيلينستي الذي بدأ بفتوحات الإسكندر المقدوني نقطة تحول مفصلية في تاريخ الشرق الأدنى القديم فلم يقتصر على الجوانب الثقافية والابتكارات العلمية وإنما امتد ليشمل البنية الاقتصادية لا سيما في مصر البطلمية وسلوقية في آسيا؛ مما أدى إلى دمج غير مسبوق بين الأنظمة الاقتصادية الشرقية والغربية.

97 الشيخ، سبق ذكره، ص12

98 الشيخ، حسين، سابق، ص15

99 هيرودوت، تاريخ هيرودوت، سابق، ص94

100 الطائي، ابتهاج، سابق، ص91

101 حلاق، حسان، سابق، ص123

وشمل التطور الاقتصادي في العصر الهيلينستي في الشرق الأدنى القديم بالتحول الجذري نحو الاقتصاد النقدي وهو الأثر البارز للاقتصاد اليوناني على الشرق بعدما كانوا يتبادلون منتجاتهم عن طريق المقايضة، إضافة إلى انتشار العملة الموحدة مثل الدراخما والأوبول والتي سهلت التجارة عبر الحدود وربطت الممالك الهيلينية ببعضها البعض. ولقد قام اليونانيون ببناء شبكات للتجارة في منطقة الشرق الأدنى التي حولت الشرق إلى جزء من اقتصاد اليونان، وأسسوا المدن التجارية كالإسكندرية في مصر وأنطاكية في سوريا والتي ربطت مع بعضها البعض عن طريق البحر الأبيض المتوسط.

ويمكن القول في أن الاقتصاد اليوناني لم يلغي الاقتصاد في الشرق الأدنى القديم وإنما هيكلته مؤسساته وتطورها وربطها باقتصاده ليصبح جزءاً من الاقتصاد العالمي الذي شهد تطوراً كبيراً وتدفق هائل للثروات والأموال وتحسن في الكفاءة الإدارية والتجارية.

رابعاً. المجال الاجتماعي:

. إنَّ تطور الأمم والمجتمعات يعتمد في الدرجة الأولى على مدى قدرة شعبها على التأقلم والاندماج مع المتغيرات الداخلية والخارجية على حدٍ سواء، ونوعية استجابته بشكلٍ إيجابي، وقدرته على هجر الأفكار والمعتقدات الشعبية القديمة عن قناعة وتبني الأفكار الحديثة القائمة على المنطق بعيداً عن الخرافات والشعوذة والأساطير، وهذا ما نجده لدى شعب اليونان الذي استطاع التأقلم مع كل أنواع نظم الحكم السياسية بكافة أشكالها، ومع تقلبات الوضع الاقتصادي، والحالة الاجتماعية التي تحولت من انتشار التخلف والجهل والأساطير إلى استخدام العقل والمنطق وانتشار العلوم لا سيما الفلسفة فبدأ اليونانيون بالانتقال من مجتمع بدائي يعتمد على الزراعة والأدوات البسيطة والريح القليل إلى مجتمع متحضر يمتنح التجارة والسياسة والخطابة والأدب ويرفض مظاهر التخلف والرجعية فقد كان هناك "ثورة حقيقية على المعتقدات القديمة لا سيما نظام الرق الذي استعبد الناس، إضافةً إلى مناقشة حقوق المرأة ومساواتها بالرجل" 102 وكذلك تأثرت الحضارة الإغريقية بمقومات الحياة الاجتماعية السائدة في اليونان من خلال العلاقات التي تربط السكان ببعضهم البعض من جهة، ومن جهة أخرى بالسلطة أو الحاكم، فلم يكن لدى الإغريق في نظمهم السياسية ملك مقدس كما كان لدى حضارات الشرق الأدنى القديم الذي عدَّ نائب الإله على الأرض، وإنما كان لديهم العديد من الآلهة المقدسة التي يرأسها كبير الآلهة (زيوس)، وبعض الأبطال البشريين أنصاف الآلهة مثل (هيراكليس) أو هرقل. أما الحاكم فهو صحيح نائب الإله على الأرض لكن كان بالإمكان الإطاحة به بعدما نضج فكرهم السياسي؛ لذا كانت الحياة الاجتماعية للإغريق الأوائل تعتمد على الأسر والعشائر التي تجتمع مع أفرادها ويتناقشون بأمور عشيرتهم واحتياجاتها اليومية ويعالجون مشكلاتها، ومع مرور الزمن أصبح المكان الذي يجتمعون فيه مركزاً اجتماعياً ثم سياسياً، وعندما تطور المجتمع الإغريقي أصبح السكان يجتمعون في (الأجورا) 103 ويتناقشون فيها بما يخص أمور مدينتهم وأمور حياتهم اليومية وشؤونهم الداخلية والخارجية، وأصبحت العشائر بدورها تاتمر بقرارات مجلس الشيوخ والحاكم الذي

102 الناصري، سابق، ص576-577

103 الأجورا: وهي مركز المدينة حيث يتألف من ساحة مربعة أو مستطيلة الشكل، كبيرة المساحة ومخصصة للناس بعيداً عن مرور العربات، ويحيط بها ممرات مسقوفة، وعلى أطرافها المباني الإدارية والحمامات والملاعب والمسارح، وتعتبر (الأجورا) مكاناً للاجتماعات والأعمال والحياة السياسية. للمزيد اقرأ: كاظم، سهاد، دراسة تخطيطية ورؤية تاريخية في ملامح الحضارة الإغريقية، العدد الثاني، جامعة الكوفة، مجلة التراث العلمي العربي، 2013، ص285

يجتمعون به في ساحة المدينة فمن هذه الساحة تطور الشعر والنثر لدى الإغريق وعرفوا علوم الفلسفة والحكمة والسياسة وأعلنوا الثورات الشعبية ضد الحكام الطغاة، ومن هذه الساحة برز العديد من العلماء والفلاسفة وأصحاب البلاغة والخطابة ومنها خرج إنتاج عظمائهم مثل فيثاغورث وأقلاديبوس وأفلاطون¹⁰⁴. فلم يكن لدى الإغريق في البداية دولة أو حكومة بمفهومها الحالي، ونظراً "لغياب مفهوم الدولة لدى الإغريق والذي ينظم العلاقات بين الناس ويساوي بينهم في الحقوق والواجبات ساد بينهم نظام الرق والفوقية الطبقية حيث سيطر السادة على العبيد والأغنياء على الفقراء"¹⁰⁵.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ساحة (الأجورا) كانت تتطور كمكان مع تغير أوضاع البلاد الإغريقية وتحضرها فمع مرور الزمن وتطور الأوضاع السياسية والاجتماعية عدّت (الأجورا) مركزاً للمدينة فوضعت في "وسط للمدينة حيث تتقاطع عندها الشوارع في كل الاتجاهات وشغلت الساحة مساحة 5% من مساحة المدينة، وبني في محيطها أسواق تضم محال الباعة"¹⁰⁶ وجدير بالذكر أن المدن اليونانية كانت تختلف أنظمتها السياسية عن بعضها وفي بعض تقاليدها الاجتماعية فلا شك أن ظهور نوع من أنظمة الحكم في مدينة لا يعني وجوده في بقية المدن اليونانية؛ لأن المدن كانت بعيدة ومنعزلة عن بعضها وكان التطور في النظام السياسي يصل إلى مدينة قبل غيرها، إضافةً إلى أن عدد السكان في المدينة "لا يزيد في خير الأحوال عن 30 ألف شخصاً؛ هذا سمح بفرصة الاحتكاك اليومي بين المواطنين وكان هذا الاحتكاك مجالاً خصباً لمناقشة أمور حياتهم اليومية مما نتج عنه تبلور في الرأي العام بسرعة لم تتوفر في المجتمعات الكبيرة كالممالك الشرقية، حيث أفضى ذلك إلى تطور الأنظمة السياسية"¹⁰⁷.

ولقد أثر الوضع السياسي على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وعلى تطور الفكر أيضاً وستتحدث الباحثة عن الآثار الإيجابية والسلبية لكل وضع بالتتالي وستبدأ بالوضع الاقتصادي حيث أدت أنظمة الحكم السياسية والأوضاع الاجتماعية السائدة إلى وجود أنظمة حكم أرستقراطية مستبدّة وظالمة، وزاد الوضع الجغرافي للمدن

104 مرجع سابق، ص 279

105 د. الكيلاني، محمد جمال، نقد الحضارة الغربية، ج 4، ط 1، العراق، النجف، ص 14

106 م.د كاظم، سهاد، سابق، ص 286

107 د.سارة، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم، سابق، ص 19

الأمر سوءاً لما نتج عنه من فقر بالتربة الزراعية وقلة مساحة الأراضي الخصبة فأدى إلى تدني المستويات الاقتصادية في بلاد الإغريق وانتشار الفقر بين أوساط الشعب الذي لم يجد فرصةً لتغيير مستواه الاقتصادي إلا عن طريق الهجرة إلى البحار، فاتجه الإغريق إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط وسواحل بحر إيجه بعدما شاهدوا التجار الفينيقيون يجوبون البحار وينقلون بضائعهم التجارية التي تدر عليهم أموالاً طائلة فدب الحماس في أوصالهم بغية التخلص من الأوضاع السيئة في بلادهم حيث بدأت "الموجات الأولى للهجرة اليونانية نحو البحر منذ القرن الحادي عشر ق.م، وأصبحوا مثلهم مثل الفينيقيين شعباً مكوناً من المهاجرين والتجار في الجاليات التي أسسوها" 108 على شواطئ البحار، ونقلوا إلى هذه الجاليات والمستعمرات عائلاتهم وعاداتهم وأساليب حياتهم فتشابهت المستعمرات اليونانية مع الموطن الأصلي للإغريق، وشعر اليوناني وكأنه في موطنه لا في بلد الاغتراب مع اختلاف بسيط في المستعمرات حيث قلد المهاجرون اليونانيون المظاهر الحضارية الشرقية، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل المهاجرون الإغريق في المستعمرات يترددون إلى اليونان كل حين لأداء الواجبات الدينية المقدسة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى التركيبة الاجتماعية التي تكون منها المجتمع اليوناني والتي كان لها الأثر في الوضع السياسي والاقتصادي على حدٍ سواء حيث تألف المجتمع من ثلاث طبقات اجتماعية مختلفة وكان على رأس تلك الطبقات (طبقة الأشراف) التي استأثرت بالسلطة وسيطرت على الأراضي والاقتصاد، تليها (الطبقة الوسطى) من التجار والحرفيين والذين درت عليهم أعمالهم أموالاً كانت لهم بمثابة الدرع الحصين من الاستعباد، وفي نهاية السلم الاجتماعي (طبقة العبيد) التي شكلت الغالبية العظمى من نسبة السكان؛ بسبب القوانين التي سنّها الأرستقراطيين والتي ساهمت في زيادة الفقراء وأباحت للدائن مصادرة أملاك المدين ومصادرة حريته الشخصية أيضاً في حال لم يستطع رد الدين 109. لذلك رأى الكثير منهم أنه من الأجدي لهم أن يتركوا مدنهم الأصلية وأن يبحثوا عن أراضٍ جديدة، وكان ذلك السبب الذي دفع الفقراء لترك أراضيهم والهجرة بحثاً عن فرص للحياة والبحث عن أوطان يكونون فيها سادة يملكون الأراضي وألا يكونوا عبيداً تستملك حريتهم وحياتهم. وبالفعل غادر الإغريق

108 د. سارة، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم، سابق، ص25

109 الناصري، سابق، ص153

بلادهم الأصلية باتجاه سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية عبر بحر إيجه وتعلموا أصول التجارة والتعامل من الفينيقيين وحذقوا فيها، ثم أسسوا مدناً ومستوطنات على طول شواطئ البحر الأبيض المتوسط التي لم تنفصل عن الوطن الأصلي فما كان يحدث في اليونان كان تأثيره يمتد إلى كامل هذه المستعمرات، حيث انتقلت آثار تأزم الوضع السياسي في بلاد الإغريق إلى المستعمرات التي كانت تنتفض مع الوطن الأم من خلال الثورات الشعبية على الحكام الأرستقراطيين وحكم الطغاة، حتى استطاعوا نقل نظام سياسي جديد عُرف باسم (دول المدن) الذي انتشر في المستعمرات الساحلية أولاً ثم انتقل إلى اليونان. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن سكان المستعمرات الجديدة لم يكونوا يونانيين فحسب، وإنما في الأصل هم السكان الأصليون للجزر والمدن الساحلية التي قطنها اليونانيون وعاشوا معهم، فكان السكان في المستعمرات عبارة عن "شعوب مختلفة الأعراق والأجناس قبلت العيش المشترك مع الإغريق، وقبلوا بطريقة الحياة الإغريقية وباللغة اليونانية؛ لذلك لم يعد جوهر وأساس الحياة الإغريقية الموقع الجغرافي أو العرق القومي وإنما أصبحت طريقة الحياة السياسية المتحضرة المتمثلة بدولة المدينة Polis¹¹⁰. ويمكن القول: إن هجرة اليونانيون كانت فرصة لهم لتغيير وضعهم الاقتصادي إلى الأفضل والتعرف على شعوب الدول المجاورة المتقدمة على الإغريق بأشواط كبيرة لا سيما في مجال السياسة حيث ساهمت هجرتهم في تغيير أنظمة الحكم السياسية المستبدة "من خلال التحرك الشعبي والثورات الرفضية لأنظمة الحكم والتي بدأت تتغير وتظهر بصورها المتتالية من الملكي إلى الأرستقراطي إلى الأوليغاركي وصولاً إلى الديمقراطي.¹¹¹ ولا شك أن هذه المستعمرات التي أسسها اليونانيون على شواطئ المتوسط كانت دولاً مستقلة عن بعضها البعض مثل المدن المنعزلة في الموطن الأصلي لا يجمعها أي اتحاد سياسي أو عرقي ولذلك كان الإغريق ذا وطنية مدنية لا تمت إلى القومية العامة بصلة، وكانت هذه الدول المدنية ذات وشائج لغوية وثقافية جمعتها الأبحاث الرياضية في (أوليمبيا) تكريماً للإله (زيوس).¹¹²

110 الناصري، سابق، ص 98

111 د. سارة، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم، سابق، ص 30

112 د. البكري، سابق، ص 32

ولم يقتصر تأثير الأنظمة السياسية على الوضع السياسي والاقتصادي فقط، وإنما أثرت على الشعب أيضاً من خلال قدرته على التفاعل معها وتبادل الحوار الإيجابي والبناء مع السياسيين بغية تطوير المجتمع فلم يعد المواطن يشعر بالقيود السابقة بل أصبح المجال متاحاً للحريات المتعددة، وأصبحت عجلة التطور تدور سريعاً بعدما كانت العقائد الدينية القديمة والتقاليد الاجتماعية البالية حاجزاً منيعاً للتحضر، وأسهمت المستعمرات في زيادة الاحتكاك بين اليونانيون وشعوب الشرق الأدنى القديم "فنقلوا ثقافات الشعوب الشرقية وعاداتها وتقاليدها ونظمها السياسية إلى مستوطناتهم ومنها إلى موطنهم الأصلي في اليونان؛ مما نتج عنه تفاعل كبير بين الحضارة اليونانية وحضارات الشرق القديم امتد آلاف السنين" 113، واتسع مجال التأثير بحضارات الشرق الأدنى القديم إلى نبذ التعصب الديني والعقائد القديمة ومال الشعب اليوناني إلى العلم وحب المغامرة والاستكشاف صاحب ذلك كله تطور كبير في سيكولوجية الفرد الأثيني إذ بدأ الفرد يحس بنفسه بصورة لم يعهدها من قبل إذا لم يعد المواطن يرى نفسه من خلال المجتمع والدولة بل يرى الدولة والمجتمع من خلال ذاته وأن الدولة يجب أن تكون في خدمته وترعى مصالحه. 114. ولا بد من القول: إن الاستعمار والاستيطان على سواحل البحر المتوسط كانت سمة الحضارة اليونانية التي ميزتها عن غيرها من الحضارات وأعطتها بعداً عالمياً 115 لكن من الممكن أن يفكر الغالبية في أن الفينيقيين كذلك كانت سمة حضارتهم الهجرة خارج بلادهم وبناء المستوطنات على سواحل البحر الأبيض المتوسط لكن ما ميز الإغريق عن الفينيقيين هو أن المستوطنات الإغريقية خرجت منها أسس الحضارة على عكس الفينيقيين الذين خرجت حضارتهم من بلادهم الأصلية إلى مستوطناتهم؛ لذا تعتبر حضارة الفينيقيين من الحضارات الأصلية وحضارة الإغريق من الحضارات الهجينة الوليدة. ومع استمرار التطور في مظاهر الحياة على كافة مجالاتها أخذت الحياة اليومية تثير اهتمام الأدباء والفلاسفة، وأصبح الإنسان محور اهتماماتهم وقضاياهم من خلال وصف أحاسيسه وتفسير اتجاهاته وميوله، ونقد تفكيره حيال أمر ما. فهذا التطور الفكري والعلمي الذي حصل في وقت قصير يدل على أن الشعب الإغريقي يتمتع "بالذكاء والعبقرية والاستيعاب السريع والفهم العميق والتأقلم مع كل جديد؛ ويعود ذلك لخبرات

113 د. سارة، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم، سابق، ص 25

114 الناصري، سابق، ص 576

115 د. سارة، نقد الحضارة الغربية، ج 4، سابق، ص 147، 148

الشعب السياسية والاجتماعية بفضل ما مر به من حروب وأزمات داخلية وخارجية وتدهور اقتصادي أسهم في تقدمهم بعد لجوئهم إلى الحوار الديمقراطي مع السياسيين فتطورت حياتهم لا سيما في القرن الخامس ق.م والذي يعتبر من أبرز عصور النهضة الإغريقية حتى أطلق عليه "عصر المعجزة الإغريقية" 116، وشمل هذا التطور جميع مجالات الحياة لا سيما المجال الثقافي والعلمي الذي يعد أساساً لكل تقدم حضاري ففي مجال الأدب عدّ تطور وتقدم أساليب النثر الأساس الذي ساعدهم على سرد معلوماتهم بشكلٍ مريح أكثر من الشعر الذي يحتاج إلى قوافي وأوزان، وكذلك ظهرت لديهم القصص والروايات الشفوية؛ بسبب حاجاتهم للاهتمام بماضيهم وحاضرهم وحياتهم اليومية حيث اعتمدت هذه السرديات على النثر بشكلٍ كبير، وتقدم اليونانيون القدماء في المجال الجغرافي الذي سمح لهم في وصف المعالم الجغرافية التي رآها المهاجرون اليونانيون خارج حدود دولتهم الأصلية لا سيما كبار الرحالة، وكتبوا أخبار رحلاتهم ومغامراتهم البحرية في المستعمرات التي أسسوها على سواحل البحر المتوسط، وأمعنوا في وصف عادات وتقاليد الشعوب التي احتكوا وتأثروا بها. وبكل هذا كان الإغريقي قد تحرر في حلول القرن الرابع من كل الأفكار والقيود القديمة ومن تسلط الشعر بأوزانه على فن الأدب. 117؛ مما سهل انتشار الكتابة بشكلٍ كبير وازداد عدد القراء وانتشر فن الكتابة والبلاغة والخطابة.

وإضافةً إلى ذلك فقد اهتم العلماء الإغريق بما ورثوه من علوم حضارات الشرق القديم وطوروا علومهم الخاصة وفلسفاتهم الروحية بما يتناسب مع الحداثة، ففسروا الظواهر الطبيعية بأسبابها العلمية واعتمدوا على التحليل والتجريب ووضع النظريات التي تعتمد على البراهين لا سيما في عصر (بريكليس) حيث تطورت العلوم تطوراً ملحوظاً وظهر علماء عظام ما زال أثرهم باقياً حتى اليوم في حياتنا مثل: الطبيب (هيبوقراطيس) الذي لا تزال كليات الطب في جامعات العالم حتى يومنا هذا تطلب من تلامذتها ترديد القسم الذي علمه هذا الطبيب لتلازمته قبل أكثر من خمسة وعشرين قرناً. 118، وهو الذي حرر الطب من سحر وشعوذة الدين، فالإغريق خلقوا روحاً علمية في جميع مجالات الحياة من خلال غريزتهم التي دفعتهم لمعرفة مسببات الأشياء بعدما تخلصوا من جهل

116 د. سارة، تاريخ الإغريق، سابق ص 387

117 د. الناصري، سابق، ص 577

118 د. العابد، سابق، ص 104

عقيدتهم الدينية وتعرفوا على عالم مليء بالمعرفة والعلوم، فعرفوا الحساب والجغرافيا والفلسفة، والهندسة النظرية التي برع فيها العلماء والفلاسفة؛ مما أسهم في تطوير فن العمارة وعزز ظهور الفن التخيلي الذي اعتبروه شكلاً من أشكال البراعة والحكمة. وامتازوا بحبهم للتفكير العلمي المنظم وباندفاعهم إلى تحليل مظاهر الطبيعة كلها تحليلًا واقعيًا موضوعيًا ولذلك استطاعوا أن يتحرروا من سيطرة العقائد الغيبية. هذا التقدم العلمي الذي شمل مجالات الحياة كافة بدأ عندما تولى الإغريق عن البدع والخرافات الدينية والشعبية التي لا تمت إلى العقل والمنطق بصلة، وابتعدوا عن الاعتقادات الدينية التي تستند إلى الأساطير والروايات والقصص الشعبية، واهتموا بالعقل والفكر فامتازت حضارتهم وفلسفاتهم التي تفردوا بها ونظموا لها مدارس ومناهج علمية ما زالت تدرس حتى اليوم في جامعات العالم تركز على الملاحظة والتجريب والقوانين والبراهين العلمية، وهو خير دليل على روح التفكير الجديدة التي بدأت تتخذ منحى جديد في التفكير السياسي والعلمي والاجتماعي.

ونتيجة اهتمامهم بالحياة اليومية وقواعد السلوك لا سيما في أثينا الديمقراطية، واهتمامهم بالإنسان الذي سبق وأشرنا على أنه أصبح محور اهتمام الأدباء والفنانين والفلاسفة؛ مما أدى إلى الحاجة للتدخل وحمايته من النظم السياسية الاستبدادية والتوترات السياسية والاجتماعية التي كانت تحدث عقب الانقلابات الاجتماعية التي قادتها عامة الشعب وبعض طبقات التجار المتوسطة على النظام الحاكم آنذاك لا سيما أثناء فترة الحكم الأرستقراطي وحكم الطغاة ونذكر على سبيل المثال: التوتر السياسي الذي حدث بعد انقلاب (كولون) 119 فكان نتيجة ذلك أن تدخل المصلحون أمثال (دراكون) الذي عهد إليه الجميع "في عام 621 ق.م بمنصب (الأرخون) وأعطيت له صلاحيات سن وتطبيق القوانين التي يراها مناسبة للخروج من المأزق التي تعرضت لها أثينا حيث أدرك الأخير بأن الفوضى الاجتماعية وانعدام الأمن كان مرجعه للقوانين المتساهلة التي لم تستطع كبح جماح العواطف الوحشية لدى السكان وبخاصة في حوادث القتل والانتقام والثأر، فأعاد تنظيم القوانين التي امتازت بالقسوة بعد إدخال عقوبات صارمة عليها حتى أصبحت كلمة (دراكوني) مضرِباً للمثل في القوة والبأس في معظم اللغات

119 كولون: أحد النبلاء الذي قاد انقلاباً اجتماعياً فاشلاً من خلال المحاولة بالاستيلاء على مقاليد الحكم في أثينا. للمزيد: انظر: د. العابد، سابق، ص 65 وما بعد.

العالمية حتى يومنا هذا.¹²⁰ وقد ساعدت قوانين دراكون على الاستقرار السياسي وانتشار الأمن والطمأنينة في نفوس السكان لا سيما بعدما أنصفت هذه القوانين الطبقات الدنيا التي كانت مسحوقة في العهود الأرستقراطية السابقة، لكن بالمقابل لم تحد من خطورة التزايد السكاني والانتساع الطبقي بين الفقراء والأغنياء والحد من الثورات الاجتماعية التي كانت تطيح بالسلطة بين الفينة والأخرى تَمْرداً على الأوضاع الاقتصادية السيئة مما مهد لظهور مصلحين جدد أمثال (صولون)¹²¹. الذي كانت أهم السمات الجوهرية في سياسته أن يبين لمواطنيه "أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين مصلحة الفرد ومصلحة الدولة وأنه يجب أن يسود التضامن بين الأفراد والدولة ولأجل ذلك يجب أن تتوفر الثقة الكاملة بين الطرفين"¹²². وأدرك (صولون) بخبرته السياسية وتجاربه العميقة -كونه كان تاجراً في المستعمرات الإغريقية في البحر المتوسط - ظلم الطبقات الدنيا وخطر ثوراتها بعدما حُرمت من الثروات التي عادت إلى اليونان بفضل التجارة وبناء المستعمرات الجديدة، خطر إبعادهم عن السلطة والعمل السياسي وتجاهل حقوقهم السياسية والاجتماعية كمواطنين؛ لذا عمل منذ انتخابه على برنامج إصلاحي شامل من خلال كبح طمع الأغنياء وفرض قوانين تحمي الفقراء وتنشلهم من فقرهم وبؤسهم المتزايد وضمن حقوق الجميع تحت قانون الدولة. ويبدو أن التقدم الفكري في بلاد اليونان عامةً وفي أثينا خاصةً قد دعم إصلاحات صولون التي كرسها بفرضه مخالفات صارمة على المخالفات بحق القوانين التي أصدرها¹²³ ، ولم يقتصر التطور على من ذكرتهم سابقاً بل ظهر مصلحون آخرون ساهموا في إصلاح النظام السياسي والاجتماعي في اليونان ومنهم (بريكليس)¹²⁴. فمن المعروف أن العلوم بمفهومها العام قد تطور في عهد بريكلis تطوراً ملحوظاً وحسبنا أن نشير إلى أشهر أطباء هذه الفترة وهو (هيبيوقراطيس) الذي سبق وأشرنا إليه، وقد أنجبت الحضارة الإغريقية في عصر بريكلis عدداً كبيراً من الفلاسفة ومن أشهرهم: سقراط، وبروتاجوراس أشهر السفسطائيين.¹²⁵ فعمل على إصلاح القوانين وتدعيمها بما يسهم في بناء دولة عظيمة في أثينا، وبفعل إنجازات بريكلis تقدمت أثينا في المجالات

120 د. العابد، سابق، ص65

121 صولون: واحد من أبرز الساسة والشعراء الذين أنجبتهم أثينا، وينحدر من الأسر الأثينية النبيلة. للمزيد انظر: د. العابد، سابق، ص66 وما بعد.

122 د. سارة، تاريخ الإغريق، سابق، ص419

123 د. العابد، سابق، ص68

124 بريكلis: من أسرة أثينية ثرية عملت في السياسة فترة طويلة، وكان والده ممن حاربوا في معركة سلاميس وقائداً للأسطول الأثيني في معركة ميكالي ووالدته أجاريسثا حفيدة المصلح كليشنيوس. للمزيد انظر: د. سارة، خليل، تاريخ الإغريق، سابق، ص493

125 د. العابد، سابق، ص104

كافة مقارنةً ببقية دول المدن التي بدأت تحذو حذوها، ومهد ذلك فلسفة أفلاطون وسقراط وأرسطو، إضافةً إلى وجود طائفة من الحكماء تسمى (السفسطائيين Sophists) الذين كانوا يعلمون الناس العلوم والفلسفة وكانوا يلقون محاضرات ودروساً في جميع الموضوعات، إضافةً إلى الفلسفة الرواقية التي لاقت مكاناً لها في نفوس الحكام والساسة والتجار وطبقة الأشراف في العصر الإغريقي المقدوني، وأثرت في الفكر المسيحي لمثالياتها وسموها الخلقي والفكري، فكانوا يجتمعون في الرواق مع مؤسسها الفيلسوف الفينيقي (زينون) الذي علم مذهبه الفلسفي للإغريق في بلادهم زهاء نصف قرن من الزمن¹²⁶، وقد بدأت الفلسفة اليونانية مع "أبحاث الفينيقي تاليس الذي ولد في مدينة (ميلينوس) عام 64 ق.م" 127 وكانت أبحاثه ذات طابع شرقي استقاها من مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين.

وزاد الاهتمام بالمعرفة والثقافة والفنون والآداب والخطابة وفنون القتال والفروسية مما أفرز نظم سياسية ديمقراطية ونمط اجتماعي متحضر ساهم في بناء حضارة إغريقية متطورة كانت مضرراً للمثل في التقدم الحضاري والفكري والثقافي فقد فهم الإغريق السياسة بمعنى واسع واعتقدوا أن جوهر الوجود الاجتماعي هو الساسة وتحدث فلاسفتهم بمواضيع السياسة وأسسوا الفلسفة السياسية التي كان من أعلامها (أرسطو وأفلاطون) حيث ساهم أفلاطون بإصلاح النظام السياسي للوصول إلى حكم سياسي ديمقراطي متمدن فاقترح إعفاء الحكام من كل المهن الأخرى مما يمكنهم أن يبلغوا أعلى مراتب الحق في إحراز حرية الدولة غير متعاطين إلا ما يؤدي إلى هذه النتيجة فلا يرغب في أن يمثلوا منذ حدثتهم ما ينطبق على مهنتهم كتمثيل الدناءة وكل أنواع السفالات لئلا يلصق بنفوسهم ما مثله فيصير سجيةً لهم¹²⁸، وسعوا على إصلاح الحكومة وتمتعها بالصفات الحميدة وإلا فهي غير صالحة للحكم، واشترط أفلاطون وجود أربعة خصال تتمتع بها الحكومة الصالحة وهي: "الحكمة التي تستقر في طبقة القضاة والحكام، والشجاعة في المساعدين والجنود، والعفاف الذي تتميز به كل الطبقات، والعدالة من حيث عدم التدخل في شؤون الغير"¹²⁹ وتداخلت المجالات مع بعضها بغية إصلاح النظام

126 د. بكري، سابق، ص151.

127 د. كامل، ج1، سابق، ص143

128 أفلاطون، الجمهورية، ترجمنا خباز، ط1، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2017، ص97

129 أفلاطون، سابق، ص124

السياسي الذي سيؤدي على إصلاح المجتمع بأكمله، وهكذا أصبحت بلاد الإغريق بعد كل هذه الإصلاحات في جميع المجالات، وبعد كل هذا التقدم والتمدن مهداً الحضارة وعنواناً للديمقراطية، ورمزاً للحرية والمساواة والعدالة واتبعت خطاها كل الدول الأوروبية التي سارعت إلى التمسك بخيوط الحضارة والتطور، واقتبست مظاهر الحضارة الإغريقية وقلدتها في تطوير النظم السياسية والفكرية، ونهلوا من فلسفاتهم بغية تطوير مجتمعاتهم التي كانت تعاني من ويلات الحروب والفروق الطبقية والثورات الشعبية التي أطاحت بالنظم السياسية آنذاك لا سيما في روما. وكانت الحضارة الإغريقية منبراً للتحضر استقت منه دول أوروبا حضارتها.

. النتائج العامة:

- . إن ظهور نظام دويلات المدن الديمقراطية كان في البداية في بلاد ما بين النهرين ومنها انتقل إلى فينيقيا، وساهم الفينيقيون في نقله إلى بلاد الإغريق أثناء احتكاكهم التجاري بهم
- . اعتبرت حضارة بلاد ما بين النهرين من أقدم الحضارات وأغرقها في العالم بسبب سبقها الحضاري الذي يعود إلى أكثر من 3500 ق.م وبسبب تمدنها الباكر وانتشار العلم والإبداعات الفكرية.
- . إن غالبية المعتقدات الدينية الإغريقية مستقاة من الفكر الديني الشرقي لا سيما الكنعاني والمصري والسومري؛ بسبب التشابه الكبير بأسماء الآلهة والحوادث التي تحدث للآلهة وربطها بمواسم الفصول وحوادث الكون.
- . إن نواة الفلسفة اليونانية مأخوذة من الكهنوت المصري والعقائد الدينية المصرية والفكر البابلي الديني والأسطوري بعد زيارة علماء اليونان لمصر وبابل.
- . تفرد فينيقيا باختراع أول أبجدية في أوغاريت وإدخال حروفها إلى اليونان كان أثر حضاري كبير ومستمر إلى يومنا هذا
- . إبداع الإغريق في النشاط الاقتصادي لا سيما التجارة والصرافة وابتكارهم نظام النقد للمعاملات التجارية كان له الأثر البالغ على الشرق
- . ابتكار حضارات الشرق الأدنى القديم لتقاويم فلكية كبابل ومصر مازالت تستخدم حتى اليوم
- . ابتكار بلاد ما بين النهرين للنظام الستيني الذي ما زال يستخدم في حياتنا اليومية في كل دول العالم
- . ترابط الحضارات لا يلغي حضارة على حساب الأخرى وإنما يزيد من قوة البلدان كما حدث في العصر الهيلينستي من ترابط بين الشرق والغرب

كان فن العمارة المصرية فناً هندسياً رائعاً سبق غيره من فنون العمارة في بقية الحضارات

معظم الابتكارات في حضارات بلاد ما بين النهرين انتقلت على فينيقيا ومنها دخلت إلى بلاد الإغريق

بنى الإغريق في الشرق مدناً تجارية ساهمت في رفع المستوى الاقتصادي لا سيما في مصر وأنطاكية

. خاتمة:

. شهدت منطقة الشرق الأدنى القديم الممتدة من نهر النيل إلى نهر الفرات حضارات عظيمة امتدت على مدى قرون استطاعت تأسيس مدن حضارية ما زالت آثارها تكتشف خباياها حتى وقتنا الحاضر وما زالت آثارها تنير دهشة العالم وتدفعهم لزيارتها ورؤيتها، وجدير بالذكر أنها رغم قدمها لكن لم يستطع الإنسان المعاصر بكل ما يملك من تكنولوجيا من محاكاتها وتقليدها أو الكشف عن أسرارها.

في الوقت الذي بدأت حضارة أخرى تنمو وتزدهر على ضفاف آسيا الصغرى في الجهة المقابلة لحضارات الشرق في حوض البحر الأبيض المتوسط وهي الحضارة الإغريقية التي ترعرع علماءها وأدباءها في منطقة الشرق سواء في القدم أم في العصر المقدوني حيث أضحت مدينة الإسكندرية مركزاً ثقافياً لكل من يرتاده بفضل العلوم التي أنجزتها حضارات الشرق والحضارة الإغريقية معاً.

وجدير بالذكر أن أشير إلى فضل الحضارة الإغريقية في التأثير بالحضارة العربية الإسلامية وبالحضارات الأوروبية التي استمدت نهضتها العلمية مما تركه الإغريق القدماء، ومما ترجمه ونقله علماء العرب المسلمين وما أضافوا عليه من اكتشافاتهم وبحوثهم وابتكاراتهم، ولكل حضارة أصول أولى لذا كان البحث عن أصول الحضارة الإغريقية بالعودة إلى حضارات الشرق الأدنى القديم التي تميزت بأنها حضارة ضاربة في عمق التاريخ، وشهدت أقدم مناطق الاستيطان البشري وكانت شعوبها رواداً للعلم والتطور والتحضر فقد ساهموا في العديد من الابتكارات التي لم يسبقهم إليها أحد كالأبجدية والكتابة التي يدين بفضلها جميع الأمم.

قائمة المراجع

العنوان	رقم الصفحة
قائمة بأسماء المصادر حسب الترتيب الأبجدي	235
قائمة بأسماء المراجع المترجمة حسب الترتيب الأبجدي	236
قائمة بأسماء المعاجم حسب الترتيب الأبجدي	238
قائمة بأسماء المراجع العربية حسب الترتيب الأبجدي	238
قائمة بالمراجع الأجنبية	243
قائمة بأسماء الموسوعات والمجلات	244

قائمة بأسماء المصادر حسب الترتيب الأبجدي:

1. القرآن الكريم
2. العهد الجديد، إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا
3. أرسطو، 1957، السياسيات، تر: الأب أوغسطينس البولسي، بيروت، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية.
4. أفلاطون، 2017، الجمهورية، تر: حنا خباز، ط1، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
5. هوميروس، 2001، الأوديسة، تر: دريني خشبة، بيروت، دار العودة.
6. هيرودوت، 2001، تاريخ هيرودوت، تر: عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي الإمارات، أبو ظبي
7. سترابون، 2003، وصف بلاد ما بين النهرين وفينيقيا وشبه الجزيرة العربية، تر: أ.دمحمد المبروك ديب، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، الكتاب السادس عشر
8. سترابون، 2003، وصف ليبيا ومصر، ترك د.محمد المبروك، جامعة قاريونس، بنغازي، ط1، الكتاب السابع عشر.
9. فرجيل، 1987، الإنياذة، تر: عنبرة سلام الخالدي، ط2، بيروت، دار العلم للملايين
10. توكوديديس، 2003، تاريخ الحروب البلوبونيزية، تر: دنيا الملاح وعمرو الملاح، الكتاب الأول، أبو ظبي، المجمع الثقافي.

قائمة بأسماء المراجع المترجمة حسب الترتيب الأبجدي:

1. العهد القديم، سفر الملوك، حزقيال، اللاويين
2. أرنولد، توينبي، 1990، الفكر التاريخي عند الإغريق، تر: لمعي المطيعي، ط2، المؤسسة المصرية العامة للكتاب
3. بابلون، أرنست، 1987، الآثار الشرقية لحضارات كلدية وآثور وبابل وفارس وسورية وفينيقية ويهودية وقرطاجية وقبرصية، تر: مارون الخوري، طرابلس، دار جروس بيرس
4. بيرك، جيمس، 1994، عندما تغير العالم، تر: ليلي الجبالي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
5. برنال، مارتن، 2022، أثينا السوداء، تر: د. لطفي يحيى وآخرون، ج1، القاهرة
6. برستد، أ. جيمس هنري، تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، تر: حسن كمال، القاهرة، مكتبة مدبولي.
7. جاردنر، أ.، 1936، علم الآثار، تر: محمود حمزة وزكي حسن، سلسلة المعارف العامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
8. جيمس، جورج، د.ت، التراث المسروق، تر: شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة
9. داليو، كريستيانو، 2013، الطب عند الفراعنة، ط1، تر: ابتسام عبد المجيد، مصر، الهيئة العامة المصرية للكتاب
10. دياكو، ف./ كوفاليف، س. د.ت، الحضارات القديمة، تر: نسيم اليازجي، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط1، ج1
11. ديورانت، ول، د.ت، قصة الحضارة، تر: زكي محمود، ج1، المجلد الأول، بيروت
12. ديلابورت، ل، 1997، بلاد ما بين النهرين الحضارتان البابلية والآشورية، ترجمة: محرم كمال، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
13. هاملتون، أديث، 1990، الميثولوجيا، تر: حنا عبود، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب

14. هوميروس، 2012، إلياذة هوميروس، تر: سليمان البستاني، القاهرة، مؤسسة هنداوي
15. د.حتي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تر: د.جورج حداد، عبد الكريم رافق، ج1، دار الثقافة، بيروت.
16. كونتنو، جورج، د.ت، المدنات القديمة، ترجمة: متري شماس، المنشورات العربية
17. كونتينو، جورج، 2001، الحضارة الفينيقية، تر: عبد الهادي شعيرة، مكتب الشرق الأوسط، القاهرة
18. كلينغل، ه، 1998، تاريخ سوريا السياسي (3000-300 ق.م)، تر: سيف الدين دياب، ط1، دمشق، دار المتنبي.
19. كريم، صموئيل نوح، 2000، إينانا ودموزي طقوس الجنس المقدس عند السومريين، تر: نهاد خياطة، ط3، دمشق
20. مازيل، جان، 1998، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، تر: ربا الخش، ط1، سوريا
21. ماتيف. ك، سازونوف. أ، 1991، حضارة ما بين النهرين، ترجمة: د.حنا آدم، دمشق، مطبعة دار المجد
22. موسكاتي، سبتينيو، 1986، الحضارات السامية القديمة، تر: د. السيد يعقوب بكر، دار الراقي، بيروت
23. سارتون، جورج، 2010، تاريخ العلم، ج1، ط1، القاهرة، العدد 1638، الجمعية المصرية لنشر المعرفة
24. فيتمان، جونت، 2009، مصر والأجانب في الألفية الأولى ق.م، تر: عبد الجواد مجاهد، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
25. فرانكفورت، هنري، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، تر: ميخائيل خوري، بيروت، مؤسسة فرانكلين للطباعة.
26. فريزر، جيمس، أدونيس أو تموز دراسة في الأساطير والأديان الشرقية القديمة، تر: جبرا إبراهيم جبرا، بيروت، ط2، المؤسسة العربية للنشر

27. رلز، هـ، 1963، معالم تاريخ الإنسانية، تر: عبد العزيز جاويد، ط2، ج1، مجلد 1
28. غولايف، 1989، المدن الأولى، ج1، تر: طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، طبع في الاتحاد السوفيتي
29. غودي، جاك، 2010، سرقة التاريخ، ط1، تر: محمد التوبة، السعودية

قائمة بأسماء المعاجم حسب الترتيب الأبجدي:

1. ابن منظور، د.ت، لسان العرب، القاهرة، دار المعارف، المجلد الرابع
2. زكي بك، أحمد، 1899، قاموس الجغرافية القديمة، ط1، مصر، المطبعة الكبرى الأميرية.
3. الحموي، ياقوت، 1977، معجم البلدان، المجلد الثالث، دار صادر، بيروت
4. الفيروزي الآبادي، مجد الدين بن يعقوب، 1980، القاموس المحيط، ط3، ج4، الهيئة العامة المصرية للكتاب
5. معلوف، لويس، المنجد في اللغة والأعلام، ط3، بيروت، دار المشرق
6. عبودي، هنري، 1991، معجم الحضارات السامية، ط2، بيروت، طرابلس
7. قوجمان، يحزقييل، 1970، قاموس عربي - عبري، بيروت

قائمة بأسماء المراجع العربية حسب الترتيب الأبجدي:

1. د. أبو صوة، محمود أحمد، 2000، دراسات في تاريخ البحر المتوسط في العصر الوسيط، منشورات إلغا.
2. د. إبراهيم، بكر محمد، 2002، قراءات في حضارة الإغريق القديمة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
3. د. أحمد، محمود، 2012/2011، تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، ج1، جامعة دمشق
4. د. أحمد علي، عبد اللطيف، 1974، التاريخ اليوناني، بيروت، دار النهضة العربية.

5. د. أمهر، محمود، 2010، في تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية.

6. د. أمين، شرف الدين، الإسهام الحضاري لمصر القديمة في الفلسفة اليونانية، كلية الآداب، جامعة سوهاج.

7. إسماعيل، د. حلمي محروس، 1997، المشرق العربي القديم وحضاراته (بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية)، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة

8. إسماعيل، فاروق، 2010، مراسلات العمارة الدولية، ط1، دمشق، دار إنانا.

9. أسعد، عيسى، 1983، تاريخ حمص من أقدم أدوارها إلى الآن أو تاريخ أربعة آلاف سنة ونصف من سنة 2300 ق.م – 1940 م، القسم 1، طرابلس، مكتبة السائح، 1983

10. باقر، طه، 2009، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط1، ج1، بغداد، شركة دار الوراق

11. باقر، طه، ملحمة جلجامش،

12. د. بكر، محمد إبراهيم، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديم، مصر، وزارة الثقافة المصرية.

13. د. بكري، حسن صبحي، 1985، الإغريق والرومان والشرق الإغريقي، ط1، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، دار عالم الكتب

14. بك، محمد رفعت، 1949، التيارات السياسية في حوض البحر الأبيض المتوسط، مصر، لجنة البيان العربي

15. د. الجابري، علي، 2005، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديم وحضارة اليونان، الأردن، إريد، دار الكتاب الثقافي.

16. جوهري، يسرى، 1984، جغرافية البحر المتوسط، مصر، الإسكندرية، الناشر للمعارف

17. جندي، إبراهيم عبد العزيز، 1999، معالم التاريخ اليوناني القديم، القاهرة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات.

18. الدبس، يوسف، 1994، تاريخ سوريا الديني والديني، ج1، دار نظير عبود.

19. وهيبة، عبد الفتاح، د.ت، مصر والعالم القديم، مصر، جامعة الإسكندرية
20. حوراني، يوسف، 1870، نظرة التكوين الفينيقية وآثارها في حضارة الإغريق، بيروت، دار النهار للنشر.
21. حوراني، يوسف، لبنان في قيم تاريخه - العصر الفينيقي، بيروت، دار الشرق
22. حلاق، حسان، 1991، ملاحم من تاريخ الحضارات، بيروت، الدار الجامعية.
23. د.الحو، عبد الله، 1999، صراع الممالك في التاريخ السوري القديم، ط1، بيروت، بيسان للنشر
24. حمود، محمود، 2014، الديانة السورية القديمة خلال عصر البرونز الحديث والحديد 1600-333 ق.م، سوريا، مطابع الهيئة العامة للكتاب
25. حتاملة، محمد عبده، 1996، إيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، الأردن، عمان، دار المطبوعات للنشر
26. حسين، عاصم أحمد، 1998، المدخل إلى تاريخ وحضارة الإغريق، القاهرة، مؤسسة الإسراء، مكتبة نهضة الشرق.
27. د. حسن، محمد، 2000، التفكير التاريخي عند الشعوب العربية السامية القديمة، دار الثقافة العربية، القاهرة
28. حسن، محمد إبراهيم، 1999، دراسات جغرافية اوروبا وحوض البحر المتوسط، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب.
29. الطائي، ابتهاج، 2014، تاريخ الإغريق منذ فجر بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، ط1، عمان، الأردن، دار الفكر
30. كامل، عياد، 1980، تاريخ اليونان، ط3، ج1، دار الفكر
31. الماجدي، خزعل، 1999، الآلهة الكنعانية، ط1، عمان، دار أزمنة
32. مهران، محمد بيومي، 1990، تاريخ العراق القديم، الإسكندرية، دار المعرفة.

- 33 د. موسى، علي، ود. الحمادي، محمد، 1997، جغرافية القارات، دمشق، دار الفكر
34. الموسوي، هاشم، 2013، موسوعة الحضارات القديمة، ط1، الأردن، دار الحامد للنشر.
- 35 د.محمد الزين، د.أحمد حامدة، د. محمد الطيار، 1998، آثار العصور الكلاسيكية الإغريقية، منشورات جامعة دمشق، دمشق، مطبعة الداودي.
- 36 مرعي، عيد، 2021، تاريخ سوريا القديم وآثارها وحضارتها، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق
- 37 . الناصري، سيد أحمد علي، 1976، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، ط2، جامعة القاهرة، دار النهضة العربية
38. نسطور، ميخائيل، 2001، كنعان وفينيقيًا والأرجوان، ط1، قدمس للنشر والتوزيع، سوريا
- 39 نصحي، إبراهيم، 1976، مصر في عصر البطالمة، ط4، ج1، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية
40. د.سارة، خليل، 2022/2021، تاريخ الإغريق، دمشق، منشورات جامعة دمشق.
- 41 د. السواح، فراس، 2001، الأسطورة والمعنى، د.ط، دمشق، طار علاء الدين.
- 42 سكر، إبراهيم، 1994، الإنياذة لفرجيل، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص33
- 43 د. سليم، حسن، د.ت، موسوعة مصر القديمة، ج4، مصر
- 44 د.السعدني، محمود، 2005، تاريخ الحضارة المصرية، مصر، جامعة حلوان، مكتبة الأنجلو المصرية.
- 45 د. العابد، مفيد، 1980/1979، دراسات في تاريخ الإغريق، سورية، جامعة دمشق، المطبعة الجديدة.
- 46 عجينة، محمد، 1994، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ط1، بيروت، دار الفارابي
- 47 عزيز، كارم محمود، 1999، أساطير التوراة الكبرى، ط1، دمشق، دار الحصاد
- 48 علام، نعمت إسماعيل، 1975، فنون الشرق الأوسط والعالم القديم، ط2، القاهرة، دار المعارف

49. علي، أحمد إسماعيل، 1994، تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي، ط3، سورية، دار دمشق للنشر.

50 علي، جواد، 1993، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، ج1، بغداد، جامعة بغداد

51 علي، محمود محمد، 1998، الأصول الشرقية للعلم اليوناني، ط1، جامعة أسيوط، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

52 علي، عبد اللطيف أحمد، 1976، التاريخ اليوناني، بيروت، دار النهضة

53 . علي، رمضان عبده، 2001، تاريخ مصر القديم، ج1، القاهرة، دار نهضة الشروق

54 . عصفور، أبو المحاسن، 1987، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، ط2، دار النهضة العربية، بيروت

55 . عتريس، محمد، 2002، معجم بلدان العالم، القاهرة، الدار الثقافية للنشر

56. د.الصالح، صلاح، 2017، بلاد الرافدين، ط1، ج1+ ج2+ ج3، العراق، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة.

57. د.رشيد، عبد الوهاب حميد، 2004، حضارة وادي الرافدين ميزوبوتاميا، ط1، دمشق، دار الثقافة للنشر.

58. الشواف، قاسم، 2011، الفينيقيون والألعاب الأولمبية، ط1، دمشق، دار علاء الدين.

59. د.الشيخ، حسين، 1993، العصر الهلنستي، مصر، جامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية

60. الشيخ، حسين، 1987، اليونان، الإسكندرية، دار المعرفة.

61. شعراوي، عبد المعطي، أساطير إغريقية الآلهة الكبرى، ج3، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية

62. غانم، محمد الصغير، 1979، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، الجزائر، ط1، المؤسسة الجامعية

لِلدراسات والنشر.

قائمة بالمراجع الأجنبية:

- 1-Alan Gardiner, Egypt of the Pharaohs an Introduction, (Oxford, 1961)
- 2-Albright. W.F, (Syria, The philistines, and Phoenicia), II, PAET2, Cambridge, 2008
- 3-Albright. W.F, (The Early Alphabetic in Scripion from Sinai and their Decipherment), 1948, p14
- 4-Astour.M.C, The Origin of the Terms Canaan, Phoenician and Purple, JENS 24, 1956
- 5-Bell. Men of Mathematics, pelican Books, Lomdon, 1953, Bell 48, vol I
- 6-Boardman.J , (Excavations in Chios, 1952-1955 Emporio), 1967
- 7-Burnet, Early Greek Philosophy, London, 1927
- 8-Carter.T.H, (Western Phoenicians at Leptis Magna), 1965
- 9-Cyrus. H. Gordos,Ugaritie Handbook. Rome, 1848
- 10-Harden, Donald,The Phoenicians, London, 1963
- 11-Haywood, R.M, Ancient Greece and the Near East, New York, 1964
- 12-Kathleen. M. Kenyon, Amorites and Canaanites, London, 1966
- 13-Lenardo Woolley. A Forgotten Kingdom. London, 1959
- 14-Maxwell. B.J, The Living Past-the Great Civilizations of mankind, London, 1961

- 15-Muhly.,J. D, Homer and the Phoenicians the relations between Greece and the Near East in the Late Bronze Early Iron Ages, Berytus 19, 1970
- 16-Piotr Bienkowski, Alan Millard Dictionary of the Ancient Near East, B.M, 2000
- 17-Pliny, Plinys Natural History, tr: H.Rackham and others, London, 1949-1954
- 18-Sacks, Encyclopedia of the Ancient Greek World, New York, 2005
- 19-Von Soden. W, Akkadisches Handwor Terbuch, Wiesbden, 1965
- 20-West .M.L. Ancient Near Eastern Myths in Classical Greek Religious Thought, New York, 1995,

قائمة بأسماء الموسوعات والمجلات:

1. مجموعة من المؤلفين، 2021، موسوعة نقد الحضارة الغربية، تاريخ الإغريق قبل القرن التاسع ق.م، مجموعة من المؤلفين، ج1+ ج2+ج4، ط1، العراق، النجف
2. الهذال، حصة تركي، 2016، المؤثرات الحضارية الفينيقية في الحضارة اليونانية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 43
3. نخبة من الباحثين، 1985، موسوعة حضارة العراق، ج1، بغداد
4. مجموعة من الباحثين، موسوعة الحضارات القديمة، 2011، بيروت، ط1، دار النفائس.
5. نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد 2، ط1، المؤسسة المصرية العامة للنشر.

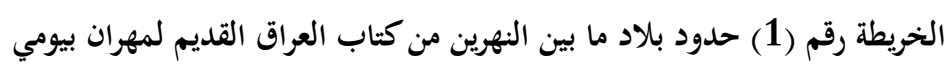
6. الزنكي، انتصار، 2023، التفاعل الحضاري المصري واليوناني إبان السيطرة اليونانية (التأثير والتأثر) 332-

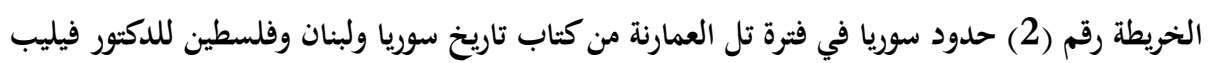
30 ق.م، جامعة كربلاء، مجلة دراسات في التاريخ والآثار ، العدد 87

7. د.سارة، خليل، 2002/2001، عوامل تقدم الفكر الحضاري اليوناني القديم وأسبابه، حوليات الآداب والعلوم

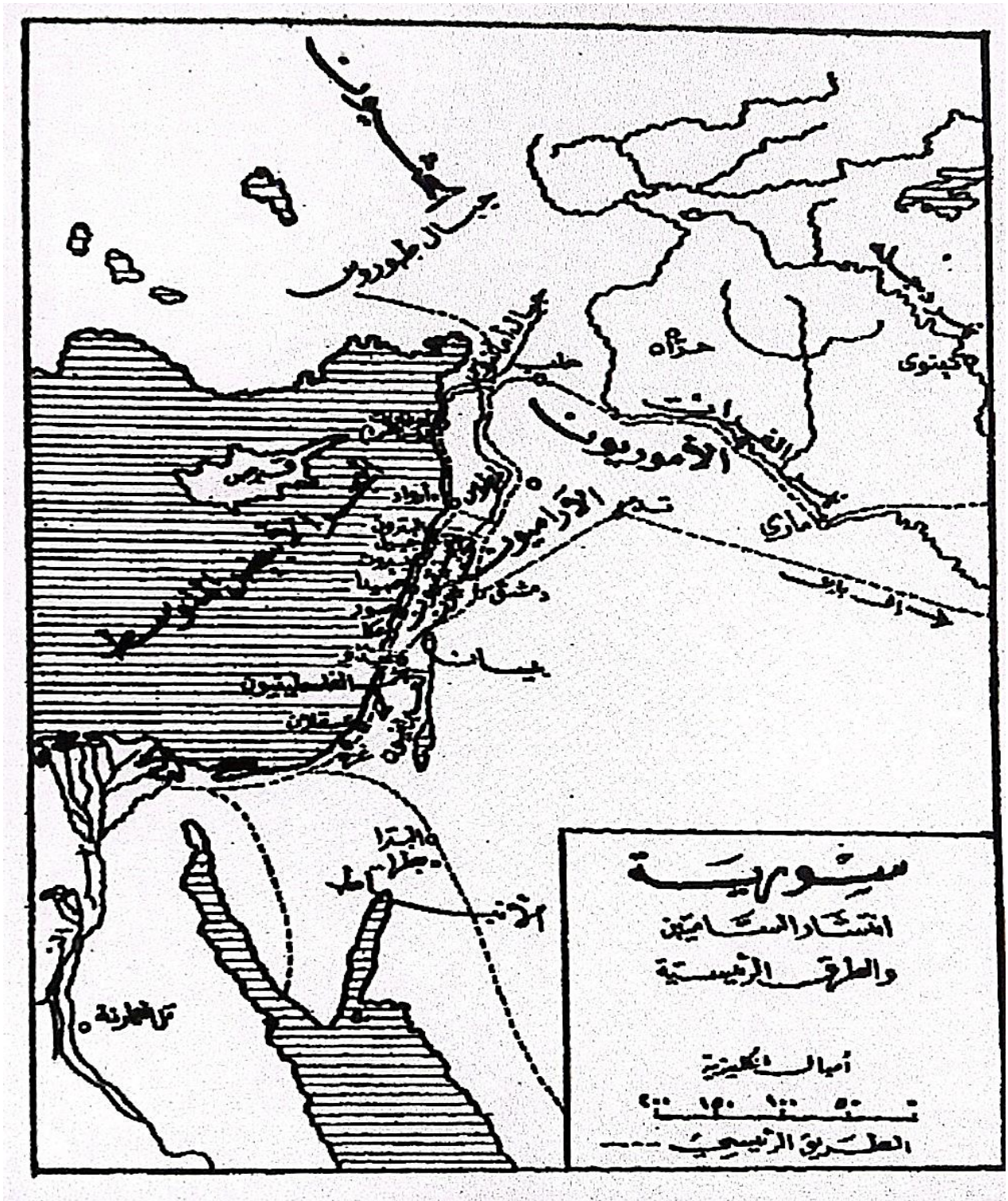
الاجتماعية، الحولية 22، الرسالة 177

قائمة الملاحق





حتي، ص 78

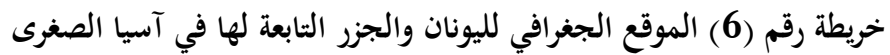


الخريطة رقم (4) الهجرات السامية من جزيرة العرب من كتاب د. فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان

وفلسطين، ص 68



الخريطة رقم (5) نهر النيل في مصر



Syrian Arab Republic

Damascus University

Faculty of Arts and Humanities

History Department



The Mutual Cultural Influences Between the Civilizations of the Ancient Near East and Greek Civilization in the First Millennium BCE

(Mesopotamian, Canaanite-Phoenician, EGYPTAIN)

RESEARCH Master's in Ancient History

Prepared by

Jumana Mahmoud Saleh

Supervised by

Dr. Abdullah Al-Sulaiman

2024/2025

Abstract in English

The mutual cultural influences between the civilizations of the ancient Near East and Greek civilization during the first millennium BC (Mesopotamia, Canaanite–Phoenician, Egyptian):

The first chapter is entitled "The Mutual Cultural Influences between the Mesopotamian Civilization and the Greek Civilization during the First Millennium BC." The researcher spoke about the first cultural centers in the world, which is the Mesopotamian civilization, which appeared in 3500 BC. Its current location is in Iraq and part of Syria. It determined its geographical location and borders and addressed issues on which researchers differed, such as the origin of the region's civilization and the origins of the population. Then she talked about the political system that was invented in it, which is the democratic system of city-states, and mentioned the reasons for its spread and its advantages, and how it spread to Greece despite the absence of Mesopotamian civilization, and the researcher mentioned the law that was prevalent in Mesopotamia, which was considered the first global legislation and the first article for producing laws in the whole world.

Then the researcher moved on to talk about the scientific field in which the scientists of the region excelled in the field of astronomy, divination and magic,

which was a great science, and how it was linked to religion and the rest of the sciences, especially medicine and astronomy. She mentioned the most important scientific discoveries, such as calendars, which became a model for calendars of civilizations, the use of the decimal and sexagesimal systems that are still used to this day, and their invention of cuneiform writing. The most important astronomical, mathematical, and engineering laws and theories from which Greek scientists learned were the core of their research. They shed light on the innovations discovered in Mesopotamia and how they spread to Greece and other neighboring civilizations. Finally, the researcher spoke about the literary production of the Mesopotamian civilization, the early civilization that produced brilliant poets and writers who were able to compose literary epics and myths that were the nucleus of the literary heritage of the world's civilizations.

While the researcher spoke in the second chapter entitled The Mutual Civilizational Influences between the Canaanite–Phoenician Civilization and the Greek Civilization during the First Millennium BC, where she spoke about the location of the Canaanite civilization, its geographical borders, and the reason for calling it Phoenician. She mentioned the origins of the population in the region, then touched on the achievements at the political level through the

spread of the system of city-states that they took from the Mesopotamian civilization and transferred to the Greeks. She spoke about the reasons for the isolation of Canaanite cities from each other. Then she talked about the scientific achievements of the Phoenicians in the fields of medicine, astronomy, arithmetic, engineering, the invention of religious myths that were the nucleus of Greek mythology, especially the tree of the Canaanite gods, and the invention of the first alphabet in the world, the Ugarit alphabet, which was transmitted to Greece through the Phoenician prince Cadmus. The researcher highlighted the economic field in which the Phoenicians excelled, as they were merchants at sea seeking to settle on the Mediterranean coasts. To obtain raw materials and to sell their industrial products, which they excelled at, such as purple dye, porcelain, pottery, and textile fabrics. The chapter concluded by talking about Phoenician art and architecture, which spread on the coasts of the Mediterranean Sea and on its islands, especially in Crete, Cyprus, and the coasts of Lesser Asia.

While I focused in the third chapter, entitled "The Mutual Cultural Influences between the Egyptian and Greek Civilizations during the First Millennium BC," on the location of the Nile Valley Civilization, its geographical borders, and the origins of the population, Then I moved on to talk about the achievements of

the Nile Valley civilization at the political level in terms of the type of monarchy, the reasons for the unity and stability of Egypt, and the political friction between the ancient Egyptians and the Greeks throughout all eras, from the Pharaonic era to the Sawi era, all the way to the era of Alexander the Great and his Ptolemaic successors .

Then she highlighted the scientific field in which ancient Egyptian scientists excelled in astronomy, mathematics, engineering, medicine, the invention of astronomical calendars, the decimal system, and philosophy, which was the nucleus of Greek science and Greek philosophy. Then she spoke about the economic situation in the field of agriculture, industry, which the Egyptians mastered, and trade, and highlighted the presence of Greek commercial settlements in Egypt since the Sawi era, which had a positive impact on Egyptian–Greek cultural friction. The researcher focused on the religious field and Egyptian religious beliefs that greatly influenced Greek civilization, whether in the gods, their names, or their myths even in the form of Egyptian heroes whose echoes spread to Greece, especially since the Greeks had experienced political and economic crises and found a huge void in their gods, so they turned to the Eastern gods, especially the Egyptian ones. The researcher talked about the Egyptians' prowess in construction and architecture, the effects of which still bear witness to their craft experience and scientific prowess in construction and design.

In the last chapter, entitled The Impact of Greek Colonies in Asia Minor during the First Millennium BC, the researcher spoke about the geographical location

of the Mediterranean Sea with its eastern and western basins, the geographical location of the Greek mountain range, and the impact of this location on the Greek citizen physically, mentally, economically, and socially. Then I talked about the political field by addressing the authoritarian political system of government, which sparked popular revolutions due to the social crises it caused, as it led people to poverty and famine, so the Greeks began to migrate from their country and settle on the coasts of Asia Minor and the Nile Delta, and they were influenced by the peoples of the Near East. They learned from them many civilizational achievements, including the democratic system of government based on city-states. They drew from their knowledge and science, and thus how the Greeks influenced the East through their settlements, which were initially commercial settlements and then became political settlements, from which the spark of unity between East and West was ignited, the result of which was the establishment of an empire that included all these civilizations under the leadership of Alexander the Great, or what is called the Hellenistic civilization.